# التكامل في الإسلام

2264
.11234
.389
.1967

V 1-3

2264.11234.389.1967 v.1-3
Amin
al-Takamul fi al-Islam

| DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE |
|---|---|---|---|
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |

Princeton University Library
32101 073838375

Amin, Ahmad

# التكامل في الإسلام

al-Takāmul fī al-Islām

## الجزء الاول

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل ، باذن الله ، ما يختلج
فى بعض الصدور من شكوك ، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق
وأن لا تنافى بينه وبين العلم الصحيح ، ( لا الظنون والأهواء ! )


بقلـــم :

أحمـد أمـين

خريج كلية التربية وجامعة استانبول : الرياضيات العامة والفيزياء الرياضية العالية



الطبعة الرابعة




(RECAP)
2264
.11234
.389
.1967

v. 1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي عليه السلام :

عباد الله زِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا . وتنفسوا قبل ضيق الخناق ، وانقادوا قبل عُنف السياق . واعلموا أنه مَن لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ .

# بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمـــة

اذا صفت النفس الانسانية مما علق بها من أدران وأوساخ ، ونظر الانسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الاسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه لرأى أنها برمتها ترمي الى تكميل النفس الانسانية وابلاغها الى أسمى مراتب الكمال، كمال منّ الله تعالى به على البشر ، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، «وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » ، ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير ( وأعنى به : التفكير في العلوم المادية ) للقيام بهذه التجربة الحيوية المنجية وأعنى بها تطبيق الدساتير الاسلامية دون أن يستثنوا منها شيئا كتحليل الربا والنظر الى ما حرم الله تعالى أو ... حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسى ، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا اليه من حالة قدسية حديثة ، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات الى النور . فقد جاء في الحديث : «الناس كلهم بهائم الا قليلا من المؤمنين» . وان الله تعالى يقول : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » . ولكن هيهات . لاينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له ، على الأقل ، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين الى حين . ان الله تعالى يقول : « وسواء عليهم أأنذرتهم

4-22-70 1985 (2vols.)

أم لم تنذرهم لايؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » . فلا يوفق الى هذه التجربة الا من خشى الرحمن في خلواته ولو قليلا : هُيئت له موائد الخير ولا حرج عليه ، فلم يشرب ، أو كان وصولا لأمه وأبيه ، او كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر ، أو كان عطوفا على جاره ببعض ما يتمكن منه الى غير ذلك .

ولكن من انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لايبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً .

«ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » .

فمثل هذا الشخص لايوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الانسان وسعادته الأبدية . حتى أنه ليستسخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافات . انه قد عمى قلبه فأمسى لايبصر شيئا . « وان أعمى العمى عمى القلب » كما في الحديث . ان الله تعالى يقول :

« أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، اولئك في ضلال مبين » . ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي الى الضلال ولا يقسو القلب إلا من ارتكاب الجرائم .

إن الله تعالى يقول : « أفمن يعلم أنما أُنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولوا الألباب » ولا يأتي هذا العمى إلا من جراء الفسوق . ولا يأتي الكفر إلا من جراء الفجور . لقوله تعالى : « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون » .

إن القلب ليصدأ من جراء المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح ، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع ، لقوله

تعالى : « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

وان هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس ، كما أن هناك تلازماً بين المعاصي وتسافل النفس . فلا يجزى الانسان إلا من نوع عمله . صالحا او فاسدا ان الله تعالى يقول : « انما تجزون ماكنتم تكسبون » .

وفي آية أخرى : « هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

وفي أخرى : « وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون » .

وان هذا الحجاب الحاجز عن رؤية الحق قد يكون كثيفاً الى درجة يجعل صاحبه ساخرا من الذين آمنوا متهماً اياهم بالخرافة والرجعية، والواقع أن الرجعية هي الرجوع عن الحق الى الجاهلية الجهلاء . ان الله تعالى يقول:

« ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم الا لإجرامهم السابق . ثم يقول الله تبارك وتعالى :

« واذا مرّوا بهم ( أي بالمؤمنين ) يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم عن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه .

« واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون» .

نعم ، فقد ذهبت عقولهم ، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الانسان ، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل . « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . انا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبدا » (٥٧ — سورة الكهف ) .

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة ، أغطية وأستاراً حتى أمسوا

لايرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها واصلاحها . ان الله تعالى يقول : «ولا تكونوا كالذين نسوا اللهفأنساهم أنفسهم، اولئك هم الفاسقون»

ومعنى ذلك : أن تماديهم في فسوقهم جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبي لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم ( ع ) نبيا . لتسبق الهداية الخلق اهتماماً بأمر تكامل البشر . ولكنهم لكثرة ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لايعون ولا يشعرون ، فلا يفيد فيهم النصح والهداية . ان الله تعالى يقول : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون» . أي ان التمادي في الجرائم والموبقات حجبت الانوار الإلهية عنهم حتى صاروا لايفكرون في مصيرهم موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت .

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء . وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده حتى جاء في الحديث ( التائب من الذنب كمن لاذنب له ) . فالله تعالى قد أفاض برحماته على البشرية جمعاء . ولكن أكثر الناس أبوا الا الخروج عن طاعته . انه يقول :

« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وان ما يصيب الانسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و . . . انما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه . فهي رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب . وفي الحديث : « ما من خدش يعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج الا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة . ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لايصدر منه الا الكمال . والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال الا به . وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول

الله ( ص ) : ان الله تعالى يقول : « وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها اما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه واما بخوف في دنياه ، فان بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة » .

دين الاسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع . تكامل في عالم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب . ذلك لأن الإنسان انسان" بنفسه وروحه وليست المادة من حقيقة الانسانية في شيء . لذلك جاء في الحديث ( الصلاة معراج المؤمن ) . والتقوى أساس التكامل النفسي قال رسول الله ( ص ) : « ما اتقى الله امرؤ إلا جعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لايحتسب » : والتزكية هي نوع تكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً . ان الله تعالى يقول : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . وفي آية أخرى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » .

فالعمل بما أنزل الله مؤدٍ الى التزكية والتطهير . واعطاء الزكاة مزكٍ للمال ومزكٍ للنفوس . والكفارات ورد المظالم مزكية للنفوس عن الذنوب . والحدود والقصاص كذلك . وكلها مراحل يدرج فيها الانسان في ساحات الكمال . ساحات ليس لعقولنا أن تحدّها . فالكمال الذي منّ الله به على الانسان كمال لايعلم مداه إلا الله تعالى . حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي : « عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون » . وذلك باذنه تعالى كما كان لأنبيائه ( ص ) وأوصياء أنبيائه ( ع ) باذنه تعالى . وينحط الانسان في أودية الضلال والتيه والتسافل الى حضيض لايعلم مدى تسافله الا الله تعالى : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

( ١٧٨ : آل عمران ) . ان الله تعالى يقول : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين » .

أنظروا الى هذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الاسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري . قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« من استوى يوماه فهو مغبون . ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون . ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله . ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته » .

وفي حديث آخر : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقا » .

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الاسلامي الذي أخذ يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية « ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي » كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الامارة بالسوء . ان الله تعالى يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

وعن الامام موسى بن جعفر ( ع ) عن أبيه أمير المؤمنين عليه الصلاة السلام : « ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بعث سرية ، فلمارجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقى عليهم الجهاد الاكبر . قيل يارسول الله وما الجهاد الاكبر ؟ قال : جهاد النفس ، ثم قال : أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه » . وفي حديث علي عليه السلام : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » .

إن الله تعالى يقول : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . كل ذلك يشير الى أن درجات الهداية والكمال درجات عديدة لايمكن للبشر تحديدها : « هم درجات عند الله » . ( ١٥٧ آل عمران ) وفي آية أخرى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .
( ٢ : سورة الانفال ) .

فالمؤمنون متفاوتون في درجاتهم عند ربهم حسب مراتب تكاملهم النفسي . تكامل ليس للانسان أن يحيد عنه ، فاذا حاد عنه رجع الى تسافل حيث لاتسافل بعده . وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة . وكان من الذين خسروا أنفسهم . يقول الله تعالى : «قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ( ١٠٤ : الكهف ) فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها . لأن الله لايريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق . فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تعقم بالماء المغلى هكذا الجراثيم البشرية تعقم بالنار . ونستجير بالله من ذلك .

فأنت أيها القارىء الكريم . ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في الدين الاسلامي من أحكام ، وكيفية تكميل هذه الاحكام النفوس البشرية ، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال او سمعة ،وترى كيف تنقشع أمامك بعضُ الشبه التي اولدتها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات .

وبالختام أسأل الله تعالى أن تستفيد الشبيبة بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم الى العمل بما أمر الله تعالى خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين ، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم فيروا أنفسهم في عالم من القدسية بعيد عن حدود الوصف والبيان . وأن يمنّ عليّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال تتناول عملية تكامل الدين الاسلامي للنفوس البشرية التائهة لاسيما في عصر طغت عليه المادة ، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات . فأصبح الرجل الديني مهينا ممقوتا وذنبه أنه يعبد الله تعالى ، مؤتمرا بما أمر الله ، متناهيا عما نهى الله ، والمتجاهر

بالفسق موقراً محبوبا • وليعلم الشاب أن الدين الاسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الانسانية والمجتمع الانساني ، وان العمل بنصوص الدين الاسلامي يؤدي الى تكامل في المعارف الإلهية والى تكامل اجتماعي • قال علي ( ع ) : « من عمل بما يعلم ورثة الله علم مالم يعلم » •

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي • فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أيها الناس توبوا الى الله توبة نصوحا قبل أن تموتوا وبادروا بالاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وأصلحوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا من الصدقة ترزقوا ، وأمروا بالمعروف تحصنوا ، وانهوا عن المنكر تنصروا• أيها الناس ان أكيسكم أكثركم للموت ذكراً وان أحزمكم أحسنكم استعدادا له • وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور » •

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين •

# لماذا وجدنا

سؤال يتبادر الى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت اليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته . فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونتلذذ في هذه الحياة ونفنى . لذلك يحاول ان يزداد تلذذا وسرورا . فيسعى ليأكل لذيذا ويشرب مريئا وينام هنيئا . وليست له غاية سوى الاكل والشرب والنوم . ومنهم من يقول وُجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه . وقد يكون هو أحوج الناس الى الاصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس . ومنهم من يقول وجدنا للشقاء . فالحياة كلها شقاء . فهو متشائم معذب . ونريد الآن أن نتحقق عن السبب الذي وُجدنا لأجله . فاذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة . لأن السعادة انما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة .

لننظر الى ما حوالينا من نبات وحيوان وجماد . نرى أنها كلها خلقت لأجلنا . هذه الازهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والاشجار المختلفة والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغـذي والتداوي الى ما هنالك . يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون [1] . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الارض مختلفاً ألوانه ، ان في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر

(١) اي : ترعون ما شيتكم . ذرا : اي خلق . مؤاخر : اي جارية فى الماء .

البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » [١] .

وأما الحيوانات فقد سخرت لنا للأكل والركوب والستر . يقول الله تبارك وتعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم » .

وأما الجماد فسخر لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لاتعد . يقول الله : « ألم تر أن الله سخر لكم مافي الارض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا بإذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم » .

اذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات ، فلماذا خلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخرين لموجودات أخرى . وكلها مسخرة لنا . اذن ما الغاية من وجودنا ؟

مع العلم ان الذي خلق الاكوان بهذا الترتيب الرائع البديع ، الذي نظم الافلاك بدساتير رصينة رياضية متقنة يحار فيها علماء الفلك العالي ، الذي شكل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة . أشكال مجسمة منتظمة الوجوه ، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلو متر في الساعة : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » لايعمل شيئا عبثا ولا يلهو أبداً .

« وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين » . « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . وفي موضع آخر من القرآن الكريم :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لاترجعون ، فتعالى الله

---

(١) سورة النحل : ١٠ — ١٤ .

الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل زاوية من زوايا الكون . « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ،فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » . فكيف يجوز على الله أن يخلق الانسان ويخلق لأجله جميع ما حواليه ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله .

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الانسان غاية دقيقة وهدفا عالياً يجب أن تتحراه . نرى أن ما حولينا من الاشياء في غاية الكمال : فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه . والذرة كاملة غاية الكمال : الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام . يتجاذب الجسمان بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما مقسوما على مربع المسافة بينهما مضروبا في النسبة الثابتة . ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جل جلاله في هذا الكون ، لأمكن املاء كتب عدة بل كتب لاتتناهى : « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » . وفي موضع آخر من القرآن الكريم : «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى : « وان من شيء الا يسبح بحمده » .

فكيف يجوز على الانسان أن يحيد عن سنة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل .

للانسان جنبتان : جنبة مادية وهي البدن ، نظمه الله تبارك وتعالى

وأتقن صنعه • فيه حركات غير إرادية لادخل للانسان فيها • وجنبة روحية هي حقيقة الانسانية وهي الانسان حقاً • فالانسان انسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه • نعم ، قد بلغ المذهب المادي في أوروبا في القرن التاسع عشر الى حد قال أحد رجال المادة فيها : ان الانسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراما من الحديد وكذا غراما من الاوكسجيجين وكذا غراما من الكالسيوم ••• الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيء ! • •

والفرق بين تكامل الانسان الروحي وتكامل المادة بأن كمال المادة كمال قسرى قهرى وكمال الانسان الروحي كمال اختياري •

اتضح مما ذكرنا أن الانسان خلق ليتكامل • والآن تساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي ، وهل هذا الانسان المملوء من الشهوات ، وهل هذا الانسان الذي يحمل نفسا أمارة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدي به الى الكمال المنشود ، ذلك الكمال الذي خلق الله الانسان لأجله • وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدي بالانسان الى الغاية التي خلق لأجلها ويحقق علة الوجود • فما هذا الاختلاف إذن بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب في أفكارهم ؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا انسانية متكاملة ، كما يريده الله تعالى أم هل تمكنوا من اصلاح أنفسهم ؟ !

إن الكمال النفسى أمر غير مادي ، وان الانسان كثيراً ما يوفق في اصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك لاسيما في القرن الاخير• ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لاتتغير ويصل اليها الانسان بأسلوب مادي وأعنى به الاختبار والتجربة والمشاهدة ، ولكنه لايقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الانساني الى ذروة الكمال • وقد قال گوستاولوبون : « علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لاسبيل الى ما وراء الطبيعة » • فلابد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كي يأخذوا على عواتقهم تكامل الانسان الروحي ،وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين•

فهم بمناهجهم المتينة التي تأتي من وراء المادة لاصلاح ما هو وراء المادة (أي النفس ) يوصلون الانسان الى ذروة الكمال ، فيعرفون الله ويبينون الحلال والحرام والمدارج التي لوسلكها الانسان لبلغ مرتبةالكمال المنشود ،ولتقرب شيئاً فشيئاً من معرفة رب العباد . وقد جاء في الحديث القدسي عن اللهتعالى: « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لكي أعرف » .

أترى ان من لم يتبع مناهج الانبياء الروحية تكون له نفس قمينة بأن يحلّ فيها حب الله ، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى . فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسي : « من عرف نفسه فقد عرف ربه . » الحديث » ولاتتأتى هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى . فكلما عبد الانسان ربه بخشوع وخضوع ، عبده بصلوة مقبولة وحج مقبول وزكوة مقبولة وصدقاتمقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر خالصا لوجهه الكريم ، عبده بأعمال صالحة كان أقرب الى معرفة الله تبارك وتعالى ، قريبا من الغاية التي وجد لأجلها . وما قدمناه شرح للآية الشريفة : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون » . فالعبادة ليست الصلوة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة في الصلاة والصوم والزكوة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعمال الصالحة كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالاخلاق الاسلامية والتفقه في الدين والاعتبار بما أودع الله في الطبيعة من قوانين وخواص . نعم تتجلى العبادة في تطبيق السنن والفرائض التي بها يكون الانسان انسانا كاملاً . فتزداد بدرجة تطبيقه واخلاصه معرفته بالله تعالى . فان الله لم يخلقنا إلا لأجله أي لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوما بعد يوم . فقد جاء في حديث قدسي : «خلقت الاشياء لأجلك وخلقتك لأجلي » .

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل في تحقيقها ولم تخدعه زبارجُ الدنيا ومغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقيا . فقد « حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

# ماذا يراد من الدين ؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشبيبة المثقفة : أن الدين لم يعلمناشيئا عن الكيمياء والفيزياء ، ولم يقدم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك • وان المكتشفين والمخترعين كنيوتن ، وهرتز ، وأديسون ، ودالامبر قدموا الى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة ، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم • فأي اكتشاف قدمه أحد الانبياء ؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء ؟ فيصغر في أنظارهم الانبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغر الدين معه ، فيرونه فارغا خاليا من مادة مفيدة ، فيعدونه خرافة وزخرفا من الزخارف ، أو بلاءاً مانعا عن التقدم • فتراهم يأبون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا « بسم الله الرحمن الرحيم » • ويعدونها تقهقراً الى الوراء أو منقصة في لغة الثقافة الحديثة او وصمة خرافية يوصم بها قائلها ، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير ، فاذا ذكر اسم أحد الانبياء سخروا منه وتبسموا تبسما فيه شيء من الازدراء والتوهين • كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية ودساتير فيزياوية • أو معادلات تفاضلية أو دستور الكسوف في الفلك العالى أو معادلات الحركة في الميكانيك الرياضى ! • •

وقد فاتهم أن الانسان مكون من نفس وبدن فكما أن للبدن أمراضا وحاجات ، فكذلك للنفس أمراض وحاجات • وأن حاجات البدن ترجع الى قوانين ثابتة مستقرة يصل اليها الانسان بالاختبار والتجربة والمشاهدةعاجلا أو آجلا • فان الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى في الأجسام ثابتة لاتتغير ، بل يظفر بها الانسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة•

( الاجسام تسقط . حجمان من غاز الايدروجين وحجم من غاز الاوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماءا . الحرارة تمدد الاجسام . الى ما هنالك ) . فالمخترع لا يأتي بشيء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله في هذا الكون بتجارب ومحاكمات ، وعقل منحه الله اياه ، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما قوى على ذلك . وبالعقل يمتاز الانسان عن الحيوان . وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة .

وهل يستطيع مخترع أن يأتي بخاصية غير ما أودعه الله في الاجسام ؟ كلا . فالاختراعات أمور مادية ثابتة لاتغير فيها ، يصل اليها الانسان باختباراته، ولا حاجة الى نبي يملى على الناس الدساتير الفيزياوية والكيمياوية . والدليل على ذلك وصول الانسان بنفسه الى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الانسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحيا وأخلاقيا أم تقهقر ؟ وهل استفادت الانسانية وقطعت بذلك أشواطا في الكمال النفسي والسمو الخلقي أم لا ؟ ثم أترى أن لخواص الاشياء ودساتير الفيزياء حدا ونهاية ؟ فان علم الله لانهاية له ، والخواص والدساتير التي أودعها الله في هذا الكون لانهاية لها ، وهذا معنى قوله تعالى :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

الانبياء سلام الله عليهم بعثوا لاصلاح النفس وتهذيب الروح . لأن الانسان انسان بنفسه وروحه ، وان أمراض الروح أعقد من أمراض البدن، وان معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن . ان وصفات الاطباء تعالج الابدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحا . الا أن الوصفات الروحية تؤثر في كل نفس حسب قابلية تلك النفس . فهي مشتبكة مرتبكة .

إئتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا . فانهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلا أو آجلا . ولكن لو أعطى لنفس هؤلاء الثلاثة دساتير روحية وطبقوها لايصلون الى نفس النتيجة . وكل يصل الى غير ما وصل اليه الآخر لو عورة أمر النفس وصعوبته . وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول . وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة ليس للانسان بما هو انسان أن يكتشفها وان ما يكتشفه في هذا الحقل خيالات وأوهام . يظنها حقائق ويتلذ بها . ذلك لأن الاساليب المادية لاتقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة . وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العالية في الرياضيات كـ ( ع = جا س ) التي لاتقبل فيها ( س ) و ( ع ) التضعيف والتنصيف في وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة او المحدثة التي نشاهدها في الهندسة التحليلية او الجبر العالي ، وان بعد التشبيه . نعم إنا كثيرا ما نشاهد في كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملي Integration عند البحث عن الاحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وانما مجرد اقتراح واحتمال . فلا سبيل الى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية .

الانبياء ( ع ) بُعثوا ليعالجوا مالا يصل الانسان بنفسه الى طريق معالجته . بعثوا ليعالجوا أمراض النفس ، هذه النفس الامارة بالسوء التي يرقبها الشيطان في كل آن وهو لها بالمرصاد .

بُعثوا ليقرروا دساتير روحية بها يتكامل الانسان ويخرج من دور الطفولة والبهيمية والوحشية فيكون انسانا كاملا بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة اذ ذاك خداما له .

بُعثوا ليحرروا النفس الانسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم . بعثوا ليقرروا الآداب التي لو عمل بها الانسان كان جديرا بأن يخلد مع الانبياء والصديقين في « جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين» . بعثوا ليعلمونا الطرق المقربة الى الله ، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر .

بعثوا ليعلمونا الحلال والحرام ، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال . بعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع . بعثوا ليعلمونا الاعمال الصالحة التي بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات الى النور : « ان الحسنات يذهبن السيئات » . بعثوا ليبينوا للانسان ماله وما عليه ، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر فان الله تبارك وتعالى يقول : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

بعثوا ليجعلوا الانسان بين الخوف والرجاء فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ، ويبعد الانسان عن الموبقات والمناهي . فقد جاء في الحديث تنويها بالعبد الصالح : « لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما . واذا عظم الخوف كان أدعى الى السلام » . وفي حديث آخر : —

« ان الله أنزل في بعض كتبه وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين . اذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة واذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة» ، وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام: ( انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ) . وهي ذكر الآخرة والتهيؤ لها .

بعث الانبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقربا بالطاعة . فان الكمال الانساني يتناسب تناسبا طرديا مع التقرب الى الله جل شأنه ، ثم يزداد اطمئنانا كلما زادت هذه الرابطة فانه تعالى يقول : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

بُعث الانبياء لإبلاغ الانسان الى « مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

فالانبياء يخاطبون النفس ، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء في تعاليمهم صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكل والمشرب انما هو من باب اللطف ،

أو لأن لذلك أثرا حسنا في تكامل النفس . اذ أنه ما من شيء يدخل في جوف الانسان ومامن حركة يقوم بها الانسان الا ولها أثر في تكامل النفس. ولعلنا نوفق الى تفصيل ذلك في كتاب آخر ان شاء الله .

وقد بلغني أن شابا كان يفاضل بين سياسي فتح الامصار وبين نبي هدى الناس سواء السبيل . حين أن ذلك السياسي لم يعمل الا في تعمير المعدة والامعاء ، والنبي ( ص ) يعمل في تعمير النفوس والارواح . وما قيمة عمران تفسد فيه الروح . ولو كان في استطاعة الانسان أن يصل بعقله الى الدساتير المثلى التي بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الانبياء ولوكل الانسان الى عقله . ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب الى أهواء بصورة عقل ويؤدي بالشخص الى أسفل درك من الجحيم . يقول الله تبارك وتعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الاخلاق : اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا اصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين .

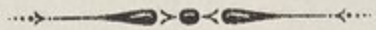
الانبياء بعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التي بها كمال الروح والسعادة الابدية ولكي يكونوا قدوة صالحة .

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الاخلاق ، وبتعبير أقرب : كتاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية تؤهله ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى . فقد رأيت أستاذ فلسفة الاخلاق في احدى الجامعات أبعد شخص عن الاخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا ، ما ترك منكرا الا وارتكبه ، فاذا سألته عن سبب ذلك أجاب بجواب خيالي سوفسطائي شعري لاقيمة له .

وان بعض الانبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير . فهذا داود عليه السلام ، علم الناس — بعد أن علمه الله تعالى — عمل الدروع وهو قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . وان النبي صلى الله عليه وآله قد سئل عن مسائل عدة في فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين فاجاب عنها بوحي من الله دونما تفكير . وتفصيل ذلك يحتاج الى مقال خاص . وان عليا (ع) سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل في الفيزياء والفلك والحيوان والنبات عجز عنها الناس فحلها بصورة مرتجلة . وان الصادق ( ع ) أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفي خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية . وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ يروون عن علي ( ع ) موازين الصناعة . فالنبي على مانعتقد هو أعلم أهل زمانه حتى في علوم لاتمت الى الدين بصلة تمييزا له عن سائر الناس وتفضيلا له على الآخرين .

فمن أراد الحياة الابدية ، حياة رفيعة متصلة بالكمال الابدي ، حياة ليس فيها خوف ولا حزن ، حياة فوق حدود التصور والخيال ، فليعمد الى تطبيق تعاليم الدين الحنيف ليرى كيف يتجلى يوما بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائرا الى أوج الملكوت . « ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .



# دين العقـل

يمتاز الدين الاسلامي عن سائر الاديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية غير الملوث بالمعاصي والآثام . وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز . فقد قال تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب » . ولا يمكن تشخيص أحسن القول الا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها . فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال : « ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال : أقبل فأقبل . ثم قال : أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب الي منك ولا أكملتك الا فيمن أحب ، أما اني اياك آمر واياك أنهى واياك أعاقب واياك أثيب » . نستنتج من هذا الحديث بقول الله : ( أقبل ، فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر ): أن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى . اذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وان الاطاعة صفة غريزية في العقل . وهذا هو معنى الفطرة . وبهذا أتم الله الحجة على عباده ، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء : « ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما » . ( سورة النساء : ٥٢ ) . يقول الله اتماما لحججه على الخلق أجمعين : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة اناكنا عن هذا غافلين . أوتقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » . فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس في عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الاقرار

والاعتراف بربوبيته تعالى . فليس لأحد أن يقول : لو شاء الله لكنت مؤمنا ، لأن الله الآمر بالايمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية في عقل الانسان ونفسه لايريد بالانسان الا الايمان به والاطاعة له . ثم جاء في ذيل الحديث : ( ولا أكملتك الا فيمن أحب ) . أي ان الله لايكمل الا عقل من يحبه . وكيف تحصل هذه المحبة ؟ أليس بالطاعة ؟ أي باجتناب كل ما نهى عنه العقل والشرع ، وبالقيام بكل ما أمر به العقل والشرع . اذن أقرب الناس الى الله أكملهم عقلا . وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلا . فالعقل : « ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان » كما جاء في الحديث .

ان الدين الاسلامي دين تفكر وتدبر ، دين تمحيص وتعمق ، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة . وهو القائل : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . ان الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر في آياته بهم بقوله : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » . وبقوله « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون » . وبقوله : « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . فالقرآن يدعو الناس الى التعقل ويخاطب العقل في كثير من آياته . ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئا دونما تعقل ودونما برهان . فدين الاسلام دين البرهان ودين الدليل . يقول الله تعالى في لزوم اتباع البرهان والدليل : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . نعم ، هناك آيات كثيرة في القرآن تأمر بالتعقل ، وتحذر العباد من عدم التعقل

والتفكر بقوله : « ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون » • ثم أنه يمدح المتفكرين بقوله : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » • فطريقة القرآن في الدعوة الى الحق هي طريقة العلوم الطبيعية الحاضرة • تستند الى التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج • نعم ، ان موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ما عرفه الانسان وما سيعرفه • لأن العلم الطبيعي يبحث عن الاشياء الكونية طبائعها وخواصها والعلاقات التي بينها ولكنها لاتصل الى حقيقتها • فالعلم الطبيعي موضوعه آيات الله المودعة في الاشياء كلها • ان القرآن جاء بأصول المشاهدة والطريق البرهاني في وقت كان الغرب فيه جاهلا هذه الاصول • لأنهم كانوا يعتقدون أن الانسان يصل الى ما يشاء بطريق عقلي بحت دون أن يحتاج الى التجربة والمشاهدة • كانوا كثيرا مايكتفون للوصول الى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر • فكانوا يصلون الى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل • ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هي اوهن من بيت العنكبوت • كان يقول فيثاغورث عن الكون : انه متفرد كامل كروي ، لأن الكرة أكمل الاشياء • وانه حي عاقل ، لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي وعاقل • فان القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي • وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل في ساحات العلم حتى قالوا : ان للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها ، وان لهذه الاجرام أثرا كبيرا فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود • وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة الى الشرق وأدت الى تبلبل العقائد وادخال كثير من الخرافات في الدين الاسلامي • وان فلاسفة الاسلام أخذوا يفسرون الدين

الاسلامي على ضوء هذه الخرافات ويؤولون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو . ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وانما كان الدليل رأى الفيلسوف . فكل ما وافق رأى الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق ، وما خالف فليس بعلم . الا اذا أمكن ارجاع ذلك بتأويل ما الى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلا ، دون أن ينظروا في حجة أرسطو وأنه منطقي تؤيده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا . فابتلى الدين الاسلامي بشتى الخرافات وشتى المذاهب أتته من الفلسفة اليونانية . وقد عالج ذلك بعض علماء الاسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها . مع أن الدين الاسلامي ينهى عن كل خرافة وكل مالا يؤيده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهى عن اتباع الظنون والتخيلات الواهية ، بقوله : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » . وقد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم في كتابه المجيد بقوله : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين » .

أنظروا كيف يؤيد القرآن طريقة التجربة والمشاهدة واستعمال الحواس الخمس . يقول الله تعالى في لزوم استعمال البصر والعقل :قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن » . « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت » . ويقول تعالى في لزوم استعمال السمع مع العقل : « أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » . ويقول جل جلاله في لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » . ولا تقفُ ماليس

لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . ويقول تعالى في لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » . وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول الى أحسن سبل الهداية بقوله تعالى : «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب » . ( سورة الزمر ) .

فالدين الاسلامي يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس . ولا أعلم دينا أو مبدءا أو مسلكا أو طريقة عدا الدين الاسلامي جعل البرهان شعارا وطرق التجربة والمشاهدة معيارا وترك الظن والخيال دثارا . ذلك لأنهم ان فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين .

( ٢ )

قد بينا في المقال السابق أن الله تعالى قد أودع في الانسان عقلا لو لم يلوث بالذنوب والمعاصي ولم يترد ولم يتسافل يهتدي به الانسان الى أحسن السبل وأنجعها ، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته ، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه . هذا مونتني الفيلسوف المربي قد وصل بعقله أي بطريق المشاهدة والتفكير الى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شيء . انه كان يقول : ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى ، لأنه عاجز عن أن يتصرف في نفسه ، فلابد أن يكون خالق الذكر هو الذي قد خلق الانثى لإدامة النسل البشري . وان الله تعالى يقول في قرآنه الكريم : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فقد بلغ مونتني بتفكيره الطبيعي الى مفاد

الآية الشريفة المذكورة . ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر في خلق السموات والارض في الانسان بصورة طبيعية : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » . فالانسان يصل الى الاعتراف بالله وبوحدانيته تعالى لامحالة ان لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس في الشهوات ، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة . فيكون أعمى لا يبصر الحق في الدنيا ويحشر أعمى في الآخرة . اذ يقول عند الحشر : « ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وقد قلنا في مقال سبق ان الفلسفة اليونانية المملوءة بشتى الخرافات قد أثرت في الدين الاسلامي وأدخلت فيه جملة من الخرافات : كالاعتراف بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها في سعادة الانسان وشقائه . وقد نفى الاسلام ذلك وشدد النكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيرا هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك . وان أمير المؤمنين عليا عليه السلام : أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير الى الخوارج ، فقال له أحدهم يا أمير المؤمنين ان سرت في هذا الوقت خشيت أن لاتظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فأجابه ( ع ) : « أتزعم أنك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر . فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه . وتبتغي في قولك للعامل بأمرك ان يوليك الحمد دون ربه . لأنك بزعمك ، أنت هديته الى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر . ثم أقبل ( ع ) على الناس فقال : « أيها الناس اياكم وتعلم النجوم الا ما يهتدى به في بر أو بحر ، فانها تدعو الى الكهانة والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار ، سيروا على اسم الله » . فبدد علي ( ع )

شمل الخوارج وكان النصر حليفه ، خلافا لما أدعاه من كان يعترف بتأثير النجوم في الفتح والنصر .

إن الدين الاسلامي يشجع كل علم يؤدي الى انفتاح البصائر وينيرالطريق ويهدي الناس الى الفلاح والصلاح ويحبذ تعلم علم الفلكأو الهيئة ، ويدرّس علم الهيئة مع العلوم الدينية في كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها . وقد ألفت كتب جمة من قبل علماء المسلمين في علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة ودساتير رياضية محكمة في سير الافلاك والانجم . ولكن الدين الاسلامي يستنكر كل خرافة تؤدي الى الوسوسة ورخاوة الاعصاب والفتور والقنوط كالاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم في نحس أوسعود . فعن النبي ( ص ) : من صدق منجما أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد (ص) . وعن الصادق (ع): « ان المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون » وفي رواية عبدالملك ابن أعين المروية عن الفقيه : « قلت لأبي عبد الله (ع) : اني قد ابتليت ، فأريد الحاجة . فاذا نظرت الى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها ، فاذا رأيت الطالع الخير ، ذهبت في الحاجة . فقال لي تقضي ، قلت نعم . قال : أحرق كتبك » .

إن الدين الاسلامي ينهى عن كل ما يجعل الانسان خياليا خاملا ذليلا في حياته ويأمر بكل ما يجعل الفرد كاملا نشيطا ، فعالا ، مقداما في حياته . إنه ينهى عن السحر والعمل به ويعدها من المعاصي الكبيرة . يقول الله تعالى في سورة البقرة : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وما روت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله

في الآخرة من خلاق • ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » •

ان الله تعالى يقول : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » • فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة ، والعمل به واضرار الناس بسببه معصية كبيرة • وكذا يستفاد من قوله تعالى : فلا تكفر ، أن العمل بالسحر على حد الكفر • ثم يقول الله تعالى في الآية الثانية : ان الايمان والتقوى بابان لنيل مثوبة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة • فلا ينبغي أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال، بل ينالها من طريق الايمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد في الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل • ان الدين الاسلامي ينهى عن اتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون • لذلك يعبر عن السحر بالخيال بقوله جل من قائل : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » •

ان الدين الاسلامي حرّم احضار الارواح واحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية ، على أن هذه الامور الخيالية التي لايدعمها دليل قطعي علمي ، قد أثرت الى حدٍ ما في توجيه أوربا نحو الاعتقاد الى ما بعد الموت وخلود الروح توجيها ناقصا لايرتضيه العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية •

أنظروا كيف يعظم الدين الاسلامي التفكر والتعقل والتدبر • يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضى الله عنه : « ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ » • وقد جاء في الحديث : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » • وكان علي عليه السلام يقول : « ما عبد الله بشيء أفضل من العقل ، وما تم عقل امرىء حتى تكون فيه خصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد والخير منه مأمولان ، فضل ماله مبذول

وفضل قوله مكفوف • نصيبه من الدنيا القوت ، لايشبع من العلم دهره ، والذل أحب اليه مع الله من العز مع غيره • والتواضع أحب اليه من الشرف ، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه • ويرى الناس كلهم خيرا منه وانه شرهم في نفسه ، وهو تمام الامر » •

## التعقل والايمان

إن العقل الانساني قد جهز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية الى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وانه خالق كل شيء وان من عمل صالحا من ذكر أو أنثى يُجز جزاء حسنا وان من أساء من ذكر أو أنثى يجز حسب عمله ، ان لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار . ولسائل أن يسأل : فماذا الجحود الذي نشاهده في كثير من الناس ، وما هذا الانكار لعظمة الله تعالى ؟ ولماذا يعبد بعض الناس مع ما لهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته واعاشته من حيوان ؟ ألم يمن الله عليهم بعقل أم جردوا من القابليات الفطرية ؟ اذن ما معنى : « فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » . لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة ملاحدة جاحدين ؟ لماذا بعض علماء الطبيعة او الفلك غير موحدين ؟ لماذا نرى نفرا من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذي خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين ، ونرى شبانا آخرين في مستواهم يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع ، يصلون ويصومون ، لاتأخذهم في الله لومة لائم ؟ نرى علماء درسوا دراسات عالية عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين ، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الامور الكمالية ، لايفكرون في مصيرهم وما سيؤول اليه أمرهم بعد الموت ، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد ؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف ؟ ولقد يحار بعضهم بادىء ذي بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلة من الناس دون بعض ، فيسند عدم العدالة الى الله الذي تنزه عن كل نقص . « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » . ولو رجع الى نفسه ، تلك النفس التي تلوثت بأنواع المعاصي وضروب الآثام ، تلك النفس التي لم تطع الله طرفة

عين أبدا وقد ملئت ظلما وجورا ، تلك النفس التي خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والاهل والارحام والاصحاب وكل ما يحوط به ، لعلم أن نفسه هي التي أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه . نعم قد هيأ الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والانابة فأبى الا أن يشرد ويحجم ويثابر في غيه وطيشه حتى اسودت من أوساخ الآثام والاجرام نفسه فأصبحت عمياء لاترى ولا تبصر الواقع . « ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » . « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » . « صم" بكم" عمي" فهم لايرجعون » . « ان الذين كفروا سواء" عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . فان الاخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الالهية والنفحات القدسية . اذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس ، فمالم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحق اتضاحا . وكيف والقلوب كالاواني ، فاذا كانت مملوءة بالماء لايدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله لاتلج فيها معرفة الله وحبه وأنسه والى ذلك أشار النبي ( ص ) : « لولا أن الشياطين يحومون الى قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض » . نعم ان هذه النفوس تضيء وتتلألأ بدرجة تطهرها من الخبائث والارجاس ، فتظهر لها الحقائق بصورة جلية واضحة . فان رسول الله ( ص ) يقول : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » ، فان التعرض للنفحات القدسية الربانية لايتيسر الا اذا تجردت هذه النفوس عن الاكدار الناجمة عن الاخلاق الذميمة فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يؤدي الى جلاء نور القلب فيصبح مستعدا ليفيض باذن الله علما ويقينا وهو القائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » . وعن النبي ( ص ) : « من عمل بما علم ورثه علم مالم يعلم » . والضمير يعود الى الله . وان الله تعالى لايبخل

بإفاضاته وأنواره القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء . وانما العبد هو الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الاخلاق وارتكابه مايؤدي بنفسه المسكينة الى أسفل السافلين . انه يطيعها في مشتهياتها ويأتمر بأوامرها ، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التي يرافقها من السرور المعنوي مالا يقوى على وصفه الا من تشرف به ، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها . « فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء » . واليه يشير مولانا أمير المؤمنين علي ( ع ) : « ان من أحب عباد الله اليه عبدا أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه » . ويقول صلوات الله عليه في مكان آخر : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم الا هماً واحدا ، انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

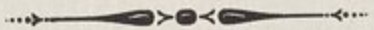
أنظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام في هذا المقام لهشام . انه صلوات الله عليه يقول : « يا هشام ، من سلط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم نور تفكره بطول أمله ، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله . ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه . ياهشام ، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك » .

فللعقل الانساني افاضات وتوجيهات ، لو خلى ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات باطاعة النفس الامارة بالسوء افاضات توصل الانسان الى أعلى عليين ، فيكون أعلى منزلة من الملائكة . فماذا ينتظر هذا الغربي

المطيع لشهوات نفسه مذ نهوضه من فراشه الى حين عودته اليه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، فان الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والانوار القدسية الالهية ، انه يعصى الله بنظراته وحركاته وسكناته في كل طرفة عين . حتى أصبح لايشعر انه يعصى الله . فقد أمسى الانهماك في الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه ، لا يتصور طبيعة غيرها . لذلك لايعد نفسه مجرما أو عاصيا ، فيقول اذا اعترف بالله حينا ، لو شاء الله لاهتديت . والله سبحانه كيف لايريد هداية عبده ؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التي توجه الانسان الى الاعتراف بالله وجليل قدرته ، وبارساله الرسل مبشرين ومنذرين . وبقوله : « وهديناه النجدين » وبقوله : « فألهمها فجورها وتقواها » . ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الاخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك المدنسات حجابا كثيفا يمنع نفوذ نور الهداية الى نفسه .

يقول الله تبارك وتعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » . ومعنى ذلك : أن الاساءات والاعمال التي تفسد النفس ونفوسا أخرى وكل ما يؤدي الى الفساد في الارض لها آثار طبيعية ، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والاستهزاء بجميعها . « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . فقد رأينا أناسا كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله ، يصلون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا الى الدنيا وزبرجها ، شهواتها ونزواتها ، فدنسوا ولوثوا أرواحهم فانسلخ منهم نور الايمان شيئا فشيئا ، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام . فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم ، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين . « واذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا

رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » . ويختلقون لهم ألفاظا كالرجعية والدروشة والتصوف ، وأمثال ذلك ، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف في الاسلام ، وانما رجوع الى الحق الصريح الذي يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس ، المنزه عن كل خرافة ووسوسة .



# منزلة العقل والعلم
## فى الدين الاسلامي

بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الدين مجموعة تقاليد لايدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبر والسؤال والاعتراض ، في وقت كان شعار قادة الاديان في مشارق الارض ومغاربها : ( أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى ) .

جاء الاسلام وهو ينادي بصوت رفيع : « الدين هو العقل ولا دين لمن لاعقل له » . وقد نهى عن التقليد الاعمى وعن قبول شيء دونما برهان ودليل . فقال : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون » . وقال أيضا : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون » .

فأول شيء وجه الاسلام عنايته اليه هو تحطيم القواعد التي يقوم عليها الدين من قبل . وهي التقليد الاعمى واهمال النظر الشخصى واغفال التفكير الحر ومنابذة العلم الا ماكان فيه موافقا للدين في نظرهم ومؤيدا لسلطان المتحكمين في ارادات الناس وعقولهم . ينادي الاسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار الا للعقل وأن لاسيادة الا للعلم ، ودعا الى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، « أفلا تعقلون ، أفلا تذكرون ، لعلهم يتفكرون » ، وقوله : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر أولو الالباب » ، وبقوله :« ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع الا دعاءً ونداءا ، صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون » ، وقوله : « ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت

تسمع الصمّ ولو كانوا لايعقلون » . وعظم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » . وقد وعدهم درجات رفيعة بقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقد دعا الناس الى التدبر في أسرار هذا الكون بقوله : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » . وبقوله : « وكأين ، من آية في السموات والارض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » . وبقوله : « ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

وقد قرر الاصوليون من علماء الاسلام أن الايمان التقليدي مردود . وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلي والدليل المنطقي . ولا تقليد الا في الفروع كأحكام الصلاة والصوم والحج والمتاجر والحدود والديات والقصاص الى ما هنالك . ان علماء الاسلام يعترفون بمستقلات عقلية . أي أن هناك حسنا عقليا وقبحا عقليا يستقلّ العقل بادراكهما ويقولون: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل اذا كمل العقل وتجرد عما يلوثه ويدنسه . فان هناك أحكاما شرعية قد لايصل العقل الى معرفة أسرارها وآثارها في تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قمينة للخلود في « جنة عرضها السموات والارض أعدّت للمتقين » . ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الاحكام الشرعية مع تكامل الانسان العلمي والخلقي ، فليس من الصواب أن يعترض على بعض الاحكام الاسلامية مَن عليه أن يعترف أنه لم يؤت من العلم الا قليلا وأن مجهولاته أضعاف معلوماته ، وقد اشتبه في كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفند رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعدل من حين الى حين مع أن الظروف نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير . ولا يعلم أن هذا التعديل كان اصلاحا أو افسادا . فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الاسلامي ولم يقف على

علة أمر من أوامر الشريعة الاسلامية ، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علما وايمانا ويقينا ، كي يزداد بصيرة واطلاعا واطمئنانا . فقد قال عليٌ عليه السلام : اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

نعم ! قد فتح الاسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور ، لذلك يقول المؤرخ الكبير ( سديو ) : « لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة ، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم » وقد روى اسحاق بن عمار عن أبي عبدالله الصادق ( ع ) : « من كان عاقلا كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة » . وعنه ( ع ) : « ليس بين الايمان والكفر الا قلة العقل » . قيل : وكيف ذاك يا ابن رسول الله ؟ قال : « ان العبد يرفع رغبته الى مخلوق ، فلو أخلص نيته لله لآتاه الله الذي يريد في أسرع من ذلك » . وان هذا لدستور تربوي عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الاتكال على الله تعالى ويحذر عن الطريقة الاتكالية : أي الاتكال على الغير سوى الله تعالى . تلك الطريقة التي بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى .

وقد أعطى الدين الاسلامي للعقل منزلة فوق ما أسلفنا ، فقد جعله ميزانا للثواب والعقاب . فعن أبي جعفر عليه السلام : « انما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا » . وقد ذكر عند أبي عبد الله ( ع ) عبادة رجل ودينه وفضله . فقال عليه السلام : كيف عقله ؟ فقيل له : لاندري ، فقال : « ان الثواب على قدر العقل . ان رجلا من بني اسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة ، كثيرة الشجر ، ظاهرة الماء وان ملكا من الملائكة مرَّ به ، فقال : يارب أرني ثواب عبدك هذا ، فأراه الله ذلك ، فاستقله الملك ، فأوحى الله اليه أن اصحبه ، فأتاه الملك في صورة إنسي ، فقال له مَن أنت ؟ فقال : أنا رجل عابد ، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان ، فأتيتك لأعبد الله معك ، فكان معه يومه ذلك ، فلما أصبح قال له الملك : ان مكانك لنزه وما يصلح

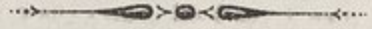
الا للعبادة ، فقال له العابد : ان لمكاننا هذا عيبا ، فقال : وماهو ؟ قال : ليس لربنا بهيمة ، فلو كان له حمار ، رعيناه في هذا الموضع ، فان هذا الحشيش يضيع ، فقال له ( ذلك ) الملك : ومالربك حمار؟ فقال: لوكان له حمار ما يضيع مثل هذا الحشيش ، فأوحى الله الى الملك ، انما أثيبه على قدر عقله .

ثم ان الدين الاسلامي قد حذر عن اتباع الوساوس الشيطانية التي تظهر بمظهر العقل والتفكير وهي وبال . فعن عبدالله بن سنان قال : «ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلا مبتلى بالوضوء والصلاة [1] وقلت هو رجل عاقل ، فقال ( ع ) : أي عقل له وهو يطيع الشيطان ، فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو ، فانه يقول لك من الشيطان » . وقد جاء في الحديث : « أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا » . فترون أن قيمة المرء تتناسب في الدين الاسلامي مع درجة عقله ، والعقل حجة الله بينه وبين عباده ، فان رسول الله ( ص ) يقول : « اذا رأيتم الرجل كثير الصلاة وكثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله » .

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل اليه العقول البشرية ، وفيه من الدساتير الحكيمة ما هو فوق العقل البشري، يصل العقل الى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه . دين لايريد بمعتنقيه أن يخفوا مالديهم من سنن وآداب خشية أن تتحداه بقية الاديان . دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبّوا على اعتناقه والعمل بنواميسه ان كانوا للعقل والعلم خاضعين ، فقد قال رسول الله ( ص ) : « ما قسم الله للعباد شيئا أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبيا ولا رسولا حتى يستكمل فيه العقل ويكون عقله أفضل من ( جميع عقول ) أمته . وما يضمر النبي ( ص )

(١) اي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد اصيب بمرض الوسوسة فيهما .

في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما ادى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أولو الالباب الذين قال الله تعالى فيهم : « وما يتذكر الا أولو الالباب » .



## تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية في أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت ردّ فعل أدى الى مقت الدين ونبذه ثم الى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع ، ناتجة عن أهواء وشهوات لايؤيدها أي منطق ودليل . فقلد الشرقُ الغرب في ذلك ، وظن البعض أن دين الاسلام لا يماشى العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والپرتستانية اللتين حكمتا على اعدام كل من ( سر فيتوس ) في ١٥٣٣ م و ( جورداتلو برونو ) في ١٦٠٠ م ، نعم ، ان هذا العداء أوجد هذه الفكرة التي أدت بالفيلسوف ( كونت ) أن يقول : « ويجب أن يتحول الاخلاص الديني من خدمة اله غير معروف الى خدمة الانسانية ! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الانسانية وقوتها بدلا من أن يكون مثارا للانقسامات والمنازعات » . ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن اليه نفسه ( وأعني به الدين الاسلامي ) ، دين يقول لمعتنقيه : ( المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ) ، ( أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا ) . ومتى كانت اوروبا تدين بدين ؟ ان أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملاذ من أي وجه حصلت . وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمور والميسر والربا والظلم مالم يكن في بلاد أخرى . ولا مراءَ أن هذه الموبقات تؤثر في النفس تأثيرا بالغا وتؤدي بها الى تسافل مرير ، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفىء ضوء العقل الفطري ويحل مكانه : جحود وانكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الالوان . ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير . ان الله تعالى يقول : « ويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به الا

كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . وفي آية أخرى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين » ( سورة الصف : ٥ ) .

فكل دين ، مهما كان مبالغا في تزكية النفس وآمرا بالتقوى والورع الى أقصى حد ممكن ، اذا حلّ في أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته الى مجالس الانس والملذات والشهوات ، تختلف عن مجالس أخرى بأن فيها مسحة دينية ضئيلة ، تنطفىء تحت نير الشهوات وحبائك الشيطان . وهذا أحد أسباب عدم ظهور الاديان الحقة في أوروبا . لأن أوروبا ( أو الغرب ) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبة مغيرة . والاديان كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالا تطابق المحيط والبيئة : ( Adaptation ) اذا كان قد قدر لها ذلك ، أو تموت . ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين ( وقد توفى رحمه الله ) ما مفاده : لماذا ظهرت الاديان في الشرق ولم تظهر في الغرب ؟ غير مميز بين الاديان الحقة والاديان المختلفة البشرية ، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الالهية الحقة والبيئة التي تؤثر في تلك التعاليم . فتمسى مضطهدة متأثرة ، آخذة طورا يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة . وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التي يعتنق أهلها دينا واحدا .

إن طابع أوروبا طابع مادي منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الانسان أن يؤمن بما وراء المادة . وأن يعمل حسب التعاليم التي أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه ( ص ) ، دون أن يغير فيها شيئا . ولكن المدنية الغربية لاتخضع الا لما تحتمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادي يؤدي الى الراحة والرفاهية . فأوروبا مادية بكل ما في المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة . ان مدنية أوروبا اليوم هي نفس المدنية الرومانية القديمة التي لاتعترف لغير

المادة الصماء ، فهي نفعية بحتة . ولم توفق المسيحية في أوروبا في تخفيف هذا الجشع المادي الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها . فكانت اسما بلا مسمى وتقاليد بلا روح . يريد الغربي أن يرى شيئا عن ( ما وراء الطبيعة ) وعن الروح وعن مصير الانسان بعد الموت في الطبيعة المادية نفسها أي في مختبراتها . وحيث لايمكن ذلك ، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين، أمسى لايقر لغير المادة ، ولا يعمل الا في تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس. ان الغربي يريد أن يرى الله تعالى في تحليلاته الكيمياوية وفي أجهزة الاختبارات الفيزياوية ! في حين أن الله تعالى مظهر في ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه . ولا ترتيب الا بمرتب ولا تنظيم الا بمنظم لاسيما اذا كان هذا الترتيب يحير العقول ويدهش الالباب .

يقول الله تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءا فيحيى به الارض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فدين الاسلام بهذه الآيات البينات يدعو الى التفكر والعلم واستماع القول الحق والتعقل . لا الى خرافات وضعها الاتجاه المادي المتغلغل في أوروبا ولا الى شهوات من تربوا تربية مادية حتى أدى بهم الى روح مادية مدلهمة لاتستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها. و « ان أعمى العمى عمى القلب » . كما جاء في الحديث . نعم أخطأ الغربى في التطبيق لظلمة في النفس . وقاس الامور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير

تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالساتيمترات ! ان الغربى أراد أن يجد دساتير الكمال الانساني وقوانين الشريعة التي تبلغ بالانسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر . وقلده الشرقي ، فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته التي تفوح كمالا وجمالا ، روحيات بها يسمو الانسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة . أجل ! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعياتها وصنائعها ، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه في حل غوامضها ، ذلك لأن النفس الانسانية تميل الى التسافل والتدنس ، وان في اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعبا تفر منه النفس الشهوانية الميالة الى الراحة . كان يفتش الشرقي عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها في المدنية الغربية المادية . وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس ، وهل تكمل النفس الا بارادة قوية تقيدها عن المدنسات وهي كل ما حرم الله تعالى على لسان نبيه الكريم (ص) . ان الله تعالى يقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » ( سورة القلم : ٣٥ ) . فجعل الاسلام مضادا للاجرام ، ومعنى ذلك أن الاسلام الحقيقي موقوف على عدم الاجرام وعدم التصدى الى الموبقات والمدنسات . لأن الاسلام مطهر الفرد عن كل ما يلوث النفس الانسانية ، موصل اياه الى أعلى مراتب الكمال . وليس الاسلام تسمية وأسماء فحسب ، حتى يعد الشخص مسلما بمجرد حمله هذا الاسم . نعم ، ان النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية ، فتلبسها لباس المدنية والحضارة ، فيكون هذا الاسم الكاذب مبررا لشهواتها ونزواتها . لذلك كله دبّ في الشرق تبلبل في العقائد والافكار وأخذ يغالي البعض فيريد قلب البلاد الاسلامية الى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها . نعم قلد الشرقيُ الغربي تقليدا أعمى لجهله دينه وظنه أن دين الاسلام لايساير الحياة

العلمية وان لمعطيات القرن العشرين في العلوم القول الفصل ، وأن كل ما جاء في الدين مخالفا للنظريات العلمية مردود . ولم يفرق بين العلم الحقيقي الناصع وبين ( الفرضيات ! ) الموضوعة المتحولة من وقت الى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين . وان نظرة بسيطة الى تاريخ العلوم والفلسفة ترينا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة « أو فرضيات ! » والغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويصمهم بالخرافة والجهل . « زُين للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيمة والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

كان يرى العلم الحديث الى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادي منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله: « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . ثم عدل العلم الحديث عما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع ، على شكل لولبي ، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لاتتحرك . كم مرة عدل العلم عما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل في المستقبل عما يقرره الآن ، لايعلم ذلك إلا الله . فما جاء في الدين ثابت لاتغير فيه والعلم متأخر عنه ، يصل اليه مع تقدم الوسائل والمخترعات الا ما كان من أمر النفس فانه سيبقى مجهولا أبد الآبدين . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا» . ويقول تعالى أيضا : «ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم » . فما لايدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس الا لقصور فيه وانقباض في سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة الى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء في النفس .

# تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت في العلم الحديث في زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وُجد بالماء . والماء من أهم البواعث في تكون الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين في كتابه الذي : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » : « وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » . ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة في الاشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من ( ألكترون وپروتون ) : كهربائية سالبة وكهربائية موجبة . وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . أي لعلنا تتذكر أن الوحدانية له تعالى لايشاركه فيها أحد . انه تعالى يقول في آية أخرى : « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » .

كان الطب يجهل أدوار الجنين في الرحم الى زمن غير بعيد ، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرنا تقريبا : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم جعلنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . ثم انه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الامطار في آيات شتى تبهر العقول . يقول جل وعلا في سورة فاطر : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » .

ان للرياح أثرا فعالا في حدوث الامطار . ذلك لأن الرياح تعمل في تكوين السحاب وتكثيفه مطرا مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية . فاذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب . ان الرياح تزجى السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب

من السحاب السالب مقدارا كافيا يؤدي الى التجاذب وزيادة في كهربائية مجموعة السحاب بالحث . نعم ان هذا التقارب ليتزايد بصورة تدريجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد ، فيحدث هذا البرق الذي نشاهده . ومن ثم يحدث المطر . وان دراسة الجو أمر معقد ، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الامم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطا قويا ، حتى أن حادثة جوية تقع في شرق العالم لتؤثر في الاوضاع الجوية في غرب العالم . فاذا هبت الرياح على بلدة في العراق مثلا او هطلت الامطار عليها فان سبب ذلك لاينحصر في جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة . نعم ، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريبا من سطح الارض ولكن القيام بأعمال رصدية في مناطق عالية عسير جدا . ذلك لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهربائية الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جدا . ولعل الاقمار الصناعية تزيد في معلومات البشر في هذه النواحي المجهولة . على أن هذه المجاهيل تبقى متنوعة وكثيرة أبد الآبدين . وذلك لأننا كلما فتح لنا أفق من العلم تجلت لنا مجاهيل متعددة ومتنوعة لاتحصى . فسبحان الذي نظم هذا العالم بعلم لايتناهى وقدرة لاتتناهى وحكمة لاتتناهى . وقد علم علما يقينا أن الرياح تثير السحاب ( كما جاء في القرآن الكريم ) أو بخار الماء . أي أنها تظهره بعد أن كان كامنا . يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء ، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق ، لتعدد العوامل وتشعبها ، ولا رابط بينها الا الله تعالى .

إن المطر ليحدث بعوامل عدة : منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء ، ومنها البرودة في المناطق العلوية ومنها قلة الضغط في المناطق العالية ومجيء الرياح الباردة من المناطق القطبية ، ومنها الجبال ، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية ، ومنها تأين الهواء أي تكوين الايونات فيه والـ ( إيون ) هو الذرة المكهربة أو الجزيء المكهرب او الهباءة المكهربة

وان الجو ليتأين بعوامل مختلفة ، البحث فيها من أصعب المواضيع .

يقول الله تعالى في آية أخرى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً ، فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » . ان هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثرا فعالا في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لاتريد أن تشير الى أن الرياح لواقح للزرع بل تقول : ان الرياح تلعب دورا خطيرا في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين ، أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة ، فتقع الملاقحة بين سحابتين . فهذه الآية معجزة خالدة ، لأنها تخبر قبل ١٣٩٠ سنة تقريبا عن شيء هو عصارة العلم الحديث . وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين في الاسلام وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية .

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الامطار، يطابق آخر ما وصلت اليه الاكتشافات الاخيرة . وهو قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » . ففي هذه الآية خلاصة كثير من المكتشفات الحديثة في تشكل المطر نخص بالذكر قوله : « ثم يؤلف بينه » أي ان الله تعالى يؤلف بين السحاب . وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية . فان التأليف بين السحاب ما هو الا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق او صواعق ومطر وبرد . وان عملية الركام تأتي بعد عملية التأليف . على أن الله جل جلاله لايريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئا من العلوم الكونية لأن كلمات الله وما أودعه في الاجسام من خواص لاتتناهى . « ولو أن مافي الارض من

شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » . ولكن الله يريد أن يُرى العباد جليلَ قدرته وعظيم صنعه اتماما للحجة . « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » . « قل فلله الحجة البالغة » . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة » . نعم ، ان الانسان يصل الى العلوم الكونية عاجلا أو آجلا بفكر أودعه الله فيه ، ولثابتية خواص الاجسام وقوانينها . وقد عاش الانسان آلاف السنين دون أن يعلم قوانين ( لوردكلوين ) في الكهرباء ودساتير ليبنيتز ( Leibnitz ) في التحليل الرياضي أو معادلات ( دكارت ) في الهندسة التحليلية . ولا أعلم هل تكامل البشر روحيا بعد الوقوف على هذه القوانين ، أم رجع القهقرى يأكل بعضهم البعض ؟ والمهم بل الغاية الاسمى التي خلق الانسان لأجلها هي تزكية هذه النفس التي لاتقر على حالة ثابتة خلافا للجمادات التي لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الانسان بلطف من الله . وكثيرا ما يظفر بها بطريق الصدفة منّا منه تعالى . والبشر المادي أقل من أن يأتي بنظام يكفل سعادة البشر في الدارين . أما الدين فحقائقه ثابتة ترمى الى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيرا ما يتأخر عن فهمها .

ونسأل الله تعالى نفوسا صافية وآذانا واعية تعي الحق فتتبعه ، ولاتغتر بما يكتشف في هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات في هذا الكون المادي . فان الغرور يبعد الانسان عن رؤية الحق واتباعه أيما تبعيد . ان الله تعالى يقول : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

# علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الاسلامي حث على تحصيل العلم الى حد بعيد ، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم في العالم الاسلامي شبيه المعارضات التي حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين في القرون الوسطى فأدت الى الشنق والنفي والسجن . فان الدين الاسلامي يحبذ العلم الصحيح الذي لاشبهة فيه ويؤيده أيما تأييد. ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علما ويبنون على هذا العلم الباطل أشياء كثيرة لا أساس لها ، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الاخسرين أعمالا . يقول الله تبارك وتعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » ( سورة الانعام : ١٤٨ ) .

فنهى الدين الاسلامي عن اتباع الظنون وهي النظريات التي لاتستند على دساتير رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وانما هي أهواء ووساوس تتجلى بصورة العلم . يقول الله تبارك وتعالى : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لايغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون » . وفي مكان آخر : « ومالهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا » . وقد قال الله تعالى في سورة الكهف : « قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . فنهى عن الظن بقوله : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . وبقوله : « مالهم به من علم الا اتباع الظن » . وبقوله : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وانهم الا يخرصون » ( أي يكذبون ) .

وقد حث القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعي الصحيح واتخاذه أساسا للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر أولو الالباب » . فخص الله التذكر والوعى الديني والقيام بما فرض الله ، بأولى الالباب والعقول : أولئك الذين يتبعون العلم الصحيح ، لا الظنون والاهواء . وان الله تعالى أمر نبيه ( ص ) مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لمزيد العلم بقوله : « وقل ربِّ زدني علما » . وهذا يشير الى عدم انتهاء مدى العلوم . ويقول جلَّ من قائل : « وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الاموات » . ولا مراء أن العلم الصحيح الناصع الذي يوصل الانسان الى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه ، فيه النورُ والحياة والسعادة الابدية ، وهذا هو العلم الذي يهيىء لنا سعادة الدارين .

قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام : « تعلموا العلم فان تعلمه حسنة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لايعلمه صدقة ، وهو عند الله لأهله قربة . لأنه معالم الحلال والحرام ، وسالك بطالبه سبيل الجنة ، وهو أنيس في الوحشة ، وصاحب في الوحدة ، وسلاح على الاعداء ، وزين الاخلاء ، يرفع الله بـه أقوامـا يجعلهم في الخـير أئمـة يقتدى بهـم وترمق أعمالهم وتقتبس آثاراهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم . لأن العلم حياة القلوب ، ونور الابصار من العمى ، وقوة الابدان من الضعف . ينزل الله حامله منازل الابرار ويمنحه مجالسة الاخيار في الدنيا والآخرة . وبالعلم يطاع الله ويعبد ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم توصل الارحام ، وبه يعرف الحلال والحرام . والعلم امام العقل والعقل تابعه . يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء » .

وقد قال رسول الله (ص) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » « ألا ان الله تعالى يحب بُغاة العلم » . وان الاسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين

أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الانبياء . وفي حديث : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد » .

ما هذا العلم الذي يعطيه الدين الاسلامي هذه المنزلة الرفيعة ؟ هو كل علم يوصل الانسان الى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه ، علم يؤثر في النفس الانسانية فتتقشع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس ، فيكون هذا الانسان بشرا على شكل ملك أو ملكا على صورة انسان ، هذا العلم الذي يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس .

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الارض وغير ذلك من العلوم نوافذ منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليل قدرته ، فيزداد تسبيحا وتحميدا لله تعالى .

اذن فما الذي أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة ؟ رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها ؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادي استنتاجا يوافق المنطق وانما اتبعوا الظنون . أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكي فاغتروا بها واستعملوا ذلك في الترف وايجاد أسباب الراحة والركون الى الدنيا وشهواتها وملذاتها ، فعميت أبصارهم وتجلت اذ ذاك لهم الظنون علما ، فقالوا : لاشيء وراء المادة .

يقول الله تبارك وتعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . أي أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن اتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها . ذلك لأن النفس الانسانية اذا انطمست في الموبقات والمنكرات لاتبصر الحق ولا ترى سبيلا الى العلم الصحيح . لأن الموبقات والمنكرات والمعاصي تشكل

حجابا كثيفا مدلهما يحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع ، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهي في أسفل درك من الظلمات . يقول الله تعالى : « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها في أوربا في القرن التاسع عشر ، وكان من أبشع مظاهرها ظهورُ المبدأ الشيوعي ، حتى أنكروا وجود الخالق : « أفى الله شك فاطر السموات والارض » .

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الاسلامي : أنه قد أوفد لنين مندوبه الى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس ، ويفهم الناس أن لا شيء وراء المادة ، وأن هذه العبادات ليست الا سخافة . فجاء المندوب وطلب الى الناس أن يجتمعوا في ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الديني ( العالم بالدين الاسلامي ) في سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب ، واجتمع اليه رؤساء الدين من أهل الكتاب ، وقالوا ان البلية عامة وفوضوا اليه أمر الدفاع . حتى كان اليوم الموعود . فقام الشيوعي قائلا : بماذا تعبدون ؟ ان كان هناك إله فلم لانراه بأبصارنا ؟ ولم لانلمسه بأيدينا ؟ ولماذا لاتتذوقه بألسنتنا ونشمّه بأنوفنا ونسمعه بآذاننا ؟ اذن ليس وراء المحسوسات شيء . أهدموا الجوامع والكنائس ودور العبادة .

فقام اليه العالم المسلم ، وكان قد أحضر قبلا كرتين بحجم واحد . احداهما من خشب والاخرى من حديد ملوتتين بنفس اللون ، وقد وضعهما على المنضدة . فخاطب الشيوعي قائلا : قل لي أي الكرتين أثقل ، استعمل في ذلك حواسك الخمس كما استعملتها لمعرفة الخالق . فأبصرهما الشيوعي ، ثم شمهما ، ثم لمسهما ، ثم ذاقهما ، ثم وضع أذنه بالقرب منهما ليسمعهما . فقال : لا أهتدى بالحواس الخمس الى معرفة أثقلهما ، الا أن عقلي يقول لي : ارفعهما وحركهما بيديك كي تعلم أيهما أثقل .

فقال له العالم المسلم : اذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها واخطائها ، وبالعقل يدرك الخالق الذي جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيس منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه • فكم تخطىء الحواس الخمس ويكون العقل مصححا لها • هل الشمس بهذا الحجم الذي نشاهده ؟ وهل النجوم بهذه الصغر ؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان الى حد بعيد يتلاقيان حقا ؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس في الهندسة والفيزياء كثير • ان الله تعالى يقول : « ألا ان لله من في السموات ومن في الارض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » • ويحق لي أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » •

ونسأل الله توفيق اتباع العلم الصحيح وترك الظنون والاهواء • فـ « العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان » •

# الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب المعلومات الحديثة في علم النبات والحيوان وطبقات الارض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التآليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل في كل ناحية من نواحي الكون . وان ما يقوله حق" لا يشك فيه . هذه العقيدة تكون قوية في المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفي الثانويات أكثر من المدارس العالية ، اذا كان الطالب ممن لايسلم بما يلقى عليه دون تعمق وتدبر . وأما اذا كان من البسطاء الذين لاينظرون الى القول ، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول ، بقى ثابت العقيدة في أن العلم الحاضر حلال المشكلات ، وموصل الانسان الى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق . وما يقوله لايناقش فيه . ويزداد تعجبا عندما يرى المعادلات التفاضلية التي تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية .

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزياوية : أن طالبا دهش لما رأى أن التجربة تدل على صحة القانون الفيزياوي وقال : هذا هو العلم ! معجبا بالتجربة فرحا مغرورا ، وقد فاته أن ذلك ليس الا ظاهرة من ظواهر العلم ، ظاهرة بسيطة لاتدل على حقيقة الا بعد استنتاج صحيح ، وانك لو سألت من تخصص في الكيمياء : كيف أن الغازين ( الاوكسيجين والهيدروجين) يشكلان بالنسبة المعلومة الماء بعد امرار تيار كهربائي ، وما تأثير الكهرباء هنا ؟ يبقى حائرا صامتا لاجواب له . وغاية مايقول : ان التجربة تدل على ذلك . وما التجربة الا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها . وان المدقق المفكر من علماء الكيمياء الاختصاصيين يعترف بأن ارادة ربانية تعمل

في تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز • اذ لا مناسبة بين الاوكسيجين الغازي والماء • وقد زعم آينشتاين وكان من كبار الفيزياويين الرياضيين بل كاد أن يكون أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية ( Relativite ) : أن أقصر الخطوط هو الخط المنحني وأن الضوء يسير على خط منحن غير مستقيم ، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة ، ثم أتيح له أن رصد بآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال : ان أقصر الخطوط هو الخط المستقيم ، وان الضوء يسير على خط مستقيم • فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الاخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الاولى • اذ ليست التجربة كل العلم وانما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذي يجب أن يعتمد عليه • والانسان معرض للخطأ والزلل وقلّ أن يسلم منهما أحد الا من عصمه الله •

كما أن النظريات أو بالاحرى ( الفرضيات ) التي توضع ( لا عن تحقيق علمي وانما لإمكان تفسير الحوادث أو التجارب ) تتغير من حين لآخر • لأن الفيزياوي يضع ( فرضية : Hypothese ) تدل مثلا على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك ( الفرضية ) ، حتى اذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة عفوا لاقصدا ، تخالف(الفرضية) الموضوعة عمد الى وضع ( فرضية ) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة ، فلو كانت ( الفرضية ) الاولى صحيحة فما هذه الثانية ؟ وان كانت الثانية صحيحة فاذن بقينا في خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الاولى • ومن يقوى على القول بأن ( الفرضية ) الثانية صحيحة ، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لاتفسر بالفرضية الثانية • كما أن ( فرضية لابلاس ) في تشكل النظام الشمسي ليس بالشيء الذي يعتمد عليه • على أنها لاتضبط بحسابات ودساتير ، وقد جرحت وعُدلت كثيرا • وقد جاء في القرآن الكريم :

« أولم يرَ الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » ( سورة الانبياء : ٣١ ) . ويقول الله في مكان آخر : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » ( سورة الانبياء : ١٠٤ ) . على أنه ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الارض أو علم الاحياء ، بل وظيفته اعطاء الدساتير المؤدية الى تزكية النفس وتقريب الفرد الى الساحة القدسية الإلهية وايجاد سعادة الدارين . وان ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية اشارة الى خلاصة ما يمكن أن يصل اليه العلماء المحققون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى . يقول جل وعلا في سورة نوح ( ع ) : « ألم تَروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجا » .

ولامراء أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة او ناحيتين أو ثلاث لاتوجب حكما كليا علميا . كقولنا : اذا أضيفت أشياء متساوية الى أخرى متساوية فالنتائج متساوية ، أو مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين . وكل من تتبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لاتعد ولا تحصى ، ويرى اعترافهم بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم . هذا أفلاطون يقول : علمت أني لا أعلم شيئا . وهذا نيوتون يقول : ان علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطيء بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر . كيف لايكون كذلك وان الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لاتتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف : « قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » . وان كلمات الله هي الخواصُّ والنظم والدساتير المودعة في مطاوي هذا الكون : تلك النظم التي تربط الكون

بعضه ببعض : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » ( سورة الملك : ٤ ) .

نعم ، نرى أن كثيرا من دساتير الفيزياء العاليـة ناقصة وكثيرا من الاتمامات ( Integration ) تكاد تكون لغزا من الالغاز لايتاح لأحد أن يحلها . ونرى أن العالم الفلاني قد وضع دستورا لمحاسبة سرعة الصوت مثلا في وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح دستوره ، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثاني . ثم ان التخمين ضارب أطنابه في قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقي خالٍ عن التقريب . ترى يعطيك الفيزياوي دستورا لاختلاف الضغط بنسبة الارتفاع الى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت اذا تجاوز الارتفاع حدا معينا .

فالعلوم الثابتة التي لامراء فيها والتي يعتمد عليها هي العلوم الرياضية ( Mathematiques pures ) كالحساب النظري والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالي والتحليل الرياضي لأنها مجردة عن المادة . وسنعلم أنه لاتنافي بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء في الدين الاسلامي تبيانا لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته .

# لاتنافي بين الدين والعلم الصحيح

ان العلوم الثابتة التي لامراء فيها هي العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظري والهندسة التحليلية والتحليل الرياضي ( Analyse Mathematique ) .

وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علما قطعيا لايشك فيه : كالميكانيك الرياضي والفيزياء والفلك ، وكذا الحال في علم النبات والحيوان وطبقات الارض . لاسيما ( الفرضيات ) : ( Hypotheses ) أو الموضوعات ، فانها ليست حقائق ناصعة وانما مقترحات يقترحها العالم ظانا أنها أقرب الى الواقع من احتمالات أخرى ، والاحتمال ليس من العلم الحقيقي في شيء . ثم ان فساد ( الفرضيات ، أو العنديات ) والتخمين يتجليان للانسان في العلوم التربوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم . وحقا انها علوم غير ثابتة ، لأنها تبتني على ( فرضية ) واضعها فما رآه حسنا أقرّه . وان البيئة كافية لاثبات مايدعيه ! لسيطرة المادية على النفوس حين أن مدعاه شيء كلي عام ، يتجاوز البيئة التي شاهد فيها الحادثة . حتى آل الأمر الى أن العالم الاجتماعي يقول بالقطع والبت في نظرياته وأفكاره . وهذا ما يعبر عنه عندهم بـ ( Determinisme ) . وقد يبالغ العالم النفسي فيظن انه وصل الى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة واحصاءاً ناقصاً تقريبيا . حين ان كل ما يعلمه انما هو في ظواهر النفس ، وذاك بشكل ناقص مبتور . والدليل على ذلك تضارب الآراء في مسألة واحدة في وقت واحد .

والنقطة الرئيسة في وضع النظريات : ( الفرضيات ) أو (العنديات ) سواء في التربية والاجتماع وغيرهما هي البلوغ الى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة ، فيؤلف العالم أو المتظاهر بالعلم الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيرا يحقق تلك الغاية أو النظرية . فان

كان ماديا ، فان المادة تتدفق خلال أسطره ، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود . وان كان ملحدا يترشح من نظرياته ونتائج تفكراته الالحاد ! والمرجع هنا أيضا تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خدّاع .

إن بعض الشبيبة ليندهش عندما يرى تزاحم الكتب وتراكم المجلات ، فلا يكاد يجعل لنفسه بين الآراء رأياً او يتصور لنفسه بين الاوزان الخيالية وزنا . فيفند كل رأي يخالف نظريات ( كلاپارد ) مثلا أو ( بنتهام ) أو ( شوپنهاور ) أو ( دوركايم ) أو لاسمح الله ( بو خنر ) المادي المعروف . واذا طالع الكتب الدينية ظن أنهناك تضاربا بينها وبين العلم الحقيقي الناصع المجرد عن كل شائبة ، فيعمد الى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم . حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والاحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت، لاالنظريات: ( الفرضيات) المضطربة والاهواء الباطلة التي ليست من العلم الحقيقي في شيء.

كان يقول الفلكي الى وقت قريب : ان الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقا قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . وكان الطالب في المدارس المتوسطة يبقى حائرا لايعلم هل يأخذ بقول الفلكي فيقول بسكون الشمس ، أم بقول الله في كتابه الذي « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، فيقول بحركتها . فان كان مؤمنا حقا خطأ نفسه في فهم القرآن الكريم وحاول التأويل . ولكن الحقائق التي بينها الله إظهارا لعظمته وجليل قدرته لاتماشي أهواء العلماء وأخطاءهم ، انها ثابتة لا تغير فيها . نعم ، كان هذا التبلبل سائدا الى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضية بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين في العلوم الرياضية العالية . فتقدم الميكانيك الرياضي والسماوي ( Mecanique Celeste ) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجري لمستقر لها بسرعة ( ٧٢٠٠٠ ) كيلومتر في الساعة على شكل

حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . ووصلوا الى الحقيقة التي نطق بها القرآن في دور جاهلي ووسط جاهلي حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة فاطر : « ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ، ان الله كان حليما غفورا » . أي ما أمسكهما من أحد من بعده . هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة في الفضاء ويجذب بعضها البعض بارادته تعالى حسب دساتير متقنة رياضية أودعها الله فيها وهو الذي يمسكها من أن تزول وتنحرف عن مواضعها ومسيرها . فان زالت وتخطت — لاسمح الله — فليس لأحد بعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور . ولولا قدرته وارادته جلّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام ودستور رياضي في مدار خاص محدود . وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد . وقد كشف اسحق نيوتون دستور الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالمين في وقت واحد ولكنه عجز هو ومن جاء بعده عن تفهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزا عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفس الانسانية وكل شيء قواني ( منسوب الى القوة ) وسيبقى عاجزا الى الأبد مادامت هذه النفس مرتبطة بالبدن . فقد جاء في الحديث : (الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا ) . ذلك لأنه لايمكن قياس ما هو غير مادي بمقاييس مادية . كما لايمكن قياس طول الغرفة بالغرام وان بعد التشبيه . وان العلم الحديث لايعمل الا في كشف خواص المادة والتأثرات المتقابلة المادية بين المواد . وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل في ما وراء الطبيعة ما دام يعمل في الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية : ( غرام ، سانتيمتر ، ثانية ) فتكلم العالم المادي في ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء .

وغريب أن بعض شبابنا الذين يرون لزوم الاختصاص في كل شعبة من

شعب الطب أو الهندسة مثلا ، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصا للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة . فيتقبلون ما يمليه عليهم أستاذ الكيمياء مثلا ( من العلوم المادية البحتة ) في ما يتعلق بتكامل النفس وأمور ما بعد الموت ومنازل الآخرة . ان شبابنا يرى أن أستاذه يبرهن بمعادلات متقنة على صحة دستور في الفيزياء أو الفلك مثلا ، فتزداد ثقته به ويراه حجة في ما يقول حتى في شيء لم يشتغل فيه ولم يتصدّ له ! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه ويبتعد عنه كل البعد . انه يصدّق استاذه حين يستهزىء بالمقدسات الدينية وبما أخبر به الانبياء عليهم السلام عن مراحل الآخرة . ذلك لأن معتمده أي أستاذه في الكيمياء مثلا أملى عليه فكرة مغلوطة عن المقدسات وما بعد الموت فصار يوافقه على استهزائه وجحوده . على أني أعتقد أن كلمات الاستاذ في ما وراء الطبيعة ( أي في مالم يختص فيه ) وفي الامور الدينية لا تؤثر في الطالب كثيرا مالم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الافكار الفاسدة الملوثة . ولا تكون النفس مستعدة للقبول مالم تتلوث بالمعاصي والآثام والاجرام وبما يدخل في جوف الانسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتبهة . وتفصيل ذلك يطول .

على أن للمحيط أثرا فعالا في التوجيه التكاملي أو التسافلي . فالنفوس تؤثر بعضها في بعض ، كتأثير المجال الكهربائي في المجال المغناطيسي . يقول الله تعالى : « ياعبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون » . أي هاجروا الى أرض تتيسر فيها العبادة . وفي الحديث : « عاشروا من يذكركم الله » . فلو كانت هيأة المدرسة من مدير ومدرسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين ، منتهين عما نهى الدين لألفيت الطلاب على غير ماهم عليه الآن .

## لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الاسلام دين الفطرة ، لذلك يتوصل الانسان الى التوحيد أي الى لباب الاسلام وعصارته بالفطرة ، دون أن يحتاج الى معلم أو مرشد ، ان لم يدنس الفطرة بما يلوث النفس الانسانية من معاصى وآثام وظلم وبغي ولؤم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرم الله تعالى على لسان أنبيائه ( ع ) وتأباه الفطرة الانسانية غير المدسوسة منها . وليست الفطرة الا من مُعطيات العقل ، كما أن العلم حديثه وقديمه من مُعطيات العقل أيضا . اذن وجب أن لايكون تناف بين العلم الحديث والدين ، اذا كان هذا العلم الحديث قدبلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علما حقيقيا لاغبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك . فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزياوية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة ليست من العلم الحقيقي في شيء . لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعدل . فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث . فاذا ما شوهدت حادثة لاتتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي الى وضع نظرية أخرى تفسر الحوادث السابقة واللاحقة . وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لاتبديل له ولا تغيير : كالرياضيات البحتة . فقالوا : ان هناك تنافيا بين ما جاء في الدين ومعطيات العلم الحديث . فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء . ان الله تعالى يقول : « أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر أولو الالباب » .

فان الله عدَّ الذين يُحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء ) من العلماء وأولى الالباب .

اذن ، ماهو ذلك العلم الذي يميز الانسان عن الجاهل ويجعله في عدادالعلماء؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته ، هو ذلك العلم الذي يؤثر في النفس فتؤثر في الجوارح وتنشطها للعبادة . هو ذلك العلم الذي يحمل النفس على الاعمال الصالحة وكل مامن شأنه التطهير والتزكية . هو ذلك العلم الذي ينمى الفرد ويكمله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة . فالعلم الحديث الذي لايتجاوز سماء الارض ولا يبلغ بصاحبه الى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزكيها ، انه علم" ضيق ناقص مبتور . علم ماديّ حالك ، بل وبال على البشرية جمعاء اذلم يستعمل في صلاح النفس وتكاملها. وان قول الله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » لاتفسر الا على ماذكر . أي ان العلماء الذين أدى بهم علمهم الى توحيد الله وطاعته وتقديسه واتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه . فالعلم الناقص أي العلم الذي لايبلغ بالفرد الى المعارف الالهية لا يورث الخشية . وكم رأينا من علماء في الطبيعة والرياضيات وغيرها ملاحدة جاحدين يرتكبون المعاصي ولا يخشون الله . ذلك لأن علمهم مادي لم يتجاوز حدود المادة . فلم يسم بهم الى ما وراء الطبيعة .

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيات وغيرها . ذلك لأن العلوم لاتتناهى ، وكلما كشف للعالم شيء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضله أيضا شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل. ان الله تعالى يقول : « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » وانما أنزل الله تعالى القرآن ليهدي الناس الى الطريق المؤدية الى تكميل النفس والبلوغ الى معرفة الله بدرجة تكاملها . ذلك لأن الكامل على الاطلاق : وهو الله لايريد أن يرى في ما خلق شيئا ناقصا . وقد سنّ للانسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه (ع) . وان أكملها وأسماها سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله

وسلم . « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » . وما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » انما هي عصارات العلوم وخلاصاتها ، يصل اليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل .

كان العلم الحديث الى زمن قريب يقول : بسكون الشمس وان السيارات تدور حولها . وكان القرآن الكريم ينادي منذ ألف وأربعمائة سنة تقريبا : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »[1] . حتى اذا تكاملت المجاهر وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها ( الميكانيك الرياضي ) Mecanique Rationnelle اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال : انها تجري بسرعة ( ٧٢٠٠٠ ) كيلو متر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . أي أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة اليها في الثانية ٢٠ كيلو متر ولذلك يتغير مدار الارض من حين لآخر في الفضاء ، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع .

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت ( من النجوم ) بالرغم مما اصطلح عليه ، متحركة وتتحرك في الفضاء بسرعة معينة . وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية وان الكواكب لبعدها عنا لانشاهد لها حركة ولكن الشكل الظاهري أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة . وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية .

فلا ينبغي أن يتسرع الشاب المتعلم في حكمه على الدين الاسلامي بقوله: ان بينه وبين معطيات العلم الحديث تنافيا . ذلك لأن العلم الحديث ماهو الا خصائص وقوانين أودعها الله في مخلوقاته في هذا العالم . وليس الدين الا قوانين ونظما أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين . فالمنبع واحد والمبدأ واحد ، ولا يعقل التنافي مع وحدة المنبع الفياض . ثم انا ان شاهدنا بعض

(١) انما كررت هذه الآية لاهميتها فى تحقيق الموضوع .

الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا الا أن تتهم المشتغل في علم الطبيعة في استنتاجه أو قلة عدد التجارب التي قام بها أو عدم الاحاطة بتمام الموضوع . ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج في ظروف خاصة لاتعطي حكما ثابتا صحيحا . فاذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالمشاهدات الطبيعية وما يستنتج عنها .

ولنعم ما ناقش به عالم ديني فيلسوفا كان يخالفه في العقيدة والمبنى . كان يدعى هذا الفيلسوف : أنه نبي وأن كل ما يقوله وحي" يوحى اليه ، وأن كل عالم أو فيلسوف نبي" أيضا وما يقوله وحي" يوحى اليه ! .. فأجابه هذا العالم الديني قائلا : ان كان كل ماتقوله أنت أيها الفيلسوف وحيا يوحى اليك، وان كل ما أقوله أنا أيضا وحي" يوحى اليّ ، والمبدأ واحد . اذن فماذا الاختلاف بيني وبينك ؟ فلم يحر الفيلسوف جوابا .

ذلك لأن النفوس مختلفة . منها ما هي طاهرة بعيدة عن الخبائث والادناس ومنها ما هي ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون » . ولكل من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومعطيات . فلا يترشح من الناس الخبيثة الا الخبث والالحاد ، ففلسفتها خبيثة مضلة . ولا يترشح من النفس الزكية الا الخير والصلاح والهدى ، ففلسفتها نقية هادية . لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء ( ص ) وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها .

فالعلم الذي يوصل الانسان الى المعارف الالهية ويؤدي الى تكامله الى حيث لايعلمه الا الله هو ذلك العلم الذي يصح أن يقال عنه انه من الدين ومن مكملات الدين . فلا يرى العالم ، الذي لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر ، تنافيا بين العلم الصحيح ( ذلك الذي قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك ) وبين الدين ، بل يراه من الدين . لأنه يذكر الانسان بعظمة خالقه . « الذين يذكرون الله

قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . « فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء » ولا يقذف هذا النوع من العلم الا في قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات واعمال صالحات وأخلاق اسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة ، حتى صارت قمينة لافاضات ربانية ونفحات قدسية . وقد جاء في الحديث : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » . والنفحات هي الافاضات المعنوية . ونسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بتوفيق العبودية وافاضات نخرج بها عن حضيض المادة الى قدسية تجعلنا أهلا لتقديسه وتسبيحه .

.....

## رأس الحكمة مخافة الله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى » . أريد بمقالي هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبيبة المثقفة علهم يرجعون الى تعاليم الدين الاسلامي فيعملون بموجبها حرفيا ولا يكتفون باسم الاسلام ، فان « الاسم » لايغنى عن الواقع شيئا .

عندما كنت في الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث : « رأس الحكمة مخافة الله » . فقال : كان الاولى أن يقال : رأس الحكمة محبة الله . ولم يرده أحد . وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لاتتجلى الا في قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصى واجتناب المحرمات وبعبادات وأعمال صالحات . ولا تترك المعاصى ولا تجتنب المحرمات الا بخوف الله تبارك وتعالى . لاتترك المعاصى الا بوازع نفسى وهو خشية الله . فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام ، النفس المدلهمة بظلمات المعاصي والاجرام لاترى الى الحكمة سبيلا ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون . لقوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبدا » .

فترون ان من ذكر بآيات ربه بعد ارسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين، وأعرض عنها والم يؤمن لما اقترفت يداه من الذنوب ، تسدّ عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه ، وقد قال تعالى : « نسوا

الله فأنساهم أنفسهم » . فلا يفكر في مصيرها وتهذيبها وتوجيهها الى الغاية التي خلقت لأجلها ، فيكون من الاخسرين أعمالا . وقال تعالى : « قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . فالله تبارك وتعالى يسدّ أبواب الحكمة على من أتم عليه الحجة ولم ينتبه وتوغل في الذنوب وتدنس بالموبقات ، بقوله : « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » . أي انا جعلنا على قلوب الذين عصوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستارا تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود . فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون . وليس هذا الاعتراض والتذمر والانكار والتفلسف الا رشحات نفس تلوثت بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع . فانه تعالى يقول : « انها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . وجاء في الحديث : « ان أعمى العمى عمى القلب » . ونستجير بالله من ذلك .

فلا يمكن أن تتجلى الحكمة في النفس الانسانية الا اذا طهرت بالعبادة وترك المعاصي والتزكية والتجلية والتحلية . وهذه لا تحصل الا بعد أن يخاف الانسان ربه ويخشاه فيؤاخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة ، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار .

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديرا لها : بقوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » . فاذا لام الانسان نفسه وكفر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتتطهر شيئا فشيئا بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى ، فتنفتح عليه اذ ذاك أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحلّ أمامه كل ما يختلج في نفسه من اعتراضات وتنقشع عنه الشكوك والريب والاوهام . إن الصادق ( ع ) يقول : « ليس العلم في السماء فتستنزلوه أو في الارض فتستخرجوه ، وانما هو كامن في جبلتكم ، تخلقوا بأخلاق الروحانيين

يكشف لكم » . ومن كان في نفسه شك فيما أقول فليعمد الى التجربة . فان المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقو لويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه . فمن كان يرتاب في ما أقول ، فليدرس الدين الاسلامي ليقف على المناهي والمحرمات والمباحات ، ليقف على الآداب الاسلامية ، ليطلع على العبادات التي بها تزكو النفس ، ثم يعمل مستعينا بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى في نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوما بعد يوم الى الله تعالى وكيف يدخل في عالم جديد ، عالم فرح واطمئنان ، عالم كله نور وصفاء .

ان رسول الله ( ص ) قرأ على ثلة من الشبان سورة الزمر التي فيها : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل" منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » . « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام" عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض تتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » . فبكوا خوفا من الله تبارك وتعالى ، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة .

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . فلماذا نرى علماء لايخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصي . نرى علماء في الرياضيات العالية ، في الكيمياء العالية ، في الفلك العالي ، في الفيزياء العالية ، في الفلسفة بأنواعها ، في التأريخ والجغرافية وفي بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين ، كأن ليس وراءهم حساب . فليس اذن مراد الله من كلمة ( العلماء ) هذا العلم المادي الذي يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذي اعتادت يداه فن النجارة بنتيجة

الممارسة والتمرين . وانما مراد الله من هذا العلم : هو العلم الذي يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف . وهذا العلم هو الحكمة التي مدحها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولو الالباب » .

وقد عرّف الله الحكمة بقوله : « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله». فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها . وهذا الشكر يتجلى في جميع العبادات والاعمال الصالحة . فكلها مظهر من مظاهر الشكر ، ولا يحصل ذلك الا بعد خوف الباري جل جلاله . ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس . اذن : « رأس الحكمة مخافة الله » .

يقول الله تبارك وتعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » . ( سورة النور : ٥٣ ) . وفي موضع آخر : « فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى » . فعلق التنبه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله : « سيذكر من يخشى » . وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار .

ويمدح الله في مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله: « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء العذاب » . ثم يبشرهم تبارك وتعالى بقوله : « أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

وعن اسحاق بن عمار قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « يا اسحاق خف الله كأنك تراه ، وان كنت لاتراه فانه يراك ، وان كنت ترى أنه لايراك فقدكفرت ، وان كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك » .

وعنه عليه السلام ، ان النبي ( ص ) قال : « يا أيها الناس ، ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ألا ان المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لايدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لايدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبدُ المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، وفي الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار الا الجنة أو النار » .

فمن أراد ان تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهما يؤدي به الى تكميل نفسه ليكون بشرا على شكل ملك أو ملكا بصورة انسان ، فليس عليه الا أن يخاف الله جل جلاله بترك المحرمات جميعا وأن يكون مسلما حقا ، عاملا بكل ما يأمر به الدين المبين ، دين العقل والتفكير الصحيح .

## أثر الخشية فى تكامل النفس

ان خشية الله جل وعلا هي خير صفة يتحلى بها الانسان فتصرفه عن الولوج فيما حرّم الله تعالى • فهي رادع نفسى يمنع الفرد عن ميول النفس الامارة بالسوء • وان هذا الرادع ليكون مع الانسان في خلواته وحيث لايعلم بسرائره الا الله • فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدي الى تسافل النفس •

ان الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية في الانسان بصورة فطرية بقوله : « وهديناه النجدين » أي طريقي الخير والشر ، وقوله في سورة الشمس : « فألهمها فجورها وتقواها » أي ألهم الله تعالى الانسان طرق الفجور وسُبل التقوى •

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الالهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والانابة ليستغفروا ويتوبوا • ألا ترى أن الانسان عند محاولته أول كذبة أو اول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم او أول دعٍ لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه • فوازع باطني يلومه ومؤنب داخلي يؤنبه ويوبخه •

ثم انه اذا تمادي في الفجور والفسوق والمعاصى خفّ أثر ذلك الوازع شيئا فشيئا حتى ينطفىء ويزول أثره • فيقسو القلب اذ ذاك وأعنى به النفس الانسانية ، فتكون كالحجارة أو أشد قسوة • « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ! » • وما قدمناه تفسيرلقوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » •

قال أنس بن مالك : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يا رسول الله ، أشكو اليك قسوة قلبي ، فقال له : « اطلع الى القبور واعتبر بيوم النشور » . لذلك يجب على المربين ان ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصى الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير . وأن يبينوا جسامة كل من المعاصى عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصى والجرائم ، لئلا يرتكبوا المعاصى أبدا . وأن يتجنبوا المعصية الاولى اجتنابا لامزيد عليه . فانها مفتاح المعاصى والسبب الرئيس للولوج في معاصى أخرى . يقول الله تبارك وتعالى في مدح الانبياء سلام الله عليهم أجمعين : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا » .

فالخشية صفة الانبياء عليهم السلام وبها امتازوا عن سائر الخلق ، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول الى الحق والى الكمال المنشود .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر : أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون انما يتذكر أولو الالباب » . فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » . وأراد بالانسان أن يكون بين الخوف والرجاء . فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الانسان عن المناهي والموبقات . فقد جاء في الحديث تنويهـــا بالعبد الصالح : « لو وُزن خوف العبـد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وان عظم الخوف كان أدعى الى السلام » [1] .

وفي الحديث : « ان الله أنزل في بعض كتبه : وعزتي وجلالي لا أجمع

---

(١) قد اكرر الآية او الحديث لاهمية هناك او مناسبة . ولا شك ان فى هذا التكرار تأثيرا فى النفس .

لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين ، اذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة ، واذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة » . وقوله تعالى في امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام : « انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » . وهي ذكر الآخرة .

وقال الله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » . فصفاء القلب وانابته وتزكيته تتوقف على الخشية . وقوله تعالى أيضا : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » . فعلق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى . وقال سبحانه عن هابيل يروى قوله لأخيه: « اني أخاف الله رب العالمين » . وقال تعالى في مدح قوم : « يخافون ربهم من فوقهم » . وقال : « وخافون ان كنتم مؤمنين » . وقال : « واياي فارهبون » . وقال أيضا : « ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا » .

وقال رجل لرسول الله ( ص ) في قول الله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون . يعني بذلك : الرجل الذي يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف ؟ قال : لا ، ولكن الرجل الذي يصلى ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لايقبل منه » . وقد جاء في الحديث : « اياكم ومحقرات الذنوب ، فان لها من الله طالبا ، وانها لتجتمع على المرء فتهلكه » . وقال لقمان ( ع ) لابنه : « يابني ، خف الله خوفا لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك ، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك » .

وقال الصادق عليه السلام : « بينما كان رسول الله ذات يوم قاعدا اذ نزل جبرئيل كئيبا حزينا ، فقال له رسول الله ( ص ) : يا أخي جبرئيل ، مالي أراك كئيبا حزينا ؟ فقال كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ

جهنم اليوم . فقال : وما منافيخ جهنم ؟ قال : ان الله أمر بالنار فأوقدعليها الف عام حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها الف عام حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها الف عام حتى اسودت . فهي سوداء مظلمة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الجبال لذابت من حرها ، ولو ان قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها . فبكى رسول الله ( ص ) وبكى جبرئيل ( ع ) .فأوحى الله اليهماقد أمنتكما منأن تذنباذنبا تستحقان به النار ، ولكن هكذا كونا » .

وروى أن ابراهيم ( ع ) كان يسمع منه أزيز" كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره . وكان سيدنا رسول الله ( ص ) كذلك . وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام اذا قال : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض » يتغير وجهه ويصفرّ لونه فيعرف ذلك في وجهه من خيفة الله تعالى . وقد اعتق الف مملوك من كد يمينه . وكان يغرس النخل ويبيعها ويشتري بثمنها العبيد ويعتقهم ، ويعطيهم مع ذلك ما يغنيهم عن الناس . وأخبره بعض مواليه أنه قد نبع في بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال : « بشر الوارث ، بشر الوارث ، بشر الوارث . ثم أحضر شهودا فأشهدهم أنه وقفها في سبيل الله حتى يرث الارض ومن عليها ، وقال : انما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار » .

وشاهد رجل عليا عليه السلام وهو يناجي ربه . واذا به أضحى كالخشبة اليابسة . فجاء مسرعا الى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلها قد مات . فقالت : في أية حالة رأيته ؟ قال رأيته : يعبد ربه . قالت :انه يغمى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى .

وجاء في الحديث : « حرمت النار على عين بكت من خشية الله » . وعن أبي امامة ، قال قال النبي ( ص ) : « مايقطر في الارض قطرةأحب الى

الله من قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله لايراه أحد الا الله عز وجل » . وعنه عليه السلام : « اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتّ من الشجر ورقها » .

وان فاطمة سلام الله عليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل . وعن الصادق ( ع ) قال : حدثني أبي عن أبيه : « ان الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم . وكان اذا حج حج ماشيا وربما مشى حافيا ، وكان اذا ذكر الموت بكى ، واذا ذكر القبر بكى ، واذا ذكر البعث والنشور بكى ، واذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها . وكان اذا قام في صلوته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل ، وكان اذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار» كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة .

فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة ، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها ، ونستعيذ به من الركون الى الشهوات والاماني ، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمنّون أنفسهم بالاستغفار والانفاق في سبيل الله ، فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم ، وأبعدتهم عن توفيق الملافاة والانابة معاصيهم وما اجترحت أيديهم ، فذهبوا بلا زاد ولا عمل ، فخسرت صفقتهم ، فخسروا أنفسهم « وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » . انه تعالى يقول : « والعصر ان الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

.....

# قيمة البلايا فى تكامل النفس

ما من شخص الا ويصاب في حياته بنوع أو أنواع من البلايا والنوائب . يختلف ذلك باختلاف الاشخاص والافراد . فمنهم من يبتلى بين آن وآخر بضيق في العيش أو مرض بسيط لايستغرق زمنا طويلا ، بينما نرى الآخر يبتلى طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة او فقر مدقع مستمر او علة لامفر منها . او نراه مقعدا يتمنى المشى أو مصابا بمرض في المعدة لا يقوى على الاكل كما يجب ، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لايملكون الا قوت يومهم .

نرى أشخاصا يبتلون بأنواع من الامراض في أواخر عمرهم وهم مترفون في أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة .

نرى أشخاصا بعكس ذلك مصابين بأنواع البلايا من فقر ومرض وغيرهما في أوائل حياتهم ، مترفين منعمين في أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة. وقد نسمع كثيرا من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر . يقول بعضهم : لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس منعم مرفه ؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلى بأنواع المرض والفقر ؟ ما هذا الاختلاف ؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الاسقام ومختلف النوائب ؟

ونسمع أيضا بعض الشكاوي من الطبقة المنعمة لخسارة تصيبهم ، أو فقدهم ولدا أو لطمعهم في مال أكثر .

وقد سمعت رجلا متوسط الثقافة وقد علّ ، ينسب عدم التدبير الى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلبل ! !

وقد ينسب بعضهم الظلم الى الباري وينفى عنه العدل والرحمة ، نستجير بالله من ذلك . لذلك ظهرت مذاهب فلسفية : كمذهب التشاؤم ومذهب التفاؤل . فالفيلسوف المبتلى في حياته بأنواع البلايا والمحن يرى الدنيا كلها محنا ونوائب ، والفيلسوف الذي عاش وديع الخاطر ، مترفا منعما يرى الدنيا كلها مسرات . فالاول متشائم والثاني متفائل . ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك . انما تعزو بعض الموفقيات الى فعالية الانسان الشخصية لاسيما مذهب ( Pragmatisme ) . وهذا لايحل لنا مسألة النوائب السماوية والامراض والاسقام والاضرار غير المنتظرة مهما بذل الانسان كفاءته وجهوده في دفعها .

ولا شك أن السعي في أمور الدنيا يؤدي الى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى : «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . وان السعي في أمور الآخرة ، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربة الى الله تعالى يؤدي الى نتيجة محمودة لقوله تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . ( سورة النجم ) .

ولكن كيف تفسر هذه المحن والامراض والنوائب . أوفي استطاعة الانسان رفعه أودفع كل ذلك ؟ كلا . ولامراء أن لاحقيقة بعد حقائق القرآن . وقد فسر لنا ربنا جل وعلا كل ما يختلج في صدورنا عن الجهل ويؤدي بنا الى الاعتراض الواهي : « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » . « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . ( سورة الانعام ) . ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فيه أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية ، فنسمى هذه الاعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة . مع أنه لامجال الى الشك

والريب بعد تفهم القرآن الكريم والاحاديث النبوية .

فهذا قوله تعالى : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا » . أي خلق الله الانسان للامتحان والاختبار . وكيف يكون هذا الاختبار ؟ هذه اختبارات تختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزياوية أو الكيمياوية ، وانما هي امتحانات تتوجه الى النفس مباشرة . فاما أن تتوفق فيها النفس فتتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى ، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الامارة بالسوء ، او تكون بين هذا وذاك ، فتكتب لها درجة في الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال .

يختبر الغنيُّ بالفقير: يأتي الفقير الغني. فاما يستقبله هذا الغنيُّ استقبالا شيقا . استقبالا فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه ، ان أمكن ، اويعطيه حسب وسعه ، واما أن يخفي نفسه في بيته فيقول لخادمه : قل لهذا الفقير العاجز : اني لست في البيت أو مسافر ! فيرجع المسكين العاجز خائبا منكسرا يائسا من جود هذا الغنى أوبالاحرى من عدم قيام هـذا الغنى بواجبه ، غير يؤوس من رحمة الله تعالى . لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين : « ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نكُ من المصلين . ولم نكُ نطعم المسكين » . فانهم يذكرون عدم اطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة مباشرة . وهذا دليل على ما لإطعام المسكين في الاسلام ، من أهمية فائقة. لذلك يقول الله تعالى في مقام آخر: «ولا يحضُّ على طعام المسكين» .

ان الله يمتحن الفقير بالصبر فان لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز في هذا الامتحان العالمي . وان تذمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن في جعله فقيرا بعد عن رحمة الله مع فقره ومسكنته . فالله يقول : كما في الحديث القدسي : « اني عند حسن ظن عبدي » . وجاء في الحديث القدسي

أيضا : « وان من عبادي من لايصلحه الا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك ».
يقول الله تبارك وتعالى : « وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . فجعل علة الخلق : الابتلاء . أي أن الله انما خلقنا ليبلونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها .

يكون الانسان في تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمنّى نفسه طول العمر ، فلا يسعى في تزكية نفسه وتطهيرها ويمنى نفسه : انه سوف يكون انسانا صالحا في أواخر ايام حياته . فالله يمرضه كي ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت ( كما يخمن الانسان ) ، فان صبر على ما يصيبه في مرضه وشكر الله على بلائه كان له ، كما يقال : ( أجر وعافية ) ، فيكون هذاالمرض سببا لتنبهه واستبصاره وسقوط شيء من ذنوبه السابقة . فقد جاء في الحديث : ان الله تعالى يقول : « مامن عبد اريد أن ادخلهالجنة الا ابتليته في جسده . فان كان ذلك كفارة لذنوبه والا ضيقت عليه رزقه . فان كان ذلك كفارة لذنوبه ، والا شددت عليه الموت حتى يأتيني ولا ذنب له ثم أدخله الجنة » . « وما من عبد أريد أن ادخله النار الا صححت جسمه ، فان كان ذلك تماما لطلبته عندي ، والا أمنت له من سلطانه . فان كان ذلك تماما لطلبته والا هونت عليه الموت حتى يأتيني ولا حسنة له ، ثم أدخله النار » .

وحاش لله أن يريد بعبد دخول النار الا اذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى في البغي والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويئس من رحمة ربه ولم تفد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لايطهره الا النار. وقد قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

# أثر النوائب فى تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تنتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب . يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين . ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم . ولو أنهم علموا أسباب ذلك لصبروا بل ولشكروا واستغفروا .

فلقد رأينا أحب الخلق الى الله أنبياءه وأولياءه قد ابتلوا ببلايا جمة ومصائب عدة ، لم يبتل بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه .

نرى كثيرا ممن أفسدوا في الارض واستوجبوا سخط الله ، مترفين منعمين لايبتلون في حياتهم بما يبتلى به غيرهم من أصفياء الله وصالحي عباده .

ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب ، وان شئت فقل ، ان الاختبارات والامتحانات تتوجه الى كل نفس لامحالة لتبدى ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وانفاق لجبران ما فات ، أو لتظهر ما تحمل من غي وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أي اما الى تكامل أو الى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط . ان الله تعالى يقول : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

فان الاقرار بالايمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسى والبلوغ الى حيث يشاء الله ، أي في : « مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر » ، ولابد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعبا والنجاح فيها عسيرا . كي يعلم الانسان حقيقة نفسه ، حتى اذا عوقب بعد الموت او قبل الموت اعترف بأنه انما عوقب لسوء سريرته واتباع هوى نفسه وسقوطه

في الامتحانات الالهية ، تلك الامتحانات التي كان بامكانه أن ينجح فيها .

هذا رجل قد أنعم الله عليه بمال كثير ، يأتيه جاره المسكين العاجز ، فلا ترقّ له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه ، وهذا مريض بائس ، قد أشرف على الموت وهو طبيب ذو ثراء ، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله ، ألم يكن ذلك في امكانه ؟ ما الذي منعه عن ذلك ؟ أليست نفسه الامارة بالسوء ؟ ولو حكم عقله في وقت لايغلب عليه هواه ، في وقت أزيح عنه شيطانه ، لعلم أنه خان نعما أنعم الله بها عليه ، بل خان نفسه و خسرها . فكان من الذين « خسروا أنفسهم » .

إن الله تعالى يقول : « ولنبلوتّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

فكما ان الانسان يُمتحن في حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصنايع وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال ، يُمتحن أيضا بكل مايؤدي الى الخوف والجوع والفقر وفقد الاولاد والأعزة وقلة الثمرات ، ليؤدي امتحانه بالصبر على كل ذلك .

فبالصبر يبرز الإيمان العملي ، الايمان الفعلي ، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولي ، وهذا تفسير لقوله تعالى : « أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ؟ » . لأن مجرد القول بالايمان لايظهر حقيقة الإيمان ، ولكن الصبر وتفويض الامر الى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع الى الله هو الذي يظهر ايمان الشخص الفعلي الواقعي . لأن حقيقة الإيمان تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب . فمن زاد

إيمانه بالبعث والحياة الآخرة قوي على الصبر . فكأن معيار الايمان الحقيقي هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها . لذلك يقول الله تبارك وتعالى: « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون» . ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة وبالها من منزلة : بقوله تعالى : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

نعم : « إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء ، وما أحب الله قوما إلا ابتلاهم» — كما جاء في الحديث .

فالنوائب والمصائب إنما هي بمثابة الاعمال الكيمياوية التي تجري على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها ، فان الانسان تجري عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج ان كان مؤمنا حقا من هذه الدنيا بالذهب الخالص . ولنعم ما قال الشاعر : عليٌّ الدر والذهب المصفى .

وعن أبي عبد الله ( ع ) : « أربع لايخلو منهن المؤمن أو واحدة منهن: مؤمن يحسده ، وهو أشدهن عليه ، ومنافق يقفو أثره ، وعدو يجاهده ، وشيطان يغويه » .

هذه هي سنة الله في الاولين والآخرين ، ان الله تعالى يقول : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون وكان ربك بصيرا » .

تتبعوا أحوال الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الائمة الاطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين ، تروا أن أقربهم الى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضا لسهام المنافقين والاعداء . وهم على حسب مراتبهم يتفاوتون في درجات الصبر ، وان نبينا محمدا ( ص ) وهو سيد المرسلين كان أكثر الانبياء ابتلاءا . لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين : « ما أوذي نبيٌّ مثل ما أوذيت » .

وممن صبر على المصيبة صبرا لا يقوى عليه غيره ، صبرا يتجلى فيه الاباء والبطولة الخالدة : الحسين ( ع ) . وهو القائل : « رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين » . ويقول ( ع ) في مكان آخر مخاطبا رب العباد : « رضى بقضائك لا معبود سواك » . فوليّ الله جعل دائما غرضاً لعدو الله ، فقد قال أبو عبدالله ( ع ) : « ان الله جعل وليه في الدنيا غرضا لعدوه » .

ان البلايا لتختلف شدة وضعفا ، كما أسلفنا ، حسب قابلية الممتحن واستعداده . وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيبه . فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصي . لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: « اشد الناس بلاءاً الانبياء ثم الاوصياء ثم الامثل فالامثل » . ولذلك يقول رسول الله (ص) لسبطه الحسين ( ع ) : « يابني ، أخرج الى العراق ، شاء الله أن يراك قتيلا وأهل بيتك سبايا ، وان لك درجة لن تبلغها الا بالشهادة » . نعم ، « ان المؤمن بمنزلة كفتي الميزان ، كلما زيد في ايمانه زيد في بلائه ، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له » . كما يحدثنا موسى بن جعفر ( ع ) .

وان درجة الايمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء ، فان الانسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك او محرم او تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمات الله والتصدى الى أنواع الجور والظلم فقلّ من ينجح في هذين الامتحانين بترك المال لحرمته والرضا بالفقر والمسكنة ، او رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

فالتقوى : أن ترى وجه الحيلة ويصدك عن ارتكابها خوف الله . لذلك يقول الحسين ( ع ) في كلمته الخالدة : « الناس عبيدُ الدنيا والدين لعق على ألسنتهم ، يحوطونه ما درت معايشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

# أثر الصوم في تكامل النفس

الانسان في طريقه الى التكامل يحتاج الى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة الى معنوية وضاءة تؤدى به الى التقرب الى الله تعالى والى حلول حب الله ، جل وعلا ، في نفسه . ولا يحلّ هذا الحب العظيم الا في نفس لها من الكمال نصيب ، ولا كمال الا بما يبعد الانسان عن أدران المادة.

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية ، لو قصد به التقرب الى الله تعالى ، تقربا لا شائبة فيه وأريد به اطاعة الله وابتغاء مرضاته ، يذيب المادية التي تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود. لذلك كان من المستحب أن يصوم الانسان يوما في أول الشهر ويوما في وسطه ويوما في آخره ، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله . فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل في عالم قدسي فيه حب الخالق جل شأنه والتفكر في عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها .

فان تكامل الانسان انما يتناسب مع درجة تفكره في الآخرة وعدم رغبته في الدنيا . ان الله تعالى يقول : « من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نُوفّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ( سورة هود : ١٥ و ١٦ ) .

وان قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صوموا تصحّوا » يشمل الصحة في النفس والصحة في البدن ، ولا ريب أن صحة النفس هي الغاية القصوى التي يجب على الانسان أن يسعى لتحقيقها ، ولا تصحّ هذه النفس الا اذا سلمت من أسر الهوى والشهوات . اذ ذاك يعمل عقله الفطري

فيصدق بما أنزل على محمد ( ص ) . يقول علي (ع) : « يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى » ، وان الصوم خير قامع لهوى النفس والاهواء الفاسدة . لذلك جاء في الحديث : « خصاء أمتي الصوم » . أي أن الصوم خير قامع للشهوات ، فلو تعوّد الشاب في عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه ، فانه لايتصدى الى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفعال شنيعة وينتظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة . فيكون ملكا على شكل انسان ، فيه من الروحانية وصفاء النفس مالا يوصف . ومن كان غير مصدق فليجرب ، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها .

ومما لامراء فيه أن الانسان لم يؤت به الى هذه الدنيا بهذه الصورة التي يولد الا ليتكامل . ذلك لأنه ناقص حين يولد . والله تعالى لايصدر منه الا الكمال . فوجب على الانسان أن يتكامل لامحالة ، فان أبى فمصيره النار ليطهر فيها . فاذا تكامل كان أهلا ليخلد في « جنة عرضها السموات والارض أعدّت للمتقين » ولذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد ، حين يتساهل مع من لايقوى على الصوم الا بمشقة لاتكاد تطاق بقوله : « وأن تصوموا خير لكم » . ذلك لأن ما يستفيده هذا البشر ( رغم تحمله مشقة كبيرة ) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى هو أضعاف هذا العناء . فليس للبشر الا أن يتبع ما سنه الله لتكميله على لسان أنبيائه ( ع ) ، ان أراد الفوز والنجاح في دوره التكاملي ، والا كان من الاخسرين أعمالا وممن خسروا أنفسهم ، على حد قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

ولا ريب أن الشيطاب هذا الذي يرانا ولا نراه ( وكم من أشياء لانراها وهي ترانا ) هو عدوّ الانسان اللدود . يقول الله جل وعلا : « ان الشيطان

لكم عدوٌ فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ، ( سورة فاطر : ٦ ) . ولولا اتباعنا اياه واطاعتنا له لعرجنا في ساحات القدس .

على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ ، على حد قوله تعالى : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » . ( سورة الحجر ) . وقوله تعالى أيضا : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » . ( النحل : ١٠٣ ) .

فلا سلطان ولا سيطرة للشيطان على الانسان ، خلافا لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات . انما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره : ( الدعوة ) . فما علينا الا أن لانلبي دعوته . وان الشيطان ليعترف يوم القيام قائلا : « وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » . (سورة ابراهيم : ٢٨ ) . وقد جاء في الحديث : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لنظروا الى ملكوت السموات » .

ان الشيطان يدخل فينا كالاشعة السينية ( Rayons x ) وقد جاء في الحديث : « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش » .

ان أول من ظفر بأن في الفضاء أمواجا كهربائية ــ مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها هو ( جيمز ) . انه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه الامواج في الجو . وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه ( جيمز ) بعقله ! فان مالا يرى بالعين المجردة أكثر مما يرى بها وهو موجود . وان الموجات التي لا ترى بالعين اكثر فعالية وتأثيرا مما يرى بالعين . فالكهرباء أكثر فعالية من الخشبة ، والنفس أكثر

فعالية من الكهرباء ، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا . فكلما كان الشيء دقيقا لاتراه العيون ( المحدودة في قابلياتها ) كان أكثر تأثيرا وهيمنة . وكلما كان الى المادية والتجسم أقرب كان محكوما لما هو أدق منه خلافا لما يهذى الماديُّ الطائش .

ان الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والامواج الهرتزية ، وهو يرانا من حيث لانراه ، فالله تعالى يقول : « انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » . وفي آية أخرى يقول الشيطان : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

فالشيطان يدخل في جوف الانسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الانساني . أرأيت أنك اذا أردت أن تعطي مسكينا عشرة دنانير وأنت لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغنى عنها ، كيف يحدث بينك وبين ناطق في خلدك محاكمات ونقاش ، أنت تريد العطاء وهو يسول لك الدنيا ويزينها ويعدُّ لك حاجات عدة . يدعوك الى أن تعدها من الواجبات ، فتنصرف عن هذا العطاء الذي يقربك الى الله ويزكي بدنك ومالك ونفسك . هذا الناطق هو الشيطان ...

أرأيت اذا كان وقت السحر ( قبل طلوع الفجر ) وأردت النهوض الى صلاة الليل والتهجد بين يدي رب العباد ، تأخذ بنفسك لتعرج بها الى الملكوت الاعلى ، كيف يخدعك ناطق في جوفك قائلا : انك مُتعب ، فنم هُنيهة ، النوم عافيـــة ، ولا بدلـــك من أن تحافظ على صحة بدنك ، فانك اذا قمت الى صلاة الليل لاتقوى على انجاز الاعمال التجارية في النهار ، فتكون متعبا ... الى ما هنالك ، حتى يجعلك تنام وتندم في آخر ساعة حياتك على

ضياع عمرك وعدم زرعك في دنياك ما تحصده : « يوم لاينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » . ذلك لأن « الدنيا مزرعة الآخرة » كما جاء في الحديث . ولا ريب أن القلب لايكون سليما الا بأعمال يتعلمها الانسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الاطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها باخلاص ولوجه الله الكريم .

فلو تمكن الانسان أن يسيطر على هذا العنصر الذي لايراه بباصرته ( هذه الباصرة التي تبصر الى مسافة محدودة وأجساما معينة في الصغر ولا تتعداها ) وأعنى به الشيطان ، لولج في عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور مالا يوصف ، ومن الحبور مالا يحدّ . ولا تتحقق له هذه السيطرة الا بما يخفف وطأة المادة في بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدي الى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها . لذلك جاء في الحديث : « الصلاة صابون الخطايا » .

واني أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته : « اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأعذني فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثبيطه وكيده ومكره وحبائله وخدعه وأمانيه وغروره وفتنته وشركه وأحزابه وأتباعه وأشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده » .

تتكامل النفس الانسانية بمقدار ماتذوب فيها المادية وتقتلع عنها الصفات الرذيلة والاخلاق الذميمة ، فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم . فله أثر فعال في تكامل النفس .

أنظروا الى بعض ماجاء في دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك . انه معالجة للروح والنفس والقلب . فان القلوب مريضة ومعالجتها لاتكون الا بما يناسبها . ولا يعلم طرق هذه المعالجة الا أطباء الارواح وهم الانبياء

والاوصياء من بعدهم سلام الله عليهم اجمعين بما أوحى أو ألهم اليهم من جانب الله تعالى .

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدي ربه في اليوم الخامس من شهر الغفران : « اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وانزع ما في قلبي من حسد او غل او غش او فسق أو فرح او مرح او بطر أو أشر او خيلاء او شك او ريبة او نفاق او شقاق او غفلة او قطيعة أو جفاء او ما تكرهه مما هو في قلبي » . الى أن يقول : « اللهم ارزقني سلامة الصدر وانفتاحه الى ما تحبُّ وترضى ، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى ، وضياء القلب وتوقده فيماتحب وترضى ، وحسن القلب وايمانه بما تحب وترضى . يامن بيده صلاح القلب ، أصلحه لي . يامن بيده سلامة القلب ، فاجعله سالما لي » .

عندما كنت أدرس في الجامعة حاولت أن أحقق اول مادة من هذا الدعاء وهو قلع ( الحسد ) عن نفسي . فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها الى من كان ينافسني في الصف ، وأقدم له الحل ان تعسر عليه ، ولا أضنُّ عليه بشيء مما أعلم أو أوفق الى حله بلطفه تعالى .

ان الصوم والدعاء ( والجوف في معزل عن المادة ) وما يقوم به المؤمن في ليالي القدر ، خير وسيلة لتعمير القلب واصلاح النفس حتى تصبح النفس مصداق هذا الحديث : « من سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن » .

فكما أن لضغط الجومقياسا ( بارومتر ) ولحرارة الجومقياسا (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس . من تلك المقاييس : الحديث المتقدم . ومنها مفاد هذه الاية الشريفة : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم

درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع آي الذكر الحكيم من علائم الايمان . ان الله تعالى يقول ( عندما يمتدح خواص عباده : الانبياء عليهم السلام ) : « واذا تتلى عليهم آيات الرحمان خرّوا سجداً وبكيا » .

أتذكر ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك ، كنت في روضة علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل . وكان بجنبي رجل يقرأ دعاء ( أبي حمزة الثمالي ) من أدعية السحر . رأيته يبكي بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته . وكان يعلوه من الانكسار والخنوع والانقطاع والابتهال مالا يوصف . ولا يعلم قيمة ذلك الا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصي وخطايا وهو نادم عليها . ذنوب احتطبها على ظهره ، فأثقلت كاهله .

والانسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله اذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع . لاسيما اذا قرأ دعاء السحر ( دعاء أبي حمزة الثمالي ) وخشع في دعائه وجرت دموعه على خديه . انه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخف نفسه ، كأنه قد وضع حملا ثقيلا عن كاهله ، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لاشعورية . فان من علائم الايمان دمعة الفرح والانجذاب الى آيات الله ، دمعة هي أمارة التسليم والانقطاع . ان الله تعالى يقول : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . ( سورة المائدة : ٨٨ ) .

ان القلب ليصدأ ان لم يبك الفرد على ذنوبه أو حبا لله تعالى . وان صدأ القلب أمر معنوي ، وازالته لا تكون الا بشكل معنوي ، والبكاء أمارة هذا الانقلاب المعنوي . ثم ان الدمعة على ما ثبت في الطب الحديث تدفع مئآت الامراض عن البدن .

ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدى عبدا ( حين يتوجه اليه العبد مكفرا عن ذنوبه ) وأحب أن يغفر له جعله يبكي على ذنوبه جوف الليل وأوقات العبادة . وهذا من علائم التقرب اليه تعالى .

تلا رسول الله ( ص ) على ثلة من الشبان آياً من سورة الزمر : «وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » . فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع ، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبا عليا عليه الصلاة والسلام : « ياعلي ، كل عين باكية يوم القيامة الا ثلاث أعين : عين سهرت في سبيل الله ، وعين غضّت عن محارم الله ، وعين فاضت من خشية الله » . ومن جرب القسم الاخير شعر بمايعلوه من سرور وحبور نزيهين طاهرين لايضاهيهما أي سرور .

يقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته : « ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . فهذه الدموع في شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفي صلاة الليل ولا سيما في ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة في النفوس وتزيل الادران والارجاس وذمائم الاخلاق فيرى الانسان نفسه ، بعد ذلك ، في عالم من القدسية جديد . تصفو النفس بهذه الدموع ، فاذا صفت رشحت عليها المعارف الالهية من عالم القدس ، فتزداد معرفة بالله تعالى وهي

غاية الغايات . فغاية ما يتكامل به الانسان أن يزداد معرفة بالله تعالى ، أي أن تكامل الانسان يتناسب طرديا مع درجة معرفته بالله تعالى . فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائرا في مدارج الكمال أكثر فأكثر . وان شهر رمضان المبارك يهيىء الوسائل التي تصفو بها النفس لتنال نصيبها من الكمال ومن المعارف الالهية .

وفي الحديث : « أبغض الناس الى الله المتخمون الملأى ، وما ترك عبد أكلة يشتهيها الا كانت له درجة في الجنة » . وفي حديث آخر : « لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب . فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء » .

نعم ، ان المعارف الالهية لاتحصل الا اذا أذيبت المادية في الانسان كما جاء في الحديث . فاذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والانفاق والايثار ومجاهدة النفس والاعمال الصالحة ازداد الانسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الالهية ، فان الصادق سلام الله عليه يقول : « ليس العلم بالتعلم . انما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه . فاذا أردت العلم ، فاطلب أولا في نفسك العبودية ، واطلب العلم باستعماله ، واستفهم الله يفهمك » .

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للافاضات الربانية والمعارف الالهية . وان الصوم من أجلى مظاهر العبودية ، وخير وسيلة لتكامل النفس الانسانية .

# أثر الحج في تكامل النفس

نرى جميع ما حوالينا من حيوان ونبات وجماد في غاية الكمال . أي ان العالم المادي بما أودع الله تعالى فيه من دساتير دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال . وأن اجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا بدساتير رياضية رصينة ، مما يدل على أن الكمال قد بلغ منتهاه فقد جاء في القرآن الكريم : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » .

وان العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص في هذا الكون المادي . وانما قلت : ( الكون المادي ) ، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادي بجميع شراشره . لايعمل الا في المادة ولا يقف الا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض .

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون ( بفضل الله تعالى ) من بعض الدساتير والخواص المودعة في هذا الكون بأمره تعالى ، لايزال في حضيض لايتناهى ( الاصغر غير المتناهى ) . وسيبقى كذلك أبد الآبدين . ذلك لأن علم الله لايتناهى ، ونسبة المحدود الى غير المحدود صفر : ( $\frac{\text{ب}}{\infty} = 0$ )

ان الله تعالى يقول : « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

والعالم الحقيقي ، كلما فتح الله له باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه في اللانهاية من مراتب الجهل . ولا يأتى الغرور الا

من ناحية الجهل . ان الانسان مركب من روح وجسم ، فجسمه في غاية الكمال ولكن الانسان ليس بجسم فحسب ، بل ليس من الجسم في شيء . انه انسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الاطلاق . والكامل ( وهو الله تعالى ) لايصدر منه الا الكمال . ولذلك تفضل الله على الانسان بغية تكميل نفسه الناقصة ، تكميلا يناسبها ، بأنبياء ( ص ) ومن بعدهم بأوصياء ( ع ) يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وابلاغها الى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال . « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

فالغاية الحقيقية من خلق الانسان : هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه . ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لايحلان نفوسا مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور . فوجب تطهيرها وتزكيتها . ولا تزكو الا بالعبادة وأعمال صالحة . والاعمال الصالحة هي نوع من أنواع العبادة اذا كانت لوجه الله وطلبا لمرضاة الله .

اننا خلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لكي أعرف » . والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الانسان ( وهي معرفة الله ) تعالى الا بالعبادة . قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . فهم اذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الالهية ، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماما بالعبادة باخلاص ، دونما رياء أو حب لجاه او طلب للرئاسة .

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الانسان أبواب المعارف الالهية : الحج . ولامراء أن المال يقسى القلب ويؤدي الى شيء من

الغرور والكبرياء ويبعد الانسان — بما يترشح منه من ذمائم الاخلاق — عن الله تعالى : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » . وقد جاء في الحديث القدسي : « وان من عبادي من لا يصلحه الا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك » . فوجب ملافاة ذلك ، لئلا توصد على الثري أبواب المعرفة . فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة والصدقات ، وأوجب أمرا عباديا فرضه على أولى الاستطاعة تفضلا منه عليهم . حتى لا يكون هذا المال حجر عثرة في طريق تقدمهم في مجالات المعارف الالهية الواسعة التي لا تتناهى . فهيأ لهم في بيته الحرام مواقف تذرف فيها دموعهم وتخشع فيها قلوبهم وتلطف بها نفوسهم . يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها الى ربهم مخبتين ، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف . فيذكرون ذنوبهم ثم يبكون عليها ندما وحزنا منيبين خاضعين . وان لكل عمل في الحج اثرا في تكميل النفس الانسانية والتساوي بين الوضيع والشريف . فليس هناك اعتبارات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان . ذلك لان الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى فحسب ، أي بحسب سمو نفوسهم في حقول التزكية ومجالات التصفية ، لقوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، على ان في الحج فوائد اجتماعية ايضا لا تعد ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون .

وقد جعل الله المقامات التي يتقرب فيها اليه في مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء لينصرف العبد الى عبادته ، لايلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع ، لذلك يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام :

« ألا ترى ان الله سبحانه اختبر الاولين من لدن آدم صلوات الله عليه الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر . فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما ثم وضعه بأوعر بقاع الارض

حجرا ، وأقل تناتق الارض مدرا ، واضيق بطون الادوية قطرا ، بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة ( أي قليلة الماء ) وقرى منقطعة ، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف ، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه • فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم • تهوى اليه ثمار الافئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة • حتى يهزوا مناكبهم ذللا ، يهللون لله حوله ، ويرملون على اقدامهم شعثا غبرا له ، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم ، وشوهوا باعفاء الشعور محاسن خلقهم ، ابتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختبارا مبينا وتمحيصا بليغا ، جعله الله سببا لرحمته ووصلة الى جنته • لو أراد سبحانه ان يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وانهار وسهل وقرار ، جم الاشجار داني الثمار ملتف البنى متصل القوى ، بين برة سمراء وروضة خضراء وارياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كان الاساس المحمول عليها والاشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور ، ولوضع مجاهدة ابليس عن القلوب ،ولنفي معتلج الريب من الناس ( أي زال الريب والشك من صدور الناس ) • ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره اخراجا للتكبر من قلوبهم واسكانا للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبوابا فتحا الى فضله ، واسبابا ذللا لعفوه » •

فلا بيان بعد هذا البيان ، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان • فعباد الله الصالحون كانوا،طمعا في الثواب الجزيل ومزيدا للخشوع والخضوع ، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين وان الحسن عليه السلام كان يقول : « اني لاستحيي من ربي ان القاه ولم

أمش الى بيته » . فمشى عشرين مرة من المدينة الى مكة على رجليه ، وان النجائب لتقاد معه .

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين » . فالمتخلف عن الحج مع الاستطاعة كافر ، لانه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكن له ان يحج بيته الحرام ليزداد تقربا اليه ومعرفة به . فقد جاء في خبر عن الصادق عليه السلام في تفسير : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ذلك الذي يسوف الحج أي ( حجة الاسلام ) حتى يأتيه الموت . وعنه عليه السلام : « من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه : « ونحشره يوم القيامة اعمى » .

وعن الصادق (ع) : « من مات ولم يحج حجة الاسلام ، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه ، فليمت يهوديا او نصرانيا » . وقد بنى الاسلام على خمس : الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية .

فالحج عظيم فضله ، خطير أجره ، جزيل ثوابه ، جليل جزاؤه . وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله في بيته ومحل ضيافته وأمنه وعلى الكريم أكرام ضيفه واجارة الملتجيء الى بيته . فعن الصادق ( ع ) : « الحاج والمعتمر وفد الله ، ان سألوه اعطاهم ، وان دعوه اجابهم ، وان شفعوا شفعهم ، وان سكتوا بدأهم ، ويعوضون بالدرهم الف الف درهم » وان من الذنوب مالا يكفره الا الوقوف بعرفة ، كما جاء في الحديث .

وقال النبي (ص) لرجل فاته الحج والتمس منه ما به ينال أجره : «لو أن أبا قبيس لك ذهبة حمراء فانفقته في سبيل الله تعالى مابلغت مايبلغ الحاج» .

وقال : « ان الحاج اذا اخذ في جهازه لم يرفع شيئا ولم يضعه الا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ، واذا ركب بعيره لم يرفع خفا ولم يضعه الا كتب الله له مثل ذلك ، فاذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه ، فاذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه ، فاذا رمى الجمار خرج من ذنوبه ، قال : فعد رسول الله (ص) كذا وكذا موقفا اذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه . ثم قال : أنى لك ان تبلغ الحاج؟ » .

ويكره ترك الحج للموسر في كل خمس سنين .

فترون : كيف يتكامل الانسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر النفوس عندما يوفق الى حج بيت الله . فان هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التي تصيب الثري من جراء المادة . فما على الحاج الا ان يحتفظ بهذا الصفاء الذي منّ الله به عليه في بيته ، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة ، ليذهب من هذه الدنيا الى حيث الخلود نقي الثوب طاهر الضمير .

## كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جل شأنه : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » . فاللام في (ولنبلونكم ) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك : ان الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد ،على اختلاف الطبقات : بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الاولاد والارحام وبانواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة الى ما هنالك . كي يتضح لدى شخص الانسان مبلغ جهاده مع نفسه الامارة بالسوء وعدم اطاعته لها وعدم طغيانها في السراء وعدم الجزع في الضراء .

وهذا الجهاد هو الجهاد الاكبر . وان هذا الجهاد على ما أرى لاصعب بكثير من حل أغمض مسألة في التحليل الرياضي Analyse Mathematique أو الفيزياء العالية . ذلك لان الذي أوتي موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجد متواصل من حل تلك المسألة الصعبة ، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات الا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير . لذلك من السهل جدا ان يبلغ الانسان مرتبة ( الدكتورا : (Dootorat) اذا اتيحت له الفرص ( لا سيما في العلوم الاجتماعية ) أو يكون عالما في فرع من الفروع . ومن الصعب جدا ان يكون انسانا كاملا .

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه ، مغلوبين تجاه شهواتهم ، مستضعفين أمام ميولهم .

قد عرفت استاذا ( شيخا للمدرسين : Doyen ) في احدى الجامعات كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية . وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دوّنه المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجري في الرياضيات .

فاستأذنت منه الولايات المتحدة ( في امريكا ) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم • فأذن واستلم المبلغ • فلم يشاهد هذا الاستاذ بعد استلامه المبلغ الا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلى في عقله ! فجاء الى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية في الصف الذي كان يدرس فيه • واذا به يقول : أريد ان ادرسكم اليوم ( التاريخ ) ! ويخاطب احد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره • واذا به مجنون ! يحمل الى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون• ذلك لانه بعد استلامه المبلغ ازاء جهوده ذهب مباشرة الى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهري (Syphilis) • وان مكروب هذ المرض يهجم على اضعف عضو في الشخص ، فهجم على مخه وأدى به الى الجنون •

فلو كانت الاتمامات (Types) الصعبة التى لا تنطبق على ما دون من نماذج : (Integrations) تكفي لردعه عن المدنسات وعما حرم الله تعالى لما ابتلى بالجنون •

فالشيطان لا يخشى شيخ الاساتذة في الجامعة ولا من حمل لقب ( الدكتورا : (Doctorat) ) ، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع او اكتفى باللقب فحسب ، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له ان يحمل لقب ( الدكتورا ) ولكن الظروف لم تساعده لعرض آثاره على جامعة من الجامعات ، أو لم يبلغ •

ان الشيطان ليهجم على النفس الانسانية مهما كان نوعها • فيدعوها الى ما يدنسها ويرديها • وان العلم حديثه وقديمه ليس بالشيء الذي يمنع النفس عن اطاعة الشيطان • ذلك لان ( العلم ) عملية فكرية وليس بعملية نفسية •

فالذي يمنع النفس عن اطاعة الشيطان ، انما هو خشية الله وخوف الله انما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكر وتدبر •

جاء في الحديث : « أعلمكم بالله أخوفكم له » . ويراد بهذا العلم : العلم الالهى والمعارف الالهية . أي ان المعارف الالهية لا تحل الا في نفس تخاف الله كثيرا وتخشاه كثيرا . فالعلم الكثير في غير طاعة الله ممد للذنوب كما اثر عن علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « كثرة العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب » .

ويستفاد من الاحاديث الآتية : ان العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل : قال رسول الله (ص) : « ان الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنبا قبل ان يغفر للعالم ذنبا واحدا » . وقال ايضا : « زلة العالم كبيرة » . وقال علي عليه السلام : ان الله تعالى أوحى الى نبي من الانبياء عليهم السلام : « قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس لباس الضأن وقلوبهم قلوب الذئب ، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم امر من الصبر ، اياي يخادعون وبي يغترون وبديني يستهزئون .

وقال الامام الباقر (ع) : « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس ، فليتبوأ مقعده من النار ، ان الرئاسة لا تصلح الا لاهلها » . وفي حديث آخر : « لا طاعة الا بعلم ، ولا علم الا بتعلم ، والتعلم من معلم رباني » .

عرفت استاذا في علم التربية وعلم النفس : بلغ مرتبة ( الدكتورا ) كان يدرس في المعاهد العالية ، انه لم يقو على كبح نفسه عن شرب الخمور فكان يشرب بدرجة تؤدى به الى تشويه سمعته مع علمه ان : « شارب الخمر كعابد وثن » ، كما جاء في الحديث .

فقد ذكر لي احد تلاميذه انه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق في الاوحال وهو ثمل لا يشعر . يقول : اني اردت ان اؤدي ما للاستاذ على

التلميذ من حقوق ، فدعوت سيارة وحملته مع السائق ووضعناه في السيارة ونقلناه الى فندق كان يسكن فيه . قمت باسعافه قليلا قليلا حتى صحا . فقلت : يا استاذ ، انت تلقي علينا دروسا في ضبط النفس وفي التحلي بالاخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية . فماهذا الذي أرى بك ياسيدي ؟ فأجاب جوابا سوفسطائيا بقوله : انما انا اقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة ! وقد فاته انه يقتل نفسه .

فترون ان ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد وتعميم ، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الاعلى واطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات ، انهما من واديين مختلفين فالاول من وادي الحافظة والتفكير والذكاء ، والثاني من عالم النفس ، وبينهما بون شاسع . فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومنى النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ اسفل سافلين .

ان الله تعالى يقول : فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون » والهداية عند البعض ، في يومنا هذا ، ان ينال الشخص شهادة عالية فهو مثقف مهدى

ان الله تعالى يقول : « يرفع الله الذين آمنوا والذين اوتوا العلم درجات » فقدم الله تعالى ( الايمان ) على (العلم ) ، ذلك لان العلم الحقيقي واعني به المعارف الالهية انما يترشح من (الايمان ) .. فكلما قوي الايمان بتطهير النفس ، بالعبادة والاعمال الصالحات ، ترشح من هذا الايمان « العلم الصحيح » الموصل الى معرفة الله تعالى . واذا أردنا ان نفسر هذه الآية على غير ماقلنا نقع في مشكلة . ذلك لانا نرى علماء في بعض ما أودع

الله في هذا الكون من خواص ودساتير رياضية ، مجردين عن المعارف الالهية . بل البعض منهم زنادقة ملحدون . فكيف يرفع الله ( حسب الآية المتقدمة ) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات ؟!

ولا فرق في هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة .. وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيماوية الخ .. فيجوز ان يكون الشخص قد درس الحكمة الالهية ولكنه مع ذلك ضعيف الايمان ، يشوبه كثير من الشكوك ، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك في المستشرقين .

ذلك لان الايمان ليس بالشيء الذي يترشح من الذكاء او الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالاعمال الصالحات لوجه الله تعالى . ان الله تعالى يقول : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » أي انه لا يؤمن بآيات الله الا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله في السر والعلن .

ويقول الله تعالى في آية اخرى : « انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير .وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الاحياء ولا الاموات ، ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ، ان أنت الا نذير » . ( فاطر :٢٠ ) . فالمواعظ والارشاد والانذار لا تؤثر الا في من يخاف الله بالغيب ، (أي بينه وبين الله ، لا يعلم بذلك احد ) وفي من اقام الصلاة لوجه الله . وهما بابان عظيمان لتزكية النفس .

ومن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصى في السر والعلن ، يظلم نفسه

ويظلم الناس ، فنتيجة ذلك : الجحود وعدم الايمان عاجلا أو آجلا • ان الله تعالى يقول : « قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ، فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » • ( الانعام : ٢٢ ) • أي ان الظلم لا يترشح منه الا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحيانا •

فاذا رأيت شيخا أو مراهقا أو شابا جاحدا مستهزئا ، مكذبا بآيات الله تعالى فاعلم انه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق •• سواء أتيحت له الفرص فحقق ماذكر أو لم تتح • فان عقيدة الانسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت الى الوجود أم لم تظهر •

ثم ان معيار الاختبار يجب ان يكون عاما ، يعم أفراد البشر قاطبة بلا تفريق وتمييز ، أوتوا بعض المواهب أم حرموا • ولا يمكن ذلك الا اذا توجه الاختبار الى النفس التي الهمت طريقي الخير والشر ، بقوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها »، كي يشترك في ذلك الوضيع والشريف والغني والفقير والرئيس والمرؤوس • فتكون التقوى اذن معيارا للمفاضلة وأساسا لفوز الشخص بسعادة الآخرة ، فقد قال تعالى :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » •

الدنيا أشبه شيء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس • وتعطى لهم عليها درجات • درجات موجبة لاعمال صالحة بما فيها العبادات ودرجات سالبة لاعمال سيئة بما فيها العقائد • ثم تجمع هذه الدرجات ، فان كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة ، وان كانت سالبة فهو من اصحاب النار ، وهذا معنى قوله تعالى :

« فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية • وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حاميه » • ويقول الله تعالى في موضع آخر: « والوزن يومئذ الحق » •

ليس في هذه الامتحانات الالهية مجال للاكمال كالامتحانات المدرسية فاما الى جنة واما الى نار . لان الانسان ينقطع عمله بعد موته . فلا عمل ولا تحضير ولا تزود بعد الموت . ( فالدنيا دار عمل ولا حساب ، والاخرة دار حساب ولا عمل ) .

وقد جاء في الحديث ما مؤداه : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا عن ثلاثة : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له . ان الصدقة الجارية تحتاج الى مال ونفس سخية وقل من يوفق اليها ، وأما العلم الذي يأخذ بالفرد الى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقل من يوفق الى بثه ونشره اليوم ، وان ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما انما يكتب بأسلوب مادي ، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن ابداعه ، وأما الولد الصالح فأصبح نادرا جدا . وكم ألفيت آباء يحزنون على سلوك أبنائهم ، ورأيت البعض منهم يبكون حزنا على ما عليه أبناؤهم من نهج معوج ، واتجاه سقيم ، لا يصلون ولا يذكرون الله أداء لواجب الشكر . ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغا يعتد به الى ولده يريد ان يصلي فلا يلبي طلبه ! ورأيت آباء آخرين يبغضون أبنائهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون ان ينظروا الى وجوههم . كل ذلك لشدة ايمانهم .

ان الله تعالى يقول : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون » . على ان اطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين

احسانا » . وفي الحديث : « نظر الولد الى والديه حبا لهما عبادة » .وما أقل الابناء العاملين بهذا الحديث !..

فالعاقل هو الذي لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات ، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلول أجله .

وقد قال تعالى : « حتى اذا جاء أحدهم الموت ، قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا في ماتركت ، كلا ، انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع الاقربين من قريش : « ان الرائد لا يكذب اهله . والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ماغررتكم . والله الذي لا اله الا هو : اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا ، وانها للجنة أبدا أو النار أبدا » . ولذلك قال تعالى : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون ياأولي الالباب » .

فتعديل امتحان درجات الله تبارك وتعالى انما يكون في هذه الدنيا . فمن حصل على درجة ( ــ٥) مثلا لعدم الصبر على نائبة جزع فيها يعدله بالصبر على فقر يصاب به،فينال فيه (+٦) مثلا ، فتكون النتيجة ( + ١) وهو فوق الصفر . وعن علي (ع) : « اذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور ، واذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور » .

ومن بخل في مال أعطاه الله اياه ولم ينفق منه فأمست درجته لعدم الانفاق الواجب ( ــ ١٠ ) مثلا ، فانه يعدله بفقر يصاب به ، فيعطي من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطي حين كان غنيا ، مع مراعاة النسبة ، فينال ( + ١٥ ) مثلا ، فتكون النتيجة ( + ٥) . فيصفى حسابه

في دنياه قبل ان يحاسب في الآخرة . ولا اعني بهذه الارقام التي جئت بها على سبيل المثال ، ان الله يحاسب العباد على طبقها ، وانما تمثيل وتقريب وتفسير .

لا ريب ان حساب الآخرة لدقيق جدا . والدرجات في غاية الدقة أيضا ولا تقبل الشفاعة فيها الا اذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى .لقوله عز من قائل : « ولا يشفعون الا لمن ارتضى » . فان الانبياء والاوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون الا اذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى . فانهم : « عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

وعن علي عليه السلام : « وان من شيعتنا لمن لا تدركه من لا تناله شفاعتنا الا بعد عذاب الله له ثلاثمائة الف سنة » .

قال طاووس : رأيت علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء الى السحر ويتعبد . فلما لم ير أحدا رمق السماء بطرفه وقال : « الهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين ، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة » . ثم بكى وقال : « وعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك اذ عصيتك وانا بك شاك ، ولا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى علي . فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني ، فواسوأتاه غدا من الوقوف بين يديك اذا قيل للمخفين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب ، أما آن لي ان استحيي من ربي » ثم بكى وأنشأ يقول :

أتحرقني بالنار يا غاية المنى  فأين رجائي ثم أين محبتي

أتيت باعمال قباح زريـــة وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال : « سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودد الى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة اليهم ، وأنت ياسيدي الغنى عنهم » ثم خر الى الارض ساجدا . فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده ، فاستوى جالسا وقال : « من الذي أشغلني عن ذكر ربي » قلت : أنا طاووس ، يابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع ؟ ونحن يلزمنا ان نفعل مثل هـــذا ونحن عاصون جانون ، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله(ص) فالتفت الي وقال : « هيهات هيهات يا طاووس ، دع عني حديث أبي وأمي وجدي . خلق الله الجنة لمن اطاعه واحسن ولو كان عبدا حبشيا ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولدا قرشيا . أما سمعت قوله تعالى : ( فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ) ، والله لا ينفعك غدا الا تقدمـــة تقدمها من عمل صالح » .

فاذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمتـــه وطهارته بنص من الكتاب والسنة ، فكيف بنا ونحن ملئنا معاصى وآثاما . كل ذلك ليعلمونا سلام الله عليهم آداب التقرب الى الله ، آداب الدعـــاء والخضوع ، آداب التوبة والاستغفار ، لكي تطهر هذه النفوس الملوثـــة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها ، آسفة على فعالها .

ان الائمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداء لواجب الشكر ، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر .

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين (ع) يقول : يابن رسول الله أما علمت ان الله خلق الجنة لكم ولمن احبكم ، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم . فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك . ( ذلـــك لان

زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه مما أدأب نفسه في العبادة حتى سمي بذى الثفنات ) ، فيجيبه الامام عليه السلام قائلا :«ياصاحب رسول الله ،أما علمت ان جدي رسول الله (ص)قدغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلم يدع الاجتهاد ، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم ، وقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » .

ان الله تبارك وتعالى قد امتحن انبياءه واوصياء انبيائه عليهم السلام امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادي ، هذا ابراهيم (ع) قد امتحنه الله تعالى بان القى في النار فكان له بردا وسلاما . وامتحنه بذبح ولده اسماعيل ، وامتحنه بان ارسل له ملكا على شكل انسان فقال :سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح . فافتتن ابراهيم (ع) بهذا النداء اللاهوتي . فطلب اليه ان يعيد ما قال . فأجابه : أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه ، فأعطاه . فقالها ثانية : « سبوح قدوس ، ربنا ورب الملائكة والروح » . ثم ان ابراهيم (ع) طلب اليه أيضا أن يقولها ثالثة . فقال : **الا ان تعطيني بقية غنمك** ، فأعطاه . وقالها ثالثة : فهذه مرتبة من مراتب الولاء » لا يصل اليها البشر العادي .

# مراتب الامتحان الالهي

ان الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم ، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والاخروية . قال نبينا صلى الله عليه وآله : « ماأوذي نبي مثل ما أوذيت » . فكان ابتلاؤه اعظم من ابتلاء من سبقه من الانبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين .

وأما علي عليه السلام ، فقد امتحن امتحانات تزيد عن العد والاحصاء منها مبيته على فراش النبي ( ص ) وعرضه نفسه للقتل . ومنها برازه الى عمرو بن ود الذي كان يعد بألف فارس في غزوة الخندق ، وقد قال فيه رسول الله (ص) : « برز الايمان كله الى الشرك كله » ، وقال فيه ايضاكما رواه الحاكم في المستدرك : لمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من اعمال أمتي الى يوم القيامة » . وقد روى الحاكم ايضا ان النبي (ص) قال : « قتل علي لعمرو بن ود أفضل من عبادة الثقلين » .

وأما الحسين (ع) فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده . والائمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جدا لا يقوى عليها البشر العادي ، ولا مجال لذكر ما امتحن به الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين من امتحانات شاقة جدا يفر منها غيرهم .

وقد جاء في الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :«ان أشد الناس بلاء النبيون ، ثم الوصيون ثم الامثل فالامثل وانما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه ، ومن سخف دينه وضعف عمله ، قل بلاؤه ، والبلاء أسرع الى المؤمن التقى من المطر الى قرار الارض ، ذلك : ان الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر .

والامتحان أوالبلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالانبياء (ص) والاوصياء (ع) ثم الامثل فالامثل ، واما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ : ذنوب وآثام . فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغى ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل مانهى عنه الدين .

فعن أبي جعفر (ع) قال : ان الله عز وجل اذا كان من أمره ان يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم ، فان لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة ، فان لم يفعل ذلك به شدّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب ، وإن كان من أمره أن يهين عبدا وله عنده حسنة صحح بدنه ، وان لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه ، فإن لم يفعل به هون عليه الموت ، فيكافيه بتلك الحسنة » .

وعن أبي عبد الله (ع) : قال : « إن العبد اذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل مايكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها » . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لايزال الغم والهم بالمؤمن حتى لايدع له ذنبا » .

أنظروا كيف يأمرنا الإمام ( ع ) بمحاسبة نفوسنا . فعن أبى الحسن الماضي (ع) [1] : قال: « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم . فان عمل حسنة استزاد الله عز وجل ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه » .

إن العبد ليمتحن في كل يوم من حياته امتحانات عدة حسب قابليته واستعداده . فطوبى لمن وُفق في امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وارادة قوية مستمدا التوفيق منه تعالى . فهذه هي الارادة الحقيقية التي يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة : ( Pedagogie Moderne ) وأن تعمل في تنميتها .

يقول أحد رجال التربية في الغرب: كان لي صديق وقد زرنا معا الهند .

(١) انه الامام السابع : موسى بن جعفر ( ع ) .

فرأيته يغيب بعض الليالي . فسألته السبب قال : اني لأجد في ارادتي ضعفا وأحب تقويتها . أخرج جوف الليل الى الغابة أو الى الصحراء وأبارز الاسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيىء نارا ان أنا تأخرت عن القائها عليها ثانية واحدة كان في ذلك موتى المحتوم ، وبهذا أجد أن مقاومتي للشدائد أصبحت أكثر من ذى قبل .

نعم ، ان هذا النوع من الاعمال التربوية تقوى الارادة وان كتب التربية مشحونة بهذه الاساليب التربوية . ولكن للتوجيه أثرا عظيما في مستقبل الانسان الديني وتوجهه نحو خالقه أي في تكامل نفسه . فربَّ قوى الارادة يصرف ارادته في أمور محرمة وأشياء تافهة .

إن الله تعالى يقول : «ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » . أو يصرف ارادته في دنيا محضة أي في تقوية جانب المادة مع اهمال جانب تكامل النفس : الامر الذي وجد الانسان على وجه البسيطة لأجله . فلو عنيت التربية بناحية التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الارادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة . ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها . تنظر الى الحياة المادية كأنها الهدف الاسمى وتربي الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وان فسدت في الاثناء النفس وانحطت الملكات الاخلاقية والدينية .

وليس تكامل النفس بشيء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب في الامتحانات النهائية ، لأنها أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية . لذلك انحطت الاخلاق الاجتماعية والاخلاقية الاسلامية الموروثة : أعني الصفات الانسانية الكاملة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لاتتجاوز الحنجرة وحركات الوجه .

يقول الله تبارك وتعالى : « إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » . فدخلق الله جل شأنه من النعم والمآكل والمشارب والملابس والمساكن مايجذب الانسان ببهجته وروائه فيطمع الانسان فيها . ولا تتأتى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب. فتغلب الشهوة وينقاد اليها الانسان، فاذا به يفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغي ليتزود من هذه النعم والمآكل ويتزين بأنواع الزينة فيرسب في هذا الاختبار النفسي العسير . ان الله لم يحرم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها اذا كان من مورد حلال شرعي واستعمل حسبما عينه الشرع : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون ». (سورة الأعراف ). ففي هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر في التنعم بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية ، أما في الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم ، بمقياس لايحيط به العقل البشري .

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للامتحان : (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و ....) ، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتي يقينا صادقا وتوجها خالصا ولطفا ربانيا : « والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم » . ( سورة محمد ص : ١٩ ) .

قد يصادف الانسان في عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحون عليه بالشرب وهو يمتنع لطهارة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة ، ثم يلحفون عليه ثانية وثالثة والشيطان بالمرصاد . فهنا صراع بين العقل والنفس الامارة بالسوء أو بالاحرى بين العقل ( إن لم يحجب وبقي على فعاليته) وبين

الشيطان . فان غلب الشاب على أمره فقد سقط في هوة سحيقة . وان تذكر أمر الله واليوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جل وعلا في خلاصه ونجاته فان الله يهيىء له أسباب النجاة . وان ارتداعه هذا في هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضله هدىً وتقوى وصلاحاً . فقد جاء في الحديث : « لو مشى العبد نحو شبرا لمشيت نحوه ذراعا » . وما من تقي إلا ويُمتحن في حياته بامتحان أو امتحانات نظائر هذا الامتحان .

كثيراً ما تقوى ارادة الانسان على النجاح في أمور دنيوية ولكن نفس هذه الارادة تراها مغلوبة تجاه الشهوات والمغريات ، ضعيفة أمام محارم الله تعالى . فالارادة كل الارادة اذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب . فان الاموال المحرمة أو المشتبهة لها آثار سلبية في اتجاه الانسان نحو خالقه وفي قمع الشبهات وحصول اليقين .

أرأيت مرابيا بلغ من الايمان مرتبة تذكر ، أم رأيت سارقا تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى . ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح في مهمة باستعمال المكر والخديعة . فكل عضو من أعضاء الانسان يمكن استعماله في حلال أو حرام . وهذا هو معنى الاختيار . فالعين يمكن استعمالها في الحرام بالنظر الى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر الى المحرمات . فقد جاء في الحديث : « الأولى لك والثانية عليك » . أي أن الله يغفر لك النظرة الأولى التي جاءت عفواً وأنت آثم في الثانية مدنّس فيها نفسك . واليد يمكن استعمالها في دع اليتيم وضربه ويمكن استعمالها في المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل في المعامل وأمثال ذلك . وكذلك الرِجل يمكن استعمالها في الذهاب للسرقة أو دور البغاء ، ويمكن استعمالها في حمل طعام الى أرملة

بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته .

وقد بين الله تعالى كل مامن شأنه ارتقاء النفس وكل مامن ورائه انحطاط النفس على لسان نبيه الأمي ( ص ) : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ( سورة النساء ١٦٣ ) . وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية :

« سر ميلاً عد مريضا ، سر ميلين شيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخا في الله ، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف ، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار » .

قال الله تعالى : ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة » . ( سورة الأنفال : ٤٤ ) .

# انما المؤمنون اخوة

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد : « إنما المؤمنون إخوة » فانما أداة حصر ، أي أن المؤمنين لايكونون الا اخوة يتوادّون ويتحابون ، يؤازر بعضهم بعضا ويعاضد أحدهم الآخر . فالايمان هو الرابطة القوية فيما بينهم . ذلك لأن الايمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرب فيما بينها . فكأن الايمان سيال كهرباني أوخطوط مغناطيسية تؤثر في الكون فتجذب ماينا سبها وان بعد التشبيه .

ذلك لان الانسان مجموعة طاقات ، والمادة تشع فتتحول الى طـاقة. فكما أن المجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أوتباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لوكانت مؤمنة بنفس الدرجة من الايمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لوكان الاختلاف كبيرا .ووفقا لهذه النظرية اختار النبي(ص) علياً ( ع ) أخا له في الدنيا والآخرة وآخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والانصار . ولذلك كان يقول علي ( ع ) كما يحدثنا النسائي: « أنا عبدالله وأخو رسوله وأنا الصدّيق الاكبر » .

لو أمررنا تيارا كهربائيا على سلك وعلقنا بجنبه إبرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يمينا أو يسارا حسب جهة التيار ، كما هو ثابت في الفيزياء . أي يتأثر المجال المغناطيسي بالمجال الكهربائي ، لأنهما من واد واحد على وجه التقريب . كذلك تؤثر النفوس بعضها في بعض ، تتباعد أو تتقارب ، لأنها أيضا من مفاهيم القوى .

فكر في رجل يمشي أمامك تفكيرا مجردا عن كل شيء إلا في نفس ذلك

الرجل ، فتراه يدير بوجهه اليك . ذلك لأن نفسك قد أثرت في نفسه فوجهته اليك . على أن هناك قواعد يجب أن تراعى : من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى .

قد طرد في أمريكا صاحب معمل أحد عماله ، وبقى هذا العامل لاشغل له . وتأثر كثيرا ، فعمد الى عمل لعله يؤذي به صاحب المعمل وكان يعلم شيئا من آثار النفس ، فأحضر تصوير صاحب المعمل وأخذ ينظر اليه بحدة ضاربا بمطرقته على سندان بصورة مستمرة ، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد في رأسه ويشعر بضربات في مخه ، راجع الاطباء فلم يتمكنوا من معالجته . يئس من الحياة ، فأراد أن يسترضى من ظلمه . قيل له : انك طردت عاملا لك دونما مبرر . فتوجه الى بيت العامل ورأى ماكان يقوم به العامل ، فأرجعه الى محله وشفي مما ألمّ به .

إن هذه الحادثة تعلمنا ان هناك خطوطا مغناطيسية او مايشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان ، فأثرت في رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضي عليه .

فالتجاذب والتحابب والأخوّة من آثار الايمان الحقيقي ، فكلما زاد ايمان الشخص أصبح له أخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهـذا من النظم الروحية التي أودعها الله تعالى في الكون .

وقد روى أنه كان يقاس ايمان الشخص في زمن رسول الله ( ص ) بحب علي عليه السلام . فكلما كان حب الشخص لعلي ( ع ) أكثر كان ايمانه أقوى ، على أن لايبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه ، فقد قال رسول الله ( ص ) : « ياعلي ، هلك فيك اثنان : محب غال وعدو قال » .

إني أعتقد أن هناك سيالا ايمانيا ( كالسيال الكهربائي ) يوصل الفرد المؤمن بعلي عليه السلام وهو شمس الايمان فيحبه . ففي قلب كل مؤمن شعاع

من تلك الشمس حسب درجة ايمانه . فقد قال رسول الله حين برز علي الى عمرو بن عبد ود : « برز الايمان كله الى الشرك كله » .

فعلي (ع) الايمان كله على حد تعبير رسول (ص) والمؤمنون لهم نصيب من هذا الايمان بدرجة حبهم لعلي، على أن لايبلغ هذا الحب درجة الغلو، فبعد أن كان موجبا يصبح سالبا ، مثال ذلك : ( ع = ظاس [1] . وعندما تكون س = ٩٠° ، أو ٢٧٠° ، ينتقل الظل من +٨ الى — ٨ ) فيكون المغالي مخلدا في النار : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

ويؤيد ماقلنا ماروى عن النبي ( ص ) : في حديث قدسي : «إن الله عهد لي في علي عهدا . قلت يارب بينه لي . قال : إن عليا آية الهدى وامام أوليائي ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين ، من أحبني أحبه ومن أطاعني أطاعه » .

وعن حلية الاولياء عن النبي ( ص ) : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء . فأعطى علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحدا منها » .

ترى شخصا لاتعرفه من ذي قبل ، فتحبه حبا جما وتود أن تجالسه وتعاشره . كلما تفتش عن السبب لاتهتدي اليه . السبب : هو انجذاب الارواح المؤمنة بعضها الى بعض بصورة طبيعية .

رآني يوما مؤمن من أهل الفضل . فقال : اني كنت أحبك عن بعد . وان حبي اياك يزداد يوما فيوما . فلم أقو على الكتمان . وأظن أنا قد تحابينا في عالم الذر . فأرجو أن تجعل فطورك غدا عند الصباح في بيتي، وقرأ لي

---

(١) لايخفى ان هذا المثال الرياضي لاينطبق على الموضوع . وانما ذكر لتقريب والتوضيح . ولم نبلغ من العلم درجة تمكننا من وضع دساتير رياضية لقضايا نفسية . « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أتيتم من العلم الا قليلا » .

هذا الحديث: « الارواح جنود مجندة ، ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فالله تعالى بنص الآية : « إنما المؤمنون إخوة .....» أراد بالمؤمنين أن يكونوا اخوانا يساعد بعضهم البعض .

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : «أيجيء أحدكم الى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه ، فقلت لا ، فقال : ليس هؤلاء شيعة ... الى آخر الحديث» ... وهذا غاية الكمال في الاخوة ، أوليس ديننا دين الكمال . أوليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس «من الظلمات الى النور باذن ربهم » . وليس النور إلا ما يبلغ اليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله .

يقول الله تبارك وتعالى: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » . ومعنى ذلك أن الله يحدث في قلوب المؤمنين حبا وودا للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة . فان الايمان والاعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية ، وهي حدوث مودة طبيعية في قلوب المؤمنين . فقد جاء في الحديث : « من أراد عزا بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته » .

يقول الله تبارك وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . النعمة هي نعمة الاسلام ونعمة الايمان . فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم . لاتباغض بينهم ولاتشاحن بل هم « كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا » . هذه أخوة المؤمنين في الدنيا . وهناك أخوة أبدية بعد الموت في عالم الخلود في «جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين» . وهو قوله تعالى : «ان المتقين في جنات وعيون . أدخلوها

بسلام آمنين . ونزعنا مافي صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » .

فمن لم يدخل في الاخوة الاسلامية ، فليس من الايمان في شيء ، وان الايمان لم يلج في قلبه .

وعن المفضل بن عمر . قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « انما المؤمنون أخوة بنو أب وأم . فاذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون » . ومعنى ذلك : ان المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين ، لأجل دفع المكروه عن اخوانهم واسعافهم وازاحة الكربة عنهم .

نعم ، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير اختيارية :( لاعن شعور ) . ذلك لان أشعة الايمان توصل بعضهم ببعض ، فيشعر هذا بحزن ذاك فيحزن ، ويحس بسروره فيسر .

هذا جابر الجعفي يقول : تقبضت بين يدي أبي جعفر (ع) فقلت جعلت فداك : ربما حزنت من غير مصيبة أوأمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي . فقال : « نعم ياجابر ، ان الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه ، فلذلك : المؤمن أخو المؤمن لابيه وأمه . فاذا أصاب روحا من تلك الارواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لانها منه » . وفي حديث آخر : «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله ، لايخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه » .

ان للايمان حيوية تربط نفوس المؤمنين بعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة . وان هذه الرابطة لايضاهيها أية رابطة أخرى ، هي رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصلحاء من خلقه . وهو قول أبي عبد الله عليه السلام : « المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، ان اشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهم واحدة ، وان روح المؤمن لاشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها » . وهذا حفص بن البحتري يقول :

« كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل عليه رجل . فقال لي: تحبه ؟ فقلت : نعم ، فقال لي : ولم لاتحبه وهو أخوك وشريكك في دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك » . نعم ، المؤمنون يخدم بعضهم بعضا ويفيد بعضهم بعضا كما هو مضمون حديث.

ان الدين الاسلامي قد فرض حقوقا على كل من المؤمنين ، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر (ع) : « من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه ، فاذا مات خلفه في أهله وولده » .

وهل يتصور البشر أخوة أعلى من هذه الاخوة ، وهل يتصور سلام في الكون أرفع شأنا من سلام يتأتى من تطبيق الدستور المذكور . نعم يصل الانسان الى تطبيق هذا الدستور حرفيا لو قوى ايمانه وزاد يقينه وصار مظهرا للتقوى والورع . فالكمال : فرع الايمان ورشحات التقوى وآثار الورع . فمن فتش عن الكمال الانساني في واد آخر فقد تاه وضل . ولا تطمئن نفس امرىء ولا تعترف بفعالية آثار الايمان والتقوى فيها الا اذا كان ممن جرب وسار في مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها .

هذا معلى بن خنيس يروي عن أبي عبد الله (ع) يقول : « قلت له : ماحق المسلم على المسلم ، قال له سبعة حقوق واجبات ، مامنهن حق إلا وهو عليه واجب ، ان ضيع منها شيئا خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب . قلت له : جعلت فداك وماهي ؟ قال: يامعلى ، اني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل . قال قلت له: لا قوة الا بالله ، قال : أيسر حق منها : أن تحب له ماتحب لنفسك وتكره له ماتكره لنفسك. والحق الثاني : أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك . والحق الرابع : ان تكون

عينه ودليله ومرآته . والحق الخامس : لاتشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى . والحق السادس : أن يكون لك خادم وليس لاخيك خادم ، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه . والحق السابع : أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته ، واذا علمت أن له حاجة تبادر الى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة ، فاذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا » .

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلىء من لآلىء هذا الناموس العظيم تتلألأ بكل وضوح وجلاء . لالىء لايصل الى عمقها فيلسوف تربى في أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية . ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين .

# التراحم فى الاسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعا سجّداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متعاطفون ، يرحم بعضهم بعضا ويعطف كل منهم على الآخر ، فانهم راكعون ساجدون « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . وان الركوع والسجود باخلاص واقبال ليؤثران في توجيه النفس الى الله تعالى فتشعّ منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتتدرج في مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف . يقول الله تبارك وتعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » .

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض ، يتوادّون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم . فلا ترى فيهم محتاجا ولا بائسا ولا مسكينا . لأن المستطيع منهم يبادر الى مد يد المعونة الى الضعيف ، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه في سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم . لماذا ؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الاخلاق الكريمة القائم بهذه الاعمال الواجبة من إقامة الصلاة وايتاء الزكاة واطاعة الله واطاعة رسوله ( ص ) لايكون الا ولي المؤمن الآخر ، يساعده ويؤازره ويضحي بنفسه ونفيسه في سبيل انقاذه مما أصابه ، حتى يكون موضع رحمته تعالى . لقوله تعالى : «سيرحمهم الله» فان الحياة الاجتماعية السعيدة لاتتحقق الا اذا توادت القلوب وتراحمت

وتعاطفت . وان التراحم لايحصل الا اذا تمركز الايمان في قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقا .

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الاسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لاتقوى على ربط أفراد المجتمع ربطا عميقا يؤدي الى سعادة الدارين .ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا تلج النفوس ولا تربيها تربية تجعلها متآزرة متحابة متراحمة فيما بينها . ولا شك أن أقل حظ للأمة من الاخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته . فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هي رابطة الايمان. يقول ( گوستاو لوبون ) : « من الخطأ الضار محاولة بناء الاخلاق على المعقول وحده كما ذهب اليه كثير من الفلاسفة ، لانه اذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الديني ، فلا بقاء لها ولا قوة » . وقد فاته أن ماجاء في الدين الاسلامي من الاسس الاخلاقية ، منطقي معقول يتفهمه المؤمن بنور الايمان ويعمل به بتساند عقلي . اذ أن دين الاسلام دين العقل . وكل ما أمر به الدين أمر به العقل المتكامل . فاذا كان العقل لايدرك حكمة بعض الاوامر الدينية فذلك لنقص فيه . وكم من الاوامر الدينية قد ظهرت حكمها بعد تقدم العلوم والفنون وكان يحار الانسان في تعليلها قبل ذلك .

نعم ، ان حضارة الامة في المقياس الصحيح تتناسب مع مقدار تمكنها من ضبط نفسها وقيامها بواجباتها الاخلاقية . تلك الاخلاق التي أقرها الدين الاسلامي، تلك الاخلاق التي لايصل البشر الى تأسيسها مهما تكاملت نفسه ، تلك الاخلاق التي تجعل الانسان أعلى منزلة من الملائكة .

قال الصادق ( ع ) : « ان أشد ما فرض الله على خلقه ثلاثة : انصاف المرء من نفسه حتى لايرضى لاخيه من نفسه الا بما يرضى لنفسه منه ، ومواساة الاخ في المال ، وذكر الله على كل حال .. ليس سبحان الله والحمد لله

ولكن عندما حرم الله عليه فيدعه » . يريد الامام (ع) بذلك أنه لاينبغي للمؤمن أن يكتفي بقوله : سبحان الله والحمد الله ، بل عليه أن يذكر الله عند كل ماحرمه الله عليه : من استعمال الحيل في الربا ، والكذب ومخادعة المؤمن في المعاملة ومطالبة أخيه المؤمن ماليس له . ان المؤمن يواسي أخاه المؤمن في المال ، ويساعده ويقرضه . فلماذا نرى أناسا يحملون اسم الاسلام ، فاذا أتتهم امرأة بائسة بذهب لها يسير، تريد أن ترهنه لديه كي تستقرض مبلغا لاداء كراء دار حقيرة ، فيجيب بخشونة : ليس عندي شيء ولكن ان كنت ترجعين المبلغ وزيادة فاني مستعد لذلك ، مع أن لهذا الرجل كسبا يكتسب به أو صنعة يعيش من ورائها ، وان لم يكن هذان متوفرين لديه فأن أبواب الكسب مفتوحة له . ماذا تصنع هذه المسكينة ؟ تأخذ من هذا المرابي (١٢) دينارا مثلا وترجع اليه بعد ٣ أشهر (١٥) دينارا فتكون قد دفعت ربحا قدره مائة في المائة بحساب السنة . أهذه هي المواساة في المال ؟ ألم ينه الله عن الربا وتوعد عليه العذاب الشديد . ألم يقل ( جلّ من قائل ) : «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون، واتقوا النار التي أعدّت للكافرين » . ألم يبلغه هذا الحديث : « درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام » .

نعم ، ان للمؤمن على المؤمن حقوقا يجب عليه ان يؤديها حتى يستحق لقب الايمان . وليست العبادة الصلاة والصوم والحج ... فحسب ، بل تتجلى العبادة في كل عمل اجتماعي أمر به الله ، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وايجاد حياة اجتماعية سعيدة. وهو قول أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام : « ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن » .

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها . أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذا الدين دينا عالميا وتربية عالمية لانقاذ هذا البشر مما

ينتابه من شرور وويلات ؟ أفلا يليق بفلاسفة الاخلاق وعلمائها ان يجتمعوا أياما وأشهرا وأن يتتبعوا هذا الدين بامعان وانعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤا « الاسلام » كدين عالمي ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه .

نعم ، من نواميس هذا الدين مايقول جعفر الصادق عليه السلام : « المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ولا يخذله ولا يخونه ، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين ، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم .. على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله » .

هذا دين اجتماعي يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع وسعادة الانسان بعد الموت، تلك السعادة التي تستغرق ملايين السنيين ، لا نفاد لها ولا انتهاء. تلك السعادة التي هي فوق حدود التصور ودائرة التفكير. نعم ، لايمكن الوصول الى هذه السعادة الا اذا طبق دستور أبي عبدالله (ع) وهو القائل: « اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله ، متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه » .

ونسأل الله التوفيق للايمان الصادق والاخوة الكاملة والتحاب والتواصل والتراحم والتزاور والتلاقي واحياء أمر الأئمة الاطهار عليهم الصلاة والسلام

# التآلف فى الاسلام

الاسلام دين الألفة والتوادد والتحابب في الله ، دين الاجتماع والتعاون والتعاضد ، دين لوعمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الارض جنة من الجنان وفردوسا كان يحلم به افلاطون ، بل فوق ماكان يتصوره افلاطون وغير افلاطون من الفلاسفة بدرجات . ذلك لان ماكان منبعه فياضا ، منبعه الافاضات الربانية لاينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لاتتناهى نحو الكمال إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد . «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » . « وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها » .

إن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظما شأن الائتلاف : « لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » . وهو القائل : « فأصبحتم بنعمته اخوانا » أي بنعمة الالفة . « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . ان هذا لدستور هام للأمم الاسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعا وهو دينه القويم ، عاملين به ، غير منحرفين عنه قيد شعرة . وقد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة ، مشيرا الى أن التمسك بالدين تمسكا صحيحا يؤدي الى عدم الفرقة وتمام الالفة ، لان الايمان يلقي في النفس الانسانية نورا يتجاذب مع بقية الانوار الايمانية التي تماثله ، فألفة المؤمنين أمر طبيعي وخاصية طبيعية كخواص الاجسام المادية .

انظروا ماذا يقول سيد البشر المربي الاعظم خاتم النبيين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله في هذا المقام : انه صلوات الله عليه يقول : « المؤمن إلف

مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف » . وهذا هو السر في أن الدين الاسلامي يرغب الناس كثيرا في التسليم والمصافحة والمعانقة .

قال رسول الله ( ص ) : « أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام » . فان رسول الله (ص) والأئمة الاطهار (ع) كانوا يبدأون الناس بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التي انحصرت فيهم ، فان البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها . ولا يبعد العبد عن الافاضات الربانية شيء كالكبرياء والتبختر . وقال علي عليه السلام : « لاتغضبوا ولا تقبضوا ، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام . وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وقد جاء في الحديث : «مثل الاخوين اذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الاخرى » ماتلاقى المؤمنان قط الا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا » .

ان عليا عليه السلام صاحب ذات ليلة مسيحيا في الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، حتى كانا في مفترق الطريق ، فلم يفارقه عليٌّ (ع) بل صاحبه ماشيا نحو بيت المسيحي الى مسافة ما ، ثم ودعه وأمّ الرجوع ، فقال له المسيحي : ظننت أن لك في هذه الحارة شغلا ، فقال عليه السلام ما مؤداه : كلا ، بل من شأن المصاحب أن يشايع صاحبه الى مسافة ما . هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحي وهو دستور رائع يجب أن يقتدى به . فان الاسلام انما جاء لاتمام مكارم الاخلاق .

ثم ان الدين الاسلامي قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكر الله . لان الألفة كثيرا ما تؤدي الى الفساد والافساد . فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقا سيئة بنتيجة الألفة والمصاحبة ، لانهم لم يفكروا في ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله ، وان هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ في عنفوان الشباب ودور المراهقة حيث تتهيج في الشباب احساسات

شتى وميول عدة . فأن صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصيبة بسلام والا وقع في أشراك شياطين الانس حيث الهوة السحيقة والتسافل المرير . فخير لشاب لايجد صديقا تقيا نجيبا أصيلا أن يبقى وحيدا فريدا لايعاشر أحدا . فان العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الانسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الالهية . لذلك يقول رسول الله (ص): « عاشروا من يذكركم الله » . وفي حديث آخر « لا تجالس شراب الخمر فان اللعنة اذا نزلت عمت من في المجلس » . وفي حديث آخر : « الغناء مجلس لاينظر الله الى أهله » .

فترون أن الالفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله واقامة حدود الله ، وقد قال الصادق عليه السلام : « ان المسلم اذا رأى أخاه كان حياة لدينه اذا ذكر الله » . وقال ( ع ) لأبي خديجة : « كم بينك وبين البصرة ؟ قال :في الماء خمس ، اذا طابت الريح ، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك . فقال ماأقرب هذا ، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضا ، فإنه لابد يوم القيامة أن يأتي كل انسان بشاهد يشهد له على دينه » .

وقد نهى الدين الاسلامي عن التباغض والتدابر وهو القائل : «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وقد قال رسول الله (ص) : « لايحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، والسابق الى كلام أخيه أسبقهما الى الجنة » . ويراد من الأخ هنا : الأخ المسلم . وكم رأينا اخوانا من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه . ولو رجعوا الى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الذي ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين ، متباغضين .

جاء في أعمال ليلة القدر أن اول عمل وافضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والاحقاد من القلوب . قال رسول الله (ص) : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . وقال أيضا : « أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثا

لا يصطلحان الا كانا خارجين من الاسلام ولم يكن بينهما ولاية ، فأيهما سبق الى كلام أخيه كان السابق الى الجنة يوم الحساب » . فحريٌّ بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر احنة او سوء تفاهم أن يسبق الى منزله ، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الإحنة والبغضاء بكلمات طيبة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ليكون هو السباق الى الجنة .

أنظروا ماذا يقول الصادق (ع) في هذا المقام : « لايفترق رجلان على الهجران الا استحق أحدهما البراءة واللعنة ، وربما استوجب ذلك كلاهما . فقال له ، معتب . جعلني الله فداك ، هذا الظالم ، فما بال المظلوم ؟ قال : لأنه لايدعو أخاه الى صلته ولا يتعامس [1] له عن كلامه . سمعت أبي (ع) يقول : اذا تنازع اثنان فعادى أحدهما الآخر ، فليرجع المظلوم الى صاحبه حتى يقول لصاحبه : أي أخي ، أنا الظالم ، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه ، فان الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم » .

هل يتصور انسان أن هناك دستورا يؤلف بين الناس أعظم من هذا الدستور الالهي ، يأتي الصديق المظلوم الى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم ، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض ، فيحزن الشيطان اذ ذاك . اذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد . فقال أبو عبدالله (ع) : « لا يزال ابليس فرحا ما تهاجر المسلمان ، فاذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله ، ونادى يا ويله ، لما لقى من الثبور » .

قال الباقر (ع) : « ان الشيطان يغرى بين المؤمنين مالم يرجع أحدهم عن دينه ، فاذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال : فزت . فرحم الله أمرأ ألف بين وليين لنا ، يا معاشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا » .

ومن أفضل أنواع التآلف صلاح ذات البين وادامة المودة والمحبة بين

---

(١) لايتعامس . لايتغافل ولا يتجاهل .

الارحام . فان عليا عليه السلام يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :« صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وان البغضة حالقة الدين ، ولا قوة الا بالله ، أنظروا ذوي أرحامكم ، فصلوهم ، يهون الله عليكم الحساب » .

وقال عليه السلام : « عليكم بالتواصل والتباذل والتبار واياكم والتقاطع والتدابر والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » . يقول الله جل وعلا : « ولاتجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » . « لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » .

# التزاور فى الاسلام

الاسلام دين جامع لجميع الكمالات التي تؤدي الى كمال الفرد وكمال المجتمع ، وليس دينا يأمر بالعبادة فحسب • فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الانسان انسانا كاملا •

وقد زعم بعض من أخذ طرفا من مدينة الغرب وآدابها الاجتماعية أن الاسلام : دين زهد وانزواء وجمود وخمول ، وأنه لايصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدي الى تكامل الامة وسيرها في ساحات الرقى والتقدم ، وأخذ يلتمس الرقى في تقليد الغرب ــ تقليدا أعمى ــ في حياتها الاجتماعية الخالية من أسس الكمال ، تلك الحياة العارية عن الاسس الروحية والفضائل العليا التي يبلغ بها الانسان ذروة الكمال • كل ذلك لجهله نواميس الاسلام وآداب الاسلام وأوامره ونواهيه • ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها اهمالا أدى الى مقت الشاب الدين الاسلامي وطلبه السعادة والنور في احضان الغرب •

نعم ، ان طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفليبين اكثر مما يعلمه عن دينه : ذلك الدين الذي منّ الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الامم ، وبعث نبيه (ص) في خير بقاع الارض وهي مكة المكرمة • ولا تزال مدارسنا لاتدرس الدين الاسلامي تدريسا يشبع الطالب بحقائقه وجلائل سننه وتعاليمه وكم مدرسا تجدون في العراق قد أحاط بفلسفة الدين الاسلامي وعمل به عملا يستوجب الاقتداء والاتعاظ •

ولم يحصل هذا التبلبل في العقائد وهذه الاتجاهات الباطلة الفاسدة والمباديء الهدامة الا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين

الاسلامي في المدارس بعقيدة راسخة وايمان رصين مع تطبيق حقيقي . وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوي .

بديهي أن الانسان لايخلو من اتجاه ، كما لايخلو مكان على وجه الارض من هواء بصورة اعتيادية . فان لم يتجه الفرد الى الحق والصواب ، فهو متجه لامحالة الى الباطل والفساد : « ان النفس لأمارة بالسوء » .

أنظروا الى ما يقوله هذا الدين القويم في حسن التعارف وايجاد حياة سعيدة اجتماعية . قال رسول الله ( ص ) : « ما اصطحب اثنان الا كان أعظمهما أجرا واحبهما الى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه » . هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد الى الله وتقريبه اليه . ويقوى رابطة العبد والمعبود الى حد بعيد . لأن الكمال الانساني يتناسب مع قوة هذه الرابطة . ومن أين يستقى هذا الانسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات ؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان ، وهو القائل : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . الغربي لايدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب الى الله والقيام بالاعمال الصالحة لوجه الله ، بل روابطه نفعية مادية حالكة ، لايرجو من ورائها الا المنافع الخسيسة ، فهي مظلمة ، قاتمة دكناء . ألا ترى ان الغربى اذا فكر في مصيره بعد الموت تختلج اعصابه وترتبك أفكاره ، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص ، فيدنس بها نفسه أكثر مما هي عليه كي لايشعر بمصيرها : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

وعن أنس قال : « كان الرسول صلى الله عليه وآله اذا افتقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فان كان غائبا دعا له وان كان شاهدا زاره وان كان مريضا عاده » .

وعن أبي حمزة عن أبي عبدالله الصادق (ع) انه قال : « من زار أخاه

لله لا لغيره التماس موعد الله وتنجز ما عند الله ، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة » .

هذا خيثمة يقول : دخلت على أبي جعفر « وهو الامام الباقر عليه السلام » أودعه فقال : ياخيثمة ، أبلغ من ترى من موالينا السلام ، وأوصهم بتقوى الله العظيم ، وأن يعود غنيهم على فقيرهم ، وقويهم على ضعيفهم ، وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم ، وأن يتلاقوا في بيوتهم ، فان في لقيا بعضهم بعضا حياة لأمرنا ، رحم الله عبدا أحيا أمرنا ، ياخيثمة أبلغ موالينا : أنا لانغني عنهم من الله شيئا الا بعمل ، وأنهم لن ينالوا ولا يتنا الا بالورع . وأن أشدالناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالف الى غيره » .

هذا دين جعل زيارة الاخوان في الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيما لشأن المؤمن واهتماما بالتربية الاجتماعية . فقد قال جعفر الصادق عليه السلام : « من زار أخاه في الله ، قال الله عزوجل : اياي زرت وثوابك عليَّ ولست أرضى لك ثوابا دون الجنة » .

فهذه الزيارة لله وفي الله وابتغاء لوجه الله الكريم . لايرجى من ورائها تثبيت في وظيفة حكومية او مقدمة لنيل درجة أو مقام من المقامات أوجلب نفع مادي ، بل يؤتى بها أداء لحقوق المؤمن فحسب وتعظيما لشأنه .

هذه زيارة لايتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء . هذه زيارة لاترى فيها محلا للقمار والميسر ولا أثرا للخمرة ونظرات السوء . هذه مجالس لاترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل . هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث في ما يهم المسلمين وقضاء حوائجهم . هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الانسان الى محاسبة نفسه فقد جاء في الحديث : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وزنوها قبل أن توزنوا » . هذه مجلس تكفر عن الذنوب بما يتخللها من انابة واستغفار فقد

جاء في الحديث : « عاشروا من يذكركم الله » . هذه مجالس ينظر اليها الله بنظر الرحمة ويتغمدها بعظيم ألطافه .

نعم ، في هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبدالله عليه السلام بقوله : « من زار أخاه في الله في مرض او صحة لايأتيه خداعا ولا استبدالا ، وكل الله به سبعين الف ملك ينادون في قفاه أن طبت ، فطابت لك الجنة . فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله . فقال له بشير ( وهو أحد أصحابه ) جعلت فداك . فان كان المكان بعيدا ؟ فقال عليه السلام : نعم يا بشير ،وان كان المكان مسيرة سنة ، فان الله جواد ، والملائكة كثير يشيعونه حتى يرجع الى منزله » .

أنظروا الى أثر زيارة الاخوان في حسن العاقبة فان الامام محمدا الباقر عليه السلام يقول : « ان لله عز وجل جنة لايدخلها الا ثلاثة : رجل حكم على نفسه بالحق ، ورجل زار أخاه المؤمن في الله ، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله » . فان « لقاء الاخوان مغنم جسيم وان قلوا » كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام .

لا أعلم نظاما اجتماعيا أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالانسان الى أقصى حد من مراتب الكمال ، ولا أرى تحابيا فوق التحابب في الله ولله ، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت عليه التعاليم الاسلامية الرفيعة . ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيق التحابب والتراحم والتزاور في الله ... وما أحوج العالم الاسلامي الى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات التي تتجلى فيها الايمان لدعوة شاملة ورفع لواء الاسلام في أصقاع الارض عاليا ، حتى لاتكاد تسمع في أية بقعة من بقاع الارض الا : قائلا يقول : لا إله الا الله . محمد رسول الله ...

# التعاطف فى الاسلام

اذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء • لذلك اهتم الدين الاسلامي بتقويم الاخلاق اهتماما بالغا فوق حدود التصور والخيال وجاء بدساتير متينة مثالية لايضاهيها أي دستور بشرى • فقد قال رسول الله ( ص ) : « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » • فانما أداة حصر ، أي ان علة بعث الرسل وارسال نبينا محمد بن عبدالله (ص) انما هي تكميل مكارم الاخلاق وابلاغ الانسان الى آخر حد ممكن من الكمالات الاخلاقية ، لكي يخرج من هذه الدنيا زكيا نقيا طاهرا حريا ليحشر مع : « الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » •

فمن جملة تلك الاخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوي عن أبي عبدالله عليه السلام انه قال : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما أمركم الله عز وجل » •

هذا دستور اجتماعي قويم لو عمل به المسلمون لاضاؤا العام بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لاخراج البشر من دياجير المادية الدكناء •

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوادد والتحابب بصورة عملية : يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز في شوؤنه البيتية ، أو يرسل معه ثيابه التي لايحتاجها الى أناس فقراء ، أو يرسل معه مافضل من طعامهم الى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغا نيقدمه الى مقعد أو ذي عاهة لايطيق عملا • وليُعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى • فان كثيرا

من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أو ظلمة نفوسهم لايقومون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى بل خدمة للانسان . فان هؤلاء قد يجازون ازاء خدمتهم هذه جزاءاً حسنا في الدنيا من عز دنيوي ورفاهية وصحة وطول في العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت ، ولايفيدهم عملهم الصالح يوم « لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » . في يوم « يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الارض جميعا ثم ينجيه ، كلا انها لظى نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . في يوم « يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . ذلك لأن كمال النفس الانسانية انما يحصل بتوجهها الى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الاعمال كلها الى الله . وكلما قويت هذه الرابطة — أي الرابطة بين العبد والمعبود — سطعت من الانوار الالهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد في ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من براثن المادة العمياء ، وما بيناه تفسير لقوله تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » . فان رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الاعمال الصالحة ابتغاء لوجهه الكريم وتقربا اليه ، ولا تفيد الخدمات الانسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب الى الله تعالى .

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات اسلامية أو لجان للارشاد الديني لتطبيق ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير التراحم والتعاطف بصورة عملية . تجمع هذه الجمعية أو لجنة الارشاد الديني من الطلاب الاغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق ( بلى ) من ثياب وحذاء فتذهب بها الى بيوت الارامل والايتام ، فتقدمها بكل احترام وبآداب اسلامية وتعمل في اقامة الصلاة داخل المدرسة وفي المساجد والقاء خطب دينية ، الى ما هنالك ...

قال أبو عبد الله عليه السلام : « ان من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه ، وان كان نافلة في المسلمين وكان غائبا أخذ له بنصيبه ، واذا مات ، فالزيارة الى قبره ، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وان لا يقول له أف ، وان قال له : أف ، فليس بينهما ولاية ، وان قال له : أنت عدوى فقد كفر أحدهما ، واذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء » . ( انماث : ذاب ) .

فترون ان الايمان يتناسب مع القيام بالواجبات الاخلاقية ، فكلما قام الانسان بالواجبات الاخلاقية لوجه الله الكريم وطلبا لمرضاته تعالى قوي ايمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل في تطبيق الاوامر الاخلاقية الاسلامية ضعف ايمانه وتضعضع يقينه .

هذا بان بن تغلب كان يطوف مع أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج الا به . فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه ، فكره أن يدع أبا عبد الله (ع) ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن ، وقد أشار اليه صاحب الحاجة مرة ثانية . واذا بأبي عبد الله (ع) يراه ، فأمر أبان بن تغلب بقطع الطواف والذهاب الى قضاء حاجة الاخ المؤمن ، ولو كان هذا الطواف طواف الفريضة . ثم يسأل أبان الامام (ع) عن حق المسلم ، فيجيب (ع) : حق المؤمن ان تقاسمه شطر مالك . ثم نظر على أبان أمارات التعجب . فيقول الامام (ع) : يا أبان ، أما تعلم أن الله عز وجل ذكر المؤثرين على أنفسهم . فيقول أبان : بلى ، جعلت فداك ، فيقول الامام (ع) : « أما اذا قاسمته فلم تؤثره بعد ، انما أنت وهو سواء انما تؤثره اذا أنت أعطيته من النصف الآخر » . وقد جاء في حلية الاولياء : أن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قاسم الله ماله مرتين .

يقول محمد بن عجلان : كنت عند أبي عبد الله الصادق (ع) فدخل رجل فسلم . فسأله كيف من خلفت من اخوانك . فأحسن الثناء وزكّي وأطرى فقال له (ع) : « كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم . فقال: قليلة . قال: فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم. قال: قليلة. قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم . فقال: انك لتذكر أخلاقا قلّ ماهي في من عندنا. قال : فقال (ع) : فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة » .

يقول أبو اسماعيل : قلت لأبي جعفر - وهو الامام محمد الباقر (ع) جعلت فداك : ان الشيعة عندنا كثير . فقال : « هل يعطف الغني على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون . فقلت : لا فقال : ليس هؤلاء شيعة . انما الشيعة من يفعل هذا » .

وقد سأل مُعلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سبعون حقا . لا أخبرك الا بسبعة ، فاني عليك مشفق ، أخشى أن لاتحتمل . فقلت : بلى ، ان شاء الله تعالى . فقال (ع) : «لاتشبع ويجوع ولاتكتسي ويعرى وتكون دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ماتحب لنفسك وان كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار . فاذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عز وجل » .

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وايجاد حياة سعيدة للجميع الى حد بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه ، وعد ذلك من أفضل العبادات . فان عليا عليه الصلاة والسلام يقول: « ان لله عبادا يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها . فاذا منعوها نزعها منهم ثم حولها الى غيرهم » .

ليست السعادة الحقيقية في جمع المال فحسب ، بل في بذله وانفاقه لوجه الله الكريم . فبذلك تتكامل النفس وتتخلص من براثن المادة وتتصل بالملكوت

الأعلى وتكون انسانا كما يرتضيه الله تبارك وتعالى ، ونسأل الله أن يوفقنا الى اتباع سنة الرسول وآله الاطهار عليهم الصلاة والسلام ، فنكون متعاطفين متراحمين : مؤمنين .

# آداب السلام فى الاسلام

قال الله تبارك وتعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها» ومعنى ذلك : لو أن أحدا سلم عليك بقوله: السلام عليك . فيجب عليك اما أن تقول: ( السلام عليك ورحمة الله ) أو: ( وعليك السلام ورحمة الله ). أو تقول: (وعليك السلام ) . فان قلت : (وعليك) ولم تزد فقد عصيت . كل ذلك لان الدين الاسلامي يحافظ على حقوق الافراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض . فالذي يسلم أولا هو ذو حق وفضل فينبغي أن يجازي بأحسن مما أتى به . وهذا مايقره العقل ويأمر به الدين الاسلامي . وهل لاحد أن يجد في الدين الاسلامي أمرا أونهيا أوتكليفا يخالف العقل المتكامل. وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة : « اذا قال المسلم : السلام عليكم ، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقد حييته بأحسن منها وهذا منتهى السلام ». وروى: «أن رجلا دخل على النبي صلى الله عليه وآله ، فقال: السلام عليك ورحمة الله . فقال النبي (ص) : عليك السلام ورحمة الله وبركاته . فجاءه آخر فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال النبي (ص) : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقيل يارسول الله : زدت للاول وللثاني في التحية ولم تزد للثالث فقال: انه لم يبق لي من التحية شيئا . فرددت عليه مثله ».

روى الواحدي باسناده عن أبي امامة عن مالك بن التيهان. قال: «قال رسول الله (ص) : من قال: السلام عليكم ، كتب له عشر حسنات ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله ، كتب له عشرون حسنة . ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب له ثلاثون حسنة » . وقال رسول الله (ص) :

«السلام تطوع والرد فرض ». ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية ومعنى ذلك: لوأن رجلا دخل مجلسا وسلم لا على شخص معين . فان رد عليه : ( السلام ) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة سقط التكليف عن الآخرين. وان خص بالسلام أحدا من الحاضرين فقد تعين عليه الرد .وقال أيضا : القليل يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير. واصحاب الخيل يبدأون اصحاب البغال. كل ذلك لتعليم الغنى التواضع للفقير بما أنعم الله عليه . وقد دلت الاخبار أن رسول الله (ص) : كان يسلم على النساء ويردون عليه . وان السلام على الشابة مكروه تخوفا من استحسان صوتها . فيدخل على المسلم من الاثم أكثر مما يطلبه من الاجر .

وقد مر رسول الله (ص) على صبيان فسلم عليهم . وان الشارع قد أوجب رد السلام وان كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة . فان كنت في صلاة وسلم عليك رجل او امرأة بان قال أحدهما : سلام عليكم ، وجب أن تقول في الجواب : سلام عليكم . وان تسمعه . ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسلّم ، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلي السلام وان يستمر في صلاته من حيث انتهى اليه . وهذا شأن الدين الاسلامي في جميع أحكامه .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : اذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم واذا سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم . وقد قال رسول الله (ص) : ابدأوا بالسلام قبل الكلام . فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه . وقال أيضا : « أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام ». وقال: أبو جعفر الامام الباقر عليه السلام : « ان الله يحب إفشاء السلام ». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « من التواضع

أن تسلم على من لقيت »، وقال أيضا : يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير .

هذه آداب يقرها الدين الاسلامي احتراما لحقوق الافراد مهما كانت مراتبهم . ومع الاسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الاسلامي الرفيع . نرى أناسا يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر أو لا يردونه ردا تاما ، فيكونون آثمين . نرى قسما من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين: (عليك). أو (عليكم). تكبرا على من تفضل فسلم عليهم . ولا شيء أبغض عند الله من الكبر . فان الله تعالى يسلب ايمان المتكبر لكبره . فالكبرياء خاصة به تعالى . ان الله تعالى يقول : «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق » . وان الكبر من أصول الكفر ويؤدي الى ضعف الايمان بل سلبه . ففي الحديث ، أصول الكفر ثلاثة : الحسد والبخل والكبر. ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام. فان المؤمن هش بش . وان رسول الله (ص) كان دائم البشر ، سهل الخلق، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بامتعاض وخشونة بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله .

قرأت للاستاذ محمد علي الحوماني مقالا قبل حوالي خمسة عشر عاما: يقول فيه ما مؤداه : بينما كنت أسير في طرقات لندن ، عند الزوال واذا بي أشاهد رجلا كبير السن واقفا على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر ، فانتظرت حتى أنهى الاذان . فسلمت عليه قائلا : السلام عليكم ، فأجاب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . عملا بالآية المباركة : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ». ثم تعارف معي وطلب الي الدخول الى البيت. فدخلت، فرأيت انه قام مع عقيلته فصليا صلاة الظهر ، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا عليّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظري أنهما لم يبدءا

بالاكل حتى قالا : ( بسم الله الرحمن الرحيم ) ولما انتهيا من الطعام ، قالا: ( الحمد لله رب العالمين )• ان الشيخ كان أحد كبار الاساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الاسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق • وكم من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير ، اعتنقوا الدين الاسلامي وخرجوا من الظلمات الى النور • ذلك لانه لا مجال للضوء والنور ( وأعني به الايمان) أن يدخل نفوسا مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ، فهل ينظرون الا سنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »• ( سورة فاطر : ٤٣ ) ، لاسيما اذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلا والباطل حقا ، أي بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة ، فأمست لاتبصر الحق، بل الحق لديها ماهي عليه من تساهل مرير : « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »•

ونرى بعض المسلمين اذا دخلوا مجلسا عند الصباح قالوا : صباح الخير• وقالوا عند المساء : مساء الخير • أورفعوا أيديهم كعلامة للتحية • فلا يحيون الحاضرين بتحية الاسلام ، اقتباسا عما جاءنا من الغرب • ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب• ومامعنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيرا • وما قيمة هذا الرجاء ان لم يقترن بمشيئة الله تعالى • وماقيمة الرغبات الشخصية ، والامر كله لله • فقول المسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، وتعقيب ذلك بـ ( صبحكم الله بالخير ) هو ارجاع الصحة والسلامة والخير الى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب ، من الله تعالى •

وقد سمعت في لبنان : يقول أحدهم لآخر عندملاقاته ليلا : (سعيدة)• أي لتكن ليلتك سعيدة • ما أثر هذا الامل فيجعل الليل سعيدا ، لو لم يرد الله تعالى ذلك • فالامور كلها بيده تعالى • فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمربه ، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية • ان المدنية الحاضرة في تحياتها تمثل الدور الجاهلي ، فلا تجد لذكر الله فيها أثرا • وان تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الارتجاع ( أي الرجعية ) بالمعنى الصحيح •

نعم : انا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى في ماتعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرنا • اذا دخل الرجل منا قال: مرحبا • عوضا عن أن يقول : السلام عليكم ورحمة الله • لانه يرى ذلك أقرب الى القبول وأطيب الى القلوب • مع ان الله يريد بنا أن نذكره دائما كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقي من ينبوعه الفياض جميع الكمالات التي بها يكون الانسان انسانا • فان «ذكر الله حسن على كل حال » • ولم يستثن الشارع موضعا لايذكر فيه اسم الله •

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثرا عظيما فيردع النفس عن غلوائها وشهواتها ونزواتها • فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا »• وقوله تعالى : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا » • وقال تعالى : « فاذكروني أذكركم » •

كثيرا مانجد أناسا تغلغلوا في المدنية الغربية لايذكرون اسم الله في كل يوم وليلة ولا مرة واحدة • انهم قد يحترمون آباءهم ويقدسون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به : ولكنهم لايذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والامهات • وقد جاء في حديث : «لايزال ينقص من هذا الدين حتى لايقال : الله » •

ان العلامة الفارقة بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية: أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الامور بحبول مادية مقتضة خسيسة والاعتماد على الوسائل المادية . ولذلك تتحجز النفس في هذه المدنية فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به . « فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعلمون » . وان هذا البشر لميال الى رفع القيود والتدهور والتسافل . فيتقبل ما يؤدي الى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدي الى التعالى والتكامل . وان المادية بآثارها ومظاهرها وتنائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها واعلاناتها تدهور وتسافل . لذلك تجد قبولا بسائق الغريزة من أناس غلبوا على أمرهم فخالفوا ما تمليه عليهم عقولهم ، فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون الى أين هم سائرون . فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة ، المبعدة عن ذكر الله والآخذة بهذا الانسان المسكين ( المغرور بلفظ الثقافة ) الى أسفل سافلين : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

# آداب التلاقي في الاسلام

ان الدين الاسلامي قد استوعب كل مامن شأنه ابلاغ البشر الى أعلى مراتب الكمال. فأعطى حكمه في كل أمر اجتماعي أوخلقي أوحقوقي أوعبادي. حكما هو غاية الاحكام ، حكما يؤيده العقل السليم ، ذلك العقل الذي لم يتلوث بالمدنسات والجرائم ، حكما يصل الانسان الى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه . ومن جملة تلك الاحكام وتلك الآداب: ما يقوم به الانسان الاجتماعي عندما يلاقي انسانا آخر .

فيستحب أن يلاقي المرء أخاه المسلم بالبشر وان يبدأه بالسلام وان يظهر اليه أنه يوده ويحبه . فعن أبي عبد الله (ع) : « مجاملة الناس ثلث العقل» . وقد قال رسول الله (ص) : « ثلاث يصفين ود المرء لاخيه المسلم : يلقاه بالبشر اذا لقيه ، ويوسع له في المجلس اذا جلس اليه ، ويدعوه بأحب الاسماء اليه » . وان من التواضع : أن يبدأ المسلم أخاه المسلم بالسلام لينال الاجر والزلفى . فـ « البادىء بالسلام أولى بالله وبرسوله » و «من أخلاق المؤمن الانفاق على الاقتار والتوسع على قدر الوسع وانصاف الناس وابتداؤه اياهم بالسلام عليهم » . كما جاء في الحديث . وقد نهى الدين الاسلامي عن الكلام قبل السلام ، فقد قال رسول الله (ص): « ابدأوا بالسلام قبل الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه » .

ومن جملة تلك الآداب : المصافحة . فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم ، فان الذنوب تتساقط عنهما ، لان الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين ، متآزرين متعاضدين ، وهو القائل : « انما المؤمنون اخوة » . وقد بالغ الدين الاسلامي في ذلك فعد المتباغضين من المؤمنين

خارجين عن الاسلام حتى يصطلحا . روى أبو عبيدة الحذاء ، قال: «كنت زميل ابي جعفر عليه السلام وكنت ابدأ بالركوب ثم يركب هو ، فاذا استوينا سلم وسائل مسائلة من لاعهد له بصاحبه وصافح ، وكان اذا نزل نزل قبلي ، فاذا أستويت أنا وهو على الارض سلم وسائل مسائلة من لاعهد له بصاحبه ، فقلت له يابن رسول الله ، انك لتفعل شيئا ما يفعله من قبلنا وان فعل مرة فكثير ، فقال : « أما علمت ما في المصافحة ، ان المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه ، فما تزال الذنوب تتحاتُّ عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر اليهما حتى يفترقا » وفي حـديث آخر : « ان المؤمنين اذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حبا لصاحبه ، فاذا أقبل الله عز وجل عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحات الورق عن الشجر » . ومعنى أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما ، أي انزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته . على حد قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . فان الله تعالى لايشبه مخلوقاته في شيء : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

فيستحب للمسلم أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار ، وان من يلزم التصافح أعظم اجرا من الذي يدع . وكان رسول الله ( ص ) اذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها . وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة ، وقد جاء في الحديث : « مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائـكة » .

كل هذه الآداب ، ليستكمل المؤمن مكارم الاخلاق ويتكامل في عالم الوجود . وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه الى الله بل يجعله أهلا ليكون من المقربين هو التواضع وقلع الكبرياء عن نفسه ، فان في كثير من النفوس

شيئا من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف ، ولاتخضع هذه النفس لله الذي خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم التكامل مالم تقلع داء الكبرياء عنها ، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهدات لقلع صفة الكبر وقمعها . وان طرد ابليس عن الساحة القدسية الالهية لم يكن الا لتكبره وخيلائه . ف « أكثر اهل النار المتكبرون » كما جاء في الحديث .

وفي تحف العقول : : ان الامام موسى بن جعفر عليهما السلام مر برجل من أهل السواد دميم المنظر ، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلا ، ثم عرض (ع) عليه نفسه في القيام بحاجة ان عرضت له . فقيل يا ابن رسول الله أتنزل الى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو اليك أحوج ؟ فقال عليه السلام : « عبد من عبيد الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله ، يجمعنا واياه خير الآباء آدم ( ع ) وأفضل الاديان الاسلام ولعل الدهر يرد من حاجتنا اليه فيرانا — بعد الزهو لاعليه — متواضعين بين يديه ، ثم قال ( ع ) :

نواصل من لايستحق وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق

وكان علي بن موسى الرضا عليهما السلام اذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس . وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا ( ع ) دعا يوما في سفره الى خراسان بمائدة له ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقال له بعض أصحابه ، جعلت فداك ، لوعزلت لهؤلاء مائدة ، فقال ( ع ) : « ان الرب تبارك وتعالى واحد والام واحدة والاب واحد والجزاء بالاعمال » .

لنتعلم مكارم الاخلاق من أئمة نوروا الارض بنور كمالهم وكانوا مثلا عليا للفضائل وكمال الصفات ، لا في اعطاء الدساتير فحسب ، بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من دساتير . فقد روى ابراهيم بن العباس أن الرضا (ع) : « ما جفا أحدا بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ

منه ، وما رد أحدا عن حاجة قدر عليها ، ولا مد رجليه ولا اتكأ بين يدي جليس له قط ، ولا شتم أحدا من مواليه ومماليكه ولا تفل قط ولا قهقه في ضحكه ، بل كان يتبسم » .

نعم هذه صفات يحق للانسان أن يدعى بها خليفة الله في أرضه . فقد جعل الله للانسان مثلا أعلى لايعقل أن يتصور مثلا أسمى منه مهما حلقنا في جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة ، ذلك المثل الاعلى هو انسان قد بلغ مراتب من الكمال ، يحق له أن يدعى خليفة الله في أرضه على حد قوله تعالى: « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون » فالائمة الاطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله في أرضه.

ان هذه الآيات الشريفة تصرح بأن أنواع العلوم والمعاني التي لم تصل اليها الملائكة مغروسة في جبلة الانسان ، واذا كان الانسان من سمو الفطرة وشرف التكوين في درجة تسجد له الملائكة فأي وازع أقوى من هذا يزعه عن مقارفة الرذائل ومقارنة الخسائس . وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام .

لو تتبعتم الدين الاسلامي لرأيتم أنه يهدف في جميع دساتيره ونظمه وتعاليمه الى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أعلى مراتب الكمال .

أنظروا كيف يعرف علي (ع) الايمان ويحصره في مقدسات أخلاقية

فيها الكمال الانساني . انه (ع) يقول : « الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وأن لايكون في حديثك فضل عن عملك ، وأن تتقى الله في حديث غيرك » . ولا يخفى أن الانسان لايبلغ هذه الدرجة من الكمـال الاخلاقي الا بالتقوى ولا تعلم مراتب التقوى ولا تـدرك الا بأداء واجب الشكر لله تعالى ، ولا يمكن أداء واجب الشكر الا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع واقبال نفسى حقيقي . فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ « من أسس بنيانه على شفاجرف هار ، فانهار به في نار جهنم والله لايهدي القوم الظالمين » .

نعم : ان العبادات واجباتها ومستحباتها ، والمدنسات محرماتها ومكروهاتها وما قرره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر الى غير ذلك توصل الانسان الى الغاية العظمى التي خلق من أجلها الانسان وهي الكمال النفسي ، ان الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الاعلى ولكنه لايقوى أبدا على عرض الوسائل الناجعة التي يبلغ بها الانسان الى تلك المثل العليا . والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف الناقصة ، تلك النفس التي لم تخط في ساحات الكمال: في مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبرا . فكيف يريد أن يكون مربيا للعالم وهو أحوج الناس الى التربية النظرية والعملية في حقل الكمال النفسي .

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه في الله لومة لائم ، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية الى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لايتخلله كدر ولا شقاء .

« وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كان يعلمون » .

# التربية الاجتماعية فى الاسلام

الانسان اجتماعي بالطبع ، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة • ولابد له من الاجتماع والتعاون • ولكن ان لم يبنَ هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى الى الفساد والافساد كما نشاهد اليوم • وقد يشذ الانسان عن الاجتماع المرضى عند الله تعالى أو لايؤدى واجبه نحو المجتمع • أو لايعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعي في كثير من الاحيان • لذلك عنيت الاديان السماوية بالتربية الاجتماعية والاخوة والتراحم والتعاطف والتوادد وصلة الرحم والرفق واطعام البؤساء والمساكين واكسائهم • وأكملها وخاتمها الدين الاسلامي•فقد اهتم بالتربيةالاجتماعية وشؤون المجتمع الى حد بعيد•

ففي الحديث : « من أصبح لايهتم بأمور المسلمين فليس منهم » • وقال رسول الله ( ص ) : « أنسك الناس نسكا : أنصحهم حبا : وأسلمهم قلبا لجميع المسلمين » •

ان المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الانساني وحيوية قوة الاجتماع أدخلوا التربية الاجتماعية في مناهجهم وخصصوا لها أبحاثا وفصولا وكتبا خاصة • ان التربية الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت في المدارس منذ زمن غير بعيد • ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانةخاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والاحجار او قطعة أرض يزرعها الطالب بيده الى ما هنالك •

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية • ولكن ( فروبل ) مؤسس جنينات الاطفال قد تنبه الى هذا النقص ، فقال : « ان المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن لها روحا تسمى بالروح الاجتماعي • فعلى

الافراد أن يوحدوا قواهم المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم فاعلون في الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردي في التلاميذ بالالعاب على أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطا بعمل اجتماعي » .

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في الطفل جميع القابليات التي من جرائها يكون الطفل فردا كاملا مفيدا لنفسه ولمجتمعه . الا أن الانسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو . فالوالدان أو المدرسة كثيرا ما يمنعون الاطفال من الالعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية ، ساهين أن ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى في الطفل الا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرها العقل والشرع . كان علماء التربية الى زمن غير بعيد يعترفون بمبادىء ثلاثة للطفل : بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعي الذي أوشك اليوم أن يسود على المبادىء الاخرى .

يقول ( جون ديوى ) : الفيلسوف المربى الامريكي في مقاله : ( المدرسة والرقى الاجتماعي ) : « الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة . فان اشتراك الآمال والحاجات في الجمعيات مما يزيد في تصادم الافكار ويؤدي الى تجاذب متقابل . وان ما يمنع مدارسنا عن الرقي الاجتماعي خلوها عن الوحدة الاجتماعية في الالعاب والنزه . فالاطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الاعمال فيما بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم . وان أفدح نقص في مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب في بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية » . نعم ، ان المدارس الحديثة قد أخذت تربى الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الايضاح

على ثلةمن الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعي • وتشكيل جمعيات مختلفة الى ما هنالك •

وقد يظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين ، مع أن الدين الاسلامي قد أيد الناحية الاجتماعية الى حد بعيد • بل ان الدين الاسلامي دين اجتماعي بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحي ، يتناسب مع الغرض الاسمى الذي خلق الانسان لأجله • وأي اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات في صلاة الجماعة في جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين •

يعيش الانسان في حياته اليومية في عالم من عدم المساواة وعالم من منازعات وعداء وبغضاء • وان حياة الاخوة الالهية التي تتجلى في صلاة الجماعة تعدّل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقى دروسا قيمة عن الود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشري •

ان صلاة الجماعة درس عملي لتطبيق قواعد الاخاء والمودة الالهية وايجاد مجتمع متآزر متعاضد على أساس الايمان الصحيح • وهكذا تتجلى الاخوة الاسلامية في صلاة العيد وصلاة الجمعة والحج وتشييع الجنائز والتزاور والتلاقي والمصافحة والمعانقة •

والفرق الاساسي بين التربية الاجتماعية الاسلامية والتربية الاجتماعية الغربية أن التربية الاجتماعية الاسلامية ترمى الى تربية النفس والبدن معا ، فتزكو النفس وتسير اذ ذاك في ساحات الكمال حيث لاحد ولا انتهاء • ولكن التربية الاجتماعية الغربية مادية بحتة ونفعية محضة عليها طابع مادي وهو التقدم في عالم الصناعة وايجاد وسائل الراحة فحسب ، فلا تنفذ الى الروح الانسانية ولا تعمل في تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس• ومن آثارها : هذه الحروب التي لاتبقى ولا تذر •

فجدير بالمسلم أن لاينخدع بمظاهر الغرب ، فان النفوس غير المؤمنة لايرتجى منها الخير ، وأن يعلم أن تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غنيٌّ وغنيٌّ جدا ولا يحتاج أن يأخذ شيئا من الغربى في التربية الاجتماعيـة والاخلاقية والمدنية ففي شريعة الاسلام الغراء يجد الانسان الكمال الاخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية . ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون الى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها ! فيحسبون أن ما يمليه الاستاذ او الدكتور حقائق ثابتة لاشبهة فيها ، ويزعمون ان الدين الاسلامي لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدي الى الكمال البشري ، فيسخرون من الدين ويهزأون بعلماء الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن الجاهل الذي يعادي ما جهله . ولو أن هؤلاء تخصصوا في الفلسفة الاسلامية وآدابها او درسوا الدين الاسلامي وعملوا به قبل التخصص في فرع آخر ، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصي والآثام ، لعدوا هفوات دكاترة الاجتماع وأساتذة الاخلاق ، وخرجوا من حدود التقليد الاعمى الى التفكير الصحيح والجرح والتعديل . ولكن هيهات ! .

« ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » . ( سورة آل عمران : ١٧٩ ) .

ومن هؤلاء الذين يتخصصون في الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور الى درجة يستهزيء في كتاباته بعبارات المتدينين التي مفادها : التوكل على الله تعالى في الامور ،وتفويض الامر اليه مععمل متواصل وجد واجتهاد. فيقول دونما مناسبة : ( معاذَ الله ) وأمثال ذلك . فكأنه غنيٌّ عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان . وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصا ، وأسرعها تناولا ، ولو أدخل هذا المتخصص في فرع من فروع علم الاجتماع ، جبرا ، في فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو

الفيزياوية لرسب حتما ولمانال هذااللقب المغري ( دكتوراه : Doctorat )
ولما تكبر وتجبر ولا عترف بالجهل ، والاعتراف بالجهل يفتح على الانسان أبواب الهداية .

ان العلوم الاجتماعية لاتضبط بضابط من حيثالصحة والسقم كالعلوم الرياضية والكيمياوية والفيزياوية . فليس هناك كما يدعي ( Determinisme ) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر ؛ حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه في موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف .

فاذا كان العالم الاجتماعي غير عامل بالدين ومستهترا بالمقدسات ، فلا يترشح من كتاباته في موضوع الدين الا ما يناسب نفسيته التي أخذت تتسافل بالمعاصي والآثام . لانه أمسى بذلك لايبصر الحق ويظن (لشهادة قد نالها ) أنه قد بلغ الغاية من التتبع والتحقيق . ان الله تعالى يقول :

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الافراد فلا يترشح منه الا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات . « وكل اناء ناضح بالذي فيه » . وبديهي أن الانسانلو حاد بسوء اختياره عنالصراط السوى فأنالله تعالى يبعده عن ساحة القدس، وهذه سنة الله في خلقه « سنة الله التي قد خلت في عباده » . يقول اللهتبارك وتعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لايهدى القوم الفاسقين » .

ولو كان يشكهذا العالم الاجتماعي في ماأقول فليعمد الى تجربة منجية: فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين ولينته عما نهى عنه الدين ثم ليأت بشيء من المستحبات ، فانه سوف لايقول بما كان يقول به قبلا متبخترا مغرورا . بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ الى الله تعالى منها ، مستغفرا ، منيبا .

ولنختم هذا المقال بذكر درر من الاحاديث في التساند الاجتماعي .

تساند يأمر به الدين الاسلامي ولا يعمل به ( مع الاسف ) المسلمون الا أفرادا قلائل .

يقول أبو عبدالله عليه السلام : « عليك بالنصح لله في خلقه . فلن تلقاه بعمل أفضل منه » .

ويقول سلام‌الله عليه أيضا : «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» .

وعن النبي ( ص ) : « من أصبح لايهتم بأمور المسلمين فليس منهم . ومن سمع رجلا ينادى ياللمسلمين فلم يجبه ، فليس بمسلم » .

وعن رسول الله ( ص ) : « الخلق عيال الله . فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سرورا » .

وقال صلى الله عليه وآله أيضا : « من رد عن قوم من المسلمين عادية : ماءاً او نارا ، وجبت له الجنة » .

وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل : « وجعلني مباركا أينما كنت » . قال : نفاعا .

فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يمليها بلسان فلسفي وتحليل علمي والهام رباني ( يأتيه من ناحية التقوى والورع ) على أساتذة الغرب وفلاسفتها ، فيكون معلما قبل أن يكون متعلما . ومؤثرا قبل أن يكون متأثرا . ومن الله التوفيق ولا توفيق الا بعمل صالح .

## الانفاق فى الاسلام

ان الاديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والاحسان ، وخاتمها وأكملها الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم النبيين محمد (ص) رحمة للعالمين لقوله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . فكل أمة تعمل بنصوص هذا الدين تكون في سلام ودعة وطمأنينة ، لاترى فيها فقيرا ولا مسكينا ولا بائسا ولا جائعا ولا عاريا . فالناس كلهم ، اذ ذاك ، في دعة ورغد ورفاهية تامة كل بحسبه . وهذا شأن الدين الكامل ، فانه يؤسس مدنية فاضلة لاترى في أية ناحية منها خللا يحتاج الى اصلاح بشرى .

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة ، تتبدل من وقت الى وقت ومن حين الى حين . يشعر الواضعون فيها بالنقص ، فيصلحون ما أعوج منها واذا بهم أمام نقص آخر أو عيب آخر . فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر في تعب وعناء وفي خسر ووبال .

أنى لهذا البشر الذي قد تحدد عقله ان يأتى بشيء كامل لانقص فيه ، اما أن يأتي بشيء خيالي لامجال لتطبيقه ، واما ان يأتي بشيء يصلح ناحية ويفسد نواحي عدة ، ذلك لأن النفس التي تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها .

يقولون : يجب أن يتناسب النظام مع البيئة . أو يجب ان يؤخذ القانون من روح المحيط . فنجيبهم ما قولكم في بيئة فاسدة ، في بيئة متفسخة ؟ أو هل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جراثيم تلك البيئة ؟

يقولون : ان الحاجات تتجدد من وقت الى وقت ، فيجب أن تتغير

التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة . فنقول : ان الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التي تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص . وان الحاجات الجديدة تعالج ، وتسن لها قوانين على ضوء المبادىء الاسلامية العامة والاصول المقررة في علم أصول الفقه . نعم ، ان النظام يجب أن يكون مجردا عن الاهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتيا من منبع فياض زكي نقي لاكدر فيه .

النظام هو نظام الانبياء ، والقانون هو ما سنوه ودونوه . فلا سعادة للبشر ولا هناء الا اذا اتبعت النظم السماوية . وان أكملها وأسماها هي النظم الاسلامية الخالدة التي تكفل سعادة الانسان في جميع مرافق الحياة الدنيوية فضلا عن الحياة الاخروية الخالدة . فان الدين الاسلامي ليس مجموعة عبادات فحسب بل هو مجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعين وظيفة الانسان في معاملاته ومتاجره وفي حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية . الا أن الاهواء البشرية قد طغت عليها ، فمنعت تعميمها في أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة فتاه الناس في دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادىء هدامة . وان أشنع هذه المبادىء الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعي ، وهذا المبدأ هو عصارة المذهب المادي الذي انتشر في أوروبا بأسم العلم والعلم منه براء . هو نتيجة شيوع الفحشاء والمنكرات في الغرب، فرجع بثلة من البشرية المسكينة الى جاهلية جهلاء .

وما أثر العلم ان لم يقترن بالدين ، أي يتحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين . وان ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمر طبيعي اذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها في الشهوات والمنكرات طيلة قرون . « فكل اناء بالذي فيه ينضح » .

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك فلننظر الى واضعيه ، فان كانوا

أناسا صلحاء في حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية ، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لاتجرفهم أطماع الدنيا وزينتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر في تحقيق هـذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الاسلامية الخالدة فان وافق فذاك ، والا ضربنا به عرض الحائط .

ان الدين الاسلامي حث على الانفاق والبذل والكرم واقراء الضيف والتصدق وايتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة في القرآن الكريم وأحاديث جمة عن النبي ( ص ) والائمة ( ع ) . وقد عمل بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والائمة الاطهار عليهم السلام بمقياس مثالي واسع . فلنقتف آثارهم ليسود السلام في العالم ويهنأ البشر قاطبة .

ان الانفاق في الدين الاسلامي على نوعين : مستحب مؤكد ، يكاد يكون واجبا ، وواجب مفروض .

يقول الله تبارك وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . ماذا يريد الانسان ؟ أجزاء" أعظم من هذا الجزاء ، وهذا هو الانفاق المستحب استحبابا مؤكدا ، لو عمل به لاصبح الناس كلهم في رفاهية تامة ولزال الفقر ، وهو غير الزكاة الواجبة .

ان الزكاة الواجبة نفسها تكفي الفقراء والمعوزين والمحتاجين . ذلك لأن الامام أبا عبدالله ( ع ) يقول : « ان الله فرض الزكاة كما فرض الصلوة ، فلو أن رجلا حمل الزكاة وأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله فرض في أموال الاغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذي فرض لايكفيهم لزادهم ، وانما يؤتى الفقراء فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم

لا من الفريضة [1] . يقول الله جل وعلا : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لايتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . هذا ، حسين عليه السلام يفد عليه أعرابي وهو في المسجد فيراه مصليا يقف بإزائه وينشيء قائلا :

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرك من دون بابك احلقه
أنت جواد وأنت معتمـــد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلـكم ... كانت علينا الجحيم مطبقـه

فسلم الحسين ( ع ) من صلاته وقال : « يا قنبر ، هل بقي من مال الحجاز شيء ؟ » قال : « نعم أربعة آلاف دينار » . فقال : « هاتها ، قد جاء من هو أحق بها منا » . ثم نزع بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءاً من الاعرابي وأنشأ يقول :

خذهـا فإني اليك معتذر ... واعلم بأني عليك ذو شفقه
لوكان في سيرنا الغداة عصا ... أمست سمانا عليك مندفقه
لـكن ريب الزمان ذو غير ... والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الاعرابي وبكى ، فقال الحسين عليه السلام : « لعلك استقللت ما أعطيناك » قال : « لا ، ولكن كيف يأكل التراب جودك » .

هذا نموذج من الكمال الانساني في الانفاق ، لايقوى عليه البشر العادي

---

(١) معنى : يؤتى الفقراء فيما أتوا : أي يبتلون بما يبتلون به .

## المثل العليا في الانفاق

ان الدين الاسلامي حث كثيرا على الانفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس . يقول الله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » . قال أبو عبد الله عليه السلام : « ان الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وانما هو شيء ظاهر ، انما حقن بها دمه وسمي بها مسلما » . فقلت : «أصلحك الله ، وما علينا في أموالنا غير الزكاة ؟ » . فقال : «سبحان الله ، أما تسمع الله عز وجل يقول : « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . قال : « قلت : ماذا الحق المعلوم الذي علينا ؟ » فقال : « هو والله الشيء الذي يعلمه الرجل في ماله ، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر ، قل أو كثر . غير أنه يدوم عليه » . قال : « وقلت : قوله عزوجل: « ويمنعون الماعون » فقال : « هو القرض يقرضه ، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة » . فقلت له : « ان لنا جيرانا ، اذا أعرناهم متاعا كسروه وأفسدوه ، أفعلينا جناح أن نمنعهم ؟ » قال : « لا ، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم اذا كانوا كذلك » . قال قلت له : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » ؟ قال : « ليس من الزكاة » . قال : « فقلت له : قوله عز وجل : « ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » ؟ قال : « ليس من الزكاة . وصلتك قرابتك ليس من الزكاة » .

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ما لفظه : « ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله في ناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن ، لو نذرت على

ولديك . فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما ان برآمما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام . فشفيا وما معهم شيء ، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم . فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل . فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني ، أطعمكم الله من موائد الجنة . فآثروه وباتوا لم يذوقوا الا الماء وأصبحوا صياما . فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه . ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أخذ علي (رض) بيد الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : ما أشد ما يسوؤني مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك . فنزل جبرائيل عليه السلام وقال خذها يا محمد ، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة وهي سورة الدهر ومنها : « ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ... الخ » .

وأما علي عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لايملك الا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا ، وبدرهم سرا وبدرهم علانية فأنزل الله فيه : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية » ، وكان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه ويتصدق بالاجرة ويشد على بطنه حجرا .

قال الشعبي : «كان على أسخى الناس ، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود ، وما قال : لا ، لسائل قط » . وقد قال فيه معاوية :

« لو ملك على بيتا من تبر وبيتا من تبن لأنفق تبره قبل تبنه » . وهوالذي كان يكنس بيوت الاموال ويصلي فيها وهو القائل : « يا صفراء ويا بيضاء غرى غيري » . ولم يخلف ميراثا وكانت الدنيا كلها بيده الا ما كان من الشام . وهو الذي عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره .

وأما الحسن بن علي عليهما السلام ، فكما روى أبو نعيم فيالحلية ، قاسم الله ماله ثلاث مرات . وقد روى في المناقب أن رجلا سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار . وقال : أنت بحمال يحمل لك، فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الحمال . وجاءه أعرابي، فقال الحسن (ع) : أعطوه مافي الخزانة . فوجد فيها عشرون ألف درهم . فدفعها اليه. فقال الاعرابي يامولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي ، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول :

نحن اناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والامل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفا على ماء وجه من يسأل

وروى المدائني قال : خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله ابن جعفر حجاجا ففاتهم أثقالهم ، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزا في خباء ، فاستسقوها فقالت: هذه الشويهة ، احلبوها وامتذقوا لبنها ، ففعلوا . واستطعموها فقالت: ليس الا هذه الشاة ، فليذبحها أحدكم . فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها . فلما نهضوا قالوا : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه . فاذا عدنا فألمي بنا فانا صانعون بك خيرا . ثم رحلوا . فلما جاء زوجها أخبرته . فقال : ويحك تذبحين شاتي لقوم لاتعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش .

ثم مضت الايام فأضرت بها الحال . فرحلت حتى اجتازت بالمدينة ، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها . فقال لها : «أتعرفينني » . قالت: «لا» قال: « أنا ضيفك يوم كذا وكذا ». فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث

معها رسولا الى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك ثم بعثها الى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك .

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالي في غاية التواضع . يمر على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الارض وهم قعود يلتقطونها . فقالوا هلمَّ يا ابن رسول الله الى الغذاء . فنزل وقال: ان الله لايحب المتكبرين . وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته . ثم دعاهم الى ضيافته وأطعمهم وكساهم . فهذا نموذج من الاخلاق الاسلامية المثالية .

وفي المناقب عن يعقوب بن اسحاق النوبختي، قال: «مر رجل بأبي الحسن الرضا (ع) فقال له : أعطني على قدر مروءتك ، قال : لايسعني ذلك ، فقال: على قدر مروءتي. قال: أما هذا فنعم . ثم قال: ياغلام ، أعطه مائتي دينار». قال: « وفرق (ع) بخراسان ماله كله في يوم عرفة ». فقال له الفضل بن سهل: « ان هذا المغرم » . فقال : « بل هو المغنم . لاتعدن مغرما ما ابتغت به أجرا وكرما » .

وروى الكليني في الكافي بسنده عن اليسع بن حمزة قال : كنت في مجلس أبي الحسن الرضا (ع) وقد اجتمع اليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، اذ دخل عليه رجل طوال آدم . فقال : «السلام عليك يا ابن رسول الله . رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك . مصدري من الحج وقد فقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة . فان رأيت أن تنهضني الى بلدي ،ولله على نعمة ، فاذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك. فلست موضع صدقة »: فقال له : « اجلس رحمك الله ». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا . فقال: « أتأذنون لي في الدخول». فقال له سليمان : « قومَّ الله أمرك ». فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة، ثم خرج وردَّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال « أين

الخراساني ؟ » فقال: «ها أناذا » . فقال: «خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عني وأخرج فلا أراك ولا تراني » . ثم خرج فقال سليمان : جعلت فداك ، لقد أجزلت ورحمت. فلماذا سترت وجهك عنه ؟ فقال: « مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته . أماسمعت حديث رسول الله(ص):المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له ». أما سمعت قول الاول :

متى آته يوما لاطلب حاجة رجعت الى أهلي ووجهي بمائه

# الصدقات فى الاسلام

ان الدين الاسلامي قد حث الناس على الانفاق حثا لا مزيد عليه ، لو عملوا به لسادت الطمأنينة في العالم ولما وجد على وجه الارض فقير . وهذا قوله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » . فجعل الله مآل : دعّ اليتيم وعدم الاهتمام بطعام المسكين : التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه . فكأن من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحض على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئا فشيئا ، تتوارد عليه الشكوك والاوهام وهو لا يعلم من اين أتاه هذا الانقلاب ، وكيف أمسى مظلما لايرى شيئا وراء المادة الزائلة ، فلا تتسلى نفسه الا باتخاذ مبادىء فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة ، ويزعم انه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقا جديدا يحل به مشاكل الحياة . وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه ، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس في ظلمات مافوقها ظلمات . « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

فتنبهوا عن اناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين ، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحب الله وتحب الحق ، تميل الى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبده على قدر ما قامت بالاعمال الصالحة لوجه الله الكريم .

فالايمان اذن عصارة الاعمال الصالحة ، والتصديق بالدين مآل الاهتمام بأمر اليتيم والحض على طعام المسكين . لذلك كله قدحث الدين الاسلامي على الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب الى التعطف على الضعفاء والايتام

باعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات مستحبة . وقد يراد بالصدقات : الزكاة الواجبة ، ولسنا بصدد بيانها الآن .

ولقد قال ابو عبد الله عليه السلام : « لايكمل ايمان العبد حتى يكون فيه اربعة خصال : يحسن خلقه ، وتسمو نفسه ، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله » . ولقد كان في وصية رسول الله (ص) لاميرالمؤمنين (ع): أوصيك في نفسك بخصال ، احفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه ... الى أن قال: «وأما الصدقة فجهدك جهدك ، حتى تقول قد أسرفت ولم تسرف» لذلك يبيع علي (ع) بستانا له . فيعلم بذلك فقراء المدينة ، فيرجع الى بيته وليس معه شيء . ويستأجر دارا للسكنى في الكوفة وهو خليفة المسلمين. ويحمل الطعام الى فقراء الكوفة جوف الليل ، حتى أن الحسن (ع) بعد رجوعه ليلا من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز في احدى خرائب الكوفة، فجاءه يسأله عن حاله ، فقال: كان لي رجل يأتيني كل ليلة بما أحتاجه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليال لا أراه يأتيني ، فقال الحسن عليه السلام ذاك أبي ، قد قتل في محرابه .

وقد جعل الدين الاسلامي التصدق بالليل أفضل من التصدق بالنهار لان صدقة السر تطفي غضب الرب ، كما جاء في الحديث . كان ابوعبد الله جعفر الصادق عليه السلام اذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جرابا فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه ، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك فعلموا أنه كان أبا عبد الله ، أي الصادق عليه السلام . نعم ، هذا دين يقول « أصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس من أهله فان لم يكن هو أهله فكن أنت من اهله » .

هذا دين يقول : « ان الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين

نوعا من البلاء وانها تطفىء غضب الرب » .

هذا دين يقول : « يستحب للمسلم ان يعول اهل بيت المسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق » .

هذا دين يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

هذا دين يقول « داووا مرضاكم بالصدقة » اهتماما بامر الفقراء .

هذا دين يقول : « يستحب لمعطي الصدقة ان يقبل يده بعد العطاء » ، ذلك لان يده قد تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير ، وفي الخبر : اذا اعطيته فأغنه . وقال علي (ع) : « اذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده الى فيه ، فيقبلها ، فان الله عز وجل يأخذها » .

هذا دين يقول : « اذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة » . لذلك يقول الصادق عليه السلام لابنه محمد : « يابني كم فضل معك من تلك النفقة ، قال : اربعون دينارا ، قال : اخرج فتصدق بها . قال : انه لم يبق معي غيرها قال : تصدق بها فان الله يخلفها ، أما علمت ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الرزق الصدقة ، فتصدق بها . ففعل . فما لبث ابو عبدالله الا عشرة ايام حتى جاءه من موضع اربعة آلاف دينار . قال : يابني : اعطينا الله اربعين دينارا فأعطانا اربعة الاف دينار .

يأتي شيخ من مهاجرة العرب رسول الله (ص) وهو في المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قدتهلهل واخلق وهو لايكاد يتمالك ضعفا وكبرا فيقول : يارسول الله ، أنا جائع الكبد ، فأطعمني وعاري الجسد ، فاكسني وفقير ، فأثرني . فيقول له رسول الله (ص) : ما اجدلك شيئا ، ولكن الدال على الخير كفاعله . انطلق الى ابنتي فاطمة . وامر بلالا فوقف به على منزل فاطمة ( ع ) فنادى بأعلى صوته : السلام عليكم ياأهل بيت النبوة ومختلف الملائكة ... يابنت محمد ، اقبلت على ابيك سيد البشر مهاجرا من شقة ،

عاري الجسد ، جائع الكبد ، فارحميني ،يرحمك الله . وكان علي وفاطمة(ع) ثلاثا ما طعموا طعاما .

فتعمد فاطمة الى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين (ع) وتعطيه الشيخ قائلة : عسى الله ان يتيح لك ما هو خير منه فيقول الشيخ أنا شكوت اليك الجوع ، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما اجد من السغب ؟

فتعمد فاطمة ( عليها السلام ) الى عقد في عنقها ، أهدته اليها فاطمة بنت عمها حمزة ، فتقطعه من عنقها وتنبذه الى الاعرابي، وتقول : خذ وبعه . فعسى الله ان يعوضك بما هو خير لك منه . فيأتي الشيخ الى المسجد ويبيع العقد ، فيشتريه عمار بعشرين دينارا ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ الى أهله ، فيقول رسول الله (ص) : « لواشترك في شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار » .

فينطلق عمار بالاعرابي ويفي بما ضمن له،وعاد الاعرابي الى النبي(ص) فقال له : أشبعت واكتسيت ؟ قال : نعم، واستغنيت بأبي أنت وامي .فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله : فاجز فاطمة في صنعها معك خيرا . فيقول: « اللهم انت اله ما استحدثناك ، ولا اله لنا نعبده سواك، وانت رازقنا،فأعط فاطمة مالا عين رأت ولا اذن سمعت » .

فأمن رسول الله على دعائه واقبل النبي (ص) على اصحابه وقال : « ان الله قد اعطى فاطمة ذلك وانا ابوها وما في العالمين مثلي ، وعلي بعلها، ولولا علي ما كان لها كفؤ أبدا . أعطاها الحسن والحسين وما في العالمين مثلهما. سيدا أسباط الانبياء ، وسيدا شباب اهل الجنة : وقال : ازيدكم » .

الملكان في قبرها : من ربك ؟ فتقول الله ربي — من نبيك ؟ أبي — من وليك؟ فتقول : هذا القائم على قبري علي بن ابي طالب » .

« ألا ازيدكم من فضلها » فيقولون زدنا .

فيقول رسول الله (ص) : « ان الله وكل بها رعيلا من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى ابيها وبعلها وبنيها » يقول جابر بن عبدالله : ان عمارا بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه في بردة يمانية وبعث به مع عبده ( اسهم ) الى رسول الله وقال : « أنت لرسول الله مع العقد » . ورسول الله يرسل العبد مع العقد الى فاطمة قائلا : « انت لها مع العقد » فتأخذ فاطمة عيها السلام العقد وتقول للعبد : « اذهب انت حر لوجه الله » . يضحك العبد ويقول : « ما اكثر بركة هذا العقد ، اشبع جائعا وكسى عريانا واغنى فقيرا واعتق مملوكا ورجع الى اهله » .

هـذا نموذج من الكمال الانساني في التصدق والانفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (ع) ، وان حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التي هي فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشري . فطوبى لمن تأسى بها وتخلق بأخلاقها فان « قيمة كل امرىء مايحسنه » على ماجاء في كلام علي عليه السلام .

* * *

ويمكن تشبيه محصلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة في نقطة ما ( في جسم ) بقيمة المرء . ذلك لأن القوى المؤثرة في نقطة م على أمتداد محور ( س سَ ) والمتوجهة الى اليمين تعتبر ( كما في علم الميكانيك ) موجبة ، فمحصلتها موجبة أيضا . والقوى المؤثرة في نفس النقطة م والمتوجهة الى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة ، فمحصلتها سالبة ايضا . ثم تركب

هاتان المحصلتان أو تطرح احـداهما من الاخرى ( ان كانت على استقامة واحدة ، حسب الفرض ) فتكون المحصلة النهائية اما متوجهة الى اليمين ، فصاحبها اذن من اصحاب اليمين ، فمصيره الجنة ، أو متوجهة نحو اليسار ( أو الشمال حسب ما جاء في القرآن الكريم ) فصاحبها اذن من أصحاب اليسار ، فمصيره النار .

يقول الله تبارك وتعالى : « واصحاب اليمين ما اصحاب اليمين في سدر مخضود ، ( لاشوك له ) وطلح ( شجر الموز ) منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ( جار أبدا ) ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنـوعة ، وفرش مرفوعة ، انا انشأناهـن انشاء ، فجعلناهن أبـكارا عربا ( متحببات الى أزواجهن ) أترابا ( مستويات في السن أومثل أزواجهن في السن ) لاصحاب اليمين ، ثلة من الاولين وثلة من الآخرين ، واصحاب الشـمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم وظل من يحموم ( دخان اسود ) لابارد ولا كريم انهم كانوا قبل ذلك مترفين ( منعمين لاهين عن الطاعة ) وكانوا يصرون على الحنث ( الذنب ) العظيم ، وكانوا يقولون أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . أو آباؤنا الاولون ؟ قل ان الاولـين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم » .

فكل عمل صالح يقوم به الانسان لوجه الله تعـالى ، له أثر فعال في معتقد وسيره التكاملي ، وكل عمل سيء يأتي به الانسان له أثر فعال في تسافله وولوج الشكوك والريب في نفسـه . فالايمان محصلة الاعمـال الصالحة والاعمال السيئة . فالاعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة في نقطة (م) والاعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة في نقطة (م) أيضا فالمحصلة إذن اما أن تكون موجبة أو تكون سالبة . ان الله تعالى يقول :

« فأما من ثقلت موازينه ( بأن رجحت حسناته ) فهو في عيشة راضية ،وأما من خفت موازينه ( بأن رجحت سيئاته ) فأمه هاوية ( مأواه النار) وماأدراك ماهية ، نار حامية » .

ان الاعمال الصالحة لها الاثر الكلي في اتجاه الانسان الديني . فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله ( مثلا ) يرى ان نفسه تميل الى العبادة ومعرفة الخالق جل جلاله ومجالس الوعظ والارشاد . ذلك لانه باعطائه الحقوق يجعل مايدخل في جوفه طاهرا لا شبهة فيه . وان هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال في توجيه النفس ، فقد جاء في الحديث : « ان الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها » . وفي حديث آخر عن النبي (ص) : «ترك لقمة حرام أحب الى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعا، ورد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة ». وفي حديث آخر: «من أراد ان يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه ومكسبه » .

نعم ، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئا محرما فأن الاموال التي تجنى بهذه الوسيلة تكون مخلوطة بالحرام ، فتؤثر في سير الانسان الديني والتكاملي .

ولقد جربت ذلك في أشخاص . فعندما كان يتجر به احدهم حلالا طيبا ، يوافق ماجاء في الشرع المحمدي . كان هذا الشخص مصليا ، صائما يذهب الى دور العبادة والى « بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبح له فيها بالغدو والآصال » . وبعد ان ادخل في مايتجر به ما حرم الله، اخذت نفسه تتسافل شيئا فشيئا ، فصار يصلي عند الصباح ولا يصلي عند الظهر ، أو يصلي عند الظهر ولا يصلي صلاة الصبح . ولكنه اذا اعترته حاجة شديدة ، نذر نذرا ، فسافر لاداء نذره ويصلي في اليوم الذي يفي بنذره فقط .ثم يترك صلاته غير مبال بما سيصيبه من جراء هذا العصيان

مع تقادم عمره .

فاذا جاءت ليلة القدر هرع الى محال العبادة لانطباع سابق ، فاذاذهبت ليالي القدر ترك صلاته وهكذا . الا انه مع ذلك يعتقد بأصول الدين. وهكذا لوثابر هذا الشخص على عدم اخراج الحقوق المترتبة على أمواله[1] ضعف يقينه بأصول الدين بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه وانه حي يرزق ، ثم يشك في المعاد،ثم في النبوة ثم في العدالة الالهية . وقد يبلغ به الامر ( لو بالغ في ارتكاب كبائر المعاصى والظلم والبغي ) الى الالحاد . ثم يزعم ، فيوقن انه كان في واد من الخرافة وقد دخل اليوم في عالم من الثقافة جديد ، وواد من نور ، وتخلص من براثن الجاهلية الجهلاء .

فاذا صادف أناسا يحبذون الدين ويؤيدونه الى حد ما ، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظانا انه جاء بفلسفة جديدة ! «لقد خلقا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه الى أسفل سافلين . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وقد يكون السير سيرا تكامليا بعكس ماقلنا ، يأتي الانسان بعمل صالح هام في محله ، فيؤثر هذا العمل الطيب في نفسه ، ففي معتقده ، ثم يقوم بعمل صالح آخر فآخر ، فتمحو هذه الاعمال الصالحات بعض السيئات

---

(١) انما ذكرت ( اخراج الحقوق كالخمس والزكاة ) على سبيل المثال . فكل معصية صغيرة او كبيرة ، تؤثر تأثيرا مباشرا فى سير الانسان التسافلي ، لو لم يعقبها حالا بتوبة عملية وقلبية . انصتوا الى مايقوله زين العابدين علي ابن الحسين عليهما السلام . كيف ان الذنوب تميت القلوب وكيف ان التوبة تحييها . انه صلوات الله عليه يقول معلما أيانا : « الهي البستني الخطايا ثوب مذلتي ، وجللني التباعد عنك لباس مسكنتي ، وامات قلبي عظيم جنايتي ، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي وياسؤلي ومنيتي » .

(١) الجفان ، جمع جفنة : قصعة .

« ان الحسنات يذهبن السيئآت » فيتنور قلبه شيئا فشيئا ، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير في طريق الهداية رويدا رويدا » .

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » ( سورة محمد ص ) فيدخل في عالم من الصلاح والفلاح الحقيقي سائرا نحو تزكية النفس فمعرفة الخالق وهي غاية الغايات من تكامل هذا الانسان على وجه الارض .

هذا التحليل له اليوم مصداق في ثلة من الناس . فليعقب من شاء سير بعض الافراد العقائدي والديني خلال ٢٠ عاما مثلا ، رابطنا هذا السير بما بدا منه من اخلاق واعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ماذهبت اليه . ومن الله التوفيق . ولابد من عمل صالح في حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى .

# الزكاة وأثرها في تكامل النفس

ان الدين الاسلامي قد استهدف في جميع نظمه وسننه تهذيب النفس الانسانية وابلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال ، بل ان الغرض الاسمى من شريعة محمد صلى الله عليه وآله هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الادران والاوساخ متحلية بالكمال .

فالنفس الانسانية اشبه شيء بقطعة حجر فيها معادن خسيسة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين . فان الكيماوي يجري على هذه القطعة انواع العمليات والصناعات ويضعها في أنواع المحاليل كي يظفر بالذهب الخالص . كذلك الدين الاسلامي : فانه بقوانينه ودساتيره يجري على النفس الانسانية انواع الامتحانات والرياضات النفسية كي تصفو رويدا رويدا عما علق بها من ردىء الصفات وذمائم الاخلاق ، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الاخلاق ، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية : طبيعة فيها من المكارم والفضائل مايجعل الانسان قمينا ليتنعم «مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ، جديرا بالخلود في « جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » .

فحري بالانسان ان يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص ولنعم ما قال الشاعر : « علي الدر والذهب المصفى » .

فان الانسان ناقص عندما يولد ، وفيه من ذمائم الصفات مالا يوصف . ولابد له من ان يدخل في هذا السير التكاملي بتطبيق ماجاء في الدين المحمدي وان يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة (ع) . فلا كمال ولا نجاة الا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به ، لوجه الله الكريم . ومن وفق الى هذه التجربة

المنجية فقد شعر بتلك النجليات القدسية والكمال النفسي نادما على مافرط في جنب الله ، متأسفا على ماسوّف من توبة واستغفار وتلافي مافات .

اذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الاسلامي من زكاة وخمس وايتاء ذى القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وانصاب وأزلام وزنا وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغي وظلم الى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الانسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللؤم والخبث وحب المال والركون الى المادة وتحليتها بالفضائل والمكرمات والصفات الانسانية الكاملة كي تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود في نعيم أبدي سرمدي .

ولا مراء ان الله تعالى جل عن ان يلاقى ، وانما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده ، فيكون مقربا اليه . انه تعالى يقول: « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » ( سورة القيامة ) .أي تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة الى ربها . ويقول الله في آية اخرى : « كلا انهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون » (سورة المطففين ) أي مبعدون معذبون منيسيون .

ان الله تبارك وتعالى وهو معطي الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها في أكمل وجه ، وأراد بالانسان ان لا يشذ عن سنة الكمال، ونبه على ذلك بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » . فأرسل انبياءورسلا يملون على الانسان طرق الكمال النفسي . وجهز الانسان بعقل يأمره باتباع سنة الكمال ( بصورة فطرية ) لو لم يدنس الانسان نفسه باتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات . فالدين الاسلامي دين صناعة النفس ، دين تكوين النفس وابلاغها الكمال المنشود .

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التي لا يمكن ان يتوصل اليها العقل البشري بذاته ، هو الزكاة . فالزكاة — كما يقول الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم (ص) : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » — وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح . لان النفس الانسانية مجبولة على البخل بالمال ، مادية مظلمة . فتتنور بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها ، فتصفو شيئا فشيئا وتتخلق بالكرم والجود وترتاض في هذا الحقل فتؤدي الامانات الى أصحابها وتوصل الحقوق الى مستحقيها .

فالفرق بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربية ، ان المدنية الاسلامية تنظر الى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس وارتقائها . لذلك يستحب للشخص ان يعطي الزكاة المندوبة سرا دون ان يعلم أحدا بذلك . كي لا يخالط عملية التزكية العجب وحب الثناء وحب الجاه وامثال ذلك . فلا يسرى أثر الزكاة والعطاء الى نفس المعطى مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة . فلو لم يتوخ في عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير في مجالات الكمال خطوة واحدة.

وهكذا يمزج الاسلام بين المدنية الروحية والمادية ، بل الهدف الاسمى من الدين الاسلامي هو المدنية الروحية . وانما يحقق الاسلام المدنية المادية للبلوغ الى مدنية روحية رفيعة . اذ « الدنيا مزرعة الآخرة » . والآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحق ان يطلق عليها لفظ ( الحياة ) . ذلك لان السبب الرئيسي من وجودنا في هذه الدنيا : بلوغنا الى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أي كمال النفس الانسانية ، وهذا الكمال ينتهي الى معرفة الله تعالى . لا يفهم حقيقتها ومدارها الا من تذوق الكمال النفسي . وان طريقة هذه المعرفة السامية : ( معرفة الله تعالى ) هي العبادات والاعمال الصالحات . انه تعالى يقول : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ،وان

الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .( سورة العنكبوت : ٦٥)

لننظر الى بعض حكم الزكاة وآثارها المادية : نرى بعض الاغنياء يشكون البطنة من كثرة الاكل ، ونرى فقراء يشكون الجوع . فلو أعطى الاغنياء مافضل عن حاجتهم من الطعام هؤلاء الفقراء ، لما شكى واحد منهم سقما ولا ألما . فجدير بالغنى ان يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفى غلته . ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم الى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير ، فيعاقبه الله في الدنيا بالبطنة حتى لا يهنىء للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفي الآخرة عذاب أليم ! وان أصحاب النار ليعترفون ( بعد دخول النار ) بعدم اطعامهم المسكين بعد اعترافهم بتركهم ( الصلاة ) وذلك بقولهم: « لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين » وان الله جل وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه : عدم حث النفس أو حث الغير على تهيئة طعام المسكين بقوله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين :فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » .

لذلك يعلمنا المثل الكامل علي عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة ، فأسرعت اليها ، تستطاب لك الالوان ، وتنقل اليك الجفان[1] ! وما ظننت أنك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو[2] وغنيهم مدعو فانظر الى ماتقضمه من هذا المقضم[3] . فما اشتبه عليك علمه فالفظه[4] وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه . ألا وان لكل مأموم اماما يقتدى به ويستضىء بنور علمه . ألا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[5] ومن طعمه بقرصيه . ألا وانكم لا تقدرون على ذلك . ولكن

(١) الجفان ، جمع جفنة : قصعة .
(٢) العائل : المحتاج . مجفو : مطرود .
(٣) المقضم : المأكل .
(٤) فالفظه : فاطرحه .
(٥) الطمر — بالكسر — الثوب البالي .

أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد . فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا[١] ولا ادخرت من غنائمها وفرا . ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا[٢] ولا حزت من ارضها شبرا ( ولا اخذت منه الا كقوت اتان دبرة[٣] ولهى في عيني أوهى وأهون من عفصة [٤] مقرة [٥] بلى ، كانت في أيدينا فدك من كل ما اظلته السماء ، فشحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين . ونعم الحكم الله . وما اصنع بفدك وغير فدك . والنفس مظانها في غد جدث[٦] تنقطع في ظلمته آثارها ، وتغيب اخبارها . وحفرة لو زيد في فسحتها ، وأوسعت يدا حافرها لاضغطها الحجر والمدر . وسد فرجها التراب المتراكم . وانما هي نفسي ، أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الاكبر ، وتثبت على جوانب المزلق . ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز . ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي الى تخيرالاطعمة . ولعل بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع ! أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى واكباد حرى !! أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن الى القد[٧]

أأقنع من نفسي بأن يقال أميرالمؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر ؟! أو أكون اسوة لهم في جشوبة[٨] العيش ؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات

---

(١) فتات الذهب والفضة قبل ان يصاغ .
(٢) ثوبا .
(٣) أتان دبرة : حمارة اصيبت بقرحة تحدث من الرحل ونحوه .
(٤) عفصة : نتوء يكون على شجرة البلوط .
(٥) مقر : نبات مر .
(٦) الجدث : القبر .
(٧) جلد السخلة كان يؤكل فى الجدب .
(٨) خشونة .

كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها[١] ، تكترش [٢] من اعلافها وتلهو عما يراد بها ، او اترك سدى واهمل عابثا ،أو أجرّ حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة ... الى ان قال : وايم الله — يميناستثنى فيها بمشيئة الله — لاروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوما ، وتقنع بالملح مأدوما . ولادعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها . الى ان قال : طوبى لنفس أدت الى ربها فرضها ،وعركت بجنبها بؤسها[٣] ، وهجرت في الليل غمضها ، حتى اذا غلب الكرى[٤] عليها افترشت أرضها ، وتوسدت كفها ، في معشر اسهر عيونهم خوف معادهم ، وتجافت[٥] عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ،وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم . « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

فاتق الله يابن حنيف . ولتكفك اقراصك ، ليكون من النار خلاصك.

ولا أظن ان هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة . فان عليا(ع) يضع لنا منهاجا قويما لو عملنا به لاوصلنا الى «مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره .

---

(١) التقاطها القمامة اي الكناسة .
(٢) تملأ كرشها .
(٣) عركه بالجنب : الصبر عليه كانه شوك فيسحقه بجنبه .
(٤) النعاس أو النوم .
(٥) تنحت .

# الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال : كنت عند أبي عبدالله (ع) فسأله رجل : في كم تجب الزكاة من المال ؟ فقال له : الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد ؟ فقال : أريدهما جميعا . فقال: « أما الظاهرة :ففي كل الف خمسة وعشرون . واما الباطنة : فلا تستأثر على اخيك بما هو احوج اليه منك » .

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة ، لظهورها . ونريد ان نتكلم عن الزكاة الباطنة . وقد حث الدين الاسلامي على هذا النوع من الزكاة : بصلة الرحم والتصدق والانفاق ، بقوله تعالى : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

فلماذا يبخل هذا الانسان وقد وعده الله تعالى انه يخلف له ما أنفقه وهو اصدق الصادقين . أليس ذلك لضعف في الايمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون الى الارض الفانية وشح مميت ؟! وقد جاء في الحديث : « اياكم والشح ، فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم ( أي الشح ) بالكذب فكذبوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

قال علي (ع) : « تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها » .. الى ان قال « ثم ان الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا لاهل الاسلام ، فمن اعطاها طيب النفس بها فانها تجعل له كفارة ، ومن النار حجابا ووقاية . فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثر عليها لهفة . وان من اعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ماهو أفضل منها ، فهو جاهل بالسنة مغبون بالاجر ، خالي العمل طويل الندم » . وقال : « سوسوا ايمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة ،

وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء ، فبالصدقة يساس الايمان ويصان ، ومع عدم أدائها يضعف الايمان ويزول » .

سئل أبو عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » أهو سوى الزكاة ؟ فقال : «الرجل يوتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الالف والالفين والثلاثة آلاف والاقل والاكثر ، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه » . وقد قال أيضا: « المعروف سوى الزكاة ، فتقربوا الى الله بالبر وصلة الرحم » . حقا : ليس هناك شيء يقرب العبد الى الله في السر والعلن ويشوقه الى المناجاة والاستغفار والانابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم. نعم ، ان البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء ، كما جاء في الحديث .

ولقد قال رسول الله (ص) : «من منع الماعون من جاره اذا احتاج اليه ، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله الى نفسه ، ومن وكله الله الى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذرا » .

وهذا علي الرضا عليه السلام يقول : « سئل رسول الله (ص) هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم ، بر الرحم اذا أدبرت وصلة الجار المسلم ، فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع » . ثم قال : « وما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت انه يورثه » . وهو القائل :« أتدرون ماحق الجار ؟ اذا استعان بك أعنته ، وان استنصرك نصرته ،وان استقرضك أقرضته وان مرض عدته ، وان مات شيعت جنازته ، وان اصابه خير هنأته وان اصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، ولا تؤذه ، واذا اشتريت فاكهة فاهد له ، وان لم تفعل فادخلها سرا

ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار[1] قدرك الا ان تغرف له منها . ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لايبلغ حق الجار الا من رحمه الله » .

وهذا علي الهادي عليه السلام يدخل عليه أبو عمر وعثمان بن سعيد واحمد بن اسحق الاشعري علي بن جعفر الهمداني . فيشكو اليه احمد بن اسحق دينا عليه ، فيقول الامام (ع) يا أبا عمرو — وكان وكيله — ادفع اليه ثلاثين الف دينار ، والى علي بن جعفر ثلاثين الف دينار ، وخذ أنت ثلاثين الف دينار ، وقد اشترى له اسحق الجلائب غنما كثيرة يوم التروية فقسمها في اقاربه .

وهذا علي بن الحسين (ع) يدخل على محمد بن اسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي . فيقول له الامام : ماشأنك؟ يقول : علي دين : خمسة عشر الف دينار . فيقول الامام عليه السلام « فهو علي » .

وعن الزمخشري في ربيع الابرار : انه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم ابن عقبة لقتال اهل المدينة واستباحتها ، كفل زين العابدين (ع) اربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن وضمهن الى عياله بنفقتهن واطعامهن ، الى ان خرج ابن عقبة من المدينة . فأقسمت واحدة منهن : انها مارأت في دار أبيها وأمها من الراحة والعيش الهنيء مارأته في دار علي بن الحسين (ع) . وماكان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بملئه ( بثلثه ) .

وروى أحمد بن حنبل ان علي بن الحسين (ع) كان يعول مائة اهل بيت من فقراء المدينة ، في كل بيت جماعة . وروى في الحلية انه حين مات وجدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجراب الى المساكين .

وفي الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه : سمعت أهل المدينة يقولون: مافقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين (ع) .

---

(١) القتار : رائحة الطعام .

وقدروى الصدوق في العلل بسنده عن سفيان بن عيينة : رأى الزهري علي بن الحسين (ع) في ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يابن رسول الله ما هذا ؟ قال : « أريد سفرا أعد له زادا أحمله الى موضع حريز » . قال : فهذا غلامي يحمله عنك . فأبى . فقال : أنا أحمله عنك ، فاني أرفعك عن حمله ... قال الامام (ع) : « لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه . أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني » . فلما كان بعد أيام قال له : يابن رسول الله ، لستأرى لذلك السفر الذي ذكرته أثرا . قال : « بلى يازهري ، لست ماظننت ولكنه الموت وله أستعد . انما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير » . وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويعده زادا لسفر الآخرة .

كيف لايكون كذلك ، وهو خريج مدرسة علي عليه السلام . فعليٌ كان يأكل أكلة العبد ، ويجلس جلسة العبد ، وان كان ليشتري القميصين السنبلانيين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر . فاذا جاز أصابعه قطعه ، واذا جاز كعبه حذفه ، ولقد ولى امرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ، ولا أقطع قطعية ، ولا أورث بيضاء ولاحمراء ، وان كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف الى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضى الا أخذ بأشدهما على بدنه .

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كد يده ، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه ، وما أطاق عمله من الناس أحد . وان كان ليصلى في اليوم والليلة ألف ركعة .

نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين ، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والاخلاقية والمدنية ، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير .

# الزكاة الواجبة

ان الدين الاسلامي قد عالج كل نقص في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية ، فأوجد التوازن بين الروح والبدن ولم يهمل ناحية دون ناحية • فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الانسانية ، فتؤدى بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال مميتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال ، يأمر الفرد في الوقت نفسه باعطاء الزكاة ، وتقديم شيء يسير من فضول المال الى أخوانه المسلمين الذين حرموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهي في صالح الانسان لو تعمق وتدبر • لذلك ترون أن الله تعالى يكرر في قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رز قناهم ينفقون » •

فعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام : « فرض الله الزكاة مع الصلاة » أي أن الزكاة قرينة الصلاة وفي مرتبتها •

وقد روى عبدالله بن سنان في حديث له ، أنه نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وآله في المسلمين : « زكو أموالكم تقبل صلواتكم » •

وقد منع رسول الله ( ص ) جماعة كانوا يصلون في المسجد عن الصلاة، ذلك لانهم ماكانوا يزكون أموالهم • فليعلم مانعو الزكاة ان صلاتهم لاتقبل ولا يموتون على الاسلام • فعن أبى عبدالله (ع) : « من منع قيراطا من الزكاة فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا » • وقد روى أبو بصير ، قال : قال أبو عبدالله (ع) : « من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، ولا تقبل له صلاة » • وهو قوله تعالى : « رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت •

ان الله تعالى قد بالغ في الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جل من قائل : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فيناركم جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » •

وقد سئل أبو عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: « سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة » • فقال : « ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئا الا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعبانا من نار في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب » •

ثم الله تعالى هو معطى المال وهو المهيىء أسبابا ينال بها الشخص المال الكثير ، وقد وعد جل جلاله : أنه سيعوض المزكى أضعاف ما يزكى من ماله ، بقوله : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» • وبقوله : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوفء اليكم وأنتم لاتظلمون » • وبقوله : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » •

والزكاة منمية للمال حافظة لها من التلف والغرق ( وهناك حوادث كثيرة تبرهن على صدق ماقلنا لامجال لذكرها ) • كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدي الى انفاق ذلك في الباطل • فقد قال الصادق عليه السلام : « من منع حقا لله أنفق في الباطل مثليه » •

ولقائل أن يقول : فلماذا ترى أناسا لايؤدون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوما فيوما غنى وثراء ؟ جواب ذلك: ان الله تعالى يهيىء وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده ، فيتم عليهم الحجة ، فان تمادوا في غيهم وثابروا على هتك حرمات الله واستهتروا بما سنه الله وقرره ، تركهم وأنفسهم وأملى لهم باعطائهم من الاموال والاولاد الشيء

الكثير وفي الآخرة عذاب أليم . وقد قال جل من قائل : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين » . وفي موضع آخر : « لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وبالزكاة تحصن الاموال وتحفظ ، فقد قال موسى بن جعفر عليهما السلام : « حصنوا أموالكم بالزكاة » . وان من لم يزك ماله عد في لسان الشرع سارقا . و « السراق ثلاثة : مانع الزكاة ، ومستحل مهور النساء ، وكذلك من استدان دينا ولم ينو قضاءه » ... الحديث .

ان العقل ليحكم بصورة طبيعية فطرية أن شكر المحسن أمر واجب . وشكر كل شيء زكاته . فان منّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد الا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده .

ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التي أولانا الله بها . فقد قال علي عليه السلام : « زكاة السلطان : اغاثة الملهوف ، وزكاة الجمال : العفاف ، وزكاة القدرة : الانصاف ، وزكاة الشجاعة : الجهاد في سبيل الله » .

فيكون اذن زكاة المال أن تعطي شيئا ضئيلا من مالك الى من فضلت عليهم بمنه تعالى . هذا أمر طبيعي يحكم به كل ذي وجدان سليم : لم تدنسه الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقات والاجرام . ولذلك شدد الله النكير على مانعي الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الاليم . وقد قال الصادق ( ع ) : « ما فرض الله على هذه الامة شيئا أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم » .

ما أقل ما فرض الله على عباده ! فقد فرض في النقدين : الفضة والذهب، ٢٫٥٪ : ( اثنان ونصف في المائة ) . أي من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل ، عليه أن يزكيها بأعطاء : دينارين

ونصف دينار منها .

ولا فرق ، على رأي بعض العلماء ، بين النقود الفضية والذهبية ، وما يقوم مقامها من الاوراق النقدية . ذلك لأن الاوراق النقدية بمثابة أسناد او ( صكوك ) تعطي بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة في المصارف ( البنوك ) . وقد توضع في البنوك ازاء هذه الاوراق النقدية سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل الى نقود أيضا . فالشخص انما يرجح أخذ الاوراق وحفظها لسهولتها . وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لاقيمة لها ، حتى تعتبر أوراقها لاعلاقة لها بالنقود . ذلك لأن الشخص الذي يستلم هذه الاوراق لو علم أنها لاتستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم . وان دين الله لايقبل الالتواء . اذن ، الاوراق النقدية تقوم مقام النقود الذهبية والفضة دونما ريب ، لامكان تحويلها اليها متى شاء الشخص ذلك ولانها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير .

ولامراء أن الغرض الرئيسى من فرض الزكاة هو تزكية الاموال المتكدسة وايجاد راحة الفقير العاجز المسكين . فلو جمدنا على الالفاظ ولم نتطرق الى حكمة التشريع فقد ألغينا الغرض الذي وضعت لأجله الزكاة وكأنها لم توضع ، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الاسلام وحرمنا الفقراء والمساكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لامزيد عليه في الكتاب والسنة .

ان عامة الناس تطلق على الاوراق النقدية : النقود . فتقول : ان فلانا يملك نقودا كثيرة مع علمها أنه لايملك غير الاوراق النقدية . وليس من المعقول أن يقال : ان المعاملات قد تقع على الاوراق النقدية مجردة عن قيمتها الحقيقية النقدية . ذلك لأن الذي يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الاوراق عن درجة الاعتبار يلغى المعاملة حالا ويراها لاقيمة لها .

ففي الاوراق النقدية زكاة كما في النقدين اذا بلغ كل منهما حد النصاب حفظا لحق الفقير وعملا بالتأكيدات الواردة في الشرع ، تأكيـــدا لايقل عن الصلاة !

وتستحب الزكاة في الحبوب مما يكال أو يوزن ، وفي الثمار والبقول وفي مال التجارة والخيل والاملاك والعقارات .

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد في الغرب : ما أحسن ما سنه الدين الاسلامي من زكاة الاموال ، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادي والتضخم المالي .

أنظروا الى هذه النسبة الضئيلة التي فرضها الله في زكاة الانعام الثلاثة: الابل والبقر والغنم ، فهو لايتجاوز ٥ر٢٪ . ففي خمس من الابل شاة ، وفي ست وعشرين بنت مخاض : وهي الداخلة في السنة الثانية ، وفي ست وسبعين: بنتا لبون .وشرح ذلك مسطور في كتب الفقه المختصرة والمفصلة .

وأما زكاة الغلاة : فالعشر : اذا كان السقي بالماء الجاري أو المطر أي بلا واسطة ميكانيكية . فان كان السقي بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أي ٥٪ وذلك بعد أخراج الضرائب والمؤن من أجرة الحارث والساقي وأجرة الارض ان كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد الى غير ذلك .

نعم ، ان الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كاف لسدحاجات المحتاجين وايجاد حياة سعيدة في هذه الارض ، ومانع عن تذمر المتذمرين وافساد المفسدين . وقد قال الصادق عليه السلام :

« انما وضعت الزكاة اختبارا للاغنياء ومعونة للفقراء . ولو أن الناس أدّوا زكاة أمالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا ، ولا ستغنى بما فرض الله .وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الاغنياء . وحقيق على الله أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله . وأقسم بالذي خلق

الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر الا بترك الزكاة . وما صيد صيد في بر ولا بحر الا بتركه التسبيح في ذلك اليوم ، وان أحب الناس الى الله أسخاهم كفا ، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم في ماله » .

نعم ، ان الدين الاسلامي يربى الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ الى الكمال الانساني ، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة . فان رسول الله (ص) قال لرجل من المشركين : « لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عز وجل أنك سخي ، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثا لمن خلفك . فقال له الرجل : وان ربك ليحب السخاء ؟ فقال نعم . قال : ( المشرك اذ ذاك ) : أشهد ان لااله الا الله وأنك رسول الله » .

والجباية الزكاة آداب سامية يعلمنا علي (ع) ، فأنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الامور وكبيرها ، دقيقها وجليلها . ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات :

« انطلق على تقوى الله وحده لاشريك له ، ولا تروعن مسلما ولا تجتازن عليه كارها ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فاذا قدمت على الحي ، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم . فتسلم عليهم ولا تخدج ( أي لاتبخل ) بالتحية لهم . ثم تقول : عباد الله ، أرسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم . فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه ؟ فان قال قائل: لا ، فلا تراجعه ... الخ » .

ويقول ( ع ) في مكان آخر مخاطبا عامله على الصدقات : « وان لك في الصدقة نصيبا مفروضا وحقا معلوما وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة ، وانا موفوك حقك ، فوفهم حقوقهم ، والا فانك من أكثر الناس خصوما

يوم القيامة ، وبؤسا لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل . ومن استهان بالامانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي وهو في الآخرة أذل وأخزى . وان أعظم الخيانة خيانة الامـــة وأفظع الغش غش الائمـــة » .

# كيف يجب أن نكون ؟

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الاخلاق والفلاسفة في الغرب بطرق عدة ، كل حسب ما توصل اليه من المعتقدات . ولا يتوصل الشخص الى معتقدات الا بدرجة تكامل نفسه وتجردها من الرجس والادناس . « وكل اناء بالذي فيه ينضح » .

فالمعتقدات مرآة النفس ، فاذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسي عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله في تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره . فهذا البحث يهديك الى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص .

اني لا أريد ان أبين هنا شيئا عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الاخلاقيين في الغرب ، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض . ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطري المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وانما أريد أن استنبط جواب هذا السؤال ببحث علمي بحت .

يرى المطالع في أحوال الكون : أن الانجم تسير في أفلاك معينة لاتحيد عنها ، وكل هذه الافلاك أو المدارات التي تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير الى النظام الرائع والانتظام البديع الذي أودعه الله في هذا الكون .

يرى أن للخسوف أو الكسوف حسابات خاصة ودساتير معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعهما قبلا ومدة دوامهما .

يرى أنه لولا ميلان مدار الارض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذي ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لاتعد ولا تحصى . « ذلك بأن الله يولج الليل في النهار

ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير » . ( سورة الحج ).

يرى لولا حركة الارض الوضعية لكان النصف من الكرة الارضية في ظلام دائم والنصف الآخر في ضياء دائم واحتراق شديد . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ».

( سورة النحل ) « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة ، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ » . ( سورة القصص ) .

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات ( الكواكب ) تدور على مسير اهليلجي ( قطع ناقص ) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه ( بؤرتيه ) .

يرى أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس بأحدى السيارات ( الكواكب ) يقطع في أزمنة متساوية سطوحا متساوية . وفي ذلك من الحكمة الفائقة .

يرى أن مربعات أزمنة الدور النجومي للسيارات ( الكواكب ) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الاطول لمداراتها وفي ذلك الحكمة العالية .

يرى أن نظرية ( لابلاس ) في تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لايقبل الجرح والتعديل في القرآن الكريم : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون » .

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره في القرآن لتوجيه الناس الى عظيم صنع الله بقوله : « ألم تر ان الله يزجي سحابا ( أي يسوق السحاب

أو البخار ) ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنابرقه يذهب بالابصار» ٠والجبال التي فيها من برد هي الثلاجات ( Glacier ) أو ( Lceberg ) تتوجه من نوروج الى خليج مكزيك في المحيط الاطلسي ٠

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الانجم ) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب ٠ وهذا مايعبر عنه : بالجاذبية العامة : « ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ، انه كان حليما غفورا » ٠ ( سورة فاطر ) ٠

يرى أن الاجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أي عند تقليل درجة الحرارة ، الا الماء ٠ ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى، فاذا قللنا درجة الحرارة عن ( ٤°م ) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه ، فيكون ١ سم$^{٣}$ من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزنا عن ١ سم$^{٣}$ من الماء في ٣°م ، بخلاف بقية الاجسام ، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم ، فيطفو على سطح الماء ٠ وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ١ر٠٩١ سم$^{٣}$ ، فاذا ساح الى الماء في درجة الصفر أيضا أصبح حجمه = ١ر٠٠٠١٢ سم$^{٣}$ ٠ فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر ٠

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر ( لا في ٤°م ) كبقية السوائل لغاص كل ماتجمد من سطح الماء ورسب في القعر ٠ وتجمد مايزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء الى الاعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الاعلى الى الاسفل ولاصبحت البحيرة قطعة ثلج ! فلا ترى حيوانا يتنعم بالحياة في أعماق

البحار والبحيرات • ولا تقلب البحر برمته الى ثلاجة ماكان يكفي لذوبانها حرارات الفصول ، لاسيما في المناطق الباردة ، ولا تنفى عند ذلك انتفاع الانسان بالبحر •

وبما أن الله تعالى قدجعل كثافة الماء العظمى في( ٤°م ) فاذا بردالجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+ ٤°م ) نزل هذا الماء الى القعر لثقله بالنظر الى وزن الماء في الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+ ٤° م ) • ثم اذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الاعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة ، ولما أمكن نزول هذه القشرة الى القعر لخفته وبقي القسم الاسفل من البحيرة سالما من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور •

فيرى أنه لوأطرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الاجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفة بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله الى جليد في فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولامتنعت التجارة البحرية ولانقلب الجو باردا بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية • فيستنتج من ذلك كله ان ليس للطبيعة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+ ٤° م ) في النهاية العظمى خلافا لبقية الاجسام ! •

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لاتعد ولا تحصى في ربط الحوادث الفيزياوية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة •

يرى مثلا أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثة في معادلاتها في الفيزياء العالية •

يرى أن أشعة روتتكن لها من الخواص مايبهر العقول ، وأن أشعة : أورانيوم وتوريوم وراديوم تنقسم حسب نفوذها في المادة الى أشعة: آلفا

وبتا • لكل منهما خواصها •

يرى أن أشعة (اس) كيف يحصل عليها من أشعة (اكس) ويحار في انتظاماتها وقوانينها •

يرى أن الاشعة الكونية لها من الآثار والقوانين مايعجز عن استقصائها العلماء وان اشتغلوا مئات السنين ، حتى يقول الفيزياوي نحن في ساحل بحر من المجهولات لا تدرك نهايته : «وان من شيء الا عندنا خزائنه ، ومانتزله الا بقدر معلوم » • ( سورة الحجر ) •

يرى أن الاجزاء الصغيرة من الماء المعلقة في الهواء او الابخرة عند انقلابها الى الثلج ( الصقيع ) تأخذ أشكالا هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون •

يرى ويندهش من النظام المودع في مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا في بقية الحيوانات : « والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله مايشاء ، ان الله على كل شيء قدير » • (سورة النور) •

يرى انه لو كتب عشرات الكتب في ما أودع الله من خواص وقوانين في عين الانسان لكان هنالك أيضا حقائق لاتعد ولا تحصى يجب أن تدون •

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها الى درجة معينة لغرض خاص وانها أقل من أن تفكر لنفسها في مايسد رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها : « وكأين من دابة لاتحمل رزقها ، الله يرزقها واياكم ، وهو السميع العليم » •

يرى أن في الارض أدوية متنوعة لامراض الانسان ، فلا يدري هل وجد الداء قبلا أم الدواء وما المناسبة بينهما وفي أي محل عقدا مؤتمر حفظ النسل الانساني من الامراض الفتاكة ؟ ومن أين أتت الحيوية ( الحياة ) الى هذه

الجرائيم الحية المولدة لشتى الامراض ؟

يرى عجائب لاتعد ولا تحصى في عالم النبات من بري وبحري والامراض التي تعتريها وطرق معالجتها ، وان الرياح تلعب دورا في تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات !

يرى الخوارق في حياة النملة وكذا في كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحي منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون !

يرى في الكيمياء النظام الرائع في تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى : « الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار » . ( سورة الرعد ) .

يرى ويحار من توزع الالكترونات حول البروتونات في بطن الذرة بطرز هندسي عجيب ويرى أن الالكترون يسير بارادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه .

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب في تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضا حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها : «ولو أن مافي الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » .

يرى المطالع في أحوال الكون ان الاختلاف ضارب أطنابه في كل شيء على وجه يؤدي الى كمال الاشياء وانتظامها في سير متكامل لايشوبه نقص . وهو دليل على ارادة الله تعالى في تنظيم الاجزاء المختلفة من هذا الكون . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين » . ( سورة الروم ) .

يرى المتتبع أن الجنين في رحم أمه لايحتاج الى عين أو اذن الا بعد الولادة ، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر في المستقبل ، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير الى الطبيعة ( وهي مخلوقة ). فيستنبط من هنا أن الكمال شيء مطرد في الممكنات مستدام في جميع أدوارها .

يرى المفكر في أحوال الكون أن كل شيء قد أخذ قسطا من الكمال بقدر استعداده وقابليته : « أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها » . (سورة الرعد ) ، وان الكمال سائد في كل شيء ولا يشذ عنه شيء . فالذرة كاملة والبروتون كامل والنيوترون كامل والايونات كاملة والوردة كاملة وشعاع روتتكن كامل : «تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا ». (سورة بني اسرائيل ) . أي ان كل شيء في تمام كماله وكمال تكامله ، وانه يشير الى تنزه الباري جل جلاله من كل نقص والى حسن ابداعه وجليل اتقانه الخلق : « سبحانه وتعالى عما يشركون ». ولكنا لانفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه الا بقدر ما توصلت اليه معلوماتنا ومعارفنا ، ولم تصل معلوماتنا الى حد نفقه بها تسبيح الاشياء والكمال المودع فيها الا ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلي بها أنفسنا ، يغتر بها المغرور فيتردى ألى أسفل سافلين .

ولا ريب أن عدم تفقهنا تسبيح الاشياء انما هو ناشيء عن الذنوب التي نرتكبها ، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجابا حاجزا عن مشاهدة الحق والواقع . على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لايقيمون للذنب وزنا ولا يعتبرونه . «كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون». الا ان الله جل جلاله كما يرى في نهاية الآية المتقدمة حليم غفور « انه كان حليما غفورا»، فلا يترك عبده يتخبط في دياجير الظلمات بل يهيىء له ( تفضلا منه ) دواعي

التنبه ويقيض له وسائل الهداية والرشاد في أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته ، اتماما للحجة وقطعا لدابر العذر : « قل فلله الحجة البالغة » .

ثم يرى المدقق ان الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الاشياء الكاملة في صنعها لهذا الانسان ، فهل يجوز ان يكون الانسان : ( هذا الذي قد خلق لاجله جميع الاشياء في غاية الكمال ) ناقصا يفسد في الارض ، يظلم ويبغي ، يزني ويفسق ، ينهب أموال الناس ويرابي . ثم يرى — بحصر عقلي — ان الكامل وهو الله تعالى لايصدر منه الا الكمال . فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقا ناقصا وأعني به الانسان ؟ فلابد وان الله تعالى يقيض لهذا ( الانسان ) الذي خلق لاجله كثيرا من الموجودات وسائل عدة بغية تكميله وايصاله الى الغاية التي خلق لاجلها .

اذن بطريق عقلي بحت ، يصل المتتبع في أحوال الكون الى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الارض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملا بسنة الكمال .

على أن الله تعالى قد أودع في النفس الانسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية . فانه تعالى يقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » . ويقول في موضع آخر : «وهديناه النجدين » أي طريقي الخير والشر . الا ترى أن من لم يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة في الدين تفوق عقيدة من توغل في كثير من العلوم ، لان كثرة العلم لاتوجب الهداية بصورة مطردة . ولا تناسب درجة الهداية مع كثرة العلم ، وان الهداية شعاع يشع من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد في الارض ولا تبغي ولا تجور ، من نفس كلها عاطفة وايثار وأخلاق فاضلة حميدة .

نعم ، ان ماتقوم به الايدي من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات

هو الذي يسلك بالانسان طريق الفلاح والصلاح . ان الامي يكفيه نمو النبات وهبوط الامطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقينا به تعالى ويعلم انه انما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض . « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » . ( سورة الانشقاق ) .

ان الله تعالى يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

وفي الحديث : «كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . فالمولود يولد موحدا معترفا بخالقه ، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها ، يتغلب عليه شيطانه ، فيجعله متبعا طريق والديه المعوج . وانه لو لم يدنس نفسه بالمعاصي والآثام ، او تمكن من غسلها بأعمال صالحات وتوبة واستغفار ، لتوجهت نفسه الى حيث النور ، الى حيث الكمال المنشود : الا وهو الدين الاسلامي : دين الفطرة . فكم رأينا أفرادا ولدوا من آباء وأمهات غيرمسلمين ولكنهم وفقوا الى اعتناق الدين الاسلامي لاهلية في نفوسهم وصفاء في أرواحهم .

ان الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيرا عن المثل الاعلى ( Superman ) للانسان ، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل الى مايريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجرائيم التي تهلك النفس وتفسد السريرة . أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدي نظرية في الكمال النفسي؟ أو يخط للبشر خطة تؤدي الى سعادته في النشأتين ؟ « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » . « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة . انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون »،

ان من يرى ليالي باريس وما هنالك من مخازي ومفاسد يحكم بأن الانسان هناك مسرف متجاوز الحد الذي عين لتكامله وهو في سيره السلبي يتدهور الى أسفل السافلين .

ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصي كبائرها وصغائرها خوفا من الله تعالى ، واهتمامهم في قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وماهم عليه من فضائل الاخلاق يحكم بأن هذا الانسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر في سير تكاملي يريده الله لعباده في الارض .

فالانسان اذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه ، لاتأخذه في الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه ، ثم أبتهل الى الله جل وعلا بخشوع وخضوع وتذلل في ازاحة كيد الشيطان ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم ( ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي) وقام جوف الليل محاسبا نفسه مستغفرا منيبا ، فصلى وانقطع الى الله باخلاص تام ، تنفتح بصائر قلبه ، فيهتدي الى الحق ، يمقت الملاهي المفسدة للنفس ، وتشمئز نفسه من الاغاني المحرمة وان لم يكن قد بلغه حرمة ذلك ، (وذلك لصفاء في نفسه ) ، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من معاشرة أهل البغي والسوء ، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب الى التقوى وقمع الشهوات فيرتاح الى مجالستهم ويستفيد من غرر كلماتهم وجميل بياناتهم . «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» (سورة العنكبوت)

فاذا رأيتم رجلا يستبيح ماحرم الله وهو يدعي الايمان ، اعلموا أن ايمانه ناقص مبتور وان في نفسه من الامراض المعنوية أمراضا منعته أن يرى الحق فينطبع عليه .

تولستوى الفيلسوف الروسي المعروف ، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين والبؤساء وبذله أموالا طائلة في سبيل خدمة الآخرين ، قدرأى بصيصا من الحق . ولكن نفسه - أوقل - نتائج أعماله السابقة كانت أقل من ان تدعه ليرى الحق كله جليا او يهتدي الى صراط الله القويم ( ألا وهو دين الاسلام ) . فكان تولستوي يبحث عن الحق وبينه وبين الحق حجاب . وكان الحجاب نفسه . حتى كان مآل أمره أن خرج من مزرعته هائما على وجهه في برد قارس كان فيه هلاكه .

ان من ينظر الى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلي بخضوع وخشوع ، يركع ويسجد للمنعم المنان ، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لاجله خلق . لان من شأن العبد والمنعَّم بنعم المولى أن يشكر مولاه . وذلك أمر فطري لاينكره كل من كان له مسحة من العقل . الا اذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب . وهو أشد عمى يصاب به الانسان المسكين بما كسبت يداه . «فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» . (سورة الحج ) . فيستهزىء بالمصلي ويرى الصلاة شيئا زائدا او (لا سمح الله ) عملا خرافيا ، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة في مقطع أحد الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج ، حين أن زوجها وأخاها لاشغل لهما ويفتشان عن عمل فلا يلتفت اليهما . وهذا هو التبلبل الاجتماعي بعينه .

نعم ، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد الحق باطلا والباطل حقا ، فتتردى هذه النفس لذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها . ان الله تعالى يقول : « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون او يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » . ( سورة الفرقان ) .

نعم ، ان الغربي ليقدر وفاء الكلب اذا وفى لصاحبه وحرسه بكل نشاط

واخلاص ويكتب في اطرائه والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة . وانك لاترى كتابا للمطالعة الا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الاحسان بالاحسان ويشكر صاحبه بأعماله ووفائه . أجدير بالانسان وهو أشرف المخلوقات ! أن يكون أحط من الكلب في تقدير نعم الخالق التي لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة ... « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار » .

يتعجب الانسان ويندهش عندما يرى رجالا من الغرب يتقلبون في نعم الباري جل جلاله في قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين في خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لايخطر ببالهم أن يفكروا في من أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم ، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر .

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذي يريد أن يضع دساتير لسعادة البشر! متبخترا بفلسفته الواهية الحالكة ، مغرورا ببياناته السخيفة، يريد أن يسن للبشر سنن الرقي والتكامل وهو في آخر درك من النقصان .

هذا ( بنتهام ) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول : « ان الاخلاق يجب أن تقوم على المنافع المتقابلة » . وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أوشيء أحط من البهيمية ؟ « مايجادل في آيات الله الا الذين كفروا، فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم فكيف كان عقاب » . ( سورة المؤمن ) .

قد يقول الشخص أمثال ( روكفلر ) و( فورد ) : انا قد حصلنا ماحصلنا عليه بجد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك. وقد فاته ان الله هو الذي قد هيأ له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له امكانيات، وهيأله ظروفا خاصة

ولولا توفيق الباري جل وعلا لكان حاله حال أحد عماله. وقد يكون أحد عماله أقرب الى الله . وكم بين عماله من هم أشد منه قوة وذكاءاً واجتهادا وسهرا على المصالح الدنيوية ! !

«ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، اذ قال له قومه لاتفرح ، ان الله لايحب الفرحين . وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لايحب المفسدين» . قال : انما أوتيته على علم عندي، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » . ( سورة القصص : ٧٦ ، ٧٨ ) .

ذكر لي أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية : أنه استقال من وظيفة هامة وعمد الى تجارة الافرشة والسجادات وكان يملك شيئا من المال . فكانت تتوارد عليه الارباح مع جهله بنوعية الافرشة . وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الافرشة جيدها ورديئها وصار يميز بينها تمييزا صحيحا . فقدر لنفسه انه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الاثرياء بعد قليل . ولكن انعكس الامر ، فتراكمت عليه الخسارة وحوادث مؤلمة تباعا ، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه ، فكان عاقبة أمره الافلاس أيضا . وصار يحتاج الى قوت يومه . وقد رأيته ذات يوم وهو في هذه الحالة ، فدنا مني قائلا : أمسيت في حالة أخشى أن تضع الناس في يدي فلسا زاعمين أني سائل مسكين ! ثم سكت وقال : اني علمت الآن : ان الله هو مدبر الامور وهو الموفق وليس الفن كل شيء ، وان هناك يدا خفية لها أثرها في تسيير الامور . فمهما كان الانسان موهوبا ، لابد من يد خفية تساعده في النجاح وتهيء له الفرص . على أن المواهب كلها منه تعالى.

ثم قال: ان مادرسته من الفلسفة الغربية هواء في شبك، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشري لاتوافق الواقع وأيقنت ان نصيحة أمي - وانا طفل صغير- هي كل الحقيقة وتمام الحقيقة . انها كانت تقول لي: « ولدي ، كل شيء بيد الله تعالى » .

* * *

وصادف رجلا آخر كان قد ترك الصلاة واندمج في زمرة من لايخشى الله . ففصل عن وظيفته وبقي لا عمل له ، فباع كل مالديه ليقتات بثمنه ، فنفد مالديه . وبقي حائرا يعالج الجوع . والجوع خير مرب في كثير من الاحيان . ففكر في نفسه وفي الغاية التي خلق لاجلها مدة سنتين وهو في حالة يرثى لها . حتى أيقن انه محتاج ، وان الحاجة لاتعرض الا على أغنى الاغنياء ومعطي الغنى وهو الله . فابتهل اليه جل وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلي ويصوم ويقدس المقدسات. فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه. ثم اني أحببت أن أستقصي سبب هذا الانقلاب التكاملي. فكنت ذات يوم في بيته عند الغروب ، رأيته حاملا أمه العرجاء وقصد بها الى السطح ،وكان يأتي بها هكذا عند الصباح الى ساحة الدار ، يقدسها أيما تقديس . رأيته عطوفا على أخيه المسكين الذي كان عالة عليه ، وصولا أرحامه . رأيته يساعد الفقراء والمساكين . فعلمت انه لم يقطع صلته بالله تعالى في زمن كان قد ترك الصلاة فيه . فصرت انصحه . فوجدته يوم الجمعة في روضة الامامين موسى والجواد عليهما السلام يصلي . فهنأته على رجوعه الى صلاته وهديه .

ثم انه دعاني يوما الى طعام . فجيء بالمائدة وانتظرته قليلا حتى حضر. سألته عن سبب التأخير . قال : آليت أن لا أتناول ما من الله به عليّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلا . وأصبح رجلا دينا يشار اليه بالبنان .

نعم ، هكذا تعمل النوائب في تكميل بعض النفوس ، فان اخراجه من الوظيفة وتجرعه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية . لأن المعدة المملوءة قد تكون حجابا حاجزا عن الوصول الى الحق ، وان أبخرتها الكثيفة تغشى الحقائق فلا يشعر الانسان الا بشهوة نفسه . وهذا أحد الاسباب التي سنَّ الله تعالى من أجلها الصوم . وأحد اسباب استحباب الزهادة في الدنيا .

ولا بأس بذكر هذا الحديث في المقام : قال سعد لسلمان المحمدي ، في مرضه : كيف تجد نفسك ؟ .. فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : «والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولكن بكائي : لأن رسول الله (ص) قال : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب» .فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك. وليس حوله في بيته غير مطهرة واجانة وقصعة .

وقد يتعجب البعض من ذكرى هذا الحديث في عصر قد بلغت فيه الكماليات أقصى الحدود حتى لم تبق وقتا للعبادة . كأنه نسى قول الله تعالى: « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » . ان الدين يعطينا المثل الاعلى في الكمال النفسي لأفراد ( Superman ) هم أوتاد الارض . وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء .

* * *

ان الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وارشادهم الى سبل الرشاد بمرض أو ضنك في عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى . لعل العبد يفكر في عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة . ان الله تعالى يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم

الفاسقون » . وفي آية أخرى : « وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » . وفي أخرى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » .

* * *

يتجلى الكمال النفسي في الدرجة الاولى في ( الشكر ) . فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل . فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الاستاذ لأنه استاذ ورب أستاذ لانعم الله جاحد ! . اذ لارابطة بين العلم والكمال النفسي .

يقول زين العابدين (ع) مخاطبا رب العباد : « فكيف لي بتحصيل الشكر ، وشكري اياك يفتقر الى شكر . فكلما قلت : لك الحمد ، وجب عليَّ لذلك أن أقول : لك الحمد » .

وانما كان الانبياء ( ع ) أنبياء ، لعظيم شكرهم وكمال اخلاصهم . فقد فدى ابراهيم (ع) بجميع غنمه عندما سمع من ينادي : « سبوح قدوس ، ربنا ورب الملائكة والروح » . ويقول الله جوابا لاولئك الرؤوساء الذين تعجبوا من ايمان من آمن من الضعفاء : انهم انما آمنوا لشكرهم : «وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

ان الصلاة المفروضة نوع شكر . وقد ورد في الاخبار : يستحب للعبد أن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة : « الحمد لله رب العالمين » . وهذا قليل مما ينبغي أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه .

وقد يقول الجاهل المغرور : ليس لنا من الوقت ما يكفي لاقامة الفرائض فضلا عن المستحبات . ولكنه يقضي ساعات عدة في المقاهي ، يتعاطى فيها الميسر ، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنميمة ، فيصرف أوقاتا غير قليلة في اللهو واللعب : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس

من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ان الله تعالى أكد في تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالاصنام والازلام وجعلهما من عمل الشيطان . فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الاصنام وقدسها . والحق ، ان من كان محبوبه الخمرة والميسر لم يكن له طريق الى المقامات القدسية وتدهور الى أسفل السافلين ، فيكون مآله ومثواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم .

فعلى الآباء ان يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهي ومجالس القمار واللهو والرقص .. الى ما هنالك ، وأن يحظروهم مجالسة الاوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها ، وأن يعودوهم مساعدة الفقراء والمساكين والاعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران ، وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين . فان ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب . ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مستعرة : « انها لظى ، نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى » .

ان الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

وكم نرى في زماننا هذا آباءً يعظون أبناءهم ، يرشدونهم ويهدونهم سواء السبيل ، ولكن أبناءهم يسخرون منهم في قلوبهم ويصمونهم بالخرافة والرجعية ! فاذا رأوهم صلوا ، واذا غابوا عنهم رجعوا الى غيهم : «يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون

واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم انما نحن مستهزئون. الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ان كثيرا من الابناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي . وهما يستغيثان الله ، ويلك آمن ، ان وعد الله حق ، فيقول : ما هذا الا أساطير الاولين » .

من تلك العوامل : خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم ادخال دروس الدين في المدارس العالية ، وعدم اعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية واعطائهم صلاحيات واسعة ، وتقليد الغرب في فلسفتها المادية وأخلاقها النفعية .

عندما يدرس الانسان الدين الاسلامي ويتتبع أوامره ونواهيه في المأكل والمشرب ومعاملة الجار والارحام وفي جميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر في ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات في المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله في أرضه ، هو دين يأخذ بهذا الانسان الناقص الى حيث الكمال المنشود .

# الترتيب لا يولد الحياة

جاء في مقال : (الحياة في علم الحياة) في العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلا عن مذهب الماديين : « أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهبا آخر في تعليل كيفية حلول الحياة في مادة ( البروتوپلازم ) ( protoplasm ) وذلك بأن المقدرة على القيام بالاعمال الحياتية ناتجة عن ترتب خاص واندماج أو تألف معلوم بين العناصر التي تكوّن مادة البروتوپلازم الحية » .

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لايعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادىء كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين ، أحببت أن ارد هذا الرأي ، مع علمي أنه ليس من رأى كاتب المقال ولا معتقده ، دفعا للشبهات ودرءا لزلة الشبان ، وانجذابهم الى المذهب المادي الفاسد ( Materialisme ) .

ان الدليل الذي يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة في مادة البروتوپلازم ، كما جاء في المقال ، هو أن: ( ترتيب ذرات الهيدروجين والاوكسجين والكاربون ، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة ، ينتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشأ وما أشبه ) .

وليت شعري هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شيء حي له أعمال حياتية كالتنفس والافراع والتغذي والنمو والتوالد وهكذا الخشبة والنشأ . فمن شاهد تنفسا وتغذيا ونموا للخشبة الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدعى بأن فيها حياة تشبه ما عرفناه آنفا . وهكذا لاحياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص لذرات الاوكسجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم في الكيمياء .

نعم ، ان الحوامض تمتاز بخاصيات مختصة بها ، ولكن هذه الخاصيات

عوارض مادية فاقدة الحياة . ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواص جديدة ، ولكن هذه الخواص هي آثار مادية غير حياتية ، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذي والتمثل والتنفس الى غير ذلك . وبما أن عملية الترتيب عملية مادية، فالمعلول يكون أمرا ماديا أيضا ولا يتجاوز حدود المادة ، لأن الحيوية مفهوم غير مادي وليس للمادة أن توجد ماليس فيها.

ومعلوم : أنا اذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة ( مثلا ) حسب مايجب فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة في آلاتها وأدواتها ؟ كلا . ولا مراءَ أن روح تلك القوة بما هي قوة ليست من جنس المادة من حيث هي مادة وبينهما بون عظيم . واذا استطاع العالم بعلوم الحياة : أو ( Biologue ) ( Biologiste ) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالاوكسيجين والهيدروجين والكاربون والآزوت (نيتروجين: Nitrogene ) الى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها ، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذي يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية ، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف : « يا أيها الناس ضرب مثل فأستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » . ( سورة الحج : ٧٣ ) .

فالترتيب عملية موجودة في جميع العناصر غير الحية . ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة . فان النظريات الحديثة التي لاتزال في تزلزل وسقوط ، تدعى اليوم : أن كل آتوم (ذرة ) مركب من پروتون : ( الكهربائية الموجبة ) المجتمعة في الوسط والمحاطة بالالكترون : ( الكهربائية السالبة ) المحدودة وعدد آخر من الالكترونات بحيث يساوي زيادة عدد البروتونات على الالكترونات المحيطة المحددة .

وبذلك يتساوى عدد الالكترونات وعدد البروتونات في كل ذرة ، الا أن البروتونات كلها مندمجة في الوسط . فمثلا : ذرة الليثيوم مركبة من ( ٧ ) بروتونات و ( ٤ ) ألكترونات محددة .

واذا رسمنا مكعبات حول المركز ( البروتون ) في امكاننا أن نضع (٣) ألكترونات في رؤوس المكعب ليكون عدد الالكترونات مساويا لعدد البروتونات . وان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر . وان هذه النظرية المسماة بنظرية ( او كنت ) أبديت من قبل ( لويس ) و ( لانكمو ) الامريكيين . الا أن هناك نظرية أخرى ، تدل على أن الالكترونات، التي توضع في رؤوس المكعب كما رأينا في ذرة الليثيوم والتي نسميها أقمارا ، تدور حول البروتونات المندمجة في المركز ، كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس .

واذا سلمنا بالنظرية الاولى نرى أن العناصر كلها من كلور، حديد ، ليثيوم ( Lithium ) كاليسيوم ، هيدروجين، هليوم ...الخ. مركبة من ( بروتون) و ( ألكترون) . ومع اختلاف خواصها فانها مركبة من شيئين متساويين في العدد ، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص. ولولا هذا الترتيب والاختلاف في العدد لما وجد عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف في الخواص المادية . فالترتيب واختلاف العدد يوجبان تبدل الخواص الكيمياوية فحسب ، لا الحياة !

على أن الترتيب لابد له من مرتب. فلا يأتي الترتيب المؤدي الى وجود عناصر مختلفة والى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطا وثيقا ، عفوا . ومحال أن يعترف العقل الانساني بأن الترتيب المؤدي الى وجود مالا يعد ولا يحصى من الموجودات - وهي في غاية النظام وتمام الاتقان - يأتي جزافا دون تروّ وحكمة .

* * *

يقول أحدعلماء الطبيعة ردا علىنظرية الترتيب والصدفة : انناالووضعنا فيكيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الارقام من (١) الى (١٠) بالترتيب، فالاحتمال فيأن نعثر على رقم (١) هو واحد من عشرة • ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١ ،٢) بصورة متتالية فالاحتمال يكون: واحدا من مائة ، واذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية ، فمرتبة الاحتمال تكون واحدا من ألف ، واذا أردنا أن نوفق الىسحب الارقام من ١الى١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون : واحدا من عشرة آلاف مليون • واذاعلمنا ان الاجزاء التي ترتب هذا الكون مختلفة ، ومتعددة جدا ، وان ماخلق الله من الموجودات تكاد لا تتناهى، وان الترتيب فيهـذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض ، اذن ستكون مرتبة الاحتمال :

$$\frac{١}{١٠^{ن}}$$

فاذا كانت ن = ∞ ( أي ن تساوي اللانهاية )

إذن :

$$\text{غـــا} \quad \frac{١}{١٠^{ن}} = ٠$$

$$ن \leftarrow \infty$$

أي أن : غاية $\frac{١}{\infty} = ٠$ لا محالة ....

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أوالصدفة تساوي الصفر • أي ليس هناك صدفة أبدا [١] •

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لاتنطبق تماما على هذا الكون . لان الاشياء لم تكن موجودة كلها قبلا وانما وجدت بأمر الله تباعا وبترتب بديع وتحت نظم ودساتير . « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . » « ويخلق مالا تعلمون » . « يزيد فى الخلق ما يشاء ».

فليس في الامكان : أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيبا بديعا محيرا للعقول ، يؤدي الى انتظام رائع نشاهده في هذا الكون ، لا سيما وجود هذه الحيوية في النبات والحيوان ووجود هذا العقل الانساني ! « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لاجل مسمى، يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ». ( سورة الرعد ). وفي آية أخرى : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذاهم يستبشرون ». ( سورة الروم ). ( الودق : المطر) .

* * *

تقول نظرية لاپلاس : ان الارض كانت في الابتداء قطعة نارية في درجات عالية من الحرارة . فما كان يمكن أن تعيش على سطحها أذ ذاك لا حيوان ولا نبات ولا مكروب . فمن أين اذن جاءت هـذه الحيوية ( أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله اياها ؟ : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله مايشاء ، ان الله على كل شيء قدير».

أنى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنى لها أن تخلق الروح والعقل . ثم كيف وجـدت هذه الاجزاء المترتبة ؟ هل وجدت في آن واحد ؟ (وهذا مالا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة ) ، أم وجدت تباعا ؟

فمن الذي أوجدها تباعا ووضع دستور التتابع والتسلسل في أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع . ثم ان الجزء الاول هل وجد من تلقاء نفسه وهو في غاية الحاجة والافتقار ومؤلف من عناصر عدة ، في فضاء لابد له من خالق ؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيبا حكيما محيرا للالباب ؟!

ثم من الذي وهب له روحا تحركه وتعطيه قابلية الايجاد والخلق والتنظيم بقوانين ودساتير رياضية رصينة . أم ماذا ؟ «فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فاني تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون » . ( سورة يونس ع ) .

* * *

يتألف محرك الصاروخ من ( ٣٠٠ ٠٠٠ ) قطعة . فان كان صنع احدى هذه القطع يخالف الهندسة التي يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبذل الدقة المتناهية في انتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند اطلاقه وفشل. فكيف بهذا العالم المؤلف مما لايتناهى من قطع في عالم الجماد والنبات والحيوان ، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الارواح والعقول .

كما أن للمفكر أن يفكر من الذي هندس القطع التي تتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها ، حتى يأتي دور الصدفة ! على أن درجة الاحتمال في هذا الترتيب هي الصفر لاسيما اذا كانت الاجزاء لاتتناهى .

اذن وجب بحصر عقلي أن يعترف العقل أن هناك خالقا قديرا وقدأعلى الوجود ، واوجد الاشياء بقدرته ورتبها بحكمته . « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وفي خلق الله تعالى جميع مافي الكون من حيوان ونبات وجماد [1] بصورة زوجية حكمة بالغة ،كي يوقن هذا الانسان أن الوحدة خاصة بالله تعالى ، لايشاركه فيها أحد، وان كل شيء من المخلوقات لابد له من شريك ومزاوج : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

(١) الذرة تتألف من الكترون ( كهربائية سالبة ) وبروتون ( كهربائية موجبة ) . وتدور الالكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية . وان كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان ، تدور احداهما حول الاخرى . تحقيقا للزوجية في عالم التكوين .

واذا سلمنا بالنظرية الثانية : (وهي أن الالكترونات في الذرة تدور حول البروتونات المندمجة في المركز ، كالمنظومة الشمسية ) ، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة ، اذن لزم أن يكون كل مافي الكون متحركا من الابتداء ! فما هو اذن هذا التفاوت في الموجودات ياترى؟ ثم من أين أتت هذه الحركة : حركة الاقمار أو الالكترونات حول البروتونات . ومن المحرك لها ؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر ؟

وسواء سلمنا بالنظرية الاولى أو الثانية فان الالكترون ( الذي هو القوة بعينها) موجود في ذرات الاجسام ، اذن ليست الذرة بشيء مادي بحت.

فكيف اذن : انقلبت الطاقة أو القوة الى مادة ؟ وقد ثبت حديثا أن المادة تتحول الى طاقة وقوة : اما بالاشعاع أو بطرق أخرى . وأول من عثر على هذه النظرية ( مادام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة ( صوربون) حينما وضعت في (جيبها ) قطعة من الراديوم أدت الى خدشة في صدرها بنتيجة الاشعاع وقد خف وزنها بعد مدة .

ولسائل أن يسأل : من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التي تكاد لا تتناهى حتى شكلت هذا العالم المادي . وقد وضح الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله : « الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الامثال للناس ، والله بكل شيء عليم » .

وقد صرح الدكتور ( گرستاولوبون ) في آرائه الفلسفية : أن تحول المادة الى القوة مما أوجب افلاس الماديين (( Materialistes )) وتقهقرهم.

فوجب اذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة

(التي مخلوقة لها ) ، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتا ،فحيوانا ، فانسانا وهوالله تبارك وتعالى ، وأن جوهر الحياة ليس بمادي . كما أنا نرى أن للانسان نفسا مجردة عن البدن حاكمة عليه . ( يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة ) .

ان الانسان يرى في منامه انه يسافر الى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر اعماله ليالي وايامًا ، وبدنه المادي ملقى على فراشه . أليس الذاهب الى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التي بين جنبيه ؟ مع أن النوم لم يستمر الا سويعات ولكن الاعمال قد تستمرأكثر من ذلك .

وقد اكتشف حديثا : أن الماء ليس مركبا من الاوكسجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومة ، بل فيه ما لايدخل تحت المجهر ( ميكروسكوب) والادوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة في المختبرات ، وهو قوة حيوية مفيدة . فاذا كان في الماء شيء غير مادي ، موجب للحياة ، فكيف لايوجد في( البروتوپلازم ) وقد قال تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيءحي» .

يقول ( برگسون ) الفيلسوف الفرنسي: «ان ما حدا بالانسان الى النزعة المادية في تفكيره ، هو ارتباطه بالمكان ارتباطا وثيقا » . وان من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لايلبث أن يستهزىء بمبادىء الماديين السخيفة الذين أخذوا في هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير الارواح أو تحضيرها في الغرب . ( على أن احضار الارواح عمل حرمه الدين الاسلامي . وعده من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم ) .

* * *

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم : أن ليس للغرب مع اندماجه في حياة مادية مدلهمة أن يمد يدا الى ما وراء الطبيعة على حد قول

(گوستاولوبون) ، فانه كان يقول: « لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل الى ماوراء الطبيعة ».

ولكنه لو تمسك بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحات لوجهه تعالى وجرد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أمارة بالسوء، فلوائمة لآمن بما جاء في الدين مما يتعلق بماوراء الطبيعة ، وكان من الذين «يؤمنون بالغيب» ولدخل في زمرة أولئك الذين يقول علي(ع) فيهم : « وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم في النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة . وأنفسهم عفيفة. صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة . تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها . وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . أما الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن . يرتلونه ترتيلا . يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم . الخ ... » .

ذلك لان ليس للانسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه في عالم الشهود . فان الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض ، تحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يدا الى ماوراء الطبيعة فيكون من الذين لايؤمنون بالآخرة وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيرا حسنا وأنه من المهتدين ! : «ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون » .

فليجرب من كان يرتاب في ما أقول. فلقد شاهدت أناسا كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا في ساحات الكمال بعزم رصين، فصاروا

ممن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك بترك المعاصي والآثام . وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والارشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة ، ورأيت من بين هؤلاء متهجدين متعبدين ، يقومون بأعمال صالحات .

* * *

واني أكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة : كل ردع لهذه النفس عن مشتهياتها المحرمة يفتح على الانسان بابا من أبواب الهداية ، فقد جاء في الحديث : « النظرة سهم من سهام ابليس لعنه الله ، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه » . ويراد بالنظر : النظر الى من حرم الله من النساء . وكل ذنب يقترفه الانسان يسد عليه بابا من أبواب العقل الفطري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، فيسد عليه بابا من أبواب الهداية . فيلج اذ ذاك شيئا فشيئا في أودية من الضلال والظلمات . دليل ذلك : ماقاله علي عليه السلام : « من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد اليه أبدا » .

ان التركيب والتحليل وما في المختبرات من أجهزة دقيقة فنية للقيام بتجارب في الفيزياء العامة ( Physique generale ) و ( Bacteriologie ) و ( Biologie ) لاتكفي للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة في النبات أو الحيوان . على أن التجربة وحدها لاتفيد علما يقينا اذا لم تكن مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات . كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلا في التجربة نفسها . فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقرار شيء آخر . أي أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادي .

ان مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلي . وقد يقوم الشخص

بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص في المحاكمة او لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة ، فتصبح النتيجة غير صحيحة . فينساق الى قبول هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة، لظلمات في النفس، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أوقريبة منها [1] . فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة ! : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ، ( سورة الروم ) حتى يقيض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردها ويجرحها . وقد وقع ذلك في أوروبا مرارا . فقد أخفق المادي مرة بعد أخرى ! ولكن آثامه حجبت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدق باسم العلم ! وبينه وبين العلم مسافات لاتحد . «كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون » . ( سورة المطففين : ١٤ ) .

فالنظريات تتبدل من حين الى حين ولا ينبغي أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل ، ذلك لانها ليست كالرياضيات البحتة حقائق ثابتة .

* * *

ان الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة الى الاجسام (المادة ) ناقصة وستبقى ناقصة الى الابد . ويقولون : « اننا لانعرف الا أفكارنا الخاصة »، فأنى لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا الى حقيقة الحياة وحقيقة الروح .

يقول دكارت : « فاذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة

---

(١) أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . ( سورة الحج : ٤٦ ) . فلا يفيد السير في الارض في سلوك النفس التكاملي مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها .

امتنعت علينا معرفة الواقع على الاطلاق » .

أنى للمحاط ( الانسان ) أن يحيط بالمحيط ( وهو الله ). لذلك يقول علي عليه السلام : « تكلموا في خلق الله ولا تكلموا في الله . فان التكلم في الله لايزداد صاحبه الا تحيرا ». وقال عليه السلام أيضا : « كيف أصفه بالكيف وهو الذي كيف الكيف حتى صار كيفا . فعرفت الكيف بما كيف كيف لنا من الكيف » ( يريد به الله تعالى ) .

* * *

أنى لهذا الانسان أن يحيط بالله تعالى وقدكان في ابتداء أمره جرثومة (نطفة ) ولم يكن له أدنى تصرف في توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها في الرحم وبعد الخروج من الرحم . وكان ولا يزال مسيرا الا ماكان من ارادته [1] في اتباع طريق الخير وطريق الشر. فـ « لا جبر ولا تفويض ، بل أمربين الامرين » . ويؤيده قول علي عليه السلام : « عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم . لما هممت فحيل بيني وبين همي ، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت ان المدبر غيري » .

وفي القرآن الكريم : « ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ». وفي آية أخرى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولاوكفى بالله شهيدا » . وفي آية أخرى أيضا : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ». وفي آية أخرى: « قل ان الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون» .

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة . والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لوجعلنا نفوسنا لائقة الى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال

(١) أي من ارادة الانسان نفسه .

صالحات . وفي استطاعته تعالى أن يسد علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس ، انلوثنا أنفسنا بالذنوب والآثام وذمائم الاخلاق .

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين في رحم أمه : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » . وقد جاء في تفسير: « أنشأناه خلقا آخر » أي أن الله تعالى انشأه خلقا آخر بنفخ الروح فيه .

ما معنى نفخ الروح في جسم مشكل من عظام ولحم . ذلك لان الروح ليس من المادة في شيء . ولعل الروح هي مشيئة الله تعالى وارادته سبحانه . فهذه المشيئة او الارادة بقوله تعالى: «كن» تنقلب الى طاقة وقوة . والقوة لها مظاهر وانواع حسب مشيئته تعالى . فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة: (أي الارادة الالهية المتحولة الى الطاقة بأمره تعالى) عقلا وتارة تكون روحا ونفسا انسانية أو نفسا حيوانية ، وتارة تكون هذه الحيوية التي نلمسها في ( البروتوبلازم ) وتارة تكون مادة . أي أن هذه الطاقة تنقلب الى مادة بأمره تعالى على ماثبت في العلم الحديث ، وذلك بعد التعرف الى فلق الذرة (تحطيمها ) أو دمج الذرات أو نواها . فانهما يتيحان لنا من القوة العظيمة مايجل عن الفهم والتقدير . فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الاطنان من الفحم أو من ألوفها والطاقة التي تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم .

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء . أي :

$$ط = ك \times س^{٢}$$

وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ كيلو متر في الثانية ، فان الطاقةفي في ذرة ما تشكل مقدارا هائلا . أي :

$$ط = ٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ك = ٩ \times ١٠^{١٠} \times ك$$

فاذا ما فلقت (حطمت ) أي أخرجت الطاقة الكامنة فيها الى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم .

ويمكن حساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووي : من معرفة النقص الحاصل في الكتلة . ذلك لان العلم لم يتوصل بعد الى اخراج جميع مافي الذرة من طاقة الى الخارج . ففي انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحوعشر الواحد في المائة الى طاقة . وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى منالهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحدفي المائةالى طاقة . وهكذا..

ان مشيئة الله بالنسبة الى ايجاد الشيء جليلة ودقيقة على حد سواء .ان الله تعالى يقول : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » . ولقد قال جل من قائل : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون ». فالمشيئة الربانية هي الموجدة للاشياء بقوله تعالى : « كن » أي الارادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الارادةهي الموجدة لهذه العوالم من :عقلية ونفسية وحيوانية ( وحيوية ) ومادية .

ان فهمي القاصر قد بلغ الى هذه المرتبة من التحليل . ولعل الله تعالى يقيض من يوصلنا الى حقائق أخرى ابداء لعظمته تعالى واظهارا لجليل قدرته . ولقد جاء فيحديث قدسي: « والذين عملوا بما علموا لنهدينهمالى مالا يعلمون » .

* * *

على أن الايمان بالله وبما وراء الطبيعة وبالانبياء والمرسلين وأوصيائهم

عليهم السلام ليس أمرا صعبا يستدعي الاطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية . وانما الايمان أمر معنوي قلبي يترشح من نفس طاهرة وقلب زكي . وان لهذا الايمان درجات تتناسب مع درجة طهارة النفس . كما أن الايمان بأن الروح والحيوية وأن كل شيء في هذا الوجود أو جده واجب الوجود : — وهو الله تعالى — ليس متوقفا على معرفة حقائق علم الكيمياء وعلم الحياة : ( Biologie ) . فقد يصل الامي الى ايمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة ( الدكتورا ) في أصعب الفروع . والفرق بينهما ناشيء عن درجة طهارة النفس .

ان هذه الحقيقة ( أو النظرية ) لاتستدعي الشك والارتياب . والتجربة تبرهن على صدق ما ذهبت اليه . فليجرب من شاء . فان الطرق واضحة جلية لاغبار عليها . وكتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة . وان الذنوب تحجب القلب ( النفس ) عن رؤية الواقع . لذلك جاء في حديث عن النبي ( ص ) : « ان مثل الصلاة كمثل نهر جار يمر بباب أحدكم . فيغتسل به في اليوم والليلة خمس مرات ، فلا يبقى عليه شيء من الادران . وكذلك الصلاة لاتبقى على الانسان شيئا من الذنوب » .

وغير خاف أن النبي ( ص ) انما عني بهذه الصلاة . الصلاة المقبولة ، وهي التي تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله ( ص ) : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » . وعن الامام الصادق (ع): « من أحب أن يعلم اقبلت صلاته أم لم تقبل ؟ فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر ؟ فبقدر ما منعته قبلت منه » .

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يرد الى الناس حقوقهم ويطهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات ، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات . وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركي

الصلاة ومانعي الزكاة ... الخ ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتنقشع عنه سحائب الشكوك والاوهام ...

* * *

ولقد ذكر لي من أثق به : ان رجلا قرويا كان يسكن في قرية قريبة من ( رشت ) وكان يعيش من كد يمينه ، لم يخالط مأكله ومشربه شيء من الحرام أبدا . وكان يهيىء ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس في بيته ومزرعته . وكان مع ذلك متقربا الى الله بأعمال صالحة : يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم ، يعطي فضول ماله الى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الاسلامية . فأشكلت عليه مسألة شرعية . جاء الى عالم ديني في مدينة ( رشت ) ليتبصر فيها . فدخل المدينة عند الظهر . وسمع المؤذن يؤذن . فبادر الى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها وأخذ طريقه الى بيت العالم الديني . فدخل عليه قائلا : اني أرى شيئا غريبا في هذه البلدة . فسأله العالم وما الذي تراه ؟ قال : لم أر في شوارع المدينة الا بهائم : حميرا وبغالا .. ولم أصادف في طريقي الا شخصين على شكل انسان . أين ذهب الناس ؟ !

أدرك العالم الديني ، لطهارة نفسه وتضلعه في شتى العلوم ، السبب في هذه الرؤية الباطنية . وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريرته وتطبيقه أوامر الشرع تطبيقا صحيحا أخذ ينظر بنور الله ، وتتمثل له بعض الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجترحت أيديهم . ثم ان العالم الديني خاطب القروي قائلا:

— هل تناولت طعام الظهر ؟

قال : كلا . فدعا العالم خادمه وقال له : اذهب الى السوق وائت بطعام الى هذا المؤمن ، ( مع وجود طعام في البيت ) . أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه الى القروي . فأكل القروي وجلس في مجلس العالم

وأخذ يسأله عن مسائل شتى ، حتى مضى شطر من الوقت ، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروي الى الشوارع ويعود به الى البيت . قاد الخادم القروي وصار يسير معه في الشوارع ورجع به الى البيت فسأله العالم : ماذا رأيت؟ قال : «رأيت الشوارع مملوءة بالناس » . فقال العالم : « ان الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشتبه فيه ، فيه الطاهر والخبيث . وان طعاما مخلوطا بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيرا سيئا وان كانت النفس لا تعلم ذلك . فيخرج هذا الطعام الانسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي ، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلا . الا أنك سترجع الى حالتك السابقة بعد رجوعك الى قريتك ان شاء الله » .

* * *

نعم ، لقد جاء في حديث : « الناس نيام ، فاذا ماتوا أنتبهوا » . ذلك لأن علاقتهم المادية : ( هذه العلاقة التي تكون حجابا حاجزا دون رؤية الحق والواقع ) ترتفع مع الموت ، فتتجلى ، للروح المجردة عن المادة ، الحقائق .

ويقال عن أحد المؤمنين انه اشترى مقدارا من التمر من تمار . فلم ترقه تمرة واحدة ، فأستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار . فلم يتوفق تلك الليلة الى صلاة الليل ونام حتى الصباح . وقد رأى في مايرى النائم أن رجلا يقول له : ان تلك التمرة أثرت في نفسك فحرمت مناجاة ربك

ان ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى في الدرجة الاولى الى تلوث المآكل والمشارب بكثير من المحرمات ، سواء بأختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية في المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل في البنوك حتما بحساب الربح البسيط أو المركب ، او بكذب في المعاملات والعقود ، حتى عند الزواج ، او خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله في المعاملات ، وعدم الحضور في مجالس العلماء للتفقه في المكاسب

والمتاجر المحرمة الى غير ذلك .

ومما لاشك فيه . أن كل خديعة أو تمويه اوكذب في مقدمات النكاح أو في الاوصاف التي يقع عليها الرضا بالزواج لتؤثر في اتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار .

يقول علي عليه السلام : « ياكميل أنظر فيم تصلى وعلام تصلى ، فان لم يكن من وجهه وحله فلا قبول . ياكميل ، القلب واللسان يقومان بالغذاء ، فان لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحا ولا شكرا » .

فالانجذاب الى ما وراء الطبيعة والايمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبي . سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف . فلابد من تعمير القلب ( النفس ) وتزكيته وتطهيره ليكون حريا للاعتراف بما وراء المادة العمياء .

ان الله تعالى يقول : « وليبتلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » . ( سورة آل عمران ) .

* * *

أنظروا الى ما يقوله عليّ ( ع ) حين يسأله ذعلب اليماني قائلا : « هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ » فيقول عليه السلام : « أفأعبد مالا أرى » . فقال : « وكيف تراه ؟ » . فقال : « لاتدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان . قريب من الاشياء غير ملامس ، بعيد عنها غير مباين ، متكلم لابروية ، مريد لابهمة ، صانع لابجارحة ، لطيف لايوصف بالخفاء ، كبير لايوصف بالجفاء ، بصير لايوصف بالحاسة ، رحيم لايوصف بالرقة تعنو ( تذل ) الوجوه لعظمته ، وتجب ( تضطرب ) القلوب من مخافته » .

يقول الحسين بن علي ( ع ) مخاطبا رب العباد : « سبحانك متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك . ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي

توصل اليك . عميت عينٌ لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيبا » .

فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن الا اذا طهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه . فيكون علمه اذ ذاك مؤيدا لعقيدته ، يستدل به على خصمه . فقد جاء في الحديث : « البلاهة أدنى الى الاخلاص من فطانة بتراء » .

على أنى لا أنكر ان كثرة الاطلاع في أحوال الكون والوقوف على أسراره وغوامضه وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن ايمانا وتثبتا ويمنحه خشوعا وتقديسا لله تعالى . ولا يخفى أن لابد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن ايمان يترشح من تلك النفس . فيرسخ هذا الايمان بكل مايرى الانسان من مظاهر عظمة الله تعالى في ما خلق من أشياء مادية ونفسية ، وقوى وطاقات ومعاجز وكرامات الى ما هنالك .

فقد كان في جامعة بيروت الامريكية أستاذ للفلك العالي ، كان اذا تكلم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة في نظام الكواكب والانجم ، فاضت عيناه بالدموع ، فيسأل عن السبب ، فيجيب : لو رأيتم ما أرى لذبتم خضوعا وخشوعا لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذي يحار في استقصائه أولوا الالباب !

* * *

قلت : ان العلم بأحوال الكون لايولد العقيدة بل يؤيدها . ان الله تعالى يقول : « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا . فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » . ( سورة التوبة : ١٢٨ ) .

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها في مقام الايمان على حد سواء . لأن القضية قضية استعداد في القلب وصفاء في النفس وخلوها من الكبر .

ان الله تعالى يقول : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . وان الكبرياء وحده يجر الانسان الى انكار المعاد ، على حد قوله تعالى : « وقال موسى : اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

فاذا ادلهم القلب وتلوث ، فلا قبول ولا ايمان ، بل جحود وكفر . لذلك جاء في حديث قدسي « من أخلص لله أربعين صباحا جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة » . فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الالهية انما تفيض على الانسان من جراء الاخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدي رب العباد .

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الاكبر

ان معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق . فقد جاء في الحديث : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » . وعن علي (ع) : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . وقال المسيح (ع) « اعرف نفسك تعرف ربك » . ونسأل الله تعالى أن يطهر نفوسنا حتى تتعرف اليها فنزداد معرفة بالله تعالى . واني أختم هذا المقال بهذا الحديث ففيه الحكمة البالغة . فقد قال علي عليه السلام : « ان من أحب عباد الله اليه عبدا أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه ... الى أن قال : قد خلع سرابيل الشهوات . وتخلى من الهموم الا هما واحدا أنفرد به . فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى . وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى . قد أبصر طريقه وسلك سبيله ، وعرف منازه ، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة . يعلم ذلك من وفق الى تحقيقه ، فسار في عوالم الكمال .

ولا تكامل لهذا الانسان الا بالاسلام .

[ انتهى ، ولله الحمد ، الجزء الاول . وسيليه الجزء الثاني ، ان شاء الله تعالى ]

# الفهرست


| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ٣ | المقدمة |
| ١١ | لماذا وجدنا |
| ١٦ | ماذا يراد من الدين |
| ٢٢ | دين العقل — ١ — |
| ٢٦ | دين العقل — ٢ — |
| ٣١ | العقل والايمان |
| ٣٧ | منزلة العقل والعلم في الدين الاسلامي |
| ٤١ | تأخر العلوم الحديثة عن الدين |
| ٤٦ | تأخر العلوم عن الحقائق الدينية |
| ٥٠ | علاقة الدين بالعلم والظن |
| ٥٥ | الدين والعلوم الحديثة |
| ٥٩ | لاتنافي بين الدين والعلم الصحيح |
| ٦٣ | لاتنافي بين الدين والعلم الحديث |
| ٦٨ | رأس الحكمة مخافة الله |
| ٧٣ | أثر الخشية في تكامل النفس |
| ٧٨ | قيمة البلايا في تكامل النفس |
| ٨٢ | أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها |
| ٨٦ | أثر الصوم في تكامل النفس |
| ٩٥ | أثر الحج في تكامل النفس |
| ١٠١ | كل منا ممتحن لا محالة |
| ١١٢ | مراتب الامتحان الالهي |
| ١١٨ | انما المؤمنون أخوة |
| ١٢٥ | التراحم في الاسلام |
| ١٢٩ | التآلف في الاسلام |
| ١٣٤ | التزاور في الاسلام |
| ١٣٨ | التعاطف في الاسلام |
| ١٤٣ | آداب السلام في الاسلام |
| ١٤٩ | آداب التلاقي في الاسلام |
| ١٥٤ | التربية الاجتماعية في الاسلام |
| ١٦٠ | الانفاق في الاسلام |
| ١٦٤ | المثل العليا في الانفاق |
| ١٦٩ | الصدقات في الاسلام |
| ١٧٨ | الزكاة وأثرها في تكامل النفس |
| ١٨٤ | الزكاة الباطنة |
| ١٨٨ | الزكاة الواجبة |
| ١٩٥ | كيف يجب أن نكون |
| ٢١٣ | الترتيب لا يولد الحياة |


مطبعة النعمان — النجف تلفون ٩٩٧

١٣٨٦ / ١٩٦٦

# التكامل في الإسلام

## الجزء الثاني

يجد القاريء في هذا الجزء : أجوبة شافية ردًا على مزاعم الماديين
وأدلة قطعية على وجود الصانع جل جلاله وما يفيد
الشباب في سيرهم التكاملي من عقيدة وعمل

بقلم
احمد أمين

( الطبعة الثالثة )
١٣٨٣ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين على عليه السلام :

لا مالَ أعودُ من العقل ، ولا وحدةَ أوحشُ من العُجب ، ولا عقلَ كالتدبير ، ولا كرَمَ كالتقوى ، ولا قرينَ كحسن الخلق ، ولا ميراثَ كالأدب ، ولا قائدَ كالتوفيق ، ولا تجارةَ كالعمل الصالح ، ولا ربحَ كالثواب ، ولا وَرَعَ كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهدَ كالزهد في الحرام ، ولا علمَ كالتفكّر ، ولا عبادةَ كأداء الفرائض ، ولا ايمان كالحياء والصبر ، ولا حَسَبَ كالتواضع ، ولا شرفَ كالعلم ، (ولا عزَّ كالحلم) ، ولا مظاهرةَ أوثق من المشاورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

لقد نفذت ، والحمد لله ، نسخ الطبعة الأولى للجزء الاول من هـذا الكتاب في مدة وجيزة ، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الاسلام متأصلان في النفوس ، وأن الدين حاجة ملحّة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الاحوال وبأية قوة من القوى . وأن تساهل البعض في تطبيق الاحكام الشرعية وتعاليمها انما هو أمر عارض يزول باصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى .

نعم ، ان الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر ، لا ينفك عنه أحد الا اذا غيّر الفطرة بالفسوق والعصيان . ولذلك عمدت كنيسة روما الى ادخال الخمور والفجور فى الاندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس . فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين . وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف .

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين ، لا يمكنه ذلك ، الا اذا سعى بشتى الوسائل في اذهاب أو اضعاف العقل الفطري ، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدّ قوله تعالى : « فطرةَ الله التي فطر الناس عليها » .

استمعوا لما يقوله الامام موسى بن جعفر عليهما السلام ، عن كيفية هدم العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه :

« يا هشام ، من سلّط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم نور تفكره بطول أمله ، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ

نور عبرته بشهوات نفسه ، فكأنما أعان هواه على هدم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه » .

« يا هشام ، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك ، وأطعت هواك على غلبة عقلك » .

انظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الالباب . فليعرض من شاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات ، فان وجد أن أعماله مصداق هذه الآيات فليحكم : أن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته . وان لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات ، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه ، وأن الشيطان تمركز فيه وحلّ محل العقل .

ان الله تعالى يقول : « أفمن يعلم أنما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولو الالباب : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ،ويدرؤون بالحسنة السيئة، اولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .
( سورة الرعد : ٢٢ ) .

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال . والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة انما هو ناقص العقل ، والذي يخالف جميع ما جاء فيها انما هو مسلوب العقل ، هدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله (١) .

---

(١) وقد قال الله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بانهم قوم لا يعقلون ! »

ومن المؤسف أن أوربا لم تتشرف بالديانة الاسلامية • دين الحياة ودين تصفية النفوس استعدادا لـ«جنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين» • وقد توجهت اليها المسيحية المحرفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دونة عادلة ، فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحريات بأساليب لا تبررها المسيحية الروحية البحتة ، فأدى ذلك الى عداء بين العلماء المحدثين ورجال الكنيسة • وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدى الى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونمو الالحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتى ، فأنجبت فلاسفة ! ما دين أمثال : ( فورباخ ، بوخنز ، نيتشه ، شوپنهاور •••• ) •

ولو أن الفلاسفة ! الماديين استطلعوا تعاليم الاسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية ، وجانبوا الى حدٍ ما الطيش والشهوات المميتة للنفوس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الاسلام كدين عالمي خالد •

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مقتبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحدا ، أو اهتدى من جديد فغدا موحدا •

فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة ! : « ان الاخلاق الدينية تعارض ميول الانسان الطبيعية » ، انما يعني الاخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرفة • ولو تتبع الدين الاسلامي لعلم أنه دواء الروح ، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي الى فساد الدنيا والآخرة • وليس في الاسلام كما في المسيحية المحرفة : طبقة سيدة وأخرى مسودة • ولا يقر الاسلام الظلم والاضطهاد • بل جاء لرفعهما بقوله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » • وبقوله كما في الحديث : « أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » ،

« ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى » . وأقر القصاص والديات بين جميع الطبقات .

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الاسلام الى اوربا وتابعت الواقع والحق ، لرأيت بلاد أوربا من أحسن بلاد الله تطبيقا لتعاليم الاسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الالحاد طريقه الى مدارس الغرب .

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الايام من رقدته وينتبه من سباته تاركا العصبية العمياء وراء الظهور ، فيعتنق الدين الاسلامي دينا عالميا كما تنبأ بذلك ( برناردشو ) مطبقا اياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل الى طمأنينة وحياة وادعة ، لا في الدنيا فحسب ، بل بعد الموت أيضا في عالم خالد يستمر ملايين السنين .

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض : ( العلمي ! )، الا رشحات النفس الانسانية، سواء أكانت متكاملة أم متسافلة .فالنفس المتسافلة فلسفتها فلسفة رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة ، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الانسان من توحيده والاعتراف بعظمته، وترك الظلم والجور والبغي. والتعاطف والتراحم(١) ... الخ . وهي تبرهن ، على ما تزعم بطرق علمية!؟ على انها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت !؟...

والنفس المتكاملة ، أو بالاحرى : النفس السائرة نحو الكمال ، فلسفتها فلسفة بناءة ، متكاملة ، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالاجرام والفسوق .

---

(١) عن ابي عبدالله (ع) : « من كانت له دار ، فاحتاج مؤمن الى سكناها فمنعه اياها ، قال الله عز وجل : ملائكتي بخل عبدى على عبدى بسكنى الدنيا، وعزتى فلا يسكن جنانى ابدا » .

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علميا ! أو فلسفيا ... فيجب قبل ان ينظر في الدليل أو سير الاستدلال ، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه ، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره ، كما يفعل مع الانبياء والاوصياء سلام الله عليهم أجمعين .

ذلك لان الفلسفة ليست بشيء ثابت ثبوت الرياضيات البحتة ، حتى لا تقبل التحريف والانحراف . فطريق الحق والواقع واحد لا يتعداه ، والفيلسوف الحقيقي المتكامل ، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الانسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم .

وان التجارب تدل على أن الشخص انما يصل الى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلنه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث الضعة والكمال . والعقيدة هي عصارة السلوك الشخصي وغايته . وان هذه الحقيقة لمن أهم المواضيع الفلسفية التي يجب ان يعنى بها المفكرون من فلاسفة وعلماء ، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الايدي من ذنوب وآثام . وهذا هو السر في تحتيم طائفة من المسلمين : ( العصمة ) في الانبياء (ع) والاوصياء (ع) من بعدهم . فبالعصمة يعلم أنما يترشح من المعصوم صاف نقي لا كدر فيه.

على أنا نعترف أن الفلسفة المادية لا تقيم وزنا للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الانسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال ، فالنفس الانسانية في نظرها كالخشبة الجامدة لا تحتاج الا الى صبغ وتدهين !..

والحقيقة الثانية التي يجب ان يعنى بها الفلاسفة والمفكرون ، ان النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقترابا طبيعيا ، ( لا لأغراض خاصة

موقتة ) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل • فالنفس الشريرة تميل الى مثلها والنفس الطاهرة تميل الى مثلها أيضا مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل • وقد قالوا قديما :

«عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي»

ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبعت الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب اليـــه • ولعل للنفوس خطوطا مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي • تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنيات حسب الصفات والخصال ، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها الى بعض أو بعضها عن بعض ، كالابرة المغناطيسية بالقرب من ابرة مغناطيسية أخرى • ذلك لان العالم حسب آخر ما توصل اليـه العلم المادي مجموعة من قوى جذبية ومغناطيسية وكهربائية ، سواء كانت ظاهرة أو باطنة • وقد خلق الله تعالى أيضا عدا هذه القوى المادية ، أنوارا مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء « الله نور السموات والارض » • وان لكل نفس فلسفة ( على ما قدمنا ) تتناسب ودرجة تكاملها أو تسافلها ، وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين • وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة ، لانها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال • وليست هذه البراهين بدساتير رياضية كي يرى الخطأ واضحا فيها أو في تطبيقها • فيلفق هـذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناءً أوهن من بيت العنكبوت • انها هي نفسه والبراهين هي من نوعها • بل هي هي •••

فلسائل أن يسأل : اذن ، كيف يتجلى الحق والواقع ؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف ( أو معطي النظرية ) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقـلاء

والافاضل : كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النميمة ، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله ، وعدم الانحراف عن الفطرة : أي الايمان بالله الخالق المتعال ...

يقول الله تبارك وتعالى: «ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها» . فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة فى النفوس ، مهما كانت هذه النفوس بدائية ، يشعر بها فاعلها ، عند القيام بها من ارتياح أو انكماش ، ولكنه لو ثابر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية ، ووجدانا ثانويا ( Conscience ) بانسحاب العقل ، فلا يشعر فاعلها اذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق . وقال تعالى : «ثم رددناه أسفل سافلين» . وحاشا لله أن يريد بعبده التسافل . انما ينسب هذا الرد اليه ، لانه تعالى هو الذي سن هذا القانون العام ، على حد قوله تعالى : « فلما زاغوا(١) أزاغ(٢) الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » ( سورة الصف : ٦ ) .

وان علم النفس الحديث أو بالاحرى : علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير ( Conscience ) من وقت الى آخر ، حسب البيئة والاعمال التي يقوم بها الانسان ، فبعد ان كان يرى السرقة رذيلة ، يراها بعد ممارستها طويلا فضيلة ومكسبا . ونحن نقول عندما كان يرى الوجدان السرقة رذيلة كان الحاكم هو العقل الطبيعي وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلّ محله الشيطان والنفس المطيعة له ، فصار يرى الرذيلة مكسبا وفضيلة .

وأنت أيها القاريء الكريم ، سترى في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الاسلام : دين الحق والفطرة . فتتجلى لك عظمة الاسلام فتشكر الله

---

(١) عدلوا عن الحق ومالوا عنه .

(٢) تركهم وسوء اختيارهم .

اذ ذاك على ما منّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشريعة السمحاء : دين الكمال البشري الخالد .

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم . فقد خطب ذات يوم ، فقال :

« أيها الناس ، ان لكم معالم ، فانتهوا الى معالمكم . وان لكم نهاية ، فانتهوا الى نهايتكم . ألا ان المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى ، لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، وفي الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات . فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتَب وما بعدها من دار الا الجنة والنار » .

وأورد أيضا هذين الحديثين ، ليعلم أن الاسلام ، ( وان لم يعمل به المسلمون !) ، قد عالج القضايا الاقتصادية ، بشكل يؤدي الى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى . لا ضغط فيه ولا اجبار ،ليربي النفس الانسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها ( الاختيار ) . ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد .

قال رسول الله ( ص ) : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم » .

وعن أبي عبدالله (ع) : « أيما مؤمن حبس مؤمنا عن ماله وهو محتاج اليه ، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم » .

# أفي الله شك فاطر السماوات والارض

ان كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهيات فهو : وجود الله تعالى ، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة . فالطفل يشعر بهذا الشعور : وهو وجود موجد له وصانع ، لما يرى حوله . ذلك ، لان الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير . فهو اذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة ، يبدأ ، فيسأل : لماذا ؟ ولأي سبب ؟ من صنع هذا ؟ من أوجد هذا؟ ومِن أين وُجد ذاك ؟

ان الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابليـــة التفكير وارجاع الاشياء ( المسببات ) الى أسبابها . فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له . كيف لا ، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو في غاية العجز وأنه لم يصنع عضوا من أعضاء بدنه . ثم ان الله قد جهز عقله بارجاع كل معلول الى علة . وكل مسبب الى سبب . وهو القـائل « فطـرة الله التي فطـــر الناس عليها » أي ان الانســان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده . ولذلك ، سُمّي دين الاسلام بدين الفطرة ، أي ان كل ما فيه فطري وضروري ، يعترف به العقل بصورة طبيعية ارتكازية . وان هــذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز مــن قبل الله تعالى في عقل الانسان منذ نعومــة أظفاره . وعدا ذلك ، فان الله بقوله جل من قائل :

« واذ أخــذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون» (سورة الاعراف : ١٧٣) ، قد أتم الحجةعلى عباده فحسب مفاد هذه الآية المنيفة : ان الله تعالى قد أحضر في عالم الذر كل

انسان ذكرا أو أنثى وجعلهم شهودا على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووحدانيته • بقوله : ألستُ بربكم • فقالوا : بلى • شهدنا •

أي :أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلاً بعد نسل الى يوم القيامة ، فخرجوا كالذر ، فعرَّفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء فى بعض التفاسير • وانما فعل ربنا جل جلاله ذلك كي لا يقول قائل : انا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووحدانيته غافلين ، أو يعتذر المعتذر عند الاشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلا : انما أشرك آباؤنا » ، وأما نحن فـ ( كنا ذريةً من بعدهم ) ، فلا ينبغي أن نعاقَب ونهلك • قالوا ذلك اعتراضا على الله وختموا مقالهم بقولهم : « أفتهلكنا بما فعل المبطلون » • أي أن آباءنا قد أشركوا وذهبوا مذهبا باطلاً ، فما ذنبنا حتى نهلك ؟

وقد قال بعض المحققين : ان في قوله تعالى : «ألست بربكم» • اشارةً لطيفة : فانه سبحانه استفهم الاقرار منهم بربوبيته لا بوجوده ، تنبيها على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم •

نعم ، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر • وأن يقول : اني اتبعت دين أبي وأمي ، فصرت آدين بما دانوا أو أشركت « والعياذ بالله » ، لان ابي كان مشركا • او انكرت وجود الله ، لأن أبي كان منكرا لوجود الله • فان مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره • بل لافساده سريرته وطبيعته الفطرية المتوجهة الى الحق والواقع بالفطرة •

انظروا ، ماذا يقول علي عليه السلام • انه صلوات الله عليه يقول : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده » • هذا غاية ما يبلغ الانسان من معرفة ربه ، اذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال • ومن مثل علي (ع) في ترويض النفس وتكميلها • فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى •

ان الانسان ليعصي ربه باختياره وارادته ، دون أن يجبره على ذلك أحد . انه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم انه يكذب ، ويغتاب ، فيفسد فى الارض ، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم. وقد يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره . كل هذه ترين على نفسه وقلبه وعقله « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء . فتصبح مظلمة حالكة دكناء . لا تبصر الحق ولا تعي . فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجابا حاجزا دون رؤية الحق والواقع ، ثم ان الشيطان له بالمرصاد ، فيمنيه حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره . انه تعالى يقول :

« ومن يَعشُ (١) عن ذكر الرحمن نقيض (٢) له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ، فبئس القرين »(٣) .

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا فيغيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح ، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل ، لانهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وارشاد . ثم انه يطمئن الى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد . فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية . وانه كان قبل هذا في ضلال وخرافة ، يحمل عقائد سخيفة ، أولدتها جهالة القرون الاولى وسذاجة عقولهم ، وها هو في عصر الذرة . حين أن برگسون ( Bergson ) الفيلسوف الفرنسي الموحّد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن ، عندما ينظر الى تلك

---

(١) أي ومن يعم .
(٢) نقدر ونتح .
(٣) سورة الزخرف : ٣٧

المعادلات والخوارق في الذرة ، يقول : ان الله موجود في الذرة ، يبدعها ابداعا ، وينظمها تنظيما .

ف ( بركسون ) عندما يرى في الذرة حركات فى غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة . يذعن أن يدا ربانية موجودة في الذرة نفسها ، تعمل في هـذا الترتيب الحكيم .

نعم ، ان الاخلاق المذمومة ، الكذب والافك والآثام ، على اختلاف أنواعها ، تجعل للشيطان مجالا للولوج في نفس هذا الانسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله . فتجعله منكرا للبديهيات وأولها : وجود الخالق جل جلاله .

انه تعالى يقول : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » . ( سورة الشعراء ) .

فاذا استولى عليه شيطانه يكون الهه هواه على حد قوله تعالى :

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا » . ( سورة الفرقان ) .

نعم ، ان التمادي في الظلم يؤدي الى الظلمات ، فيزيح عن الانسان الاعتراف بأوضح البديهيات وهو وجود الله تعالى . « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله : وما لهم من ناصرين » . ( سورة الروم )

انه ينسى أن أبيقور ( Epicure ) وهو الفيلسوف ! اليوناني ، كان ينكر وجود الخالق ولا يعترف بما وراء الطبيعة وذلك قبل الميلاد بـ ( ٣٠٠ ) سنة .

أسفا على الفلسفة حين يدعى منكر أوضح البديهيات فيلسوفا ! نعم ، كان لهذا الملحد : ( أبيقور ) أتباع ملاحدة منحرفون . كل ذلك لتبديلهم

الفطرة ( لوحة نفسهم البيضاء ) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات ، الى نفسية جاحدة جامحة ، لا ترى الحق ولاتبصره .

هذه حقيقة من أوضح الحقائق . فليجرب علماء النفس وليتتبعوا أحوال الناس ، كي يروا صدق ما أقول . فالاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والامهات والارحام تؤدي الى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه الى الدين الصحيح ، ذلك الدين الذي يدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء ، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة . فان المسلك الذي يختاره الانسان أو الدين الذي يكون عليه انما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها . ان الله تعالى يقول : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءً يجزَ به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا(١) » . ( سورة النساء ) .

ان المنطق الانساني يبقى ثابتا في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية ... الخ أي في كل ما يتعلق بالامور المادية الحسية . ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيغ والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات ، أي أن العقل الفطري يكون محجوبا عند اسوداد النفس وادلهمامها . فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء : من إنكار الخالق وعدم بعث الانبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة والخمس . الى ما هنالك . وقد قال الله تعالى : فمن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه ، انا جعلنا على قلوبهم أكِنة (٢) أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا(٣) وان تدعهم الى الهدى ، فلن يهتدوا اذن أبدا » .

---

(١) النقير هي النقرة التي فى ظهر النواة ويضرب به المثل فى الشيء الطفيف

(٢) اكنة : اغطية .

(٣) وقرا : صمما .

ان الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به . ولكنهم يُعرضون منكرين . فيفسقون ويفسدون ، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون اذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقرا وصمما ، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي . فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا . فيأتي اذ ذاك ، دور الاستهزاء بالمقدسات ، وما أنزل الله من أوامر ونواهٍ . فقد قال تعالى :

« ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . ( الروم : ١٠ ) .

وما يأتيهم من نبيٍّ الا كانوا به يستهزئون » . ( سورة الزخرف ) .

قلنا : ان الانسان ليتسافل لسوء سريرته وفساد أعماله وعقوقه وشروره . الخ ... الى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق . وذلك ، لانه أمسى جرثومة فساد لا تطهره الا نار جهنم . فاذا تدهور الانسان الى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق ، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له . لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية :

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة . نعم ، ان الله تعالى لا يضل فردا من الافراد الا بعد اتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والارشاد بعقله الفطري أولا وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانيا ، فان أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد ، يسد اذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . ان الله بكل شيء عليم » . (سورة التوبة ).

أجل : ان الافك والاثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي الى الكبرياء ومن ثم الى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى :

ويل" لكل أفاك (١) أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم • واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين » • ( الجاثية : ٩ ) •

وقد يؤدي ذلك الى الاستنكاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى : « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون » •

فقد لاقيت شخصا في احدى العواصم الاسلامية قبل حوالي ثلاثين عاما كان يشكو أذان الصبح عند الفجر • كان يقول : ان هذا المؤذن في هـذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي • أليس هناك رادع أو مانع ! نعم ، ان من يقضي ليله في سفاسف الامور ويسهر في أمور باطلة الى بعد منتصف الليل ، في أمور تذهب بدينه ودنياه ، يريد ان ينام عند الفجر الى بعد طلوع الشمس بساعات • وقد يأتي الى فراشه ثملا ، لا يعي ولا يشعر ، قد تلوثت نفسه بهذا المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل ايمانه بالمقدسات ويجعله يستهزيء بها ، ففي الحديث « شارب الخمر كعابد وثن » • أي : أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي الى انكار المقدسات ، فيترك شيئا فشيئا عبادة الخالق جل جلاله ويؤول أمره الى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية ، فيكون كمن عبد الاوثان • أي يرجع بمدمن الخمر الى جاهلية جهلاء • « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » (٢) • نعم ، قد يؤدي بهؤلاء الاشخاص الحال : أنهم يستعضون من سماع ذكر الله وآياته • فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة : « واذا ذكر الله وحده اشمأزت

---

(١) كذاب . (٢) السجدة : ١٨ .

قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون» • ( سورة الزمر : ٤٧ ) •

ان الله تعالى كما فى الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والاتعاظ بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من دساتير وقوانين ، في من كان متصفا بالصبر والشكر • انه يقول :

« ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته • ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (١) •

وقد جاء في الحديث : « الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر » • ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس الا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها • ولكن من تسافلت نفسه وتلوثت بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلا والباطل حقا • فيتذرع تبريرا لموقفه بالمنطق الحديث ! ظنا منه أن الدساتير الاخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم • فاذا تسافلوا ، فما هم عليه من التسافل في الاخلاق هو المنطق ! لكنه : حديث وجديد ! لزعمهم ان لكل زمان منطقا ! ان هذا النوع من الاعتقاد ناشيء عن الاعتقاد بأن الله تعالى لم يرسل نبيا لتكامل الانسان ورفع نواقصه ، وأن البشر يسير حسبما يجب ويراد • فلا تسافل ولا تكامل ! بل التكامل ما عليه الناس فى كل وقت ، عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع •

هناك فرق بين المنطق ( Logique ) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات : ( Mentalité ) أو الذهنية • فان المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائيه والكيميائية ، وقد أودعه الله تعالى في الانسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه • ولكن العادات والذهنية الحاكمة

(١) سورة لقمان آية : ٣٠

وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل : وتتغير ، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء .

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحا كثيرا ، لاسيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم . وذكر لي شاهدا على صحة قوله : أن رجلا من رجال الغرب كان يفسق في غرفته ، فاستأذن عليه صديق له ، فأذن له بالدخول . ودخل ، فلم يكترث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي ، ذلك لان الفسق في نظره عمل طبيعي : أهذه حرية أم سلوك بهيمي ؟!

ان سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان . سواء ارتضى الغربي أو لم يرتض . فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم . فلا قديم ولا حديث . والحق ثابت على لسان الانبياء ( ع ) .

«يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » . ( سورة الاعراف : ٢٥ ).

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بارادة وعزم رصينين في ساحات الكمال لتصل الى الغاية التي قد خلقت لاجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية ، فزادت ايمانا بخالقها وبارئها .

***

وكم قرأنا في تاريخ الاسلام : أن أناسا أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات : القرآن الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، فقالوا: ما هذا بكلام الآدميين ، وانما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين . كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تتلوث بالظلم والموبقات .

وهذا خير دليل على أن الانسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه وبكل ما أنزل الله ، بصورة فطرية . ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات ، ولا يشك في ذلك قيد شعرة ، على حد

قوله تعالى : « أفي الله شك" فاطر السموات والارض» • الا ان الذنوب وعلى رأسها الخمور تؤدي به الى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة • فقد جاء في الحديث القدسي : « وكل عبادي خلقتهم حنفاء ، فاحتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري » •

وقد جاء في بعض ما نشر عن اسباب استيلاء الغربيين على الاندلس : أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الاندلس وانتشار الاسلام في تلك الاصقاع • فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعالجة هذا الامر • حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمور بصورة سرية الى الاندلس وأن يؤسسوا تحت الارض معامل سرية لاستحصال الخمر ، فيقدموا للمسلمين ولا سيما رجال الحكم الخمرة بثمن بخس أو متبرعين • فانتشرت الخمرة بين المسلمين ، لا سيما أصحاب النفوذ والثراء ، وانتشر نتيجة لذلك ، الترف والفساد بأنواعه ، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين • وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الاسلامي من اسبانيا وأصبح في خبر كان •

نعم ، ان الاعتراف بوجود الخالق لمن أوضح الواضحات وهو من أشكل المشاكل وأوعرها لو تدنست النفس بفجورها وخمورها ، بغيها وظلمها •

***

أنظروا الى دكارت ( René Descartes ) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي ( ١٥٩٦ ــ ١٦٥٠ م ) كيف توصل الى وجود الخالق جل جلاله ، لعدم تلويثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات •

انه شك أولا في وجود نفسه ، فقال : « أنا أفكر ، اذن أنا موجود » • ثم قال : ان لديّ فكرة الكمال وأنا غير كامل ، فلو كنت مخلوقا من قبل

ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملا ، لانني أمتلك فكرة الكمال ، ولان اعطائي لذاتي ضروب الكمال ، سيكون ولا ريب ، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم ، وبما أني غير كامل ، فأنا اذن ، لم أخلق نفسي بنفسي » .

يقول علي عليه السلام عن الله تعالى : « شيء لا كالاشياء » ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الاشياء أو نتصورها .

يستنتج من كلام علي (ع) ما يلي : أنا محدود ، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود . ذلك لان المحدودية قيد ولابد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد . والله جلّ من أن يحده أحد أو يحده شيء وهو خالق الاشياء وسابق عليها (١) . ثم ان علمي محدود . وعلمي من الله تعالى، ولولا اعطاء الله اياي القوى العقلية والفكرية لما علمت . فيجب ان يكون علم الله تعالى غير محدود . لانه الكمال المطلق . ولا يشبهه شيء . وهكذا نقول في قدرة الله تعالى : ان قدرتي محدودة ، اذن قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تتناهى . أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء و لايحتاج الى آلة لانه هو خالق الآلات ، اذن ، لا يحتاج الله تعالى في الابصار الى عين ( أي الى آلة ) . وقد جاء في الادعية الرجبية : « يا من لا يُنعت بتمثيل ، ولا يمثل بنظير ، ولا يُغلب بظهير » .

ويستحيل على العقل أن يعترف للخالق بخالق آخر ، اذ لابد من خالق أزلي لم يُخلق ، لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدهما ، كان

---

(١) وقد جاء في دعاء يقرأ في كل يوم من ايام رجب : « يا موصوفا بغير كنه ، ومعروفا بغير شبه ، حاد كل محدود ، وشاهد كل مشهود ، وموجد كل موجود ، ومحصي كل معدود ، وفاقد كل مفقود ، ليس دونك من معبود ، اهل الكبرياء والجود ، يا من لا يكيف بكيف ، ولا يؤين بأين . يا محتجبا عن كل عين ، يا ديموم ،يا قيوم وعالم كل معلوم » .

قبل ان يكون شيء غيره .

قيل لعلي بن موسى الرضاعليه السلام وهو الامام الثامن من الأئمة الاثنى عشر المعصومين (ع) : يا ابن رسول الله ، ما الدليل على حدوث العالم ؟ قال : « أنت لم تكن ثم كنت ،وقد علمت انك لم تكوّن نفسك ، ولا كونك من هو مثلك.وقال عليه السلام «اني لما نظرت الى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه ، وجر المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانيا بناه ، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات ، علمت أن لهذا مقدرا منشئا » .

ان هذا المادي المتطفل على العلم ، والعلم منه براء ، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء ، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة ، المحدودة في الجسم والنفس . يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته .

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ فى كل يوم من أيام رجب : « يا من سما في العز ففات خواطر الابصار ، ودنا في اللطف فجاز هواجس الافكار ، يا من توحد بالملك فلا ند (١) له في ملكوت سلطانه ، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه . يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الاوهام ، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الانام » .

أترى أن ذرات التباشير على السبورة تشعر بتشكيلات أعضاء من رسمها على السبورة ، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته ، هل لهذه الذرات ( ذرات التباشير ) أن تحيط براسمها ومصورها . كلا ... على أن

---

(١) الند : المثل ، جمعه : انداد .

الراسم على السبورة لم يكن قد أوجد ذرات التباشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى ، بل رتب الذرات أو الاجزاء بشكل آخر . ( مع عدم جواز التشبيه ) . فكيف بهذا الانسان المغرور ، يريد ان يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم . كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة ... الخ . وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جدا كما رسمها الله ، وقف على بعضها العلم الحديث .

ان الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الانسان . ولكن هـــذا الانسان بارتكابه المعاصي وباتباعه أوامر الشيطان يحيد عن الفطرة ، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة ، فيعبد الأوثان والحيوانات الى ماهنالك .

لذا يسأل أتباع موسى (ع) نبيهم موسى (ع) أن يجعل لهم الها !

«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون[1] على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال انكم قـــوم تجهلون . انهؤلاء متبّر (٢) ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون» .(سورة الاعراف:١٣٤)

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الصانع ( الله ) ، فقال : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الاقدام تدل على المسير ، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على الصانع الخبير » .

وسئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع ، فقالت : دولابي هذا ، ان حركته تحرك وان لم أحركه سكن .

كل ذلك لان فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الانسانية من القديم . أي أن الله تعالى أودع هذه الفكرة فى النفس الانسانية عنـــد خلقه اياها . فهي ان لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة . وان هذا

---

(١) يعكفون : يقيمون ويلازمون .  (٢) متبر : مدمر ومهدم .

الاعتراف أمر فطري خارج عن ارجاع المعلول الى العلة . على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جدا وأهمها ارجاع المعلول الى العلة . فالانسان المفكر ( غير الملوّث فطرته ) لا بد وانه يؤمن بموجد أزلي لم يوجده شيء وهو الله الكامل على الاطلاق . لا يشابه ما خلق في شيء من الاشياء .

ولولا ايداع الله تعالى في العقل الانساني ملكة البحث عن علة الاشياء لصعب علينا السير في ساحات العلم . ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي والموبقات ، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة طبيعية ، فلا تفيده الادلة ولا ربط المعلولات بعللها . على حد قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » ( سورة التوبة : ٦٨ ) . وقوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ( سورة الكهف : ٢٨ ) .

وقد يسأل بعضهم : لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية . ذلك ، لان نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفع معها أي ارشاد ووعظ . فتستحق الخذلان ، فتسد عليهم أبواب الهداية . ان الله تعالى يقول : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وانهم لكاذبون » . ( سورة الانعام : ٢٨ ) .

ومع الاسف ، ان طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عددا على وجه البسيطة من المؤمنين بالله تعالى . فانه تعالى يقول : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون[1] » . « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . ( سورة يوسف : ١٠٣ ) .

أسفا لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر ، ثم هم ينكرون أوضح ما في الوجود ، ألا وهو الله تعالى ، لادلهمام في النفس

(١) الانعام : ١١٧ ... ( يخرصون : يكذبون ) .

وظلمات بعضها فوق بعض • ولانهم ( مع مزيد الاسف ) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس من جراء ما ارتكبوا من موبقات حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير • « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملي لهم ان كيدي متين » • ( سورة الاعراف : ١٨٢ )•

* * *

يقال عن بعض الفضلاء أنه لما أراد أن يكتب رسالة في اثبات وجود الخالق ( واجب الوجود ) ، قالت له زوجته : ماذا تريد أن تكتب ؟ فقال : أريد أن أكتب رسالة في اثبات الخالق • فقالت له : « أفي الله شك فاطر السموات والارض » • فعدل عن تأليف ما أراد •

نعم ، ان نفس هذه الامرأة كانت صافية نقية ، لم تلوث بكثير من المعاصي والآثام • ومن أين كانت تأتي الذنوب الى بنات كن يتربين تربية دينية في البيوت ثم ينتقلن الى بيوت أزواجهن دون أن يشاهدن رجالاً آخرين • فهل كان يأتيهن الذنوب من جراء التبرج ومخالطة الشبان أم من جراء الحضور في مجالس القبول مع ما هنالك من ميسر ورقص واستماع الى الاغاني المحرمة ••• أم من جراء الحضور في مجالس اللهو واللعب •أم من جراء الاتصال بالرجال في حدائق عامة حتى الصباح حيث تطفأ المصابيح ! لذلك كانت تبقى النفس صافية لا يتخللها رجس يزيح الانسان عن الاعتراف بهذا الامر البديهي وهو وجود الخالق جل جلاله • ولا شيء ككبائر الذنوب يزيح الفطرة عن عملها ، ويبعد العقل عن الاعتراف بأوضح الواضحات وهو الله تعالى •

أجل لو تلوثت النفس الانسانية ومرضت بالذنوب ، أخذت تشك في أوضح الواضحات وتريد دليلا على وجود الخالق وقد لا يفيدها أي دليل

وذلك لظلمات في النفس وذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها . ان الله تعالى يقول : « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » . وقد سد المفسد على نفسه باب الايمان بالله ورسله . « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » . ( سورة التوبة : ٩/١٣٥ ) . ويؤيد الآية المتقدمة قوله تعالى : « أوَ لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون » . ( سورة التوبة : ٩/١٣٦ ) . ( يُفتَنون : يُبتلون ) .

وانما سمي الخالق تعالى بواجب الوجود ، اذ لا يمكن تصور وجود هذه المخلوقات بهذه الخواص العجيبة والانظمة المدهشة والقوانين المتقنة والمعادلات الرصينة والدقة المتناهية وارتباط بعضها ببعض الا بتدبير خالق واجب وجوده أزلي سرمدي لم يوجده غيره ، وهو واجب الوجود جل جلاله والا لما وجد كل شيء .

***

يقال : ان ملكا من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى . وكان قد تنبه الى ذلك وزيره . فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره من شك . فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية واجراء مياه جارية واحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الارض . ولم يُعلم الملك بذلك . ثم ذهب الوزير بالملك الى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدتها ، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلا : من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق ؟ فأجاب الوزير قائلا : قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه ! وليس لها بانٍ ولا صانع !

غضب الملك وقال بامتعاض : أفيمكن ذلك ؟ أفيجوز أن تنظم هذه

الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب ؟. ما هذا الجواب السخيف ؟ فأجابه الوزير ، قائلاً : إن كان ممتنعاً وجود هذه القصور والحدائق دون بانٍ لها وصانع ومرتّب ، فكيف يصحّ وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب ، وهذه السماوات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعالٍ ؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

ان التصديق بوجود الخالق أمر فطري . ولا يعتريه الشك أو لا يزيحه الا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى : « فأقِم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » [1] . فقد ورد في تفسيرها : أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جل جلاله . وقال رسول الله ( ص ) : كل مولود يولد على الفطرة . ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسّر الأحوال وفي الأهوال يتوجهون الى مَن خلقهم ، يرجون منه كشف ما توجه اليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية . لأنهم مجبولون على ذلك .

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة ، تضرعوا الى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه . فنجوا بشكل خارق لم يكن بالحسبان . نقرأ ذلك في كثير من المجلات . ويشهد لذلك قوله تعالى :

« ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ الله » . وفي آية أخرى : « قل أرأيتم [2] إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغيرَ الله

---

(١) سورة الروم : ٣١ .

(٢) أرأيتم : أي أخبروني .

تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون اليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون » ٦/٤١

وفي آية أخرى : « هـو الذي يسيِّركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك [١] وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم • دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لَنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون [٢] في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » • ( سورة يونس : ٢١ ) •

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية • حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالالحاد والزندقة والمسك المادي ويدعون اليه ، كانوا يطلبون الى الناس والى رجال الدين : أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس ، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج • وقد فعل سبحانه • ولكنهم رجعوا بعد ذلك الى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم ! ونشر الالحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب • وأخذوا يتذرَّعون بما وجدوا ( على زعمهم ! ) من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي ! مطبقين اياها خطأً على الحياة الاجتماعية للانسان ، ظناً منهم أنهم قد توصلوا الى فلسفة الحياة !

## ـ لهذا آمنت بالله (٣) ـ

يقول الدكتور : ا • ج • كرونين « كنت ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن ، وعندما كنت أقف أمام جسم انساني في غرفة التشريح ، أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد ، وفي الوقت نفسه ، كنت أفكر فى الروح الخالدة فى الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي ،

---

(١) الفلك : السفن . (٢) يبغون : يظلمون .

(٣) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثانى ١٩٥٦ لأهميته .

وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية . وكان يشاركني في هـذا الشعور أكثر طلاب الجامعة » .

« بقيت هكذا الى أن أصبحت طبيباً وسافرت الى منطقة المناجم بجنوب ( ويلز ) ، وصرت أجدني أنفذ في مملكة الروح الانسانية . لقد شاهدت معجزة ميلاد الانسان وجلست الى الموتى واستمعت في الظلام الى رفرفة أجنحة الموت فتخلّى عني غروري ، فصرت أؤمن بالله » .

« ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله . ولا يمضي اسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه » .

« لن أنسى ذلك اليوم ما حييت . فقد حدث انفجار مروع أدى الى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً ، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة . وظلت القرية تصلي لله لأجلهم ، وأخيراً استطاع رجال الاسعاف أن يشقوا طريقهم الى المنكوبين واستمعوا الى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: انه صوت العمال ، يترنمون بانشودة : « يا أرحم الراحمين » .

« أخرجوا أحياءً من تحت الأنقاض وهم منهوكو القوى والتفّ حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون : « يا أرحم الراحمين في كل حين » .

« وعندما وقفت الى جوار هؤلاء المنكوبين ، اجتاحتني هـذه الموجة من الدعاء والصلوات . انها دليل آخر على أن ايمان الانسان ، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير » .

« وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة اخرى ، والتقيت بممرضة كانت تشتغل ليلَ نهار في التمريض والإسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها . فقلت لماذا لا تطلبين زيادة لراتبك ؟ فانك تستحقين أكثر مما يعطى لك . — فقالت بعد صمت يسير : اذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة ، فهـذا كل ما أطمع فيه » .

« حادث المنجم وايمان هذه الممرضة الساذجة . كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الايمان » .

« نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية . ولكن اذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر في إله خالق . مَن ذا الذي يتطلع الى السماء فى ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية وهي تتألق بعيداً ، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله ، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء » .

« وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منظمة وفي فصول متتابعة ، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعت من الشمس والقيت في الفضاء ، بلا معنى ولا سبب » .

« اطرح عن رأسك ، ان شئت ، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم ، وان الله قد سوى العالم بيده في ستة أيام ، واقبل ، ان شئت ، نظرية التطور كاملة ، وتتبُّع الخليقة منقوشة على الحفريات ، وتتبع سير الأنواع ، وترقيها حتى بلغت صورة الانسان ، واقبل — ان شئت — كل النظريات العلمية التي قامت عليها ، فانك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً ، لا يمكن أن تقول ان هذا كله قد صدر من العدم ، فلا شيء يخرج من لا شيء » .

« ومنذ بضع سنوات ، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت اليه أحد المشتغلين بعلم الحياة ، ليلقي محاضرة للأعضاء . وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن « بداية عالمنا » وتحدث بأسلوب العالِم الملحِد ! وجعل يصف عصور «الآيون» السابقةعلى التاريخ . وكيف تحولت الأرض على مرّ هذه العصور من الغازية الى السيولة ، الى الصلابة ، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات ، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط

على القشرة الأرضية ، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية . وكيف أن هـذا التفاعل مع الزبد قـد أدى الى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها ، ومن هـذه الارض ظهرت الحياة الاولى على هيئة بروتوبلازم » .

« وعندما فرغ المتحدث من محاضرته ، صفق له الحاضرون تصفيقا مهذباً ، ولكن تلميذاً وقف فى صورة عصبية وسأله : لا تؤاخذني يا سيدي ، لقد حدثتنا عن الامواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطيء ، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الامر ؟ » .

« وساد صمت كله حرج واحمر وجه الاستاذ المحاضر ، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة ، اغرق الموجودون في الضحك . لقد انهـار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير » .

« والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الابحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة لتي تجري فيها . أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل ان الانسان ليجد نفسه مضطراً الى القول بأن هناك عقلا كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة » .

« والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الايمان ، أمام أناس كثيرين ،هي وجود الشر والألم بين الناس . كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المغرقة ، والمجاعات والاوبئة والزلازل والبرق المحرق ، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة ..؟ إن هذه الأشياء لا تدلّ على وجود إله كامل خير ! [1] » .

---

(١) لم يبلغ ( كرونين ) ما قاله سيد المرسلين محمد (ص) : « ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه» وفى هذا تصفية للنفوس الملوثة وتزكية للارواح المدنسة . فالدنيا مدرسة تكامل وتطهير وما يبتلى به الانسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق انما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الانسان فى هذه المدرسة الكونية ، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه

« ومما يؤسف له حقاً : أننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا الا البحث عن اللذة . ونسى أن اللذة ليست هي كل شيء ، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود . فاذا نحن آمنا بالله وآمنا بخلود الروح الانسانية ، فاننا ندرك أن حياتنا ليست تفاهة عابرة ، وانما هي تجربة واستعداد وتهيؤ . وان حياتنا ليست الا لحظة من اللحظات الابدية . وامتحاناً لصبرنا ، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة » .

« وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والاسف ، فاننا نخضع لإرادة الله ، وهذا الرضاء والايمان المشرق ، هو الذي يرينا الله . فان العقل مهما تبلغ قدرته ، لا يبلغ الا قشرة واهنة من الابدية . والله يتجلّى للقلب لا للعقل » .

« حدث ، بعد ان زرت معبداً في ايطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجد الله . وبعد أن تجولت في حديقة الدير ، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم يعمل فى هذه الارض منذ ٣٠ عاماً ، ورحت أسأله عن حياته ، فقال وهو يشير الى الحديقة : « انني أرى أشجار الكريز وهي براعم ، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها ، فيزداد إيماني بالله » .

وقابلت ذات مرة رجلا في شمال انجلترا ، كان يفخر طول حياته بأنه

---

وينال بها درجات فى الصبر والرضاء والتسليم . ويقول الله تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » . الدنيا دار تكامل وتصفية . ولا يتكامل الانسان الا بعبادة ربه ، وبالعبادة يزداد معرفة بالله . وان الاعمال الصالحات من اهم مراتب العبادة . وقد قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . والعبودية . ( كما جاء فى الحديث ) تتجلى فى خمسة اشياء :
( ١ ) خلاء البطن . ( ٢ ) تلاوة القرآن . (٣) صلاة الليل « ٤ » التضرع عند الصبح . ( ٥ ) البكاء من خشية الله . فمن أراد أن يزداد ايمانه وتصفو نفسه ، فتنكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية ، لبرى كيف تتقشع عنه الشبهات ويدخل فى عالم من الطمأنينة جديد . « الا بذكر الله تطمئن القلوب ! » .

رجل ملحد ! وحرم ابنته الوحيدة من الميراث . لأنها تزوجت مدرساً شديد الايمان بالله . وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال . فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لزوج ابنته ... وكان زوج ابنته يستدرجه بين الحين والحين الى مناقشة تنتهي عادة بقوله : « لا تخدع نفسك ، انني لست نادماً على شيء ، فما زلت أكفر بالله » .

« وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة :

ـ « ولكن الله يا أبي يؤمن بك ! » .

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد » .

« فمهما نفكر ونفعل ، فنحن من صنع الله ، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده » .

« وانا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى ، عدداً لا نهائياً من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة ، وكان الله مثلهم الأعلى . لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة ، وأنزل السكينة على قلوب الحائرين ، وملأ بالأمل قلوب البائسين ، انه في كل واحد منا ، اذا نحن بحثنا عنه » .

لقائل أن يقول : لماذا كان ( ا . ج . كرونين ) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان فى الجامعة . وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله ايماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم . فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً .

ان للايمان بالله عواملَ شتى . منهـا طهارة المأكل والمشرب ، البر بالوالدين ، صلة الرحم ، العمل الصالح لوجه الله ، اجتناب الفسوق والخيانة ، والانفاق وأظنه أهمها : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » [1] .

---

(١) سورة : المؤمنون : الآية : ٦١ .

ولا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه الا من عصم الله . وان حياة الجامعة واختلاط الجنسين حافزان قويان للولوج في ما نهى الله عنه ، ثم ان الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة ينالها يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه ، وهذه وغيرها أسباب حقيقية تؤدي الى اسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق . انه تعالى يقول : « فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو تُدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين ، همّاز مشّاء بنميم . منّاع للخير معتد أثيم ، عُتلّ بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » . ( أساطير : خرافات ) .

ولا ريب أن النفس الانسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية . منقادة للشيطان الذي يزين له عمله ، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر الا من عصم الله تعالى ، وان النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء . وتميل الى المعصية ، لما هنالك من لذة ورغبة ، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة . لذلك جاء في الحديث : « حُفّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . وقول علي (ع) : « واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره . وما من معصية لله شيء الا ويأتي في شهوة . فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه » . ولا مراء أن الفسق يؤدي الى ظلمات في النفس ، فشكوك ، فجحود ، فالحاد ! على حد قوله تعالى : والقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » . (سورة البقرة : ٩٨) .

لكن الدكتور عندما انتقل الى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسوّد القلب ، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات ، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبّدت على قلبه تزول رويداً رويداً ، فصار يؤمن بالله تعالى . « للذين أحسنوا ، الحسنى وزيادة » . ( سورة يونس : ٢٧ ) .

لذلك يعمل الدين الاسلامي في ابعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي الى الفساد وتسافل النفس في كل بلدة ، وذلك بجعل ثلة من الناس ( وهم المحتسبون ) يقومون لوجه الله بالوعظ والارشاد مطبقين أحكام الحسبة ، متجولين في الأسواق والشوارع ، يمنعون الناس من النقص في المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة [١] ، وبذلك يكون المحيط ( البيئة ) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به الى التسافل .

وان ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الانسان . فالكذب ظلم ، والزنا ظلم ، وقتل النفس المحترمة ظلم ، وعقوق الوالدين ظلم ، وشرب الخمر ظلم ، والبخل ظلم ، والحسد ظلم ، والكبر ظلم ، وعدم اعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ! » [٢] . وعن الصادق (ع) : « اتقوا الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة » . وفي حديث آخر : « اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً ، فانها ليس دونها حجاب » . فبالظلم يسوّد القلب وتدلهمّ النفس . فيأتي دور الجحود والإلحاد !. على حد قوله تعالى : « إن الانسان لظلوم كفّار » . ( ١٤/٣٤ ) .

وان الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس ، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع : « أوَلم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » [٣] . كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة : أن الفسق مزيل للايمان : « تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ،

---

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له .

(٢) سورة المعارج : الآية : ٢٤ .

(٣) سورة الاعراف : ٩٩ .

فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » [١] .

وقد يكون الانسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور . فلا يفيده أي وعظ وارشاد ، فلا شيء يجعله موقناً بالله الا نار جهنم : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها ، فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » [٢] . فيكون اذ ذاك مصداق هذه الآية : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون » [٣] . ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة .

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة ( Confort ) . ذلك لأن الله تعالى يقول : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » [٤] . فإن الله قد زيّن لهم أعمالهم فى الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات ، بقوله : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ، فهم يعمهون » [٥] . ( سورة النمل : ٤ ) . وقربهم الى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » . ( سورة الأعراف : ١٨١ ) .

---

(١) سورة الاعراف : ١٠٠ .
(٢) سورة الطور : ١٦ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٣ .
(٤) سورة المؤمنون : ٥٤ .
(٥) يعمهون : يتحيرون ويترددون فى ضلالهم .

# أدلة أخرى فى اثبات الصانع

سئل الصادق (ع) ( وهو الامام السادس ) : عن الله تعالى : فقال للسائل : « يا عبد الله ، هل ركبت سفينة قط ؟ قال : بلى ، فقال : «فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟ » . قال بلى . قال : فهل تعلّق قلبك هناك : أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك . قال : بلى . قال الصادق (ع) : « فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجيَ ، وعلى الاغاثة حين لا مغيث » .

فلو لم تكن فكرة التوجه الى الخالق متركزة لدى الانسان لما توجه الى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث .

ان الله تعالى يقول : « واذا مسَّ الانسانَ الضر دعانا لجنبه [1] أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا الى ضر مسَّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » [2] .

فالمسرف ، أي الفرد الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة ... الى غير ذلك ، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه . فيُنسَى ان تمادى في النسيان . ان الله تعالى يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » [3] .

وقد ذكر لي أحدهم وكان أمياً ، أن سخلة له جاءها المخاض ، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مده غير قليلة من الزمن . ثم انها رمقت

---

(١) مضطجعاً .
(٢) سورة يونس : ١٣ .
(٣) سورة الحشر : ١٩ .

ببصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألمّ بها واذا بها تضع حملها صحيحة سالمة . فاذا كانت الحيوانات تتوجه الى خالقها بصورة فطرية ، فما بال هذا الانسان ! وهو أشرف المخلوقات ، ! هذا الانسان الذي يتسافل بعض أفراده من جراء نفوسهم الملوثة وما اجترحت أيديهم فيكون أحط من الحيوان على حد قولـه تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (١) . « ان شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون » (٢) . وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين : « ثم رددناه أسفل سافلين » وحاشَ لله أن يظلم أحداً أو أن يردّ أحداً ، دونما ذنب ، الى أسفل السافلين . وانما الانسان نفسه ، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه الى أسفل الدركات ولكن الله ينسب ، ارجاع العبد الى أسفل السافلين اليه بقوله : ( رددناه ) ، لأنه هو الذي سن هذا القانون ووضع هذا النظام العادل « سنة الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٣) .

قال الباقر عليه السلام ، وهو الامام الخامس ، في تفسير قوله تعالى : « حنفاءَ غير مشركين به » : هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها . وفي تفسير قوله تعالى : « لا تبديلَ لخلق الله » أي فطرهم الله على المعرفة . وقد جاء في روايات كثيرة : « أن الفطرة هي التوحيد » . ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع ، فيجيب : أغنى الصباح عن المصباح .

وحكىٰ الفخر الرازي عن رجل : أنه اتفق في بعض الأزمنة جدب وقحط شديد . فخرج الناس الى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يستجب لهم . قال

---

(١) سورة الفرقان : الآية : ٤٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٢٤ .
(٣) سورة السبأ : ٣ .

الرجل : فصعدت الى الجبال . فرأيت ظبياً يسرع الى المياه من شدة العطش ، فلما انتهى الى الغدير ، رآه جافاً من الماء ، فتحير وجعل يكرر النظر الى السماء ويحرك رأسه مراراً ، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت ، حتى امتلأ ذلك الغدير . فشرب الظبي ورجع .

وروي عن سليمان بن داود (ع) : أنه خرج يستسقي . فمر بنملة ملقاة على ظهرها ، رافعة قوائمها الى السماء . وهي تقول : « اللهم ، انا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن رزقك ، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا » . فقال : سليمان عليه السلام : « ارجعوا فقد سقيتم بغيركم » .

ونقل عن صياد : أنه رأى ظبية ترضع ولدها . قال : فلما قصدت أن أصيدها فرت مني وتركت ولدها . فأخذته . فلما رأته في يدي رفعت رأسها الى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى ، فاذا بحفرة في طريقي ، فوقعت فيها ، وانفلت ولدها من يدي ... فأخذته أمه وذهبت به .

ولسائل أن يسأل : لماذا ترفع الأيدي الى السماء حين يريد الانسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث . ويمكن أن يقال في جواب ذلك : لا شك أن الله تعالى منزه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي الا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون ، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة الى عظمة الكون . ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها ( حسب ظن الانسان الخاطىء ) ، عظمة الله القادر الجليل ( والله هو الذي خلقها وكونها من العدم ، وهو الذي يوحي ويعرّف الانسان عظمته ) ، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحده شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله ، فطرت طبيعة الخلائق تعظيماً لله تعالى على التوجه الى السماء ، لعلوها ، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات . مع العلم أن الله لا يوجد في

جهة دون جهة . وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان . « وهو معكم أينما كنتم » .

وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جل جلاله : « انك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والاحوال والآجال ولا خلق ذلك ابوك ولا امك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات . لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم فصاروا من الأموات . فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزه عن امكان الحادثات ، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات ، فصارت موجودات » .

اذا نظر الانسان الى هذا الكمال الرائع الذي أودعه الله في تمام مخلوقاته من « آميبا Ameoba » [1] الى الانسان : في الجماد والنبات والحيوان ، ثم الى ربط التنظيمات الأرضية ، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » [2] . ثم الى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض ، ثم الى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من ألكترون وبروتون ونيوترون وغيرها ، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تتناهى في هذا الكون : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » [3] يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال . وليس للانسان الا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً ، خشوعاً وخنوعاً .

لذلك كله ، فإن الطريقة في اثبات وجود الخالق جل جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكر . انظروا الى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها ،

---

(١) الكائن الحي ذي الخلية الواحدة .

(٢) سورة الملك : ٤ .

(٣) سورة لقمان : ٢٧ .

كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان . انه تعالى يقول :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [1] » . ( سورة البقرة : ١٦٠ ) .

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما ينتج من ذلك من فوائد جمة لأمر عجيب .. فليرجع من شاء الى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك الى حدّ ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض . ثم ليدعُ ربه ليجعله من قوم يعقلون . فيقول : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك [2] فقنا عذاب النار » . إن الله قد عظم أمر ( اختلاف الليل والنهار ) بقوله : « وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون » . فعقبه بعد الاحياء والاماتة لاهميته الفائقة . فلا عقلَ لاولئك الذين لا يوحّدون الله في آياته .

وها نحن نذكر نبذة يسيرة عما ينتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لادامة الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً لمقول : بالصدفة ، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً ( حيوية ) وانساناً فعقلاً الخ « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » .

لولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض . ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها . وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح

---

(١) قال رسول الله (ص) : « ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها » .

(٢) سبحانك : تنزيهاً لك ، وسبح الله ، أي نزهه وقدسه .

الأرض الى خارجها ( قوة عمر كزية ) . ولكن سرعة الدوران تختلف في نقاط الأرض المختلفة ، لكروية الأرض . فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة ، الف ميل وتزيد قليلا . ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا ( التي هي على عرض ٤٠° ) لا تقطع فى ٢٤ ساعة محيط الأرض كله . فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة . وكلما صعدنا الى الشمال ( نحو القطب ) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة الأرض حول نفسها . فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة ، أي ليست الأرض كرة تماماً . لذلك : فالقطب أقرب الى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء . فتكون الجاذبية على القطبين أكثر .

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي الى دفع الميـاه من خط الاستواء الى القطبين . ولكن زيادة قوة الدافعة ( القوة الطاردة ) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين الى خط الاستواء . وقد تعادلت القوتان : ( قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها ) ، من حيث زحلقة البحار والمحيطات الى القطبين أو الى خط الاستواء ، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزعاً عادلاً كما نرى . ولولا هذا التعادل لغرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء . وهذا تقدير قدره الله تعالى بقدرته . « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . » . ( سورة الحجر : ٢١ ) .

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدوره الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء . وذلك بتأثير القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة ، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل اذا أداره بسرعة كبيرة بتأثير القوة ( عن مركزية ) الطاردة .

$$\text{قم} = \frac{\text{ك س}^2}{\text{نق}}$$ ( بالوحدات المطلقة ) .

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في ( ١٠٠ ) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة ، لمات ما على الأرض من حيوان ونبات . ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي الى اماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة . واذا أراد المتتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة به لاحتاج الى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » . ( النمل : ٩٠ ) .

وقد قال تعالى أيضاً : « وكل فى فلك يسبحون » فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى : « كل يجري لأجل مسمى » .

***

ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به ( ١ غم/سم٣ في ٤° م ) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار . « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » .

وان نزول الأمطار أمر عجيب يعزى الى تأيُّن الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً ، ولدوران الأرض من الغرب الى الشرق أثر خطير في ذلك . وفي كل ذلك : « لآيات لقوم يعقلون » .

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق ؟ أليست لهم عقول ؟ نعم ، كانت لهم عقول ، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا ، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات من جراء الفسوق

والفجور ، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان ، يملي عليه ما شاء من زندقة والحاد • والدليل على ذلك : أن هذا الملحد ، لو تمكن من توبة ، ورجوع الى الله تعالى وأعمال صالحات يكفّر بها عن سيئاته « ان الحسنات يذهبن السيئات » ، لرأى أن عقله يرجع اليه • معتبراً بما خلق الله ، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله •

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين ، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث ، واعتمدوا في ادعاءآتهم على السفسطة والخيال و « من عنديات » لا يدعمها العلم الصحيح ، فلا ربط في ما يستندون اليه من أدلة واهية ، وأرى : أن علاج هؤلاء : أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية ، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح ( القسم المجسّم من الهندسة التحليلية ) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد فحساب الاحتمالات فالفلك العالي • فانهم ولا شك يتخبطون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمست لغزاً من الألغاز ، فيعترفون إذ ذاك بجهلهم • لأنه لابد للمعادلة التفاضلية ( Equation différentielle ) من حل صحيح لا يتعداه ، وليست القضية هاهنا ، قضية : ( أرى ، وأظن ، ولعلّ وسوف يكشف لنا العلم ! ) ، هذه الكلمات التي يرددها المادي • فاذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم ، عند ذلك يعترف بجهله ، وان هذا الجهل يدفع عنه الغرور ، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكون ، إن أزاح عن نفسه الخمور والفجور ولو بصورة موقتة •

# ما من دابة الا أمة

ننقل هنا فقرات مما جاء فى مقال كتبه الدكتور عبدالمحسن محمد صالح ، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا [1] في الكتاب من شيء ، ثم الى ربهم يحشرون » . ( سورة الأنعام : ٣٨ ) . « والذين كذّبوا بآياتنا صمٌ وبكم في الظلمات ... » .

« النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية ، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر . وتخريبه في الاقليم الجنوبي يعتبر هيناً اذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين . يعيش فى سراديب أرضية دون أن يرى ، ويخرب دون أن يحس به أحد . فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبابيك والأبواب وسقوف المنازل . فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في ( اللبن ) أي في الجدار المصنوع من الطين .

منذ أيام استيقظ أهل قريـــة من قرى مركز « أبو حمص » بمديرية البحيرة « عزبة شلبي » ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو : « النمل الأبيض » أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى .

والآن تعالَ معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا :

ستجد برجاً شامخاً في الهواء ، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار . ومحيط قاعدته قد تصل الى خمسة عشر متراً .

---

(١) ما فرطنا : ما تركنا .

انها كحصن من حصون العصور الوسطى ، مصمَّمة بطريقة خاصة . فهي على هيأة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية . ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنها الخرسانة المسلحة . وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر ، ساكن سكون الموتى .. لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد ، هذه واحدة من المستعمرات .

وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة . اذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك بأنه « البوصلة » .

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحارى والجبال ! ذلك لأن لها سطحين عريضين . أحدهما يشير الى الشرق والآخر يشير الى الغرب ، وسطحين ضيقين متجهين الى الجنوب والى الشمال !؟

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل . ولهذا يثق الأهالي فى ذكائه الغريب . ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام .

واذا سرت في مكان ثالث . فستجد المستعمرات المعلقة . وهي التي يبنيها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها .

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار . فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً ، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها . فاذا ما هطلت الأمطار ، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً ، فلا يبتل البناء .

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة ، فيبني النمل فيها أنفاقه ، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة ، تتفتق عنده حيلة أو غريزة [1] للتغلب على مثل هذا الأمر ، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد الى عدة

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه .

أمتار تحت سطح الأرض حتى تصل الى مستوى الماء الجوفي بالتقريب . وعندئذ يخرج منه بخار الماء لينتشر في أنحاء المستعمرة . فيخلق جواً رطباً . كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء .

والآن تعالَ بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل .

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك ، ورعية تتكون من العساكر والشغالة . لكل وظيفة معينة لا يتعداها .

ولكل مبنى نظام خاص . يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال . ليتناقله الخلف عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه .

سآخذك الآن الى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة ، انها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء .

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل الى الثلاثين أو الخمسين عاماً .

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما . ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتتمسح بملكتها كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء [1] ويحيط بالملك والملكة حرس

(١) لا نوافق الكاتب فيما ذهب اليه . فان استلام الحجر الأسود بمكة . واستلام اضرحة الأولياء أو التمسح بها ، انما هو لاظهار الولاء والحب ، مع العلم ان ليس للمادة اثر فى تقرب العبد الى الله تعالى ، وانما يتقرب العبد الى ربه بحب أوليائه ، لأنهم عباد الله المخلصون ، وبتقوية الرابطة بينه وبينهم بهذا الاستلام . لأنهم كانوا اذلاءً لله مطيعين ، وانما يتقرب العبد الى الله بالقيام بما قرب أولياء الله الى الله من اعمال ليكون : «مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » . ( سورة النساء : ٧١ ) .

على أن هذا الحب ( حب الأولياء ) من رشحات الايمان . يعترف بذلك من جرب تكامله الايماني طيلة حياته .

فها هنا اضافة تشريفية ، كجلد المصحف ، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف ، وكتقبيل الحجر الأسود ، لقضية تاريخية لا مجال لذكرها . ونذكر الكاتب بقول الشاعر :

خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً .

ويأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاءً ملكياً خاصاً ... وتظهر على الملكة أعراض الحمل . فتنتفخ بطنها حتى تصل الى مائة مرة من حجمها الأصلي . فلا تستطيع أن تنتقل من مكان لآخر . وتتحول بعد هذا الى آلة سريعة لوضع البيض ، فهناك نوع يضع حوالي ٣٦ الف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة فى كل سنة .

أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس ( ماكروتيرمس ) . ففي كل ثانية تمر ، تكون الملكة قد وضعت بيضة . وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب من ٩٤٦ مليون بيضة .

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم . فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء الى حجرات خاصة تشبه حجرات التمريض حتى يتم فقسه .

فاذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة ، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بآلاف الحجرات .

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة ، وركن خاص بالتمريض وفيه يربى الأفراد الجدد ، ويقدم لهم طعام خاص ، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون الى رعية الملكة .

وتوجد عدة حجرات مغلقة ، وهي سجن المستعمرة التي يساق اليه الأسرى من الحشرات الاخرى حية . ثم تزج داخل هذه السجون تحت حراسة

---

امر على الديار ديار ليلى ... اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وان هذا التمسح ليدل ايضاً على احترام الأفراخ للامهات . فليتعلم الانسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة : فـ « الجنة تحت اقدام الأمهات » .

قوية ، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام نيام مع الجنس البشري .

وقد تجد في بعض المستعمرات مخازن لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر . فاذا ما توجهت الى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات ، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء فى المستعمرة .

واذا ثقبت عدة ثقوب في المستعمرة ، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك ، انهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم .

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه ، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقوب ، حتى تعود الى ما كانت عليه من قبل .

وللحراس وظيفة أخرى عامة . فهم يصحبون شغالتهم اذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق . فتراهم يحيطون بهم من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم .

وعندما يعود الشغالة الى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة .

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها .. فهي قد تعمر سنوات قليلة ، وقد يصل عمرها الى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل الى ١٠٠ عام .

فقد جاء في أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢ م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة ، عاقت الفنيين عند مدهم لاسلاك التليفون في بعض جهات استراليا . وكان لابد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم ، فحطموها بالديناميت . وكان عمر المستعمرة فى ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً . وبالرغم من هدم

المستعمرة في عام ١٨٧٢ ، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥ — أي عاشت حوالي مائة عام » .

***

وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محادثتها . وأخلاقها ونفسياتها . فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة . ان الله تعالى يقول : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى اذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها . فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار . فإن كانت هذه الأزهار قريبة ، رجعت ترقص رقصاً خفيفاً ، تريد أن تفهم قرب الأزهار . وإن كانت الأزهار بعيدة ، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً . ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث . بل وقف على الحركات فظنَّها منطقاً .

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة . كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هـذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبُّر ما يبهر العقول . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق » ولكن الله حصر الاعتبار ، فالتوجه الى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله : « تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب » . فلا يعتبر من اسودَّ قلبـه

بالاجرام ولا يسلم اسلاماً حقيقياً ، على حد قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » . فلا يلتقي الاسلام مع الاجرام . فاذا جاء الاجرام انسحب الاسلام . وكان المجرم منسياً يلهو ويلعب كما يشاء ، « نسوا الله فنسيهم » . « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » . فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية ، ونستجير بالله من ذلك : « ومن يضلل الله فما لـه من هادٍ » .

## كيف يتسرب الشك الى النفوس

كيف يتسرب الشك الى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها • راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم واحسان الى آخرين • ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر الى غنى وثراء لا يعطون حقوق الله ، يتجبرون ويتكبرون [1] ويتكلمون فوق ما هم مدركون • ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا الى الحقيقة ! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال • فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا الى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم • راقبوهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون الا لمادة أضخم وأرقى وأعظم • ولو أن هؤلاء أنفقوا مما منّ الله عليهم من مال وجاه ، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة ، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه ، لم يتسرب الشك الى نفوسهم بل ازدادوا ايماناً ويقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تتنور الأرض بنور احسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين •

ولعلك تقول اني أجد شباناً في مقتبل العمر ، لم يملكوا شيئاً من الثراء ، ولم يركنوا الى ركن وثيق ، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين • نفوسهم مدلهمة ، مظلمة ، لا يصلون ولا يخشعون ، ولكن اذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تودي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم • فما سبب انحراف هؤلاء ؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية •

---

(١) ان الله تعالى يقول : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » . وفى الحديث : « اكثر اهل النار المتكبرون » .

فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة ، لا يبالون بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق اذا ما وجدوا الى ذلك سبيلاً . غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم . هتاكين للحرمات ، فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرهم .

وانما الايمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة ( بل المستحبة ) .

لذلك ترى الايمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات . بل ملء صدورهم الشكوك والرَيب ، يستهزئون بالمقدسات اذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم .

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والارشاد بل اصلاح هؤلاء يكون ، اما بنظام صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين ، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً . ( لأن الرياء ، كما يقال ، قنطرة الحقيقة ) . واما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوق وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة « الدين المعاملة » بصورة تدريجية . فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه ، وإن حب الله تعالى لا يحلّ الا في نفوس فيها شيء من الصفاء .

يقول الله تبارك وتعالى : « وكذلك نري ابراهيم ملكوتَ [1] السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ [2] عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل [3] قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً [4] قال هذا ربي . فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون ،

---

(١) أي عجائبها وبدائعها . (٢) أي ستره الليل بظلامه . (٣) غرب
(٤) طالعاً .

اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً ، ومـا أنا من المشركين » (١) .

ان هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لارجاع المنحرفين الى الفطرة . فإن ابراهيم (ع) يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل ، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه . والمتحول لابد له من محوِّل ، فهو اذن محتاج الى غيره مُسيَّر بارادته . وان شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب : والرب هو المحرِّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته ، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى ..

يستنتج من كل ذلك أن لابد للمحدَث من محدِث ولابد للنظام من منظِم ، لا سيما اذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة ، فيه من المعادلات والدساتير ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير . « ومن أين جاءه هذا التفكير ؟ » .

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم ، خلق هذا الكون بقدرته ، وجعل فيه من النظم والدساتير ، ما لا يصل اليه البشر ، بعلمه . خالق لم يخلقه غيره ، خالق أزلي قديم ، لم يسبقه شيء من الأشياء ، وهو خالق كل شيء ، معطي الوجود ، ولم يعطه الوجودَ غيرُه .

ان العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لابد من إله موجود من تلقاء نفسه ، أزلي ليس بحادث ، قديم لم يسبقه شيء ، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع . كان ولم يكن معه شيء .

فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم . « صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة » . فصاروا الى جنات الخلد مهنَّئين فرحين مستبشرين .

---

(١) سورة الانعام : ٧٩ .

***

فمن أحسّ بشك أو شكوك في نفسه . فما عليه إلا أن يبدأ حالاً بمعالجة نفسه : بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » (١) . وأن ينتهي عما كان عليه من اجرام وظلم لقوله تعالى : « كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » (١) . وفي آية أخرى : « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وأن يطهر مأكله ومشربه ويجعلهما من مورد حلال طيب ، وأن يجانب الترف لقوله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون » . وقد قال رسول الله : « لا تجالسوا الموتى ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : كل غني مترَف » .

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله (ص) : « ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع » . وفي حديث آخر : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » .

وأن يبذل من فضول ماله » ، فقد قال الله تعالى : « ومن يوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » . أي ومن يُحفظ من شحّ نفسه . والشحّ أشد البخل .

وأن يترك الكذب . فقد جاء في الحديث : « الكذب يجانب الايمان » . وفي حديث آخر : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار » . وفي حديث آخر : « إياكم والكذب ، فإنه جمّاع الآثام » . وقد قال أحد الفلاسفة : بترك الكذب يوقن الانسان بخالق معبود عظيم » .

---

(١) سورة يونس : ٣٤ . (٢) سورة الشعراء ٢٠١

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة . فقد جاء في الحديث : « الغيبة أشد من الزنا » . وفي حديث آخر عن الرسول (ص) : « يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع اليه كتابه ، فلا يرى حسناته . فيقول : الهي ، ليس هذا كتابي . فإنه لا أرى فيه طاعتي . فيقول الله تعالى له : إن ربك لا يضل ولا ينسى ، ذهب عملك باغتياب الناس . ثم يؤتى بآخر ويدفع اليه كتابه ، فيرى فيه طاعات كثيرة ، فيقول : الهي ، ما هذا كتابي . ما عملت هذه الطاعات . فيقول الله سبحانه : ان فلاناً ، اغتابك فدفعت حسناته اليك » .

وان يبرّ والديه ويصل أرحامه . فقد جاء في الحديث : « ووالديك فبرّهما وأطعمهما حيّين وميّتين ، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل ، فإن ذلك من الايمان » . وفي حديث آخر ، « لا صدقةَ وذو رحم محتاج » .

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة . فقد جاء في الحديث : « مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار » . الا اذا كان بغية الارشاد والهداية . وفي حديث آخر : « الغناء مجلس لا ينظر الله الى أهله » . وقال علي عليه السلام : « جالس أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر ومن يصدّك عن ذكر الله ، تبن عنهم » .

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم . فقد جاء في الحديث : « ان الفقراء هم صفوة الخلق ، وان من أراد الله فليطلبه عند الفقراء » . وقد قال محمد الباقر (ع) وهو الامام الخامس : « اياكم ومجالسة الأغنياء ، فإن الانسان يجالسهم وهو يرى أن لله عليه نعمة ، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة » .

ان الشك لا يأتي إلا من جراء ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا من جراء رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من

عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . ( سورة يونس : ٩٩ ) .

وان كل عمل صالح يؤدي الى قليل من الهداية ، فقليل من الايمان ، ثم ان الله تعالى يزيد في ايمان الشخص تفضلاً منه ورحمة . فيزداد العبد ايماناً ويقيناً على حد قوله تعالى : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . ( سورة الكهف : ١٣ ) . فالناس مجزيون بأعمالهم ومؤاخذون حسب أفعالهم. فقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « انما أعمالكم تَرِد اليكم » .

فطوبى لأولئك الذين قاموا باصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها الشكوك والأوهام ، فازدادوا ايماناً ويقيناً وخرجوا من الظلمات الى النور : « أوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (١) .

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الاسلامي الحنيف ، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام : « يشهد بذلك العقل ، لو سلم من أسر الهوى » . فلا شيء ترتاح اليه النفس الانسانية ، كدين الاسلام ، ان بقي العقل على فعاليته . ولا شيء كالضلال ترتاح اليه النفس ان انسحب العقل عن فعاليته : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن في السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون » .

---

(١) سورة الانعام : الآية : ١٢٢ .

# تفنيد أقوال الماديين

ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون [1] » .

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته : تلك القدرة التي ليس المبشر أن يصل الى شيء من حقيقتها ، يفلق الحب والنوى ، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار . ولو كتب في هذا السير انتكاملي للنبات مئات الصفحات ، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات . أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه ، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بانسان . ولكن ، مع الأسف يغلق هذا الانسان على نفسه الاعتراف بوجود الله ، بما كسبت يداه ، إن الله تعالى يقول : « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ،حتى يروا لعذاب الأليم» ، (سورة يونس) . ولا تحق كلمة الله عليهم الا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستك منها الآذان .

فهل علم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما حقيقة الحيوية ؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها ؟ ان ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركز خال من الهذيان . انما هو تخيلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجربي . بل هو اتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم ، « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » . (٢٥/٤٣) .

ان الماديين يتذرعون بما قاله داروِن عن تكامل الأنواع . وهو ليس ممن أنكر الخالق . وقد قال : اني لا أعلم كيف جهز هذا الانسان بالعقل والمنطق . وقال أيضاً : ان الانواع مشتقة كلها من أصل واحد ، أو أصول معدودة ، نفخ فيها الخالق روح الحياة » .

---

(١) سورة الانعام : ٩٥ .

فـ ( داروِن ) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها ، ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي . وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من قبل علماء آخرين جاؤا من بعده .

قال العلامة المشهور ( روسل دلاس ) نديد ( داروِن ) في كتابه : ( عالم الحياة ) : « ان الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية ، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الاحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية » .

وقال : أرنست هيكل الألماني :

« ان كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها » .

وقال : توماس هكسلي :

« الحياة هي علة الأجسام ، لا أنها نتيجة لها . لأنه لا يصادف الباحث في الآميبا : ( الكائن الحي ذي الخلية الواحدة ) مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها . فإن هذه الاحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الاجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة . ، حتى انها تستطيع أن تبني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال » .

نعم ، إن ( داروِن ) ، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون الا أن الماديين المتهوسين ، هؤلاء الذين طغت نفوسهم ، فبغت ، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التي لا يرافقها المنطق بحال ، نسبوا اليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى في هذا الكون . كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة الى الأفيون !

قال بعض العلماء المحدثين : إن كل كائن حي غير مولود ولا متكامل

عن حي آخر . وان كل حي قد خلق بصورة مستقلة وان كان هناك تشابه في بعض الأصناف .

وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر : « ان الله تعالى خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع في قسم منها قابلية التكامل ، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وامكانيات ، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله » .

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر في خلق عضو أو ايجاد كائن حي أكمل وأرقى . وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر في العوارض الخارجية كاللون . حتى أن الطول يعزى الى عامل وراثي ولولاه لما اختلفت الأطوال .

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا : «ان الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه» . ( Fonction fait organe ) وقالوا : « ان الحاجة تولد العضو » . حين أنه قد ثبت : أن عضواً من الأعضاء ، مهما استعمل في ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتي بعضو جديد . فمن ولد مثلاً مقطوعَ الكفّ ، مهما استعمل يده ، لا يولد له هذا لاستعمال كفاً وان توالت الدهور .

ان المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة ، وان هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير ، تنظم الأشياء وترتبها خيرَ ترتيب ، وتربط بينها بدساتير رياضية متقنة ، تؤدي الى دوام واستمرار . اذن ، فليقل لنا المادي ، دونما مغالطة ، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروِن ؟

فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً له حدود معلومة وماهية مفهومة ، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة ؟ أليست القضية ، قضية عاطفة متحجّرة وقلب أعمى ، يبصر الحق فينكره . وقد جاء في الحديث : « ما ضُرِب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب » .

ولعل المادي يريد أن يرى الهاً يشبهه من حيث الأعضاء ، أي الهاً محتاجاً الى أعضاء ومركباً من أجزاء . ولكن المحتاج مصنوع بيد مَن يرفع حاجته ، والرافع للحاجات لا يشبه خلقه فى شيء ، وهو غير محتاج الى غيره وهو الله سبحانه . « سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً » .

غريب أمر هؤلاء الماديين . يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً ، حسب ميولهم ، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء : تلك التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على عظمة الخالق جل جلالـه . فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم .

نعم ، انهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي . ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات ، ومن لا يسند ادعاءه ، بل هوى نفسه ! الى العلم ولا يذكر كلمة ( Science ) يعد جاهلاً وتُردّ نظريته ! ، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم الى العلم، والعلم منها براء . وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية ، فيسمى هذيانه ( من عندياته ) فلسفة . حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم ، الفلسفة : هي الربط بين عصارات العلوم وحقائقها . فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة !

وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ( صفحة ١٩٩ ) : عدم امكان القول بالصدفة ، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها أثر بعض بطريق منطقي . وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة ، وأيهما أعقد ؟ المكروب مع ما فيه من حياة ، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولا ، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً ؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى ؟ على أن

الانسان لو لم يجهز بعقل فعّال .. ولم يكن قد خلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى . فهل كان من الممكن الوصول الى القمر الصناعي ؟ فماذا الجحود ؟ ثم مَن هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة ، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة . ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الانسان بعقل مرتب منظم ، فإن فاقد الشيء لا يعطيه ! فلابد وأن العاقل الأزلي ، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه . « تعالى الله عما يشركون » .

كان يقول ( لاووازيه ) الكيميائي المعروف : ببقاء المادة : ( Rien ne se perd, rien ne se crée . أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . انه اعترف بقوله : ( ان المادة لا تخلق من تلقاء نفسها : Rien ne se crée أن لابد من وجود خالق أزلي حكيم هو خالق الأشياء كافة ، أودع فيها نظماً ودساتير عميقة ، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده . وهو خالق الزمان والمكان ، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً ، فهو أزلي أبدي سرمدي .

قد فُنّد قانون ( لاووازيه ) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة ، فيجب أن يسمى اليوم بقانون تبادل الألكترونات . فإن قانون ( لاووازيه ) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعالياتها ، بل ينطبق على فعالية الألكترونات وتغييراتها الخارجية ولمدة موقتة أي بمقدار عمر الأرض .

ان نظرية ( دالتون — لاووازيه ) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات ، وقد أدت الى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع ما فيه من خطأ فاحش . ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة ( الصماء ! ) شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة

لا نفاد لها ولا زوال . فاستنتجوا خطأ قِدم العالم المادي وعـدم وجود خالق لـه .

لقد تحطم قانون لاووازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الألكترون والبروتون المشكلين للذرة . وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه الا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي الى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع . ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية الى هذه الحياة الا بالاعتراف بعاقل جبار لا نهائي وهو الله تعالى . ففي ملعقة من الزئبق طاقة تتمكن من تسيير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض . وان الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين وُلت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ وُلتاً يؤدي الى هلاك الانسان . وان قانون أينشتاين : $E = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة ، مضروبة في مربع سرعة الضوء ) يجعلنا نعلم مقدار ما كدّس الله تعالى من طاقات لايجـاد هذه العوالم .

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم « كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون »[1] وذلك لأنهم رأوا أن الالكترون الموجب يتصادم مع الالكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الالكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى ( Annihilation de la matière ) أي انعدام المـادة أو موت المادة . ان الله تعالى يقول : « كل من عليهـا فان ويبقى وجـه ربك ذو الجلال والاكرام » ( ٥٥/٢٧ ) .

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل اليه العلماء بعد جهد جهيد .

---

(١) سورة القصص : ٨٨ .

أين ( بخنر ) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل اليه العلم ، حيث جعل أساس الموجودات : القوى ( أو الطاقات ) وأثبت أن الموجودات : كلما ابتعدت عن المادية ، كلما كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية ، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة ... الى ما هنالك .

أين ( بخنر ) حتى يرى أن مئات الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول الى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض « أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » [1] .

أولم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الانسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد . وكيف تمكن من النطق وربط ما في الدماغ بالناطقة . أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية !؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره ؟ ان هذا لهذيان !

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الڤيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب . فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وايجاد نبغاء بالڤيتامينات ، فإن كان ذلك ممكناً لامكن أن يكون الناس كلهم علماء فى الرياضيات العالية ! وفهموا جميعاً « نظرية النسبية » بدساتيرها .

ولقد جرحت نظرية « العقل السليم في الجسم السليم » . فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج ، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية . وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية ( Athlètes ) ، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد . وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما سببه . هل هو مادي بحت ، أم ماذا ؟

ثم من أين جاء لهذا الانسان الحدس ( Intuition ) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الانعكاسية ؟. ان الرياضي ليعترف أن ( الحدس ) يلعب دوراً هاماً

---

(١) سورة الرعد : الآية : ٤١ .

فى حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات ، وقد يصل الانسان الى حل مسألة بإلهام خاص .

ثم ان الصدفة ( المصادفات ) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة ، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة واذا بـه يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد ، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم . وهكذا كشف ربط الاسلاك بصورة متوازية في الاعمدة ( بحث الكهرباء ) وكشفت الاشعة السينية ( Rayon x ) وكثير من مخترعات أخرى لا مجال الى ذكرها . ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص ودساتير في الكون . وهل للمادة الصماء أن تضع دساتير ؟

ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة ، أنه قد أشكلت عليه مسألة ، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها . وذات ليلة رأى في ما يرى النائم انه يحل المسألة بصورة صحيحة . فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته ائتيني بالسراج حالاً لأدوّن الحل ، فأتت له بالسراج ودوّن الحل وكان الحل صحيحاً .

يقال : ان العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة . ما حقيقة العقل الباطن ؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل ، حتى تصل النوبة الى العقل الباطن ؟ وما النسبة بينهما ؟ أللانسان عقلان ؟ ثم ما حقيقة الحدس ؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان . وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالالهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية ، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة ! ونظريات تجرح وتعدّل من وقت الى وقت .

***

قد قطع قسم كبير من ظفر ( أديسن ) أثناء قيامه بتجربة في مختبره • فزاره صديقه المهندس • وتأسف لما حدث • فقال له ( أديسن ) : سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق ، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً • فقال المهندس متعجباً : « ومن هذا الطبيب الحاذق ؟ » فقال أديسن : هو الله •

غريب أمر هؤلاء الماديين • فانهم مع جهلهم واخفاقهم فى فهم العلوم المادية • كنظرية ( أينشتاين ) النسبية ، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء • هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية ( Equations différentielles ) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية ؟

غريب أمر هذا المادي • انه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافظة وتفوّق على الأقران • ثم يقول بعد ذلك كله : ان المادة ( الصماء ) هي التي صنعت لنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتنال كمالاً أو لتتكامل ! أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة ! Mutation أو طفرات عجيبة !• ( Mutations tératologiques ) • ولا يفكر أن ارادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلا خاصا • وأن ارادة الله تعالى ومشيئته هي التي أوجدت الامكانيات •

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتمام الاحتياج (كالانسان) أن يوجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل • فما بال الانسان لا يقوى على ذلك ؟•• ليجعل نفسه غير محتاج الى كثير من الأشياء • لكنها هي النفوس تضل وترتدّ بسوء اختيارها ومجونها وطيشها •

ان الله تعالى يقول : « ولو شاء ربّك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً •

أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١) .

ويقول الله تعالى في مكان آخر : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٢) .

وفي آية أخرى : وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون (٣) . لقالوا انما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٤) .

كانت فرضية ( Hypothèse ) التطور : ( Evolution ) وأعني بها فرضية : ( لامارك ــ داروِن ) . قد أثرت في نفوس كثير من الناس ، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية ، مما أدى الى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار ، وأن هذا الكائن الحي يتلاءم ( Adaptation ) في نموه مع البيئة ، فيتغير بحسبها . وان البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل ! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة . حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها الى اختلاف البيئة أو المحيط !

---

(١) سورة يونس : ١٠١ . (٢) الانعام : ١١١ .
(٣) يعرجون : يصعدون . (٤) سورة الحجر : ١٥ .

ولكن سرعان ما وجد علماء آخرون شكّوا في صحة تطبيق نظرية ( داروِن ) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصاً دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله ( داروِن ) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها . وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن ( آميبا ) = الكائن الحي ذي الخلية الواحدة .

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي ( Génotype ) والتركيب الحيوي ( Biotype ) هما أساساً الأنواع . وهما يبديان مقاومة دائمية عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً . ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات للتكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية ، موجود ومعبأ في العامل الوراثي ( Géne ) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغييرات .

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات ( Mutations ) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في ( Géne ) . وأخفقت النظرية القائلة : « ان تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات » .

يقول أميل كوينو ( Emil Guynot ) : « ان الطفرات تحدث دونما علة أو سبب ، بل بالصدفة » . وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكوّنها . وهذا ما أدى الى هانري برگسون ( Henri Bergson ) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً .

« وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحـد »

عبثاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت ، وان سمى المادية مادية نظرية أو جدلية . ذلك لأنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال : أن العلم لا يؤيد ما يقول . وانما العلم سيكشف له في المستقبل صحة ما يدعيه الآن ، وصحة ما يعجز عن فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر ! وهل

يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم ، رجاءَ أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية !

فأنت أيها المادي ، جئت ، مع جهلك بحقائق الكون ، جهلاً غير متناه ، بنظرية « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ [1] الجبال هدًّا » ( سورة مريم : ٩٣ ) .

***

ولنعد الى ما يقوله المادي ( Matérialiste ) ، انه يقول : الوجود قديم ، وان المادة قديمة ، وهي مصدر كل ما وجد في العالم ، تلازمها خصائص لاتنفك عنها وهي ترقى من الجماد الى أكبر عالِم ألمعي ! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة ، ولا عقل للمادة ولا شعور . ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الاتقان وكمال النظام ! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار ، وان ما يُرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي ! الى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية . ولا شيء وراء المادة . وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وارسال أنبياء انما هو كلمات فارغة تمسك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة ، وسوف لايمضي قرن أوقرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسيرون على المحجة المادية البيضاء ! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات الى حيث الحق والواقع !

هكذا يتخبط المادي في ادعاءآته ومن عندياته ومتناقضاته . انه يقول : الوجود قديم ويريد به المادة ، ويقول المادة قديمة . هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل . فاذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية ، فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره ، وأن يقول بقدم المادة وأنها غير

---

(١) تخر : تسقط

مخلوقة ، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها . وهل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية ، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الاولى الى وجود العقل الانساني ، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها . هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة اتحاد الاوكسجين والهايدروجين بنسبة معينة بعد امرار تيار كهربائي . ما أثر هـذا التيار وما حقيقته ؟ هل تمكن المـادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنـا حقيقة الكهرباء وحقيقة ( الابصار ) ، وحقيقة السماع ، وحقيقة العقل ، ( ولعله لا يعترف بالعقل ! ) ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لاتتناهي عددا وإحصاءا ، ألم يعلم عندما اكتشفت ( الاشعة الكونيـة ) نادى العلماء بصوت رفيع : أننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل ... ماذا يقول المادي ، لو سألناه : هل مجهولاتنا بالنسبة الى ما في هذا العالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر أم معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعدل يوماً بعد يوم .

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق الذرة ، فيعترف بأن المادة مخلوقة . وانها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً في علم الذرة . « انا كل شيء خلقناه بقدر » (١) . ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته . فالتمسك بما أثبته العلم بعد جهد جهيد أولى من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل . فاذا كان الأصل هو الطاقـة ( لا المادة ) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحـديد والأورانيوم والألمنيوم و ... وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة : « وكل

---

(١) سورة القمر : ٤٩ .

شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » [١] ، اذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وادراك وشعور . وهذا ينافي ما يدعيه المادي . وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء ، غير مؤثر في نفسه ، فلابد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق ، وهو لا يشبهها في شيء ، حتى كان هذا العالم الذي نراه .

ثم نسأل المادي : أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار ، لا سيما اذا كانت متعددة تكاد لا تحد ، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشره أو الحيوان دليلاً على عقل فعال ، لا سيما اذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة الى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة ، هذا عدا ولوج الروح فيها .

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك الا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها. « انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . ان المادي يقول بنظرية لاپلاس : ان الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم ، ثم انتزعت منها هذه الكواكب والى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية ، وان الأرض كانت ابتداء قطعة من نار : ( معادن مذابة ) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل الى باطن الأرض مسافة يعتد بها . فإن درجة الحرارة تزيد ( ٣٠ ) درجة مئوية لكل كيلو متر عمقاً . وهكذا تبلغ نحو عمق ( ٥٠ ) كيلومتراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر . وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و ١٨٠٠° م . والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك . فالكرة الارضية ، بناء على هذا ، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلومتراً ، تلتف حول قلب الأرض

---

(١) سورة الرعد : ١٠ .

التي هي نار حامية : من صخر مصهور. ومعنى هذا أن لب الأرض سائل « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (١) .

فاذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحيوية . فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال .

وكيف بالتحليل العلمي يمكن ارجاع عقل الانسان الى المادة الاولى الأزلية ، لا سيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية . ومن أودع فى المادة الاولى هذا العقل الجبار لتضع دساتير رياضية رصينة في هذا الكون ، وتتسلسل هذه المادة وتتدرج مراحل تكاد لا تتناهى : مراحل معقولة حكيمة ، ثم تنظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل ، فتهيئها قبلا ، وهل للمادة الصماء غير العاقلة ( على ما يقوله المادي ) أن تفكر في مستقبل الاشياء وحاجاتها وتعين مثلا أوقاتاً لخروج السن والشعر في الانسان والحيوان ... الخ

حقاً ان التفكير المادي تفكير عامي لا يمت بالاسلوب العلمي بصلة : « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » (٢) .

يقول ( روبينيه ) في كتاب « الفلسفة الحسية » :

« ان الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال وبناء فلسفتهم على المشاهدة المحسوسة . ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد . وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدم المادة وأبديتها ، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها : الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب الحادي عليها » .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣١ . (٢) سورة النجم : ٢٣ .

وهل يصدق الحس في ما يعطى من معطيات وما المصحح له ، أليس العقل ؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية أساسها الحواس . وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار . وكيف يجوز أن تبنى فلسفة الحياة الاجتماعية : من اقتصادية وأخلاقية وادارية على نظريات تتبدل من حين الى حين . ألم يدرس المادي تاريخ العلوم . ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها . وهل الفرضية : ( Hypothèse ) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب . وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها . « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » [٢] . ( سورة الأنعام : ١١٦ ) .

ان المادي يقول : ان المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة . من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهـذه النواميس ؟ هل المادة نفسها فكرت ، فوضعت هذه النواميس والقوانين ؟... فما بال الانسان وهو ذو عقل لم يعلم لحد الآن الا شيئاً يسيراً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والدساتير الرياضية المودعة في هذا الكون . إذن ، عقل المادة فى الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الانسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم . ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له .

ثم ان القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تعد ولا تحصى ، ( وقد وجدت تباعاً ) ، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة ؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا ؟ ومن الذي شكلها ؟

ان العلم الحديث يقول ، بعدم وجود مادة في الأزل . وانما طاقات أوجدها الله تعالى ، تكدست بارادته ، فصارت مواد كما يشاء سبحانه .

---

(١) يخرصون : يكذبون .

وتتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى الا وجه الله ذو الجلال والاكرام .

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الاتقان وتمام الدقة وتكاد لا تتناهى . ذلك لأن الكون على حد تعبير ( آينشتاين ) مجموعة دساتير رياضية .

وأين الدستور والعقل من المادة . وان المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال : ان العاقل الفعال والمسيِّر للمادة هو الله تعالى . وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي ( برگسون ) على وجود الله جل جلاله . ثم ليقل لنا المادي ، اذا كانت المادة فاقدة العقل ، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بدساتيرها وخصائصها من مادة بلا عقل .

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي : وهو ادعاء لم تثبت أركانه ، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت ، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره ، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر الا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً ، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين ، لا اولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً قليلة ، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق . يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان ، متفكك العرى والأوصال ، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري ، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال . وخلاصة القول : ان المادي ينسب ( من عنديّاته ) واقتراحاته وادعاءآته بل هذيانه الى العلم اعتباطاً ، ويسمي مدعياته وهوى نفسه نظريات علميـــة ! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات . وان قضية تاريخية أو قضيتين ، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل .

ان المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه ، قال : « ان كنا نجهل

السبب الآن ، فإن العلم سيكشف لنا ذلك » . إذن كيف يجوز أن تملى على الناس نظرية الحادية واهية الأركان ، ويعوّل في اثباتها على ما سيكشف العلم فى المستقبل من مكتشفات .

ثم من الذي ألهم الحيوانات ، لا سيما الدنيئة منها ، ما به قوامُ حياتها قبل أن ينتقل بطريق وراثي ؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح ؟

ان المادي يقنع بالتعريف فحسب ، فيقول : جاذبية ، وراثة ، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع . وان الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً .

حقاً ، ان المادى قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح ، ( هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية ) ، حين يأتي دور ارجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب الى مرتب حكيم عليم . ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب ، بل هي رشحات النفس الزكية . فالقضية قضية نفسية بحتة ، لا أثر للمنطق في ذلك ، ومعنى ذلك : أن منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية ، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبداً » . ( سورة الكهف : ٥٦ ) .

ان المنطق الانساني منطق طبيعي ثابت الأركان ، لا تبدله الأهواء والنفوس مهما اصطلح عليه من اصطلاحات وعبر عنه بتعابير مختلفة، فالانسان انما يعترف بخالقه بنور منه . والمنطق الطبيعي ، اذ ذاك ، يؤيد ذلك . ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وان قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية . «ومن لم يجعل له نوراً فما له من نور » . (سورة النور : ٤٠ ) .

ولا يحل هذا النور القدسي الا في نفوس فيها شيء من الصفاء . وقد اعتادت الى حد ما على عمل صالح واخلاق فاضلة ، بعيدة عن الخمور والفجور . .

نعم ، قد يصبح الانسان بفجوره وفسوقه ، فبظلمات نفسه أحط من الطير والجماد . فهما يسبّحان الله ويقدّسانه ، على حدّ قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبّح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » ( سورة النور : ٤١ ) .

فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحات لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت ، ثم ليترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات ، لا سيما الكذب ، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً ، فتحل فيها معرفة الخالق ، فخشوع ، فطمأنينة مابعدها طمأنينة ،« ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » . ( سورة الرعد : ٢٨ ) .

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية ! التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة ، متبدلة ، سيظهر له فسادها بعد حين ، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني الى يومنا هذا ، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضله تعالى بعد أعوام أو قرون .

ثم ان النفس الانسانية ليست من المادة في شيء . فلا يجوز تطبيق خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الانسانية وسير الانسان التكاملي ، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة . ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها الا خالق النفس وهو الله تعالى . فوجب إذن ، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين دساتير نفسية من عنده تعالى لتكميل البشر .

إن كل ما يسنّه البشر لتكميل نفسه ملوّث ، مبتور ، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة . إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه : من عدم انزال

كتب سماوية وارسال أنبياء ، انما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل . «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» (١) .

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الانسان الكمالَ ، ذلك لأن سنّة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم ، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الانسان ، وما يسنّه الناقص ناقص . والله أعلم بما خلق ، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها ، وهي النفس الانسانية . وأن يقطع أن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغية تكميل هذا الانسان ، ومعهم جميع ما يحتاجه الانسان في شتى الحقول ، من نفسية وعبادية ، واجتماعية وقضائية وادارية واقتصادية ، وان دين الاسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي الى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف ، فجدير به أن يتخلى عن غروره ، وطيشه وغلوائه ، وفجوره وخموره . وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين (ص) ، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض .

***

ان الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة الى الأجسام تبقى ناقصة الى الأبد وأننا لا نعرف الا أفكارنا الخاصة .

ان القرن التاسع عشر كان قرناً متسّماً بالمادية ، فقد ساد الاعتقاد في الاوساط المادية أن المادة هي كل شيء وان الانسان يساوي كذا غراما من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء ( بما فيه من اوكسجين وهايدروجين ) . . . الخ . . وليس وراء ذلك شيء ! ولم يحسب للروح أو النفس والعقل حساب . وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل ! ( ولا تنسَ قول علي عليه السلام : كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب ) .

---

(١) سورة البقرة : ٩ .

حتى اذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي ، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين ، أخذت تقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون ( أولئك الذين لم تلوث نفوسهم ) : أن العقل هو الكل في الكل ، والعقل هو مسير المادة ، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء ، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي ، وان المادة هي من مخلوقات العقل ، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي . والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وان الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الانسان .

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت دساتير رياضية رصينة ، وحقائق لمسوها في بنية الذرة لا يمكن أن تفسر الا مع الاعتراف بخلاق عظيم وعقل فعال [١] .

وهكذا يتكامل الفيلسوف فى معتقداته وفي فلسفة يتبنّاها لو تكامل نفسياً . والدكتور جود ( Dr. C. M. Joad ) خير مثال في ما نذهب اليه . انه يقول : عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعي ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد : أن المادة ، الحياة والقيمة : ( Matter, Life and Value ) هي أمور مختلفة ، مستقلة بعضها عن بعض ، اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر . ثم عدلت عن هذه العقيدة ، وعلمت ان هذه الاشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق .

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص ، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول : ان هناك خاصية في هذا الجسم

---

(١) وكان لاحضار الأرواح ( على ما يعبرون ! ) ، هيبنوتيزم (Hypnotism) (Spiritism) اثر فى التوجيه الروحي .

دون غيره . ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره . وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب ؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية ؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة : « لا أعلم » . أو : « سوف يكشف لنا العلم ذلك » . وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله : « ان العلم سيكشف لنا » ويبني نظريات مغلوطة على أساس واهن . ثم يقول نفسه: « قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع ، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال ! » .

ان الله تعالى يقول : « ما لهم به من علم الا اتباع الظن » (١) .

انظروا كيف يفصل الله جل جلاله ما خلق من أنواع النبات والابداع الكامن فيها . انه تعالى يقول :

« وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نباتَ كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان (٢) دانية (٣) وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه (٤) . ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٥) . وان ما دوّن في كتب النبات تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة . وسوف تدون كلما تفضل الباري جل جلاله على هـذا البشر بالكشف والتنقيب آلاف الصفحات . ولكن لا يعتبر بكل ما دوّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون الا المؤمنون ، على حد قوله تعالى في نهاية الآية : « ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس : « ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

نعم ، لابد للمعتبر بهذه الآيات البينات من قليل من التقوى فقليل من

---

(١) سورة النساء : ١٥٦ . (٢) قنوان : جمع قنو : عنقود التمر .
(٣) قريبة التناول . (٤) حينما ينضج . (٥) سورة الأنعام : ٩٩ .

الايمان . ولا يعطى الشخص قسطاً من الايمان الا اذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر : بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل ، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هـذه المساعدة قليلة جداً ، أو تفقده حال المساكين والبؤساء ، ولو بين فترات متباعدة الى ما هنالك . فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب ، فلا يطفأ العقل . فالعقل ، اذ ذاك ، يقوم بوظيفته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه الى الخالق المعبود : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » [1] . ان التقوى . ( اجتناب المعاصي ) والمأكل الحـلال الطيب يفتحان على الانسان أبواب الهداية ، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً الى القيـام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى . تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف ان الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء . فقد قال رسول الله (ص) : « أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر حقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً » .

انظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الالهية . انه تعالى يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبلَ السلام . ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » [2] ومعنى ذلك ان الله يهدي الفرد الى سبيل الهداية والسلام والى طريق يؤدي الى روح وريحان ، ان اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله . نعم ، انه لينطفىء العقل انطفاءً تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً اذا غـدا

---

(١) سورة الانعام : ٢٩ . (٢) سورة المائدة : ١٦ .

الفرد جرثومة فساد وقسوة . « كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب » [١] .

فليست الآيات البينات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه . بل لابد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور ، لتبصر به الحق . انه تعالى يقول : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » [٢] . وهو القائل أيضاً : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » [٣] . وفي آية أخرى : « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » [٤] . وفي أخرى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . ( الأنعام : ٣٣ ) . وقد سُد طريق الهداية على اولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي . « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . ( سورة الأنعام : ٢٠ ) .

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية ، فتنطفىء بذلك عقولهم . فيخرجون من زمرة أولي الألباب . انه تعالى يقول : « ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » . فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعدّ من أولي الألباب . وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً الا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقلع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز ، كي يسير في سيره التكاملي ، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع . فلا يمكن مد الأيدي الى ما وراء الطبيعة الا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران . وقد نصّ على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين .

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر ، لا يعلم مدى ذلك الا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة

---

(١) سورة المؤمن : ٣٤ .  (٢) سورة القصص : ٥٦ .
(٣) سورة الصف : ٥ .  (٤) سورة الانعام : ١٤٥ .

في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي . على أن وراء ما توصل اليه الفلك العالي ، معادلات ودساتير كثيرة جداً بل دساتير لا تتناهى سوف يمنّ الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور . انه تعالى يقول : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق نفصّل الآيات لقوم يعلمون » [١] .

حقاً ، ان المنغمرين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل إليه العلم الحديث ، قلّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية . ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى ، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين ، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا ، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب . فقد جاء في الحديث : « ان أعمى العمى عمى القلب » . وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الايمان بقوله : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [٢] . أمثال بوخنر ، فورباخ ، كارل ماركس اليهودي ، انگلز ، شوپنهاور وغيرهم . ان الله يصف هؤلاء بقوله : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً » . ( سورة الكهف ) . ويصفهم بالجدل ، جدل ان دل على شيء فانما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين . وذلك بقوله تعالى : « ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل . وكان الانسان أكثر شيء جدلا » . ( سورة الكهف ) وبقوله : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير » . ( سورة الحج : ٣ ) .

---

(١) سورة يونس : ٥ . (٢) سورة المؤمن : ٣٧ .

الا أن هذا المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيده الندم على ما فرط في جنب الله : « ويوم يُعرض الذين كفروا على النار • أليس هذا بالحق • قالوا : بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » • ( الأحقاف : ٣٣ ) •

انظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده ويأتي بدليل قاطع على وجوده بقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة • ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [1] •

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى ، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يؤدي الى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين • هذا ما يقوله الفيلسوف ( مونتني ) • حقاً ، ان انكار الله تعالى ضرب من الجنون • فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببغيهم وظلمهم وفسقهم ، فذهبت عقولهم • ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة •

في عهد الرسالة ، صادف رسول الله (ص) في طريقه رجلاً خولط في عقله ، فقال له أحد أصحابه : انه مجنون ، فأجابه رسول الله (ص) ما مؤداه : انه مريض ، والمجنون من لا يفكر في آخرته •

هل توصل هذا المادي الى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة ، دون الاكتفاء بالظواهر • وهل درى عوامل اختلاف الألسنة ، وكيف تكلم الانسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر ، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه • وان الله تعالى يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن

---

(١) سورة الروم : ٢٠ .

آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [١] .

فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم . أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » . « وما يذكر الا أولوا الألباب » . فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين . وجلّ ما عند هؤلاء الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى في ادارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث ( سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن ) ، كل ذلك تفضلاً منه تعالى ، « قتل الانسان ما أكفره » . ولكن الاستبصار والتوجه الى مقامات القدس لا يتم الا في نفس زكية طاهرة . فهؤلاء هم أولوا الألباب حقاً ، لخروجهم من حضيض المادة الى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج الى حيث الطمأنينة والخلود ، الى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر .

---

(١) سورة الروم : ٢٧ .

# هل من حاجة الى الدور والتسلسل في اثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن اثبات وجود الخالق : أننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق ا ، و حـ خلق ب ، و د خلق حـ ، وهكذا ... ينتهي بنا الفرض الى ما لا نهاية له من الموجودات ، خلق المتقدم منها المتأخر . وهذا ، تسلسل ، والتسلسل باطل . لأنه لابد من خالق لم يخلقه آخر . حتى ينتهي الأمر الى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء .

ومما لا شك فيه : أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق . لأنه ان كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم . أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد . والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم . أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجده قبلاً . ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه . يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل . ولا يعلم كيف كان كل ذلك . فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم . ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم ، وهو عاجز عن التصرف في نفسه . فاذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم ، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلاقين وجعلِ المتقدم خالقاً للمتأخر . د ، حـ ، ب ، ا . فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل : ( التسلسل ) ، بل لا يبقى مجال لتصوره .

وأما الدور : فهو أن يكون وجود ا متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود ا ، فأصبح وجود ا متوقفاً على وجود ا . أي وجود ا متوقف على نفسه . ويقولون ان هذا : ( دور ) ، والدور باطل ، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل . لان الممكن لكونه ممكنا أي مصنوعا ومخلوقا من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه . والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه

لم يسبق بعدم وهو واجب الوجود ، أي لابدَّ من وجوده لوجود هـذه المخلوقات بهذا النظام البديع .

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام . ذلك ، لأنه يرى أن كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار ، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومجل للحوادث ، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث . وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئا من تركيبه الاساسي من تلقاء نفسه . فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر . حتى يأتي : دور توقف وجود الشيء على نفسه . بل يقطع أنه لابد من خالق لا يشبه خلقه في شيء . لما يرى من عجز وافتقار في من سواه . خالق لا تؤثر فيـه المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها . هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف الا على جزء ضئيل منها . وذلك أيضاً بمشيئة الله والهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة .

فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في اثبات الصانع جل جلاله . لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري ، وليس بمعقول ، ولا تؤيده الحوادث . وان الانسان قد جُهز بفضله تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء الى تعلم مناقشات الكلاميين والحكماء . بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها من جراء ما قام به من أعمال صالحات لوجه الله تعالى وعبادات خالصة دون رياء . «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » (١) .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت : ٧٠ . (٢) سورة آل عمران : ١٤٢ .

# استحالة معرفة الله معرفة تامة

اذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف الى حقيقة النفس أو الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (١) . فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة.

اذا كان الانسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الألكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الضوء والكهربائية وخالق الألكترون . وهل ترى أن المتناهي وهو هذا الانسان ، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى .

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم ، تكاد لا تعدّ ولا تحصى . وقد عُلم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبيد أخرى . وان العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الاحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزاءه بعضها ببعض . وان علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي : ( الخواص والقوانين الكونية ) شيء ضئيل وضئيل جداً : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (٢) . وان علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به . اذن نتج من هذه المحاكمة : أن علمنا : ( علم البشر كله ) ، بالنسبة الى العلم المودع في هذا الكون يكاد يكون صفراً ، بل هو صفر ، ذلك لأن نسبة المحدود الى غير المحدود صفر . فاذا فرضنا علم البشر = ب . والخواص والدساتير التي

(١) سورة بني اسرائيل : ٨٧ . (٢) سورة الكهف : ١٠٩ .

أودعها الله تعالى في هذا الكون ( أو الأكوان ) = لا نهاية = دد

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty} = \cdot$$

اذن وجب أن نقول ( بطريق أولى ) ان علم البشر بالنسبة الى علم الله تعالى ، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره ، صفر أيضاً .

فلنفرض علم الله = $\infty$

أي لا نهاية = $\infty$ مرفوعة الى قوة $\infty$

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty^{\infty}} = \cdot \text{ دون أي ريب .}$$

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به احاطة كاملة وهو في الحضيض ، ( لكنه مغرور لما منَّ الله عليه بمعرفة بعض الدساتير وبعض المكتشفات ! ) .

ان الماديين تذرعوا بسخافات عجيبة ، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة ، أو مجهزة بمكبرة وغيرها . حين أن الله ، وهو الذي لا يحدُّه مكان ولا زمان ، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلات Telescope . .

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء . والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء . أوَما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى ، و نظرت اليها لألفتيها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتهـا متوازية . وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر ، ولكن لو دققت لوجدتهما متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين . والعقل وأعنى به الذكاء أو التفكير هو المصحح له .

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء . وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء فى وسطين مختلفي الكثافة ( الهواء والماء ) . ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي . انما هو العقل .

وهكذا السراب فانك ترى أن هنالك ماءً وأشجاراً فاذا وصلت الى ذلك المكان ، لم تجد شيئاً ، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب .

هل رأيت كيف : أن الدرهم الملقى في قعر اناء فيه ماء كيف يرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار ( Refraction ) .

أرأيت كيف يحصل القوس والقزح . والألوان الزاهية على ( وغف ) الصابون المعروض لضوء الشمس بنتيجة التكاسر : ( Différaction ) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور . هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هنالك تكاسراً او تعتقد ان ألوانا مختلفة وجدت في ( وغف ) الصابون . ما الذي يصحح هذا الخطأ .

ان الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً تردده [1] في الثانية أقل من ( ٢٠ ) أو أكثر من ( ٢٠٠٠٠ ) ذبذبة وان الاهتزاز وجميع ما يؤدي الى حدوث الصوت موجود لكن الاذن لا تسمع ولا تحس . لأن قابليتها محدودة .

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في اثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطىء ولا يصحح هذا الخطأ الا العقل . فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف الى الأشياء . وبالعقل يعرف الله ويوحّد .

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك ، كلا ، بل

---

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز فى الثانية . او عدد تذبذب الشوكة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية .

الـ ( گلڤانو متر ) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف . ان الاخطاء البصرية كثيرة ، فلا يعتمد على البصر فحسب ، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء . أو ما ترى أن الأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء . ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً . فاذا أمررنا كرة بين السبابة والابهام وهما متقاطعان فاننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة . وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس . فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً . اذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة .

أنظروا الى ما يقوله علي عليه السلام في هذا المقام : « الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر . الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له » .

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق . نعم ! ان المؤثر الحقيقي في ذلك ، انما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي ، وحجبوه من ان يؤثر أثره . « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » (١) .

« ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت (٢) سنة الأولين (٣) . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٤) .

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم

---

(١) يونس : ٣٥ . (٢) خلت : مضت . (٣) سورة الحجر : ١٤ .
(٤) سورة الحجر : ١٥ .

عاجزون عن ادراكه ، فالانسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يداه والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج الى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي الى رؤية الألكترون . وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها . فالألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب . ثم ان العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الألكترونات . فراغ ذي ثلاثة أبعاد لكل ألكترون وثلاثين بعداً لكل عشرة ألكترونات . ويعترف أن هذا الألكترون ما هو الا موجة احتمال،ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) والانتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة . ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف ( باصرار ) أن يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة ، كوّن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم امكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط . « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن : علي بن موسى الرضا ( ع ) وهو الامام الثامن وعنده جماعة ، فقال أبو الحسن عليه السلام : « أيها الرجل، أرأيت ان كان القول قولكم ، وليس هو كما تقولون ، ألسنا واياكم سواء شرعاً لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا . فسكت الرجل . ثم قال أبو الحسن عليه السلام : وان كان القول قولنا ، وهو قولنا ، ألستم قد هلكتم ونجونا . فقال : رحمك الله . أوجدني كيف هو ؟ وأين هو ؟ فقال : ويلك ، ان الذي ذهبت اليه غلط . هو أيّن الأين بلا أين وكيّف الكيف بلا كيف ، فلا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية ، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء . فقال الرجل : فاذن ، انه لا شيء ، ( إذ ) لم يدرك بحاسة من الحواس . فقال أبو الحسن عليه السلام : ويلك ، لما عجزت حواسك عن ادراكه أنكرت

ربوبيته . ونحن اذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء . قال الرجل فأخبرني : متى كان . قال أبو الحسن عليه السلام : « أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان » . قال الرجل : فما الدليل عليه ؟ فقال أبو الحسن عليه السلام : « اني لما نظرت الى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به ، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات ، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً » .

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته الا هو . فقد جاء في الحديث : « سبحان من لا يعلم كيف هو الا هو » . انه تعالى يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم » . فليس للبشر ان يعرف كيف خلق الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس . وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « سبحانك ما عرفناك حق معرفتك » . ومعنى سبحانك: أي ننزهك ربّنا عن كل نقص ومن كل عيب ، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه .

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الانسان أن يعرف ربه معرفة تامة . الا أن هذا الانسان الناقص ، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده واتباع أوامر مولاه ( وهو الله تعالى ) ، واجتناب ما نهى عنه ، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عين الله تعالى له حدوده . فقد جاء في الحديث :

« أعلمكم بالله أخوفكم له » .

فيزداد هذا الانسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث ، حيث قال رسول الله (ص) يوماً لعلي عليه السلام : « يا علي ، لم يعرف الله الا أنا وأنت ، ولم يعرفني الا الله وأنت ، ولم يعرفك الا الله وأنا » . كيف لا يكون

كذلك ، وان علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات . ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة : أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول اليها بأذن الله تعالى . واما المعرفة الحقيقية فمستحيلة . لقول علي (ع) : « لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن » . ولقوله عليه السلام : « لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتتصوره » وقوله (ع) :«فلسنا نعلم كنه عظمتك الا أنا نعلم انك حي قيوم » . وقوله عليه السلام : « عظم من أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر » .

قال رسول الله (ص) : « ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار . وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » .

وقال موسى بن جعفر (ع) : وهو الامام السابع من الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام : « ان الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه وصفه ، فصفوه بما وصف نفسه وكفّوا عما سوى ذلك » .

وقال علي عليه السلام : « لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته » . لذلك نعرف الله ونوحده بالفطرة معرفة تتناسب مع امكانياتنا .

وقال عليه السلام أيضاً : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الايمان » . وقال عليه السلام : « فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره » .

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه ، فاذا كان علي (ع) وهو أكمل الخلق بعد رسول الله (ص) يقول : « كيف أصفه [1] بالكيف وهو الذي كيّف الكيف حتى صار كيفاً ، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف » فكيف بالآخرين . لا سيما اولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات

(١) اي كيف اصف الله تعالى .

وبخل وحسد وكبر . فقد جاء في الحديث : « أصول الكفر ثلاثة : البخل والحسد والكبر » .

فمهما أوتي الانسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف ، لانه محدود فى كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود . والمخاط لا يحيط بمن يحيط به « سبحانه وتعالى عما يصفون » . ولقد قال رسول الله ( ص ) : « لا أحصى ثناءاً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقد قال علي عليه السلام : « وكمال الاخلاص نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » . وقال (ع) أيضاً : « لا تقع الاوهام على صفته » .

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » . ( سورة فصلت : ٥٣ ) .

قال بعض العلماء : « المتفرد بالوجود هو الله سبحانه ، اذ ليس موجود معه سواه . فإن ما سواه أثر من آثار قدرته ، لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه . لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة تقصان في الكمال . بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً فى الشمس بل هو من جملة كماله وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في المرتبة ، كذلك وجود العالم كله يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً . اذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال » .

على أن في هذا التشبيه نظراً ، يجب أن لا يفوت القارىء اللبيب ، ذلك لان الشمس باشعاعها واشراق ضوئها ( أو نورها ) تفقد طاقة ، وليس الله تعالى كذلك ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » [1] .

---

(١) سورة الشورى : ١٠

ان الله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر . وهذا مما يؤدي الى الاختلاف والفساد في النظم التي تربط الأرض بالسماء . وان توافق الالهان ، فإن تأثير أحدهما كاف لايجاد ووجود هذا الكون . فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى . مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من دساتير فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له :

« أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، ءاله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالهـا أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ، ءاله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون (النمل : ٦٢) .

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام فى وصاياه : « واعلم يا بني ، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه اله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً » .

وان الله وهو الكامل على الاطلاق قد أخبر عن نفسه : أنه واحـد لا شريك له . « ومن أصدق من الله قيلا » .

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد : « أن أعرابياً قام يوم الجمل الى أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتقول ان الله واحد ؟ فحمل الناس عليه وقالوا : يا أعرابي ، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب ؟ فقال : أمير المؤمنين دعوه ، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم .

ثم قال : يا أعرابي : ان القول في أن الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منها لا يجوز على الله عز وجل ، ووجهان يثبتان فيه . فأما اللذان لا يجوز : فقول القائل : واحد ، يقصد به بابَ الأعداد . فهذا لا يجوز . لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد ، ألا ترى كفرَ من قال : « ثالث ثلاثة .

وقول القائل : هو واحد الناس ، يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز عليه . لأنه تشبيه ، وجل ربنا عن ذلك وتعالى .

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه : فقول القائل : انه واحد ليس له في الاشياء شبيه ، كذلك ربنا . .. وقول القائل : انه عز وجل أحديُّ المعنى ، يعني بأنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عز وجل .

غريب أمر هذا الانسان ، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى . ولولا أن الله تعالى منَّ عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً . فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى .

فمن السخافة ان أراد هذا الانسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر ، وكيف هو علم الله ، وكيف قدرته ، وكيف يقول للشيء كن ، فيكون ... وهو لا يحمل الا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضله تعالى . واذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين . الا أن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجِّرة عقولهم : ( تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة ) ، لظلمات في النفس ، جاءتهم من جراء شتى المعاصي ، يؤخرهم : « ليوم تشخص [1] فيه الأبصار . مهطعين [2] مقنعي [3] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم [4] وأفئدتهم هواء » . ( سورة ابراهيم : ٤٤ ) .

---

(١) تفتح فيه الابصار فلا تغمض هولا وفزعاً .
(٢) مسرعين . (٣) رافعيها الى السماء .
(٤) أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة .

وهو القائل : « فـذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث [١] سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون [٢] خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » [٣] .

يقول الامام محمد الباقر : الامام الخامس عليه الصلاة والسلام : « ما سمي ( يعني الله تعالى ) عالماً قادراً الا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين . وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع من قِبلكم مردود اليكم » . ومعنى ذلك أن هذا الانسان الناقص يتصور لله تبارك وتعالى كمالاً يتناسب مع نقصه . لأن الناقص لا يترشح منه الا شيء ناقص . كما أن الكامل وهو الله تعالى لايترشح منه الا الكمال . فكلما فكر الانسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة تقل عن الواقع مسافات لا تحدّ . فأفكارنا بشأن عظمة الخالق أفكار ناقصة مخلوقة من قِبلنا مردودة الينا ، لا توافق الواقع في شيء .

وقال بعضهم : لعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيين ، لأنهما كمالها ، وتتصور أن عدمهما نقصان . هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم !.

***

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات . فأحبوا أن يتحاكموا الى ( آينشتاين ) ليروا رأيه في الله جل جلاله . فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله . فعرضوا عليه سؤالهم قائلين : ما رأيك في الله ؟

فأجاب قائلاً : « لو وُفقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات ، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات

---

(١) القبور . (٢) الى نصب : الى كل ما ينصب للعبادة . يوفضون . يسرعون . (٣) سورة المعارج : ٤٢ .

رأس انسان وسألته أين تجد نفسك ؟ لقال لي : اني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . عند ذلك أقول له : ان هذه الشعرة التي أنت على رأسها انما هي شعرة من شعرات رأس انسان ، وان الرأس عضو من أعضاء هذا الانسان . — ماذا تنظرون ؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الانسان وكبره ؟ كلا ، اني بالنسبة الى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى . فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحد » .

فقام هؤلاء المتشاجرون من عند ( آينشتاين ) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين . انه تعالى يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » [١] . وفي آية أخرى : « ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا » [٢] .

ان المادي هو مصداق هذه الآية المباركة : « ان الانسان لربه لكنود [٣] . وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد » .

***

ما أعظم ما يقوله علي (ع) حين يصف عظمة الله تعالى بقوله : « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يؤدي حقه المجتهدون . الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » .

مالبرانش : ( Malebranche ) ( ١٦٣٨ — ١٧١٥ م ) فيلسوف افرنسي موحد . له نظريات في التوحيد ، لا بأس بذكر البعض منها :

انه يقول : نحن ننتقل من فكر الى فكر ، ومن تصور الى آخر ، ومن

---

(١) سورة الانعام : ١٠٤ . (٢) سورة النساء : ١٢٦ .
(٣) كنود : كفور . جحد نعمة الله .

ممكن الى ممكن ، حتى ننتهي بوجود عظيم ، ممتنع ادراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه . ذلك لأن كل موجود من الموجودات ( سواه ) قائم به . أما هو ، فمستغن عن أي مقوِّم . وهو قائم بذاته منذ الأزل . وهذا الوجود ( أي الله تعالى ) وجود" لا نهائي .

انه يقول : بما اني في استطاعتي ان أتصور وجودا لانهائيا ، اذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً ، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم [1] . اذن ، ربنا غير متناه ولا يحـدُّه شيء . ذلك لأني استطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته . فالله هو واجب الوجود .

انه يقول : لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم . ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره .

انه يقول : « نحن ندرك وجود الله دونما واسطة ، حين أن الأشياء كلها ( عدا الله تعالى ) انما تدرك به تعالى وبما أودع الله من وسائط وأدوات . فلا حاجة لتجلّي مفهوم الله تعالى في أذهاننا الى واسطة أو أدوات . نحن لا نعرف الله بفكر وسيط . فانـه هو الفكر ! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار » .

هذا ما يقوله مالبرانش . ولكن ، انظروا الى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب ربَّ العباد . انه صلوات الله عليه يقول :

« يا من دلَّ على ذاته بذاته وتنزَّه عن مجانسة مخلوقاته وجلَّ عن ملائمة كيفياته » .

---

(١) خلافاً لما يقوله ( فورباخ ) المادي ، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلا على عدمه ، لظلمات في نفسه . وقد سئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري . فقال : « سؤالك هذا خير دليل على وجود الله » .

على أن لـ ( مالبرانش ) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الاسلامي • وأنّى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل الى حقائق ثابتة غير متزلزلة •

ان ( مالبرانش ) يوافق صدر المتألّهين صاحب الأسفار بقوله : « الوجود خير محض والشر أمر عدمي » •

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الامور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية ، لا غبار عليها ولا شكوك ، فعرجت الى عوالم القدس والحقيقة الأبدية •••

فقد قال علي عليه السلام : « ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحـزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهـدى في قلبه » •

وطوبى لنفوس تطلعت الى رحمات الله تعالى باخلاص وخشوع واعمال صالحات ، فقد جاء في الحديث القدسي : « ان لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرّضوا لها » !••

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به • بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها • ولا تزكو النفوس الا بالتقوى • فتتعرف الى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية • « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » • وفي الحديث : « رُبّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به ، لو أقسم على الله لأبرّه » •

***

ان مقياس الكمال عند الماديين هو : المادة !•• فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم ، كان الى الكمال أقرب • لذلك يخاطب ( فرعون ) قومه ،

هؤلاء الذين لم تفد فيهم دعوة موسى عليه السلام لفسوقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية : « ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم ، أليس لي ملك مصر . وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين . ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوماً فاسقين »(١) . حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة ، عند الله تعالى ، في مجالات التكامل . فان النفس غير المادة بل تضاد المادة . « الدنيا والآخرة ضرتان » . الا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي اذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين لوجه الله . وفي الحديث : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء » . والكافر هو الجاحد لنعم الله ، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر : من عبادات وأعمال صالحات . وهل هناك دين يعلّم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الاسلام . ولذلك عُدّ غير المعتنق لدين الاسلام وغير العامل به كافراً . « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . ( سورة آل عمران : ٧٩ ) .

يرى الاستاذ جب : « أن الاسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة . بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية » .

ويقرر الاستاذ ( برج ) : أن فلسفة الاسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية . وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية . ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الاخاء الانساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الاسلام . ولذلك يؤكد الاستاذ أن ليس

---

(١) سورة الزخرف : ٥٠ ـ ٥٣ .

هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للاسلام في توحيد الأجناس الانسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة • ويرى الاستاذ أن لابد لأوروبا أن تتعاون مع الاسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي •

## هل هنـــاك تولد ذاتي ؟

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية ، وأن الكائنات الحية برمتها قد وجدت بالقدرة الالهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية ( جينات Génes ) والكروموزومات .

ان ثلة من الناس ( ومع الأسف ) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات . وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان احداهما فوق الأخرى تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما .

ان هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد ( أرسطو ) الى القرن السابع عشر . وان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تتولد من تلقاء أنفسها فى اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه النتنة الآسنة . ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية ، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي : ( Génèration Spontanée ) .

كما أن البعض يظنون أن ( الآميبات ) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها انما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء . ودليلهم على ذلك أن السمكة لو اخرجت من الماء ، فانها تموت حالاً .

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وانما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة . فقد أثبت ( ردي Redi ) سنة ١٦٨٨ م ، بعد اجراء تجارب عدة عميقة . أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة انما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم ، ولولا هـذه البويضات لما وجد كائن حي .

كان يقول الطبيب البلجيكي ( وان هلسونت Van Helmont ) قبل

( ٣٥٠ ) سنة : انه لو ملىء كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بال ملوث عتيق ، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق . وان هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً .

إلا أن ( ردي ) فنّد هذه النظرية : بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويل ، بعد أن وضع فيه قطعة لحم ، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً . وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته ، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط من جراء ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم . وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى انه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت ، وفي نوع واحد من اللحم تتولد انواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج . فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون الا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » . ( سورة الحج : ٧٢ ) .

ثم ان ( ليون هوك Leewen Hoek ) اكتشف المجهر ( Micro-scope ) واكتشف بذلك الميكروبات ( الجراثيم الحية ) التي لا ترى بالعين المجردة . وضع ( ليون هوك ) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية: ( الابتدائيات ذات الخلية الواحدة ) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً . فأدى ذلك الى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة الى تكوّن الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط . ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك : ان المكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة .

ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين : ( Matérialistes )

منذ سنة ١٦٧٦ م . وهي السنة التي أثبت فيها ( ليون هوك ) : أن ليس في المطر ( حين تحول البخار الى سائل ) كائنات حية ، وانما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته ( أي المطر ) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب . واستمرت الى سنة ١٨٧٦ م وهي السنة التي أيد فيها تندال : (Tyndall) نظرية هوك . حتى جاء ( پاستور ) وبرهن بصورة قطعية ، أن لا تولد ولا توالد الا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً . ففندت نظرية التولد الذاتي تفنيداً قطعياً . مع ذلك ، جاء ( برتلو Berthelot ) فادعى أن الكائنات الحية ( Bactéris ) التي تحصل نتيجة تخمير العنب انما هو أمر مادي وليس هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية . وقال بالتكون الذاتي Auto ) ( dynamisme أو الحركة الذاتية . ولكن ( پاستور ) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج . فرأى أنه لا تحصل ( باكتري ) أو جراثيم للتخمير . وأن ( الخلايا : Cellules ) التي توجب التخمير انما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً .

لكن الماديين ما برحوا ينتهزون الفرص لاثبات نظريتهم السقيمة . حتى اذا اكتشف المجهر الالكتروني ( Microscope Electroniqe ) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية ( Ultravirousses ) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن ( ٠٠٠ ٧٠ ) أو مائة الف مرة ، أخذوا يقولون : « ان هذه الجراثيم انما تتولد من المادة الميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وان الاحياء المترشحة وما بعد المترشحة ( Virous, Ultra virous ) انما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك

حيوية سابقة » . وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة ! ولكنهم بقوا مصرين على أن الحيوية انما تأتي من الشمس على وجه الأرض وان الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة ( الجراثيم ما بعد الذرية ) هي مولودة المحيط والبيئة وان البيئة ( الجامدة الصماء ) هي المولدة لها !

الا أن علماء الاحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى ، وأخفق الماديون اخفاقاً نهائياً ، وعلم أن كل كائن حي انما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح .

اذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات آلفا وگاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية ، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا ...

فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وان الحيوية شيء قد جاء من الخارج وليس بأمر مادي بحت . وان الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاها نفسا وروحا بقدرته ولا يمكن ادخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية . « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا» .

وزيادة في التوضيح نقول : انا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه ، فلا نشاهد ، مهما انتظرنا ، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وان طالت الأعوام . مع أن الشمس على ما يعتقده الماديون : ( أنها أساس الحياة وموجدها ) تعمل عملها وترسل أشعتها . ولكنها غير خالقة للحياة ، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه .

ان الماديين : هذه الطبقة الجاحدة وجودَ الخالق ! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدءاً وسببا للحيوية والحياة. الا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون ( ومع الأسف ) نظرياتهم الفاسدة ! الى العلم . والعلم من ذلك براء .

وكم من أشياء ينسبها هؤلاء الى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد . « انها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.» ويراد بها النفوس .

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة ( Matérialisation ) انما هو في النواحي المادية فحسب . ان الطاقات المادية : الكهربائية أو الحرارية أو الحركية . وغيرها تتكدس فتشكل مادة : وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الاورانيوم أو الراديوم تتكدس فتولد حيوية وروحاً ونفساً . وقد ثبت في الفسلجة أن الخلية : ( Cellule ) انما تتولد من خلية حية أخرى اذن ثبت أن الروح من أمره تعالى ، « قل الروح من أمر ربي » .

يستنتج مما تقدم ان المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه . وما أعظم قوله تعالى حين يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن الا الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

وما القمر الصناعي الا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد الى يومنا هذا . وهل قوبل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر ؟ « وقليل من عبادي الشكور » .

ولقد قالوا : ان المثل العليا تابعة الى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا

الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي ! ، وهكذا تسافلت البشرية نفسياً من جراء تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) حتى صارت لا تؤمن الا بالمادة وما يحقق شهواتها . فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية : فلسفتها أن تقول : « لا تهمني أخلاق فلان وانما تهمني أعماله » . حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع الى المذياع أو النظر الى التلفزيون [1] ، وبين السمو بالنفس الى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم .

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة ! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العمليـة تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لاصابتهم بالشذوذ الجنسي ! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة !

حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين !

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس ( Congress ) الأمريكي تتعطل ، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً ، لا يستر جسدها شيء ، فينشغل الأعضـاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة ، ريثما يبعث رئيس المجلس يرجو ، السيدة الفاضلة ! تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً ، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم .

حتى تأتي فتاة أمريكية الى باريس فتنزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لتُري الناس الدرجة التي وصلت اليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي !

كل ذلك من جراء هذا الاختلاط البريء ! والانتهاء الى فساد وافساد في الأرض . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي الى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالي من اغاني ومناظر .

فيهنّ ، بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون » [١] .

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدران المادة العمياء والملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم اليه تحشرون » . ( سورة الأنفال : ٢٤ ) .

***

تكاد لا تجد فيلسوفاً ، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها ، ملحداً ينكر وجود الخالق . فـ ( برگسون ) و ( أينشتين ) و ( وكاميل فلا مريون ) وأمثالهم موحدون . ذلك لأنه عندما يرى أحدهم ان جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بدساتير رياضية متقنة ، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة ، عند ذلك يعلم انه لابد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض . وأن هذا العاقل الجبار هو الله تعالى : واهب الوجود ومرتب اجزاء هذا الوجود ترتيباً محكما بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث الا الى جزء ضئيل وضئيل منها جدا .

لذلك كان يحاول ( أينشتين ) ان يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكمومية ( Quantiques ) .

وكان يقول : « لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت المعلم قائمة . فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك الى الابد » .

---

(١) سورة : المؤمنون : ٧٣ .

وهو القائل : « ما من شك ان كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني : مؤداه أن العـالم مؤسس على العقل ومن الممكن تفهمه » .

لكن الفلاسفة ! الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها ، وانما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم ! ، أخذوا يصدرون أحكاما جزافاً عن الكون دون ارجاعها الى أصول ثابتة رياضية ومبادىء عقلية عميقة وسموا اعتباطاً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة ! وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العـلم ، فخدعوا العوام والسذج من الناس .

ان هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم ، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها وبيد واحدة — ان هؤلاء ، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم الذميمة وما يترشح من هاتين ، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الاعلى . انهم اخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية ، فعمدوا الى ترويج الزيغ والالحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة : « وكل اناء ناضح بالذي فيه » .

## ـ القصور الذاتي ـ

القصور الذاتي أو الاستمرارية : ( Inertie ) موضوع معروف في الفيزياء ،يعترف به الفيزياويون ،وهو : أن الجسم لو كان ساكنا لبقي ساكنا على حالته الاصلية ، فلا يتحرك من تلقاء نفسه الا بمحرك آخر ، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة . لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً ، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة ، تأخر القسم الاعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملتصق بسطح القطار . كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة . فاذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار . فان وقف القطار فجأة ، فان القسم الاعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة ( أي الحركة ) ، فيتحرك قليلا الى الامام عند وقوف القطار فجأة .

مثال آخر : انا لو وضعنا فوق اناء ( كأس ) قطعة من المقوى ( الورق السميك ) ووضعنا على المقوى درهما مثلا ، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول ان يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الاناء .

كان الاتراك يسمون القصور الذاتي بـ ( العطالة ) . ذلك لان كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته ، فالساكن ساكن الى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها الى أن تتدخل قوة ، فتزيد من سرعته او تنقصها . فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه . « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » [1] .

---

(١) سورة آل عمران : ٢٥ .

يقول زين العابدين علي بن الحسين (ع) في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي : « من أين لي الخير يا رب ولا يوجد الا من عندك ، ومن اين لي النجاة ولا تستطاع الا بك ، لا الذي احسن استغنى عن عونك ورحمتك ، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك » .

فالاشياء جميعها فيها قصور ذاتي ، فلا تتمكن من ان تؤثر في نفسها . بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة : سكون او حركة . فاذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك ، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها ! وانها هي التي تكمل اعضاءها بنفسها أو تتكامل من آميبا حتى يكون قردا ! مثلا مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي . ثم اذا كان الآميبا قد تكامل ( ولا مؤثر ولا مكمل الا الله) فصار دجاجة فما بال الآميبا نراه موجودا ليومنا هذا مع اتحاد الظروف . ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت ، ومن جاء باختلاف الظروف . ومن الموجد لهذا الاختلاف ؟

واذا كان الانسان ( مع اعترافهم ان فيه عقلا لا يدرى كيف جهز به ) هو نتيجة تكامل القرد ، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف ، على انهم يقولون : ان هناك حلقة مفقودة بين القرد والانسان يجهلها العلم . فكيف تبنى النظرية على الجهل ! ثم ان هذا القرد كيف فكر ان يدفع عنه ذنبه ويجعل بدنه على شكل انسان ! وقد ثبت ان لا أثر للمحيط في ايجاد عضو ما .

وغني عن البيان ان محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الانسان العبقري ، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه . ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع اذا كان يستطيع ان يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء . « أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا » .

وأما ما يقال عن الطفرة ( Mutation ) ، فإن مؤهلاتها وموجباتها وامكانياتها انما جاءت من الخارج . ثم ان كانت هذه الطفرة شيء من تلقاء الكائن الحي ، فلمَ لا يغير هـذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته ، ولمَ لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على ابصار وسماع .. الخ أكثر مما هي عليه الآن كي لا يحتاج الى صنع آلات يستعين بها في ابصار ما لا يبصر بعينه المجردة ، كالتلسكوب والميكروسكوب ... الخ . ان الله تعالى يقول : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . ( سورة النحل : ٦٨ ، ٦٩ ) .

ولكن الأجرام والمظالم تسد على الانسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر ، فيعزو الخوارق الى الطبيعة العمياء الصماء : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ، انه لا يفلح الظالمون » . ( سورة الأنعام : الآية : ٢١ ) .

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء ، فصار يفتري على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله . فلينته عن اجرامه مَن يشك أن ترك الاجرام وأن الانابة والاستغفار والأعمال الصالحات تفتح على الانسان أبواب الهـداية ، ليرى كيف تتقشع عنه الشكوك ، فيعود الايمان الفطري اليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات . « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » .

***

عرفت رجلا قدلوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته ، ولم يوفق الى التكفير عن ذنوبه ولا الى توبة ما . انه لم يدع منكراً الا وقد ارتكبه .

كان مجموعة ظلم وبغي وجشع ، فصرت أعقب حياته ، واذا به أمسى جرثومة فساد ، ينكر وجود الباري جل جلاله ، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية !.

« ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » [١] . ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا ( ولعذاب الآخرة أشد ) . فحكم عليه بالاعدام ، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيعاً لينجو من العقاب ، « الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين » ، « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » [٢] .

أعدم هذا الطاغي وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض ناصعاً . « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » [٣] .

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم من جراء أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة ، وكم شوهد أشخاص ابيضّت وجوههم حالة الاحتضار : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » . « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » .

فالفيلسوف أو المتتبع هو ذلك الذي يعتب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس ، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والنزوات تؤدي الى انسحاب الفطرة وزوال العقيدة ، فالالحاد ، فالزندقة .

ولقائل أن يقول : لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضعة في

---

(١) سورة الروم : ٩ . (٢) النساء : ٢٢ . (٣) الزمر : ٦٠ .

النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، لا يستطيع إذ ذاك ، القيام بهذه التجربة كي يوفق بين عقيدة الانسان وسلوكه !. لانه قد بلغ حداً من التردي حتى ضاعت لديه الموازين : « ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

نعم ، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من تردٍّ مرير . فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه فى سلوكه وهذيانه ! فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل !.

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمي أحدهم المعارف الإلهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة !!

انها لعمري فلسفة شيطانية ! فلسفة رجعية ! ترجع بالفرد الى جاهلية جهلاء . فيظن ، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول الى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش ! « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون » . ( الأنعام : ١٢٢ ) .

# معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين عليهم السلام. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن : « لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » انما هو لمزيد اليقين وتنبيه الاخرين . ذلك لانه ليس هناك أحد عدا المعصومين ( ع ) الا وقد أذنب في حياته ذنوباً : من غيبة أو نميمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك . وان هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الانسانية عن الفطرة . وان الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار . يملي على الانسان ، ان سيطر عليه من جراء ذنوب اقترفها ، أنواع الريب والشكوك . وقد قال الله تعالى عنه : « ولأضلنهم ولأمنينّهم » . وفي موضع آخر : « لأزيّننّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلَصين » . ( الحجر : ٤٠ ) . فمن خالف الشيطان في اغواآته اهتدى ومن وافقه هلك : « فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » . الا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والألكترون الى ما هنالك . وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي ، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الانساني !

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه الى الحق : « ان من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة اسلامية ومبدأ صحيح : ما يعتريني من شكوك من حين لآخر » . كان يقول : « اني أشك في معتقداتي، في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه ، أشك في النبوّات ...

الى ما هنالك ، فيصيبني حزن وانقباض عميقان وأشعر بكئابة لا أستطيع وصفها . وأعلم اذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ . فاستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها وأدعو الله بفنون الدعوات ، أتصدّق وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال الصالحة واذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميق .. كان يقول : هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد . ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه . كان يقول : اني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة ، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك ، هي التي أوصلتهم الى هذه العقائد المنحرفة عن الحق ، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق ، ما داموا لم يزكّوا أنفسهم وما داموا ملوثين . وقد ترى شخصا يحمل عقيدة صحيحة وعمله عمل لا يتفق وما أمر به الشرع ، فهذا لا يخلو من حالين . اما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » . واما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران . على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله ، لا نعلمها .

لا أعلم ، هل قام علماء ( آثار ) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة ؟

كل فرد من أفراد الانسان يصيبه في حياته شك أو شكوك ، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي . فهو في شبابه غير ما هو عليه فى وقت آخر . وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً الى الحق . ولكن قلّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به الى النجاة والزلفى .

نعم ، لا منجى لاحد من شك أو شكوك ، قليلة أو كثيرة . تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفى اذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات

وأعمال صالحات . فاذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكل حلال طيب وأداء للحقوق من : زكاة وخمس وانفاق ، وصلاة مقبولة وتهجد جوف الليل وتضرع وبكاء ندماً على الذنوب ، وبرّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين واستغفار وتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال ، يقوى عند ذلك الايمان ، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والانس ووساوسهم . لذلك ، يقول علي عليه السلام « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك . بل عليه أن يبادر حالاً الى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه . عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الاسبوع أو الشهر ، أو السنة . هل كان ظالماً لأحد ؟ هل اغتاب أحداً . هل كان عاقاً [1] لوالديه . عليه أن يعالج ما اعوج من سلوكه الديني . فاذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً .

ان طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة ، وقد أراد رسول الله (ص) ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك . فخطّ لأصحابه خطاً وقال : « هذا سبيل الله » . ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله . فقال : « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه » . ثم تلا قوله سبحانه : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . ( ٦٠/١٥٣ ) .

ولما كانت النفس ميالة الى الشهوات والى الباطل ، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة . فما على الانسان الا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام ، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه . ويتذكر

---

(١) عق الولد والده : عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان اليه واستخف به .

أن الصبر على هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار جهنم . ويتضرع الى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوساوس بأعمال صالحات ويوفقه الى انجازها ويكثر الذهاب الى بيوت الله ( المساجد ) ومراقد أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، ويكثر من ذكر الله ، لأن ترك الذكر يؤدي الى وسوسة الشيطان على حد قوله تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين » . ( ٤٣/٣٦ ) .

وقد جاء في حديث عن الرسول (ص) : « ان الله يبغض الشاب الفارغ ». ذلك لأن الشاب اذا فرغ من عمل مفيد تسلّط عليه شيطانه ، فأوقعه في المهالك . وما أكثر ذلك :

ان الشباب والفراغ والجدة  مفسدة للمرء أي مفسدة

فلو اجتمع شبان كل محلة في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الاسبوع على الأقل واستمعوا الى مواعظ وارشادات دينية تثلج الصدور وتبعث الاطمئنان الى النفوس لرأوا أنفسهم في عالم قدسي جديد . وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الاسلامية ، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من برائن الضلال . ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وايماناً يوماً بعد يوم .

كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية ، يداوم فيها الشبان . يتلقّون فيها دروساً دينية ، يصلّون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية ، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاةً لبثّ حقائق الاسلام .

**تزول الوساوس :**

أولاً : بسدّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة . والغضب والحرص والحسد والعداوة والعُجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحب التزيّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس . فاذا سدّت هذه الابواب لم يجد الشيطان بابا يدخل منه الى النفس الانسانية .

ثانيا : تحلية النفس بأضداد ما ذكر : أي بكرائم الاخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها .

ثالثا — كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فان الذكر اللساني وحده لا يكفي في ازالة وساوس العدو الأكبر وهو الشيطان . ألا ترى أن الشيطان يهجم على الانسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه ، فإن الشيطان يعمل بجد ونشاط عظيمين لاغواء الانسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه . ولكن اذا طهر القلب من الأخلاق الذميمة أي اذا تخلى القلب عن الرذائل وتحلى بالفضائل طابق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان اذ ذاك . فلا مدخل له ولا مجال .

ولا مؤاخذة على مجرد ما يخطر فى قلب الانسان من وساوس ، فقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « يا رسول الله هلكتُ . فقال له : هل أتاك الخبيث ، فقال لك : من خلقك ، فقلتَ : الله تعالى . فقال لك : الله من خلقه ؟... — فقال له الرجل : « اي والذي بعثك بالحق ، لكان كذا » . فقال : رسول الله (ص) : « ذاكَ والله محض الايمان » .

وفي حديث آخر ! أن رجلا أتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، نافقت ، فقال : رسول الله « والله ما نافقتَ ! ولو نافقتَ ما أتيتني تُعلمني . — ما الذي رابك ؟ .. أظن أن العدو الحاضر أتاك ، فقال : مَن خلقك ! ... فقلت : الله تعالى خلقني ... فقال لك : مَن خلق الله ؟

فقال [1] : أي والذي بعثك بالحق ، لكان كذا .. فقال ان الشيطان أتاكم من قبل الأعمال ، فلم يقوَ عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم . فاذا كان كذلك ، فليذكر أحدكم الله وحدَه » .

وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت ، فقال : « لا شيء فيها . تقول : لا إله إلا الله » . وعن جميل بن دراج ، قال قلت للصادق عليه السلام:

---

(١) اي الرجل .

انه يقع في قلبي أمر عظيم ... فقال : « قل لا إله إلا الله » قال جميل : فكلما وقع في قلبي ، قلت لا إله الا الله ... فيذهب عني .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه ، وما اضطروا اليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد مالم يظهر بلسان أو يد » .

وان الانسان ليؤاخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعجب ورياء ونفاق . لما ورد عن رسول الله (ص) : « انما يحشر الناس على نياتهم » .

وقد روي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام : « أن الله تعالى جعل لآدم في ذريته : من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة . ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشر ( حسنات ) ، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همّ بها وعملها كتبت عليه سيئة » .

وهكذا يتجلّى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين . وما أعظم قوله تعالى حين يقول : « ففرّوا الى الله اني لكم منه نذير مبين » . ( ٥١ / ٥٠ ) .

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملافاة ما اجترحت الأيدي من معاصٍ وآثام لا سيما ارجاع حقوق الناس اليهم ، ما يلي :

(١) قراءة سورة الناس ( قل أعوذ برب الناس ) ، كثيراً . حتى في الطريق حال المشي .

(٢) أن يقول : لا إله إلا الله كثيراً ، حتى في محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة .

(٣) تلاوة سورة الاخلاص : ( قل هو الله أحد ) كثيراً . فان الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ ( رضوان الله عليه ) ومشى رسول الله خلف

جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة ، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الاخلاص ليلَ نهار .

(٤) أن يقرأ كثيراً لا سيما في القنوت : « يا الله ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا مقلّب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » .

(٥) أن يقول عند عروض الشك : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

(٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام : يمسح الشخص بيده على صدره ، ثم يقول : « بسم الله وبالله ، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم امحُ عني ما أجدُه » ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات .

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً : غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر : أول خميس من الشهر وآخر خميس منه ويوم الاربعاء المصادف أواسط الشهر .

(٨) المواظبة على صلاة الليل ( التهجد ) .

هذه دساتير روحية ليس لأحد لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب . وما عليه الا أن يقوم بالتجربة حتى يرى أثر ذلك جلياً ولا توفيق الا بالله : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

# أثر الذنوب فى اتجاه النفس

ما من شيء يبعد الانسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين والمتدينين ويزدريهم ككبائر الذنوب !.. فان هنالك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام . كما أن هنالك رابطة قوية بين توجه النفس نحو عقائد سخيفة والحاد وزندقة ، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام .

وان هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنهـا ويرسموا لها خطوطاً بيانيـة ومنحنيات تقريبية ! فإن الايمان يتغير حسب كثرة الآثام وقلتهـا بنسب لا يعلمها الا الله .

ان الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما :

$$م = \frac{1}{2} حـ ٢٠$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص ( في الفيزياء ) :

$$ز = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{حـ}}$$

ولكن العلاقة بين توجه النفس الانسانية نحو خالقها وبين ما تقوم بـه هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أمتن من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية بدرجة لا تقاس . قال علي عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » . فاذا انسحب العقل الطبيعي تدخل الشيطان فسوّل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة . فقد جاء فى الحديث : « العقل ما عبد به الرحمن

واكتسب بـه الجنان » . ويقصد بذلك العقل الفطري : ذلك العقل الذي لم ينسحب من جراء الذنوب والآثام .

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن : « ان الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم » .

وقال الباقر (ع) : ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته . ان القلب ليواقع الخطيئة . فما يزال به حتى يغلب عليه ، فصير أعلاه أسفله » . ويراد بالقلب هنا : النفس الانسانية . فالذنب حجاب بين العبد والمعبود .

لذلك كله ، يقوم المستعمرون أعداء الاسلام بادخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمور والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلاد الاسلامية بأي ثمن كان : بالصحافة والاذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون الى ما هنالك .. فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنّسات ، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم . فينسحب منها الايمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة ! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد .

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في ابعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلويث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد ، حفظاً للنفوس من أن تتدهور الى أسفل سافلين ، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس . لذلك يقول الله تعالى :

« قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ( ٣٩/١٠ الزمر ) فعلى المؤمن أن يهاجر الى حيث يتمكن من اقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب . ذلك لأن الانسان انما خلق

ليتكامل . ولا تكامل الا بتطهير النفس ولا تطهر النفس الا بالعبادة ( بما فيها من أعمال صالحات والقيام بالاحسان الى الغير ) وباقامة الشعائر الدينية . فوجب اذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلا يتمكن فيه من اقامة شعائر دينه . ومن هنا وجب حفظ الاوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية . فان لم يتمكن من اقامة شعائر الدين فما عليه الا أن يهاجر الى حيث يتمكن فيه من اقامة الشعائر كما هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة . وهاجر قسم من المسلمين من مكة الى الحبشة .

ونحن نذكر هاهنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم منها فيجتنبها ، ويتوب من أغواه الشيطان فارتكب البعض منها . فقد جاء في الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويحسن بالمسلم اذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب اليه » . ويواظب عليه ، فانه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

ومن الكبائر ما يلي :

(١) الكفر بالله . وقد قال تعالى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . ( سورة البقرة : ٢٥٧ ) .

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه . وقد قال تعالى : « لا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » . ( سورة يوسف : ٧٨ ) .

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه (ع) : وقد قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين » . ( الزمر : ٣٠ ) .

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه

جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » . (النساء :٩٣).

(٥) عقوق الوالدين [١] . اذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى (ع) « وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » . ( مريم : ١٩/٣٢ ) . فالعاق هو الجبار الشقي . وقد قال تعالى : « وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد [٢] » . ( ١٤/١٦ ابراهيم عليه السلام ) .

(٦) أكل الربا : « درهم ربا عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم » كما جاء في الحديث . وقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . ( سورة البقرة : ٢٧٥ ) .

(٧) ترك الصلاة . اذ قال تعالى : « ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين » . ( سورة المدثر : ٤٢ ) .

(٨) الزنى — وحدّه مائة جلدة للمرة الاولى ، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة : القتل . هذا في غير المحصَن ( غير المتزوّج ) . اذ قال تعالى : » ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا »[٣] . (٢٥/٣٨ الفرقان ) . واما في المحصن فحدّه الرجم للمرة الأولى .

(٩) اللواط : وحدّه أحد أمور يتخير ولي الأمر ( الحاكم ) فيها . وهي

---

(١) الاساءة اليهما وعدم الاحسان اليهما .

(٢) هو الصديد الذي ينزل من جلود اهل النار .

(٣) واذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه . مع العزم على عدم العود ابدا والندم العميق على ما كان منه . ويجلد ( القواد ) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفى ويثبت بشاهدين عدلين او بالاقرار مرتين .

واما السحق او المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الاحصان ( اي بأن تكون ذات بعل ) .

اما القتل أو الرجم أو القاؤه من شاهق تنكسر عظامه أو احراقه بالنار . وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً ان كان بالغاً مختاراً ، وان كان صغيراً عُزّر .

وقد جاء عن النبي (ص) : « ان من قبّل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة القضب وأعدّ له جهنم وساءت مصيرا » .

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً : اذ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ( ٥/٩٠ المائدة ) . وحدّه : ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة . ولو شربها مستحلاً فهو مرتدّ يجب قتله . ويستتاب بائع الخمر ، فان تاب ، والا قتل .

(١١) انكار ما أنزل الله تعالى .

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه .

(١٣) محاربة أولياء الله .

(١٤) معونة الظالمين والركون اليهم ، اذ قال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » . ( ١١/١١٣ هود ) .

(١٥) قطيعة الرحم : اذ قال تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » ( ٢٢/ ٤٧ محمد (ص) ) .

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب . والزحف هو السير نحو العدو . اذ قال تعالى : « ومَن يُولّهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . ( ٨/١٦ الانفال ) .

(١٧) شهادة الزور .

(١٨) كتمان الشهادة : اذ قال تعالى : ومن يكتمها فانه آثم قلبه » . ( ٢/٢٨٣ البقرة ) .

(١٩) السحر ويليه تسخير الجنّ والأرواح والكواكب : اذ قال تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت . وما يعلّمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تفكر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق [1] ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » . ( سورة البقرة : ٩٦ ) .

(٢٠) اليمين الكاذبة . اذ قال تعالى : « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » . ( آل عمران : ٧٧ ) .

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين . وكفارة اليمين : اطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم ، او تحرير رقبة . مخيّرا بين الثلاثة . فان عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة . وكفارة النذر أو العهد هي كفارة افطار شهر رمضان . فان عجز لجأ الى الاستغفار .

(٢٢) أكل مال اليتيم . اذ قال تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » . ( النساء : ١٠ ) .

(٢٣) أكل الميتة . اذ قال تعالى : انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله . فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » . ( البقرة : ١٧٣ ) .

(٢٤) أكل الدم . للآية المتقدمة .

(٢٥) أكل لحم الخنزير . للآية المتقدمة .

---

(١) من نصيب .

(٢٦) أكل السحت . ( المال الحرام ) .

(٢٧) الخيانة .

(٢٨) السرقة .

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان . اذ قال تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن اولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » . ( سورة المطففين : ٦ ) .

(٣٠) حبس الحقوق ، كالخمس والدين وغيرهما .

(٣١) ترك الصوم مع القدرة .

(٣٢) الاضلال عن سبيل الله . اذ قال تعالى : « ثانيَ [١] عطفِه ليضلَّ عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » [٢] .

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد . اذ قال تعالى : « فرح المخلفون [٣] بمقعدهم اخلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون » [٤] .

(٣٤) الاسراف والتبذير : اذ قال تعالى : « ان المبذرين كانوا أخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » . ( الاسراء : ٢٧ ) .

(٣٥) اللهو : ( الاشتغال بالملاهي ) .

(٣٦) الغناء : اذ قال تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » [٥] . وقد جاء في الحديث : « الغناء مجلس لا ينظر الله الى أهله » .

---

(١) أي متكبراً . (٢) سورة الحج : ٩ . (٣) الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول (ص) في غزوة تبوك . (٤) سورة التوبة : ٨٢ . (٥) سورة لقمان: ٦

حقاً ، ان استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ بالنفس الى التسافل . وان الدوام على ذلك ينسي ذكر الله . فلا ترتاح النفس الا الى سفاسف الامور ومعان رخيصة متسافلة . تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال ويحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود . مناجاة فيها من العروج الى معالم القدس وسرور فائق ما لا يشعر به الا عباد الله الفائزون . انها دموع ساخنات ، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين .

(٣٧) الميسر ( القمار ) . ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب .

(٣٨) القذف : ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه . وحدّه ثمانون جلدة . اذ قال تعالى : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عـذاب عظيم » [١] . وفي آية أخرى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » [٢] .

(٣٩) منع الزكاة : اذ قال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون » [٣] .

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة : اذ قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليـه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين » . ( آل عمران : ٩٧ ) . وعن أبي عبدالله (ع) . قال : « من مات ولم يحج حجة الاسلام ، لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو

---

(١) النور : ٢٣ . (٢) النور : ٤ . (٣) سورة التوبة : ٣٥ .

سلطان يمنعه . فليمت يهودياً أو نصرانياً » .

(٤١) الغيبة : اذ قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » . ( سورة الحجرات : ١٢ ) .

(٤٢) القيادة : وهو الجمع بين اهل الفجور .

(٤٣) اساءة الخلق . وقد جاء في الحديث : « ان سوء الخلق ليفسد الايمان والعمل كما يفسد الخل العسل » و « أن لكل ذنب توبة الا سوء الخلق » .

(٤٤) النميمة : فعن الباقر عليه السلام « الجنة محرمة على القتاتين المشائين بالنميمة » . القتّات : النمام .

(٤٥) ضرب المسلم بغير حق .

(٤٦) السعاية الى الظالم .

(٤٧) قطع الطريق : اذ قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف [١] أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » ( سورة المائدة : ٣٧ ) .

(٤٨) الظلم : اذ قال تعالى : « انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها [٢] وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل [٣] يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » . ( الكهف : ٢٩ ) .

---

(١) أي تقطع ايديهم اليمنى وارجلهم اليسرى .
(٢) فسطاطها : خيمتها .
(٣) القيح أو صديد الميت خاصة او ما ذاب من صفر او حديد او زيت .

(٤٩) الكبر : اذ قال تعالى : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » . ( النحل : ٣٢ ) .

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها : اذ قال تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » . ( سورة البقرة : ١٦٩ ) .

(٥١) المنع من المساجد : اذ قال تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » [١] .

(٥٢) الاستهزاء بالمؤمنين .

(٥٣) اشاعة الفاحشة : اذ قال تعالى : « ان الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم » [٢] .

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله : اذ قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

(٥٥) لبس الرجل الحرير .

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من ذهب .

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب .

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس .

(٥٩) الرياء في العبادة : فعن الصادق (ع) أنه قال : «كل رياء شرك ، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله » .

(٦٠) المراء : وهو الجدل في المباحثات بالباطل ، لقوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٨ . (٢) سورة النور : ١٨ .

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس .

(٦٢) الرشوة والارتشاء : ( اعطاء الرشوة وأخذها ) .

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل انسان أو حيوان . فقد جاء في الحديث : « ان من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرين » .

(٦٤) التعرض للذل : وقد قال تعالى : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . ( المنافقون : ٨ ) .

(٦٥) الشعبذة : وهي ما يُرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلمها وتعليمها الا أن يكون التعلم لغرض صحيح كردّ من ادعى النبوة ونحوها بها .

(٦٦) طلب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليهم السلام : « ما خفقت النعال خلف رجل الا هلك وأهلك » . « وان من طلب الرياسة هلك » . « وانه ملعون من ترأس ، ملعون من همّ بها ، ملعون من حدث نفسه بها » .

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن : فقد قال الله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم » . ( الحجرات : ١٢ ) .

(٦٨) العُجب : وقد ورد عنهم عليهم السلام : « من دخله العجب هلك . وان اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله » .

(٦٩) الغش : فقد ورد عنهم (ع) انه : « ليس منا من غش مسلماً » .

(٧٠) الكذب : وقد عدّه الصادق والرضا عليهما السلام من الكبائر . وقد ورد : « أن الله عز وجل ، جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب ، والكذب شر من الخمر » .

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع . لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك . قال تعالى : « واذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ،

واما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .
( الأنعام : ٦٨ ) .

(٧٢) اتيان البهائم .

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عسر [١] . فعن أبي عبدالله (ع) ، قال : « أيما مؤمن منع مؤمناً مما يحتاج اليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه ، مزرقة عيناه ، مغلولة يداه الى عنقه . فيقال : هذا الخائن الذي خان الله ورسوله ، ثم يؤمر به الى النار » .

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان ، قال : قال أبو عبدالله (ع) : يا يونس ، من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أودية ، وينادي مناد من عندالله عز وجل : هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه . قال فيوبخ أربعين يوماً ، ثم يؤمر به الى النار .

وهناك كبائر أخرى نرجىء ذكرها الى محل آخر . ونختم هذا البحث بما جاء عن علي عليه السلام :

« من كفارات الذنوب العظام : اغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب » .
وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً : يا كميل ، مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم . فوالذي وسع سمعه الأصوات : ما من أحد أودع قلباً سروراً الا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً ، فاذا أصابته نائبة جرى اليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الابل » .

وقال سلام الله عليه : « ادنى الانكار ان تلقى اهل المعاصي بوجوه مكفهرّة » .

---

(١) كنا ذكرنا حبس الحقوق فى موضع آخر . ولا بأس بتكراره هنا مع جديث في هذا المقام الخطير .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

***

## كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند ارادته التوبة. فانه ما من عبد ( عدا المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ) الا وقد أذنب ، وما عليه الا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسوّد قلبه ، فيعمى اذ ذاك عن رؤيه الحق والواقع . ولا شك أن الاستغفار على نوعين ، عملي وعبادي . فالاستغفار العملي هو ارجاع ما للناس على الفرد من حقوق الى أصحابها ، والاجتهاد في جلب رضاهم ، وقضاء ما فاته من عبادات . وأما العبادي :

(١) فقد قال رسول الله (ص) : ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله الا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله . لأنه سبحانه قال : « ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

(٢) وفي الاقبال أنه : خرج رسول الله في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخاطب الناس قائلاً : « أيها الناس من منكم يروم التوبة ؟ » . فقالوا : كلنا نروم التوبة . فقال : «اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد ( الاخلاص ) ثلاث مرات والمعوذتين ( قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس ) مرة واحدة ، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا : ( لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ) سبع مرات . ثم قولوا : « يا عزيز يا غفار .

اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

ثم قال رسول الله (ص) : « ما من أحد من أمتي يأتي بهذا العمل الا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى : عبدي ، استأنف العمل ، فقد غفرت لك . وان ملكاً آخر ينادي من تحت العرش : بوركت أنت ومن يلوذ بك وذراريك . وملك آخر يقول : سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة . وآخر يقول : يا عبدالله ، ستموت على الايمان ولا تعدم الايمان ويفرّج لك في قبرك وينوّر قبرك . وآخر ينادي : سوف يغفر لأبويك وذريتك ويوسع لك فى رزقك . وان عزرائيل يخاطبه ، فيقول : سوف أرفق بك عند قبضي روحك » .

ثم سأل سائل رسولَ الله . لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك ؟ فقال (ص) : عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة ، ثم قال : ان جبريل قد علمني هذا العمل عند معراجي الى السماء .

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجليه ثلاث مرات : « أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم ذو الجلال والاكرام وأتوب اليه » .

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة ، ٨ ركعات منها نافلة الليل تصلي رَكعتين ركعتين كصلاة الصبح تؤتي بنية نافلة الليل . وركعتان تسميان: ( الشفع ) وركعة واحدة تسمى ( الوتر ) . ووقتها بعد انتصاف الليل الى الفجر . وكلما كان قرب الفجر كان أفضل . ويُستحب أن يقال في قنوت ( الوتر ) : الركعة الأخيرة سبعين مرة : أستغفر الله ربي وأتوب اليه . وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها .

ان الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله : « ان المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً

من الليل مايهجعون [1] . وبالاسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » . ( سورة الذاريات : ١٤ — ١٨ ) .

فطوبى لنفوس فكرت في عقباها . فلازمت التقوى وما يؤدي الى الزلفى ووفقت الى أنواع الاستغفار . فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس . فذهبت الى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور . « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهي الحَيوان لو كانوا يعلمون » . أي ان الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية الابدية . ليس فيها حزن أو قلق أو خوف . « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حقاً ، ان الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس لهي لهو ولعب . فالانسان في دنياه وان كان في دوره التكاملي ، الا أن حياته فيهـا أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة الى حياة الرجل المتكامل . وسيعلم ذلك ، ( ان وفق الى تطهير نفسه )، في « جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . ( ٥٧ — ٢١ ) .

---

(١) ينامون فى قليل من الليل أو نوماً قليلا .

# جواب على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم الا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي . فأملى عليهم الشيطان شكوكاً وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظاً على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات . ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا ، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول « ولو أن الناس اذ جهلوا وقفوا ولم ينكروا لم يكفروا » . ولكن هيهات ، فان المدنسات لم تدع لهم مجالا للتوقف او التردد وازاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم .

على أني موقن أن هذه الردود التي نوردها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه ، فاكتسبها من جراء ذنوبه . لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الانسان ( الكنود ) عن غوايته ويهديه الى النور والى صراط مستقيم . فقد جاء في الحديث : « ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب » . فان عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول . ان الله تعالى يقول : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . ( البقرة : ٧ ) . « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » . ( سورة : حم ـ السجدة : ٦ ) .

وانما نورد في ما يلي بعض الردود ، ليزداد الذين آمنوا ايماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والاجابة « وكان الانسان أكثر شيء جدلاً » . ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان

يأتي به من حين لآخر ، بعد الاطلاع على هـذه الأجوبة ، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع الى الفطرة بفضلة تعالى .

الشبهة الاولى : أن لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا انه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وأن الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث .

الجواب : ان العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا دليل على وجود الله تعالى . الا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر . كما ان اتصال شيء بشيء يؤدي الى وجود أعراض جديدة . ولكن العرض ليس بجوهر ولابـد لوجودها وجود أشـياء أخرى قبـلاً .

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله « كن » لما وجد شيء أبداً . « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان [١] الذي بيده ملكوت [٢] كل شيء واليه ترجعون [٣] » .

ولكن ، كيف قول الله تعالى ( كن ) يؤدي الى ابداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد اكتشف أخيراً أنها هي الاساس في تكون هذا الكون . هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً الى معرفته . « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » انه تعالى يقول : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر [٤] » ويقول أيضاً : « انا كل شيء خلقناه

---

(١) فتنزيهاً لله عن النقص ، سبح الله أي نزهه عن النقص .
(٢) الملكوت ، مصدر ملك ، مختص بملك الله تعالى .
(٣) سورة يس : ٨٣ .
(٤) سورة القمر : ٥٠ .

بقدر » فحقيق بالكيماوي المؤمن ، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بموبقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة : « انا كل شيء خلقناه بقـدر » لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي الى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب والغرائب . « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور » [1].

ان الطاقات التي أوجدها الله بقوله ( كن ) أي أن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بارادته ومشيئته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة . وان هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم . اذ علم أن : $E = M C^2$ : الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروبا في تلك الكتلة . فسبحان من منـح هـذه الطاقات هـذه العوالم بعظيم قدرته ورتبها خير ترتيب . وليس لهذا الانسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله : ( كن ) يوجد هذه الطاقات . فان نسبة قابلية الانسان المحدودة في جميع الحقول الى قدرة الله تعـالى كنسبة $\frac{ب}{م}$

ومآل هذه النسبة : الصفر . فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاما ويقف على كيفية خلق الله الخلقَ وانقلاب ارادته تعالى الى طاقات هائلة . وان هذه الشبهة ان دلت على شيء فانما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري .

الشبهة الثانية : ان كل موجود لابد له من مكان يستقر فيه ولابد له من زمان يقع فيه . وان العلوم الطبيعية الحاضرة تقول : بأن المادة موجودة في الزمان والمكان . اذن ليس في الامكان أن تتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان .

---

(١) فطور : صدوع وخلل .

الجواب : ان الله تعالى غني عن الزمان والمكان ، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء . وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان . ولا مراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة . ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان . وان الله تعالى موجود في كل مكان وزمان . وعند ما نقول : ان الله لا زماني ولا مكاني ، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات ، بسبب احتياج هذه الموجودات جميعاً الى زمان والى مكان . أي ان المكان لا يحيط به وان الزمان لا يحويه ولا يكون له ظرفاً ، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين ( الزمان والمكان ) . على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهائي) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان . وهو هراء لا فلسفة !

وقد قال علي عليه السلام : « ومَن قال في مَ ؟ فقد ضمَّنه ومن قال : علام فقد أخلى منه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة » ..

الشبهة الثالثة : ان العلم الحديث يقول : أنه لابد للمادة من زمان ومكان . وأن المادة لا توجد الا في زمان . وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون: ان الله هو خالق العالم . وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمان" ، اذن ليس الله هو الذي خلق العالم ، لعدم وجود زمان اذ ذاك ليخلق المادة فيه . اذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه .

جواب ذلك : ان الزمان والمكان انما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها . وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان . فالزمان من عوارض المادة ووجوده بوجودها ، ولم يسبق أحدهما الآخر . أي أن الزمان انما وُجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتيهما أو حركة احدهما وان الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان .

وان الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان ( أثر ) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة . فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً .

الشبهة الرابعة : يقول بعض الماديين : لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق . ولكنا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق . ومنهم : ( هودسن تونل ) الأمريكي ، حيث يقول : « ان القمر يدور حول نفسه مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض . وهو يوجه جهة واحدة منه نحو الأرض — ألسنا محقين لو سألنا عن السبب ؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك . اذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان ! » . ويقول ( بوخنر ) الألماني المادي المعروف : « لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الوسيع ( السماوات ) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولاستفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك ، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة ! » .

جواب ذلك : أن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الاتقان . وان العلم البشري لا يزال في مراحله الاولى . أوَما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً مما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته . راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم . وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير الى حكم سامية لا يعلمها الا علماء رياضيون فلكيون . فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة وهكذا بالنسبة الى موضع القمر

وبقية الأنجم ، « الشمس والقمر بحسبان [١] والنجم والشجر يسجدان [٢] والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان » .

فاذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فانما الذنب ذنبه ، النقص متأصل فيه . وان أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية .

فطوبى لمن طهرت نفسه ، فاذا نظر الى السموات العلى ، قال : خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار [٣] » . انما هذه الدموع رشحات نفس زكية .

الشبهة الخامسة : — يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به ، اذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجدها .

جواب ذلك : هل أحسّ هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علما يقينيًا . ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحط من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمات دقيقة . هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود . « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . وما لهم بذلك من علم . ان هم [٤] الا يظنون » [٥] . وفي آية أخرى : « وما لهم به من علم . ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » [٦] . وفي أخرى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » [٧] .

---

(١) أي يجريان بحساب مقدر .

(٢) أي انها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص .

(٣) سورة آل عمران : ١٨٨ .

(٤) ان هم : ما هم . (٥) الجاثية : ٢٣ . (٦) النجم : ٢٨ .

(٧) الأنعام : ١٤٨ .

ان الله تعالى يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم [١] » . فالله تبارك وتعالى لم يرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا ، لاستحالة ذلك . فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد . فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء .

أو لا يفكر هذا المادي ان المادة شيء مركب وفيها من القوانين والدساتير على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحيّر الألباب . من الذي وضع هذا النظام الخارق وتلك الدساتير والمعادلات في الذرة ؟ . وكيف كان هناك الكترونات وبروتونات ونيوترونات . حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر .

من أوجد هذا التعادل ؟ ومن حرك الالكترونات حول البروتونات ؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً ؟ حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين واوكسيجين الى ما هنالك . ومن الذي بني بناء الذرة الرصين : هذا البنـــاء الذي هو أدق من أعظم الاپارتمانات ! ( Appartement ) انه مهندس عالمي : هو الله جلت قدرته : « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » [٢] .

الشبهة السادسة : يقول المادي : ان الالهيين يؤمنون بخالق لا يدرك بحواسنا ، وما لا يدرك بحواسنا معدوم .

الجواب : قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالالكترون . يقول الله تعالى في سورة الحاقة . « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » . وان الانسان الذي جهز بحب الاستطلاع ، ان لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره ، يعترف

---

(١) الكهف : ٥٢ (٢) الحج : ٤٦ .

بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الألكترون . ومعلوم : أن الألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب . ان المادي ينكر وجود الجن والخوارق . ذلك لأنه يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس : فتلمسه يده . ( ولكن الجن ليس بمادة ) . وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي الى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظهما فالأعصاب ، فالمخ حتى تسمعه . وخلاصة القول ليس الجن من هذه المادة التي تدرك بالحواس الخمس . ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء (ص) ، فالقرآن . ويعترف به من قام برياضات خاصة ، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول .

وهكذا الاعتراف بالخوارق ، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة . وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود . واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يريان كاف لاثبات ما نذهب اليه . ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق . فليعترف بنفسه ان كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى . « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

الشبهة السابعة : (١) قد أخذت العلوم الحديثة فى الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء الى وجود الله !.

(٢) وان الانسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة ، فليس هناك من حاجة الى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية .

جواب ذلك : — أولاً — ان علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف الدساتير والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض يعترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس الى ما هنالك . ويقولون : انما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث

بعضها ببعض اما بإلهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها . انهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون : انما نرى تعاقب الحوادث بعضها اثر بعض ونظن أنها معللة ، حين أنه ليس هناك تعليل وانما مشاهدة لتسلسل الظاهرات والحوادث .

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقل مثل ذلك في بقية العلوم ، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه وبجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية . وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه الدساتير وجهز العناصر بخواص التركيب والتحليل ، الا المؤمن التقي منهم . ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة . والتقوى كما جاء في الحديث : « أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك » . وأين علماء أوربا من العمل بهذا الحديث . فان معرفة الله لا تحل نفوساً مدلهمة حالكة ، وان التفكير في الفيزياء او الكيمياء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقية Logique التي منّ الله بها هذا الانسان . وان التفكير في ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي . مثال ذلك : لو أضيفت مقادير متساوية الى أخرى متساوية فالنتائج متساوية ... الى ما هنالك . وان عملية الضرب ٣٧٥ × ٤٣ مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب . انما هو تفكير مادي يقوم به الحافظة والذكاء ( مع جهل الانسان كيفية ذلك ) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها الى الحق .

فقضية البحث عن الخالق وعزو جميع ما في الكون من قوانين وخواص اليه تعالى قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية • هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى • فان حب الله تعالى أو العشق الالهي لا يحلّ الا في نفس مطهرة من الدنس والرين • « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (١) • وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو دستور الرقاص في الفيزياء •

ان قطع النجار الخشبة الى أقسام ( مثلاً ) يحتاج الى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء • النفس أمر مما وراء الطبيعة ( Métaphysique ) وتقسيم الخشبة وقطعها الى أقسام عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله • فان المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالانسان من ناحيته الميكانيكية • فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً • وهذا شأن من خسر نفسه وكان من الأخسرين أعمالا • على حد قوله تعالى : « قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٢) • وفى آية أخرى : « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » (٣) •

كان يقول ( گوستالوبون ) : « حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين ، غير أن المادة أصبحت سراً من الأسرار ! » •

ثانياً : وأما من يقول بالمقال الثاني : ( وهو أن العالم يسير حسب دساتير معينة وقوانين منظمة ، فلا حاجة الى الاعتراف بصانع أزلي ) ، فهو مجنون ،

---

(١) سورة الشعراء : ٨٩ . (٢) الأنعام : ١٢ . (٣) الاعراف : ٥١ .

ليس له نصيب من التفكير والمنطق الصحيح . أو مغفل لا يعد في زمرة العقلاء . ذلك لأنه يجعل ما هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه . كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس . انه ممن ختم الله على قلبه لكثرة ذنوبه ، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والاصلاح . « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » [١] . نعم ، « بل طبع الله عليها بكفرهم » وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى .

أليست القوانين نتيجة تدبّر وتفكر وتعقل ؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم دون مرتّب ومنظم . وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار ، وأن ترتبط هذه لأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبّر حكيم . وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة . وانه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض بالصدفة ، ومع ذلك فلابد من موجد لهذه الأجزاء المرتبطة بعضها ببعض ، والتي تكاد لا تحصى ، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة . كيف حصل العقل من المادة ! ( على ما يقوله الماديون ؟ ) وكيف وجد الروح ؟ هل القوة كانت قبلاً أم المادة ؟ وكيف انقلبت القوة الى مادة ؟. فلو قلنا ان هناك يداً خفية [٢] تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات . فذاك هو الله تعالى .

ان العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته المدساتير الرياضية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض . والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام

---

(١) سورة البقرة : ٧ . (٢) ولابد منها .

أودية من المجاهيل . ولكن المتطفلين على العلم الحديث : هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائيـة يظهرون خباثة بواطنهم الملوثة فيهذرون ويخرصون ويشوهون سمعة العلماء ، والعلم مما يقولون براء .

يقول ژان ژاك روسو ( Jean Jacques Rousseau )

أن نعتقد أن مادة ميتة تقوى على ايجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة ، وأن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة ! وان شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة : ( عقلاً ) . ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم . فلابد من محرّك ومتصرف . وان سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي الى المحرك الأول وهو الله تعالى » .

وأما هرشل فيقول : « كلما توسع أفق العلم ، كلما ازددنا معرفةً بالله . ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حدّ لقدرته » .

وأما لينه ( Linné ) العالم الطبيعي المعروف ، فإنه يقول : « يمر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء . اني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال وخوارق لا تعد . يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول » .

يقول ولتر (Voltair) : « ان الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها بارئاً قد برأها وصانعا قد اتقن صنعها » . وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف ، قائلة : « يابني ، ان حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ : ( الطبيعة ) ، . حين أني صانع عظيم ، متقن الصنع غاية الاتقان ، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب اقل من مكينة ساعة تدق الدقائق . فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون

صانع قد صنعها ، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها وأتقن صنعها » .

ويقول ( جان لاك ) : « ان العقل هو الذي يرشدنا الى وجود الخالق ، ذلك ، لأنا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً . ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئاً ، اذن نجزم يقيناً أن ذاتا أخرى قدأوجدتنا وكونتنا .وهذه الذات ،وهي ذات الباري ،كانت موجودة بصورة دائمية ، أي أن الخالق أزلي سرمدي . وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وامكانيات فهي منه . اذن وجب أن يكون الموجد فى كمال القدرة . وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً .

ويأتي هذا الفيلسوف بدليل آخر ، فيقول : « بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن قبلا ،فلا بدمن وجود قديم أزلي أوجد هذه الاشياء ولم يوجده شيء آخر » .

***

لقائل أن يقول : لماذا ( جان لاك ) يعترف بوجود الخالق جل جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي ، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه ، وكيف يترشح من نفسية ( جان لاك ) ، هذه الافكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا تترشح من غيره .

ان هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير . وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى : في سورة الانفال : ٢٩ ، « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

فبالتقوى يفرق الانسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفّر الله عنه سيئاته ويغفرله ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين الا ويحمل ذنوبا: «أحصاه الله ونسوه» لا سبيل الى تكفيرها ومحوها الا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والارجاس ومن كل ما دنس به نفسه وجعلها متسافلة . فالايمان رشحات النفس التقية الزكية . ولا بأس أن اكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول : « بترك الكذب يعترف الانسان بمعبود هو الله القادر المتعال » .

وأما : « التقوى : أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك » . كما جاء في الحديث [١] .

ولابد لمثل ( جان لاك ) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقدسه . وان درجة هذا التقديس ليتناسب مع درجة التقوى . يقول الله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين [٢] » .

وان أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها [٣] . وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة : المجاهدة مع النفس ، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين ، اولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله :

« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روحَ اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى » !..

---

(١) قد اكرر الحديث لأهميته . ولكي يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات.
(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٣) يراد بالاطماع : غير المشروعة منها .

ولا مراء : أن اليقين الحقيقي ، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات الى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً ، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة وبر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الاهل معاملة ملؤها الشفقة والحنان . «خيركم أبركم بأهله» . يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال : انه أسرف ، وخدمة الجار ويجاد عمل للعاطلين في حدود الامكان ، ( وما أكثر امكانيات هذا الانسان لو لطفت نفسه ورقت روحه ) ، يلزمه : الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، يلزمه تهجد ومناجاة وبكاء واعتراف بالذنوب وتذلل وخشوع ، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي .

والاستغفار ، كما يقول علي عليه السلام : « درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ :

أولها : الندم على ما مضى .

والثاني : العزم على ترك العود اليه أبدا .

والثالث : أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملسَ ليس عليك تبعة .

والرابع : أن تعمِد الى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقها .

والخامس : أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السُّحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تُذيق الجسمَ ألم الطاعة كما أذقته حلاوةَ المعصية ، فعند ذلك ، تقول : أستغفر الله .

وقد يستشمُّ مني البعض التقشُّفَ عند ذكري بعضَ الأحاديث التي بَعُدَ الناس عن مصاديقها وتطبيقها ولكن الاسلام يجب أن يعرض كما هو ، فيستقي من ينبوعه الفياض كل بحسب قابليته وجده وجهده : « وأن ليس

للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى »
( سورة النجم : ٤٠ ) .

***

يقول أحد علماء الألمان : « الاسلام جوهرة وغطاؤها المسلمون » .
ويقول أحد فلاسفة الغرب : « ان المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون جرماً عظيماً ، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة » .

ويقول ، ليوپولدڤايس [1] ، في كتابه : الاسلام على مفترق الطرق : « ان تقليد المسلمين — سواء أكان فردياً أم اجماعياً — لطريقة الحياة الغربية لهو بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الاسلامية » . ويقول أيضاً : « اننا نحلم بنور الاسلام ينتشر على البلاد المترامية ، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفترون عن آمالنا ! » .

---

(١) انه نمسوي الأصل . اعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٢٦ م ، وتسمى باسم ( محمد اسد ) . فحسن اسلامه واصبح من دعاة الاسلام .

# علة بعث الانبياء (ع)

ان هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم . فان السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكن لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بدساتير دقيقة الا القسم اليسير منها جداً . وان ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد أتقن الصنع الى حد بعيد . وان آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع واتقانه الخلق الى أبعد الحدود . « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » . « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . وفي آية أخرى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . ( سورة الدخان : ٣٨ ، ٣٩ ) .

فالانسان لم يخلق عبثاً ، وانما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء . ليرى نتيجة عمله ، فان أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب ، وان أمسى من الهالكين دخل النار وبئس المصير .

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج [1] نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » . « انا هديناه السبيل اما شاكراً واما

(١) اخلاط ، لانه من مجموع ماء الزوجين .

كفورا » . « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

يدخل فى هذا الاختبار الفقير والغني : يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطى درجات لطلابها ، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة . فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس . فمجالات الحياة متنوعة ، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الالهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور .

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر . وقد فعل ذلك . وألهم البشر عندما خلقه طريقي الخير والشر : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ،قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » . ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد : « وهديناه النجدين » . أي طريقي الخير والشر .

فالانسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفار ! ميال الى الشهوات . فأرسل الله تعالى الأنبياء عليهم السلام لا ليقوموا اعوجاجه فحسب ، بل ليدربوه على اتباع الطريق الذي يؤدي به الى التقرب الى الله عز وجل ليكون أعلى منزلة من الملائكة . ففتح الله للبشر الطريق ، على لسان أنبيائه ، للتقدم في الدرجات العلى ، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس .

فالانسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن ، فيها معادن خسيسة رديئة وفيها معدن نفيس ثمين ، فعلية أن يطهر نفسه من الاوساخ

أي من المعادن الخسيسة بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء ، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقـاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية .

نرى أن الخلق على نوعين : خلق تكويني ، كخلق الكواكب والأنجم والمعادن والنباتات والحيوانات ، وخلق أمري : كخلق الأنفس والأرواح : « قل الروح من أمر ربي » .

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها . انها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها . فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وان حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الحرارة . هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي . كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص ( باندول ) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص . وكذا تركيب الماء ، أسيد آزوتيك ، أسيد سولفوريك ، ثابت لا يتغير . ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة والالقاح والعضويات . فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً . فالله يساعد الانسان بما أودع فيه من قابليات فكرية : من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص .

لكن النفوس والأرواح مختارة ... في امكانها أن تسرق وأن لا تسرق . وفي امكانها أن تزني وأن لا تزني ، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب . فهي اذن: بحاجة الى مرشد يرشدها وهادٍ يهديها الى الطريق السوي .

حين أنه ليس هناك من ضرورة الى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط .

فالبشر بحاجة الى معدل يعدله ومقوّم يقومه . فالأنبياء (ع) والأوصياء من بعدهم معدّلون ومقوّمون .

ونظرة بسيطة الى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به الى سعادة النشأتين .

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس ، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد ان يرى ناقصا في ما خلق ويريد تكميل هذا الانسان .

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق ، وهو الله تعالى ، الا الكمال . ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال . وان المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال . وان ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقدّسه . وتسبّح الله بأنواع التسبيح : « وان من شيء الا يسبّح بحمده » : أي تنادي بصوت رفيع : أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الاتقان ويستحيل عليه النقص . على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه ، على حد قوله تعالى : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وقوله تعالى : « يا جبال أوّبي معه والطير » . وقوله تعالى : « لو نزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » . فلا يجوز لهذا الانسان أن يحيد عن سنّة الكمال التي أودعها الله تعالى في كل ما خلق ، وما عليه الا أن يتكامل ويسير نحو ما قرّر له من كمال منشود . فان حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار . فجهنم آخر

محل لتطهير من تلوث وفسد أو تعذيبه .

وانما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومندرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم . ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب اليه تعالى . فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم .

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيبا متفقناما بعده ترتيب : «ولئن زالتا أن امسكهما من أحد من بعده » حتى أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض ، لا يخلق ما خلق عبثاً ، لا يخلق هذا الانسان ليسعى في الأرض فساداً ، فلا كمالَ ولا حساب ! : « والله لا يحبُّ الفساد » (١) .

وقد حسب « جيمس جينز » أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل ( ٦٠٠٠٠ ) مليون مليون سنة أي في ( ٦ × ١٠^١٦ ) سنة. وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون عام أي ( ١٠^١١ ) سنة . ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده عن نجم واحد في كل خمسين مليون نجم .

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سيارة سُميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ . وقد عُلم أخيرا ان كل ما في الكون متحرك ، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها . وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء .

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى تقول : ان أقرب

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٥ .

نجم آلى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل . وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم . وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل . ولا نعلم : أفمن أجل هذا : كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستئناساً . ان رابطة الجاذبية تربط النجمين ، فلا يستطيعان فكاكا . وحيثما وجهنا المنظار الى السماء وجدنا أزواجاً ، انها ألوف ألوف ، انها الثنائيات النجمية ، ومداراتها أهليليجية ، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فالوحدانية له تعالى وحدَه والزوجية متجلية في الذرة : ( الالكترون والپروتون ) ، وفى السماء ، وفي النبات والحيوان . فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي ، لا يريد بهذا الانسان الا الكمال والتكامل . لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهديين .

نظرة واحدة الى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا ( ٠٠٠ ر ٧٥٠ ) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا مئات الملايين من السنين الضوئية [١] تكفي ليتصاغر الانسان أمام عظمة الله تعالى ، فيفكر في نفسه وعلة وجوده ، فلا يركبه الغرور على ما منَّ الله عليه من مخترعات ، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات . فتقوده فطرته الى هذه النتيجة : ان الله الذي أتقن خلق العوالم جميعاً جل أن يلهو فيريد بالانسان اللهو واللعب ! بل ان غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته ، فلابد للانسان من تكامل ، ولابد من ارسال من يقدمون لهذا البشر دساتير هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين .

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة (١) الألكترون ، (٢) البروتون ،

---

(١) سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر فى الثانية وبما أن السنة = ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية . فالسنة الضوئية = ٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠ كيلومتر .

(٣) النيوترون . وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تتدرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان ( Octave ) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من ايجاد عناصر جديدة ، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية ، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد واحالة الراديوم الى هليوم والى رصاص ، واحالة النتروجين الى اوكسجين والى كاربون واحالة النحاس الى زنك ثم الى نيكل الخ ، لحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم . ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الانسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم انه حرٌّ في الافساد وايجاد الفساد ! فلا حسابَ ولا كتاب ! « ولا تَبغِ الفسادَ في الأرض » (١) .

ان الانسان قد عمل لحد اليوم الى حدٍّ ما كي يجيب عن ( كيف ؟ ) فى فهم أسرار الكون . ولكنه لا زال بعيداً جداً من أن يجيب عن ( لماذا ؟ ) .

يقول : أينشتين : « ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هـذا الخفاء الكوني والاظلام . ان الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حيٌّ كميتٌ . انه خفاء لا نستطيع أن نشقَّ حجبه . واظلام لا نستطيع أن نطلع فجره . ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة ، أحكم ما تكون ، ونحسُّ أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون ، وهي حكمة ، وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة الا في صور لهما بدائية أولية . وهذا الادراك للحكمة ، وهذا الاحساس بالجمال في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق» .

انه يقول : « ان ديني هو اعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو ايماني العاطفي العميق بوجود قدرة

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام . وان هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله » ! . .

فالله الذي يعترف به « أينشتين » ، ( وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره ، وأحقهم بالكفر ان كان علم يدعو الى كفر ، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق ، من اغفالهم ذكر الله ) ، أعلى وأجلّ من أن يلهو وأن يريد بهذا الانسان فوق البسيطة ، النقص : نقصاً في الخلق ، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية ، نقصاً في العفاف والعفة ، نقصاً في البذل ، نقصاً في التوجه الى خالقه ومعبوده ، نقصاً في النفس . وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون .

فكان حقيقاً على الله أن يتصدى الى تكميل الانسان بارسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » [1] .

***

ان الله قد وهب الانسان من الفكر والذكاء حتى تسكن ، بما أودع من نظم ودساتير متقنة عند خلق هـذا الكون ، من أن يعلم أن كوكب ( السماك الرامح ) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه اذا أريد الاتصال به ( بالسماك الرامح ) بالراديو الآن لوصلت اليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور . ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء : ( ٣٠٠٠٠٠كم/ثانية ) ، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩ هـ أو ١٩٥٩ م طيفاً وخيالاً نقله الى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠ هـ أو ١٩٢١ م فقبل حلول سنة ١٤١٨ هـ

---

(١) سورة الأنبياء : ٧٣ .

أو ١٩٩٧ م وهو موعد وصول جوابنا الى الكوكب المذكور لا نستطيع ان نقطع فيما اذا كان ( السماك الرامح ) موجوداً حقاً . على أنا يجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى لوصول الجواب الينا . عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م . ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفنى وتبيد .

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الانسان ، قبل أن يلوث نفسه ، على التفكير في عظمة موجد هذا الكون وموجد هذا الانسان ، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله . وهذا يؤدي الى القول : بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيماً لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الانسان الى التكامل والتقدم الروحي والخلقي فيرسل أنبياءَ ومرسلين لتطهير الناس مما علق بهم من أدران : « ان الله يحبُّ التوّابين ويحب المتطهرين » ، ينيرون لهم ما ادلهمَّ عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق ، فيأخذون بنفوسهم الى حيث الكمال والخلود . فقد قال رسول الله (ص) : « انما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق » . وقد خاطبه الله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » .

***

الله الذي سخر لهذا الانسان ما في السموات [١] وما فى الأرض [٢] والشمسَ والقمر [٣] والليل والنهار [٤] والبحر [٥] والفلك [٦] والأنهار [٧]

---

(١) سخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعاً منه . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ( الرعد : ١٢ ) .

(٢) سخر لكم ما فى الارض . ( الحج : ٦٥ ) .

(٣) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين . ( ابراهيم عليه السلام : ٣٢ ) .

(٤) وسخر لكم الليل والنهار . ( ابراهيم عليه السلام : ٣٢ ) .

(٥) وهو الذي سخر البحر . ( النمل : ١٤ ) .

(٦) وسخر لكم الفلك . ( ابراهيم عليه السلام : ٣١ ) .

(٧) وسخر لكم الانهار . ( ابراهيم عليه السلام : ٣١ ) .

جلّ أن يريد بهذا الانسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبخترا : ان العلم ينتزع الفضاء وان العلم يسخر من الطبيعة وان العلم هو حـلّال المشكلات ، فيجعله معبوداً له ، دون أن يتوجه الى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون ، بخشوع وخضوع .

فالله تبارك وتعالى انما سخر لهذا الانسان ما سخر وهيأ له أسباب التعرف الى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق انسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس ودنس . وبما أن الوصول الى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير خاصل الا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى ، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل .

ولا مراء أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث ، لأنه هو خالق النفس ومبدعها . فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الانسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي ، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) . فلا تكامل ولا نجاة الا باتباع سنن الأنبياء (ع) ودساتيرهم تلك التي لم تمسها يد التحريف .

***

كان نبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وأكملهم خلقاً وخلقاً ، جاء بشريعة سمحاء ، لا تتغير ولا تتبدل ، من لدن رب العالمين ، « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة » ، وقد هدى البشرية الى طريق الحق والى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله . وقد قال الله تعالى فيه : « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر . فمن أراد أن يتطهر ويتزكى ، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم .

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم ، لتروا كيف يجب أن يقابل العبد مولاه .

نعم ، ان الديانة الاسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة ، ولكن للديانة الاسلامية غاية أعلى وأرفع وهي ايصال الفرد الى الدرجات العالية من التقرب الى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية .

فكلما طهر الانسان من الرجس وكلما عمل عملاً صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله ، تقرب الى الله وأحبه الله وقرّبه منه ، حتى يصبح مصداق هذا الحديث : « عبدي أطعني ، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون » . وفي الحديث القدسي يخاطب الله الانسان بقوله : « خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي » . وفي القرآن الكريم : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

قال رجل للصادق (ع) : ما علامة المؤمن ؟ فقال (ع) : « أن يقول للشجرة تأتي ، فتأتي » . فشقّت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الصادق (ع) .

فللانسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات : قابلية الخلق والابداع باذن الله تعالى وذلك بعد تزكية النفس ، ولكن لا على ما يتصوره الغربي ، ذلك لأن الغربي يعلم شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة ، كما يعترف بذلك كبار علمائهم . كان يقول ( گوستاولوبون ) : « قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل الى ما وراء الطبيعة » . فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة .

قام في الغرب ، مهد الفجور والفسوق ، ثلة من الناس آرادوا أن يسنوا

سنن تزكية النفوس وأسموها تطهير العقل أو غسل الدماغ ( Brainwashing ) وأخذوا يوصون أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت ، ظناً منهم أن هذه الدساتير البشرية توصل الفرد الى كمال ما [١] ، أو الى الحقيقة الواقعية ، وضنوا على أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ، تلك التعاليم التي قد جاءت من جانب الله تعالى من وراء الطبيعة ، لاصلاح نفوس ليست من المادة في شيء وتهيئتها لسعادة الدارين .

وما معنى تطهير العقل أو غسله . ان التزكية أمر نفسي تتصل بفعال النفس مباشرة . والعقل الفطري لا يحتاج الى غسل أو تطهير . « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » . وقول علي عليه السلام : « يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى » بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس طاهرة غير ملوثة بالذنوب . فاذا تلوثت انسحب العقل « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملي عليها شيطانها . فقد قال علي عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » . الا أن التوبة وملافاة ما فات ترجعان الى الانسان عقله الطبيعي الفطري ، ذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان .

ان هذا النوع من الخلق والابداع خلق فجائي باذن الله تعالى دون مقدمات . وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده . فمحمد (ص) ليس مصلحاً فحسب ، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد الى الدرجات العلى ، درجات لا يعلمها ولا يدركها الا من قطع هذا الطريق . موصل الى مقامات لا تدخل تحت مخبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي ،

---

(١) ان ما ذكر من الاعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة الى ما يميزه عن اقرانه من ملكات وقابليات جزاءاً منه تعالى في الدنيا . ولكنها رضية بشرية لا تصفي النفوس ولا تزكيها ولا تجعلها مستعدة لآخرة سعيدة . وشرح ذلك يطول .

مقامات قد يسكرها بادىء بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً الى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة .

انما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية فى عوالم النفس ، ذلك لأن الانسان انسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبزته وأثاثه . وليس من وظائف الأنبياء (ع) تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء . ذلك لأن قوانين الفيزياء والدساتير الرياضية لا تمتُّ الى النفس الانسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل تكميل النفس الانسانية . فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنياً . ثم ان قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تتناهى ، لعدم تناهي علم الله تعالى ، لذلك أوكل الله تعلم هذه القوانين الى ذكاء الانسان نفسه ، وعلّمه طرق الملاحظة والتجربة والاستنتاج والاستقراء ، فكانت هذه الدساتير التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات .

ولقد سمعت أحدهم ، كان يفاضل بين أديسن « هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي عيسى (ع) » وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم الا بالكهرباء . والناس كانوا موتى قبل ذلك !..

لم يؤتَ بهذا الانسان الى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب ، ( مع قلق لا مزيد عليه ) ، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية : التكامل : التكامل في عالم النفس ، في عالم الأخلاق ، في عالم الروح ، والتطهر من كل رجس ودنس . ولا يقدِّر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي ، منغمراً في أحضان المادة العمياء . ولا ينظر الى هذا العالم الا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب . فقد جاء في الحديث : « الدنيا مزرعة الآخرة » . وفي القرآن الكريم : « ان أكرمكم عند

الله أتقاكم » . فالنبي (ص) يعلم البشر سنن التقوى ، سنن التكامل ، سننا بها يكون الانسان ملكا من الملائكة .

فهنا حرثان ( Culture ) حرث دنيوي وحرث أخروي ، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل الى حضيض المادة « ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين ، بل آثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » . ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الاخرة ولزوم التهيؤ لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله : واليه النشور : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » .

ان الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . ( سورة الجمعة : ٢ ) .

بعثهم ليعلموا الناس الحلال والحرام ، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال .

بعثهم ليعلموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دعة وسلام مؤمنين مخبتين .

بعثهم ليعلموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات الى النور : « ان الحسنات يذهبن السيئات » .

بعثهم ليجعلوا هذا الانسان ( لو اتبع الحق وأطاع ) انسانا كاملا بالمعنى الصحيح ولتأسيس الانسانية الكاملة في هذا العالم . لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة ( Humanite انسانية ) الفيلسوف الغربي .

وليس للبشر أن يعدّل ما سنّه الله على لسان أنبيائه ، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة . ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله ، ولا تنظر هذه السنن الالهية الى حاجات بهيمية موقتة أو أمور دنيوية عاجلة فحسب ، بل تهدف الى تكميل النفس الانسانية وجعلها قمينة بالخلود في « ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر » . على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها .

ان البشرية مغرورة ، في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد . وان الاصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه الامين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . لا ادخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد (ص) الطاهر . فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الاصلاح الحقيقي في شيء .

ان الله يريد أن يطهر النفوس الانسانية ويقربها اليه ، « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » [1] . « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . فلا امكان لنيل هذه الغاية الشريفة الا أن يكون الانسان مصداق كلام علي (ع) حيث يقول : « صبروا أياماً قليلة . أعقبتهم راحة طويلة » . ولا أعني بالصبر ، الصبر على الضيم والأذى . « فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين » . (سورة المائدة : ٥٦) . بل يراد

---

(١) سورة التوبة : ١٠٤ .

بهذا الصبر ،الصبر عن الشهوات والنزوات والجلد تجاه النوائب والكوارث.

ان دين الاسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكيه وتطهير ، بنواميسه وقوانينه وواجباته مستحباته : « الذي يؤتي ماله يتزكى » . « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » . « ومن يتزكى فانما يتزكى لنفسه » .

ان تقهقر المسلمين ليس الا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله (ص) وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية . فليس الشرق بمحتاج الى الغرب الا في العلوم المادية ، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية ... الخ . ولكن الشرق ( ومع الأسف ) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والالحادية أكثر من صنايعها واكتشافاتها في عوالم المادة . فصار الشاب ( الا من عصم الله ) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن انه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر !. وقد تبلغ به الحالة الى الالحاد !. ومع الأسف . فقد باع بعض الأمم الاسلامية تلك المدنية الاسلامية القويمة لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور . حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية . على أن هنالك أمارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون الى تطبيق قواعد الاسلام عن قريب ان شاء الله ، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء .

ان التطور ذو جنبتين : تكامل الى العلى ، وتدهور الى أسفل سافلين . لكن العصري المتجدد ،يزعم ان الحياة في تقدم مستمر ،وكل شيء في تقدم .فلا تردي ولا تدهور . فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس الا نوعاً من التطور . ويجب ان تتابع القوانين الموضوعة ( الوضعية ) هذا التطور والا فالحياة غير

ممكنة ! كلا . لا تطورَ للاسلام . الاسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل من خلق من عباد . فاذا رأينا أن التيار اللاديني ( لا سمح الله ) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد ، علينا أن نسلّم لهذا الحديث : « لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال : الله » .

فيكون ، اذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينـــه ، من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أعظم . ذلك لأن الله تعالى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » . ( سورة آل عمران : ١٠٠ ) وقد فسّرت : ( الخير ) في الآية ، بالاسلام .

ففي هذا اليوم ، في كل بقعة من بقاع الأرض ، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين ، يؤدّون الفرائض ، يصلّون ويصومون ، وقد جاء في مجلة العرفان ، عن طالب كان يدرس في الغرب : أنه بينما كان يسير فى شوارع احدى العواصم الغربية واذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع ، يقول هذا الطالب : تريثت حتى أتم الشيخ أذانه ، سلمت عليه فرد عليّ السلام وزيادة ، قائلاً : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » . عملاً بهـــذه الآية الشريفة : « واذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها » . ثم تعارف معي وأدخلني داره . فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر . ثم طلبا الي أن أتناول طعام الظهر معهما . فلم يبدءا بالأكل حتى قالا : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وبعد الانتهاء من الطعام ، قالا : « الحمد لله رب العالمين » ، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم . فقال : انه استاذ في الجامعة . وبلغ مرتبة (Doyen) : شيخ الأساتذة .

فدين الاسلام ،دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم . وهذا ( برناردشو ) ، يقول : « لقد تنبأت بأن دين محمد

سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا » . وكان يقول كارليل : « باتباع التعاليم الاسلامية يصبح الانسان اماماً كبيراً لهذا المعبد : ( الكون ) » . وقال أيضاً : « كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون . فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان . وكثروا بعد القلة وعزوا بعد الذلة ، ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم » .

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الاسلام ديناً عالمياً .

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكوفة وكان ينشر أخبار محمد وآل محمد (ص) ، وكان قد حفظ سبعين الف حديث سمعها من الامام محمد الباقر (ع) . فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر ، لأن أهل البيت ( ع ) كانوا مضطهدين في العصر الأموي . وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه ، فلم يرَ بداً من أن يضع على رأسه قلنسوة من خوص ويتخذ عصا كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين ، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه ، ثم ان جابراً رجع الى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد سنتين وبلغ مراده .

فلنقتفِ آثارَ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل نشر هذا الدين : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . ( سورة الكهف : ٢٩ ) .

## كيف يختار الله أنبياءه عليهم السلام

ان الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات ، فلا ترى أيّ خلل في ما خلق ، وان جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض ، تشير الى أن خالقها واحد لا شريك له : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

وان من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى الى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة .

النبوة ليست الا سفارة ربانية يودعها الله أكملَ عباده خَلقاً وخُلقاً ، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال .

ان الله وهو الكامل على الاطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة ، وهو معطي الحكمة وحاشا أن يلهو وهو القائل : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . ( سورة الأنبياء : ١٧ ) . فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه الا الى أكمل عباده .

والله تعالى عادل ، اذ العدل صفة ملازمة للكمال ، وان الكامل غير محتاج ، ولا يحيد عن العدل الا من كان محتاجاً الى الجور والظلم ، والكامل غني عن ذلك كله ، لعدم وجود حاجة لديه الى شيء . اذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلة من الناس حتى أسند اليهم منصب السفارة

الالهية كي يقوموا بتكميل البشر وايصاله الى الكمال المنشود .

الصفة الأولى : هي طهارة المولد . ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب . فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد (ص) كانوا يتقلبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة « طابت وطهرت بعضها من بعض » . « فأسرة محمد (ص) خير أسرة [1] ، وشجرته خير شجرة ، أغصانها معتدلة ، وثمارها متهدلة ، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما . لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر » .

وفي اثبات الوصية للمسعودي شرح واف في كيفية انتقال النبوة والسفارة الالهية والوصية من لدن آدم من بطن الى بطن حتى انتهت الى محمد (ص). فنور محمد ( ص ) توارثته الانبياء حتى انتهى الى عبد الله بن عبد المطلب .

***

ثم ان الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجح بين عباده الا بالتقوى . « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالأنبياء (ع) هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم . وان محمداً (ص) كان منذ صغره وطفولته مثالاً رفيعاً للتقوى والكمال . لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا : « أن الطفل يتأثر ببيئته الى حد كبير » . فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام . ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام . فكان منذ صغره حسن الخلق ، طاهر العقيدة ، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحاكِ أترابه في لهوهم وسمرهم . ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياؤها ، لكنه مع ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها ، متقشفاً مؤثراً بساطة

(١) من نهج البلاغة ، الجزء : ٢ ص : ٧٧ .

العيش . فحببت اليه العزلة . لقد اختار غار ( حراء ) ، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال . كان يخلو فيه بنفسه أياماً ولياليَ متتابعة ، فيفكر فيه في عظمة الخالق جل جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه . انه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان . وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء الى حد بعيد . ان عزلة محمد (ص) كانت للتفكير والتأمل وذلك بالهام منه تعالى كي يزداد صفاءاً وتقربا الى الله جلت عظمته ، حتى تصبح نفسه الزكيـة على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها .

كل ما ذكرنا مؤهلات لأن تجعل محمداً (ص) فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الآبدين .

***

ان عصارة التقوى تتجلى في الشكر ، ولا صفة تقرّب العبد الى الله تعالى كالشكر . يأتي النبي (ص) الى بيت احدى زوجاته ، ينهض من فراشه ولا ينام . يتوضأ بماء قليل ، يستقبل القبلة ويصلي . وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً ، وشاكراً ربه . فتقول : « ألا تنام ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيقول صلوات الله عليه : « أفلا أكون عبداً شكورا » .

ان الشكر على ضربين . شكر لساني وقلبي ، وشكر عملي . فاما اللساني : أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه ، وأن لا يفتر عن ذلك . وأما الشكر العملي ، فيتجلى في الأعمـال الصالحة والقيام بمبرّات وأعمال خيرية والايثار والجهاد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك . وان رسالة الحقوق لمولانا

الامام زين العابدين عليه السلام توضح ذلك . فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم» .

نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية . ولا تودع السفارة الالهية نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق ، لأن هذه الأمور لا تمت الى النفس بصلة . وانما النبوة قضية نفسية بحتة ، كما أن الايمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب ، بل تدخل نفوساً شاكرة لله ، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحق ، فلا تتكبر عن الاذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل . فان أصول الكفر ثلاثة : « البخل والحسد والكبر » كما جاء في الحديث .

كان محمد (ص) مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته ، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه . والمعروف أن فترة الشباب من عمر الانسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان الى الشهوات . ولكن حياة محمد (ص) في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين . ولذلك لم يجد قومه عند ما اشتد الخصام بينهم وبينه ، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته ، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية . فقد كانت دعوته قائمة على اشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة ، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة . فاذا نفذوا الى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضوا عنه . وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي ، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها . واذا أضفنا الى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية [1] استطعنا أن نفهم قوة ارادة

(١) لذلك يستحب التبكير فى الزواج . وفى الحديث : «من تزوج احرز نصف دينه فليتق الله فى النصف الآخر» . وفى آخر : «ما بنى بناء احب الى الله تعالى =

محمد (ص) في ضبط نفسه فى شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثالاً للطهارة والعفة . وطهارة النفس وخلوها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين . يقول (السير وليم موير) : « ان النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها » .

فمن كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفة الى حد بعيد ، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتسال والرزانة . وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة . فقد اكتفى بخديجة (ع) وهي أكبر منه ١٥ سنة الى أن بلغ ٥٤ من عمره . ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث شاهد الرسول (ص) مغموماً على فراق خديجة (ع) ، ثم تزوج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتاب المسيحية المنصفين فقالوا : « انه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الاكثار من زوجاته في هذا الوقت الا الرحمة والشفقة . ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة ، لأن من تزوج منهن كن متقدمات في السن وأرامل فقيرات » .

لا سيما وان الرسول قد أمر بالتهجد واحياء بعض الليل بصلاة وتلاوة القرآن ومناجاة ربه ، وما أعظمها ، وذلك لقوله تعالى : « يا أيها المزمل [1]

---

= من التزويج » . ويكره أن تحيض البنت فى بيت أبيها . ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء : « اللهم اني اريد أن أتزوج ، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً واحفظهن لي فى نفسها ومالي واوسعهن رزقاً واعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيبا تجعله خلفاً صالحاً فى حياتي وبعد موتي » .

(١) أي المتزمل . ادغم التاء فى الزاء . من تزمّل : اي تلفف بثيابه . خوطب به (ص) لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل . فقال : زملوني . أو من : تزمل الزمل أي تحمل الحمل ، أي المتحمل لأعباء النبوة .

قم الليلَ الا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً » . ثم يقول : « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار » . وقد ثبت من حياته صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه . فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب ؟

وكان في استطاعة الرسول (ص) أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل ، لكن رضى ببساطة المسكن والملبس ، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة . ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن يتقلبن فى النعيم شكون اليه ، وكنّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن ، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الاسلامية . فنزل قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرّحكنّ سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكنّ أجراً عظيما » .

***

وقد قلنا ان من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً الى الله تعالى وموضع لطفه ورفده انما هو ( الشكر ) . ذلك لأن الكمال الانساني انما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم ، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق : « وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

ان المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا ، يعترضون على ايمانهم ، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم : ازدراءً : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » . وقد فاتهم ان الايمان أمر

روحي ، يتوجه الى النفس الانسانية مباشرة ، ولا علاقة له بالمال والجاه . الايمان يحلّ في النفوس الشاكرة . فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان ايمانها أقوى وأمتن . حتى ينتهي الى الوصاية والنبوة . والنفس الشاكرة ليس لها أمارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه . وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون .

نعم ، ان هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون : « لو كان خيراً ما سبقونا اليه » . أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا اليه هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم . كأن الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب . حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الانسانية عن أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به ، ولم تؤدّ حقوقها وواجباتها ، وقل من يقوى عليها الا من رحم الله .

روي أن أبا جهل قال : « زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يوحى اليه ، والله لا نرضى به الا أن يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت هذه الآية : « واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار" عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكسبون » . فان هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء . حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم . « وان الله ليس بظلاّم للعبيد » . فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء . من أطاع منهم بلغ مراتب عالية حتى تنتهي الى النبوة أو ما يقارب النبوة ، وقد جاء في الحديث القدسي ، أن الله تعالى يقول : عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون » . أرأفة أعظم من هذه ؟ يعطي الله عبده

اذا أطاعه صفة الخالقية والايجاد باذنه تعالى : يقول للشيء كن ، فيكون . وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء (ع) باذن الله تعالى وقدرته جل وعلا .

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتر عن التوجه الى الله ومناجاته تعالى وذكره جل وعلا طرفة عين أبداً . لا ترى شيئاً الا وترى الله معه وقبله وبعده .

ان النبي (ص) كان لا يقوم بعمل الا ويذكر الله تعالى . يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه . فاذا جاءه أمر يحبه ، قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » . واذا أتاه أمر يكرهه ، قال : « الحمد لله على كل حال » . وان قصد فعل شيء ، قال : « اللهم خر لي واختر لي » . وان أراد سفراً ، قال : « اللهم بك أصول وبك أجول » . واذا أراد نوماً ، قال « اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه» . واذا استيقظ قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » . وان لبس ثوباً جديداً ، قال : « الحمد لله الذي رزقني ما أتجمّل به في حياتي » . وان أكل ، قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين » . وان شرب ، قال : « الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا » . واذا أفطر ، قال : « الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت » . واذا رفع بصره الى السماء ، قال : « يا مصرّف القلوب ، ثبّت قلبي على طاعتك » . واذا أصابه همّ ، قال : « حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرزاق من المرزوقين ، حسبي الذي هو حسبي ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

فهذه الصفات هي بعض ما يجب ان يتوفر في من ينـاط به تكميل الناس أجمعين .

ثم ان قدسية النفوس لتؤثر فى سيماء الأبدان فتضفي عليها نورا وبهاءاً، من شاهدها ابتهج وسكن اليها وآمن بها ، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله . فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر . ولذلك كان يأتيه بعض الأعراب ، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيّاه : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

ولا مراء . أن الصدق يصاحب الخير والبر ، والكذب يساير الفجور والشر . وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها ، تعلم من النبي (ص) أنه الصادق البار . تقول للنبي (ص) حين جاءه الوحي « والله لا يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسي المعدم وتعين على نوائب الحق » .

قال ابن سعد في الطبقات : « كان محمد (ص) قبل النبوة ، أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما رؤى ملاحياً [1] ولا مماريا [2] أحداً حتى سماه قومه الأمين » .

وكان رسول الله وهو الذي بُعث رحمة للعالمين : يجلس على الأرض تواضعا وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم اذا أعيى ، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيّع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل

---

(١) منازعاً : وفى المثل من لاحاك فقد عاداك

(٢) مجادلا .

في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر اليهم ، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم الا بما أمر الله ، يقبل معذرة المعتذر اليه . وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن ، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكل ولا في ملبس ، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق ، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة الا قام معه في حاجته ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح ، ويبدأ من لقيه بالاسلام ، وادا لقي مسلما بدأه بالمصافحة . وكان لا يجلس اليه أحد الا خفف صلاته وأقبل عليه وقال : « ألك حاجة ؟ » . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة . وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه . ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته . وكان في الرضا والغضب لا يقول الا حقاً ، واذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها . واذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف .

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدهم بأساً وأكثرهم حياءً .

لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه ، الا اذا كان نبياً أو وصي نبي او بالاحرى من كان جزاؤه النبوّة او الوصاية . نعم إن صفات الكمال لا تصدر الا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشهوة ، وحبّ الصيت واستمدّت من النور الالهي والهداية الصمدانية .

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى . وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول : « زمّلوني »

فكان يغطى الى أن يذهب عنه الروع . لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله : « يا أيها المزمّل قم الليل الا قليلا » .

ولما قدم ( جارود ) على النبي (ص) ، قال : « ان كنت نبياً فأخبرني عما أضمرت » . فخفق الرسول خفقة كأنها سِنة ، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه . فقال : « انك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الاسلام . ألا وان دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود ، ولا حلف في الاسلام ، ألا وان أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة » .

***

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية ، ففسروا القرآن متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرئيل عليه السلام . وأنكروا وجود الجن . وقالوا ان روح محمد قد بلغت مرتبة من السموّ حتى صارت تتجلّى لها الحقائق ، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل . وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم ، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة . ذلك لأن الروح الانسانية مهما تعرفت على حقائق المادة ، ليس لها اذا أرادت التكامل في عوالم النفس الا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة . ولابد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء (ع) : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء ، انه عليم حكيم » . ( سورة الشورى : ٥١ ) .

***

ان النفس القدسية التى لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تميل الى الدنيا وزخارفها وتتوجه الى الله تعالى بكلها . فنبينا

محمد (ص) أعرض عن زخرف الدنيا وغضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز الى عذار [١] الفرات ومن أقصى اليمن الى شحر [٢] عمان وهو أزهد الناس في ما يقتنى ويدخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويمتكر . أتى يوماً الى داره ، فرأى ستاراً قد علق على الباب ، فقال : « ارفعوه ، انه ليذكرني الدنيا » !..

ويقول فيه السير ( وليم موير ) : « امتاز محمد (ص) بوضوح كلامه ويسر دينه ، وانه أتمّ من الأعمال ما يدهش الألباب . فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الانسانية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم » .

نعم ، يجب أن يكون النبي محقّراً للدنيا ، متوجهاً الى العالم الأعلى ، نفسه في اللاهوت وبدنه في الناسوت . فالدنيا ، كما يقول علي عليه السلام : « دار مجاز والآخرة دار قرار ، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره » .

أنظروا كيف يصف عليّ (ع) نبينا محمداً (ص) : انه يقول : « قد حقّر الدنيا وصغّرها وأهونها وهوّنها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً . فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو منها مقاماً . بلّغ عن ربه مُعذراً ، ونصح لامته منذراً ، ودعا الى الجنة مبشراً . نحن شجرة النبوة ومحطّ الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم . ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة ، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة » .

لقد دخل على رسول الله (ص) بعض الأعراب فارتاع من هيبته . فقال : « خفّض عليك ، فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وكان صلوات

---

(١) العذار من النصل : شفرتاه . او جانب اللحية او الشعر الذي يحاذي الاذن .

(٢) شحر عمان : ساحل البحر بين عمان وعدن .

الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه ، فلا يتميز عنهم الا باطراقه وحيائه وجليل سمته وروائه .

وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة ، فاخترط أعرابي سيفه عليه ، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه . فرجع الأعرابي الى قومه قائلاً « جئتكم من عند خير الناس » .

ومن صفاته الخارقة : أنه صلوات الله عليه كلما رجع الى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد ، فافتقده رسول الله (ص) بعد أيام ، اذ رأى أنه لا يقوم بعادته ! فقيل انه مريض . فعاده في مرضه ، فذاب هو وزوجته حياءاً وخجلا وأسلما .

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الانسان كالبهيمة أو أحط منها ، فليتمسك ببعض هذه الصفات الجليلة ، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفةً بالله تعالى .

لابد لهذا الانسان من أن يسير سيره التكاملي ، ولا تكامل الا بجعل سيرة النبي محمد (ص) مثالاً رفيعاً يقتدى به . فالانسان ان لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة . ولا مراءَ أن الانسان انسان بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور . اذ التكامل أمر نفسي . فطوبى لمن لم تغرّه المادة وتشويهاتُ الماديين الذين اذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الانسان استعباداً ما بعده استعباد .

***

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد صلى الله عليه وآله شخص يطيعه اطاعة تامة كاطاعة محمد (ص) ويقوم بواجب الشكر كما يقوم

به محمد (ص) . وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعته نفس محمد (ص) . لذلك يخاطبه الله تعالى : «وانك لعلى خلق عظيم[١]» . فيختم به النبوة والرسالة ، ويرسل معه دساتير خالدة ما بعدها دستور ، دساتير تؤدي الى سعادة الدارين : « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة » . وذلك بقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما[٢] » .

وحاشا لله أن يصدّ سائر الناس عن البلوغ الى هذه المرتبة من الكمال ( أي النبوة ) بعد محمد (ص) . ولكنه تعالى علم بما سيكون . وان العلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى . والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً . اذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه . فان العلم لا ينافي الاختيار . « وما كان لنا عليكم من سلطان ، بل كنتم قوماً طاغين » . ( سورة الصافات ) . وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر . فالله لطيف بعباده ، يهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لعدم إطاعتهم يبتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون : «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » . ( أي تكذبون — الانعام : ١٤٧ ) . ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبةً من الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني اسرائيل . كما في الحديث : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » .

***

يقول علماء الاجتماع : ان النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي : أي أن العظيم يأتي متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي . انهم يقولون : اذا ظهرت

(١) سورة القلم : ٣ .
(٢) سورة الاحزاب : ٤٠ .

في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار ، ظهر الفيلسوف الحكيم ! لحلّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب • واذا طغت موجة من موجات الفتح فى بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد • وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الانساني • ويقولون ان العظيم انما يبرز فى ناحية واحدة •

فكيف • اذن ، ظهر محمد (ص) في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقولها : « وكنتم على شفا حفرة من النار • مذقة (١) الشارب ونهزة (٢) الطامع وقبسة العجلان (٣) وموطىء الأقدام (٤) ، تشربون الطرق (٥) وتقتاتون القِد (٦) ، أذلة خاسئين • تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا والتي (٧) » ، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافا لما يقوله علماء الاجتماع • • ذلك امر رباني ومعجزة إلهية •

ان قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر العادي أو فوق العادي بقليل • وان الله تعالى اتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال ، كي لا يقال : ان التدرج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى الى ايجاد نابغة من النوابغ أو جهبذة من الجهابذة •

---

(١) أي شربته .
(٢) النهزة ، بالضم أي الفرصة .
(٣) القبسة ، بالضم : شعلة من نار تقتبس من معظمها والاضافة الى العجلان لبيان القلة والحقارة .
(٤) مثل يضرب للمغلوبية والذلة .
(٥) الطرق ، بالفتح : ماء السماء الذي تبول فيه الابل وتبعر .
(٦) سير يقد من جلد غير مدبوغ . أو الشيء المقدود . قدد اللحم : جعله قطعاً وجففه .
(٧) كنايتان عن الداهية الصغيرة والكبيرة . واللتيا تصغير ( التى ) .

على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل النفس ، كما نشاهد ذلك في الغرب . بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي .

ثم يجب أن لا يعزب عن البال أنه لا نسبة بين النوابغ والأنبياء (ع) . اذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع : نبوغ فكري في خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلا منه . ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية . حين أن النبوة سموّ روحاني وتقرب الى الله تعالى الى درجة تؤدي بلطف الله ومشيئته واذنه الى خوارق يعجز عنها النوابغ كلهم أجمعون .

النبوغ كما يصفه ( بوفون ) دقة متناهية ، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية ( أعني الفكرية ) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوابغ هم من أحط الناس في عالم تكامل النفس . اذ لا رابطة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض ، وبين الكمال النفسي . الا اذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليتها بالفضائل . وان المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع ان القضية ثابتة بطريق عقلي :

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في احدى العواصم أنه رأى ذات ليلة استاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها ، ثملاً فاقد الشعور ، قال : فلم استطع أن أرى استاذي في هذه الحالة المخزية ، فحملته في سيارة الى فندق كان يسكنه وأخذت أعالجه حتى صحا ، فقلت ما هذا يا دكتور ؟! ووصفت له ما كان به ، فقال : « أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة ! » . وقال أيضاً : رأيت دكتوراً آخر في الآداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية ولا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد . وكان

في احدى الجامعات استاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ ، ذا مؤلفات مهمة عميقة ، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات ، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات . وقد طلبت اليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بازاء مبلغ جسيم ، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح لا يرى مدة شهرين . فعلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب من جراء ذلك بمرض زهري مميت ( سيفيليس ) فأدى به الى الجنون ومات في دار المجانين .

نستنتج مما ذكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الارادة بصورة موجبة ، تلك الارادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادها . فان النفس الانسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة . فان وجهتها نحو الرياضات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وان وجهتها نحو تتبعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أحط من نفس البهائم . « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

فلا علاقة بين النبوغ في ناحية علمية للتطلع على خواص المادة او على طباع المجتمع ( نفسيات المجتمع ) ومظاهر الفرد ، وبين سمو النفس وتكاملها . وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لا سيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر . يرى الشاب أن استاذه الغربي يقول ( مثلاً ) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين ، أو ان ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس الى احدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً

متساوية . ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة . فيزعم أو يوقن شابنا المتعلم أن كل ما يقوله استاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح ، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه . فينقاد الى رأي استاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه فى عقائده ونفسياته المادية . ومن هنا اوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبلبل في العقائد والأخلاق والآداب الاسلامية المثالية.

نعم ، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا تسندها دساتير رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لا سيما اذا نظر اليها من الخارج ، فظنّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح ، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من رياضياته وطبيعياته وصنايعه ، بل أخذ من أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعته ومراقصه ومجونه وطيشه وترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها ، ذلك لأن النفس ميالة الى التسافل والتدنس . وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة الى الشهوات أو الراحة . والنفس الأمارة بالسوء ميالة الى التجرد من القيود . وليست وسائل تكميل النفس الا قيوداً ! والنفس تستسيغ الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية . فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها . لذلك كله دبّ في الشرق التبلبل وتشتت الأفكار والآراء : بين مغال يريد قلب البلاد الاسلامية الى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة فى الحياة المادية . فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية ويقيسها بمقياس مادي مقتضب ، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس ( پاري ) لماذا ظهر الأنبياء كلهم من الشرق ولم يظهر نبي في الغرب ؟ وان ما أسلفناه من الشروط والشروح كافٍ لمن توخّى الحقيقة .

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وانما هي روحية بحتة . « ثم ان أوروبا كانت وسطاً مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم [1] وان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وأننا نحن البشر مجبرون على اتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقر الحاجة الى خضوع ما ، الا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، ولكنه الرفاهية : ( Confort ) وان هذا موروث عن المدنية الرومانية القديمة . وليس هناك وجه شبه بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية ، وان عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة وللحضارة . ادراك مادي هذبه ذوق فكري . ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية . ان الرومانيين لم يعرفوا الدين وان آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة عن أن تمنح البشر شرائع خلقية . تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف [2] الغربي للحياة والأخلاق يرجع الى المدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني ، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث . ولم تؤثر المسيحية في أوروبا ولم تلطف شيئاً من جوها المادي ، ان الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق وكأن الغربي يقول : بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب ، لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد ، فان من الخير لنا أن نحصر

---

(١) من كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » تأليف ( ليوبولدفايس ) الذي قد تشرف باعتناق دين الاسلام .

(٢) استشرف : رفع بصره لينظر اليه باسطاً كفه فوق حاجبه .

قوانا في وجوه امكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن تتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية ! » .

فاخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات ! نعم أراد الغربي أن يجد دساتير الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر . وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الانسان انسانا .

فكيف — مع ما قدمنا من مقدمات — ينتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا .

الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الانسانية ومهبط الوحي . نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء (ع) أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله ملائكة السماء .

***

والوصي ، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي ( عدا تلقي الوحي ) وليس بنبي ، مستجمع لصفات النبي وكمالاته . فهو معصوم ، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه ، ذلك لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرها تسقط منزلته من النفوس ، فلا يكون رادعاً لها . فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له المام بروحيات المجتمع والجماعات . وقد دلت الأخبار القطعية ان الأئمة : من لدن أمير المؤمنين (ع) الى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزهين عن كل عيب خَلقي أو خُلقي ، معصومين عن كل ذنب ، « كانوا مصابيح الدجى [1] وأعلام التقى وذوي النهى وأولى الحجى [2] وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى

---

(١) مقتبس من زيارة : ( الجامعة ) .

(٢) النهي أو الحجى : العقل .

وحجج الله على أهل الدنيا ، كانوا الأدلاء على مرضات الله والتامّين فى محبة الله والملخصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه ، كانوا خزنة لعلمه ومستودعا لحكمته وتراجمة لوحيهومنارا في بلاده وأدلاء على صراطه» يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام : « انه ليس على الامام الا ما حُمِّل من أمر ربه ، الا البلاغ في الموعظة والاجتهاد فى النصيحة والاحياء للسنّة واقامة الحقوق على مستحقيها واصدار السهمان [١] على أهلها » • ويقول علي (ع) في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام : ( هم ) موضع سره ولجأ أمره وعيبة [٢] علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه ، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه ، الى أن قال (ع) : « لا يقاس بآل محمدٍ (ص) في هذه الأمة أحد ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً • هم أساس الدين وعماد اليقين ، اليهم يفيء الغالي [٣] وبهم يلحق التالي • ولهم خصائص حق الولاية • وفيهم الوصية والوراثة • الآن اذ رجع الحق الى أهله ، ونقل الى منتقله » •

وقد قال علي (ع) أيضاً [٤] : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا • أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم • وأدخلنا وأخرجهم • بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى • ان الائمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم • ولا تصلح الولاة من غيرهم » •

---

(١) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب واصدار السهمان اعادتها الى اهلها المستحقين لها لاينقصهم منها شيئا .

(٢) الوعاء .

(٣) يريد ان المغالي يرجع اليهم ليعتدل ، فان النجاة بالرجوع اليهم .

(٤) من نهج البلاغة ص / ٣٦ ، الجزء الثاني .

وقد قال (ع) أيضاً : « وانما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده ، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه » .

وقال عليه السلام : « نحن الشعار [١] والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت الا من أبوابها . فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقا . فيهم ( يعني آل النبي ) كرائم [٢] القرآن وهم كنوز الرحمن ، ان نطقوا صدقوا وان صمتوا لم يُسبقوا » [٣] .

وقال عليه السلام يصف فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « هم عيش العلم وموت الجهل . يخبركم حلمهم عن علمهم ( وظاهرهم عن باطنهم ) وصمتهم عن حِكَم منطقهم . لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام وولائج [٤] الاعتصام . بهم عاد الحق فى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه . وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقلَ وعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورُعاته قليل » [٥] .

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد (ص) وختم الوصاية بالأئمة (ع) من بعده . فرسول الله محمد (ص) أكمل الأنبياء وخاتم النبيين . وأوصياؤه ، وهم اثنا عشر اماماً ، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين . وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد صلى الله

---

(١) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي (ص) .

(٢) جمع كريمة والمراد انه قد نزلت فى مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم .

(٣) فى الجزء الثاني من نهج البلاغة فى الصفحة : ٥٨ .

(٤) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر او برد او توقياً من مفترس .

(٥) الجزء الثاني من نهج البلاغة فى الصفحة : ٢٥٩ .

عليه وآله وسلم . لأنه من اعطي صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري . ان الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد (ص) وأولاده المعصومين (ع) . وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة . فطوبى لنفوس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه ، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم . وقد روى أحمد والترمذي : قال رسول الله (ص) : « اني تارك فيكم الثقلين : أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي . وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا بِمَ تخلفوني فيهما » . وقال ابن حجر في صواعقه : قال رسول الله (ص) : « اني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان تبعتموهما : وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي » وزاد الطبراني : « اني سألت ذلك لهما ، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم » . وفي حديث آخر : « ان مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح . من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك » [١] .

فلا كمال لهذا البشر الا بانتهاج مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس الا بولائهم ومودتهم : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » [٢] .

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده وغيره بطرق عدة .

(٢) سورة الشورى : الآية : ٢٣ .

# دروس النبي «ص» في ساعاته الاخيرة [١]

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبدالله (ص) هذه الدنيا الفانية ، ويلقي على أمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية . وقد علم رسول الله (ص) بدنوّ أجله بأمارات كانت تشير الى ذلك . منها أن جبرائيل ، كما روى ابن سعد في الطبقات ، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة . فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين . ومنها نزول آية : « انك ميت وانهم ميتون » ، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك ، فنزلت سورة النصر : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبّح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » . فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها ، فيقول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب اليه . فقيل له في ذلك . فقال : أما ان نفسي نعيت الي ثم بكى بكاءاً شديدا . فقيل له يارسول الله أو تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد ؟ وأين القيامة والأهوال ؟.. لذلك اعتكف [٢] صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان : العشر الأواخر .

وروى أبو اسحاق الثعلبي أن رسول الله (ص) لما مرض قال لابنته فاطمة (ع) : أدني مني . فأكبّت عليه ، فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تهملان ، فقال لها أدني مني فدنت فأكبت عليه . فناجاها ، فرفعت رأسها

---

(١) القيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧ هـ .

(٢) الاعتكاف : هو اللبث في المسجد بقصد العبادة . وهو مستحب مؤكد . له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية .

وهي تضحك ، فعجبنا لما رأينا ، فسألناها ، فأخبرتنا : أنـه نعى اليها نفسه ، فبكت ، فقال يا بنيّة ، لا تحزني . فاني سألت ربي أن يجعلك أولَ أهل بيتي لحاقاً بي . فأخبرني أنه استجاب لي ، فضحكت .

ثم دعا رسول الله (ص) الحسن والحسين ، فجاءا يصيحان ويبكيان ، فوقعا عليه . فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان ، ثم أغمي عليه ، فأراد علي (ع) أن ينحّيهما عنه ، فأفاق . وقال يا علي ، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني ، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان .

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس ، فاجتمعوا ، فخرج معصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : معاشر أصحابي ، أي نبي كنت لكم ، ألم أجاهد بين أظهركم ، ألم تكسر رباعيتي ، ألم يعفّر جبيني ، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت (١) لحيتي ، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي ، ألم أربط حجر المجاعة على بطني ، قالوا بلى يا رسول الله ، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً . فجزاك الله عنا أفضل الجزاء . قال : وأنتم فجزاكم الله ، ثم قال : ان ربي عز وجل حكم وأقسم : أن لا يجوز ظلم ظالم ، فناشدتكم بالله ، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة الا قام فليقتصّ منه في دار الدنيا ، فهو أحب الي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء . فقام اليه رجل من أقصى القوم ، يقال له سوادة بن قيس ، فقال له : فداك أبي وأمي ، يا رسول الله ، انك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق (٢) ، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني ، ولا أدري عمداً أو خطأ ، فقال معاذ الله أن أكون تعمدت . ثم أرسل بلالاً الى بيت فاطمة (ع) . فأتى بالقضيب وناوله رسول الله (ص) . فقال رسول الله (ص) : أين الشيخ ، فقال ها أنا ذا

---

(١) لثقت : ندبت (٢) الممشوق الطويل الدقيق .

يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : فاقتص مني حتى ترضى ، فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله ، فكشف عن بطنه • فقال الشيخ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ فأذن له ، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار ، فقال رسول الله يا سوادة : أتعفو أم تقتص • فقال : بل أعفو يا رسول الله • فقال ( ص ) : اللهم اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد •

وقد ألقى النبي (ص) درساً بليغاً حين خرج الى المسجد ، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة ، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى ، حتى صعد المنبر ، فقال : « معاشر الناس ، قد حان مني خفوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندي عِدة فليأتني أعطه إياها • ومن كان له عليَّ دين فليخبرني به ، معاشر الناس ، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً الا العمل ، أيها الناس لا يدَّعِ مُدَّعٍ ولا يتمنَّ ، متمنٍّ ، والذي بعثني بالحق نبياً ، لا ينجي الا عمل مع رحمة واو عصيتُ لهويت » •

وان رسول الله (ص) بعد تحققه من دنو أجله ، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين ، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه ، ويوصيهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم • روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) انه قال : « اني أوشك أن أدعى فأجيب ، واني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي • وان اللطيف الخبير أخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » • وقال في مقام آخر ، على ما جاءت به الرواية على اتفاق واجماع : « يا أيها الناس ، اني فَرَطُكم ، وأنتم واردون عليَّ الحوض ، ألا اني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فان اللطيف الخبير نبأني

أنهما لن يفترقا حتى يلقياني . وسألت ربي ذلك فأعطانيه . ألا واني قد تركتهما فيكم : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم » . ثم ان رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه ، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع الى طريق الحق والسعادة الأبدية ، لا مجال لذكرها .

وأخذ يثقل حال رسول الله في مرضه ، فقال ادعوا لي علياً ، على ما يرويه الطبري ، فدعي ، فلما دنا منه ، أومأ اليه فأكبّ عليه ، فناجاه طويلاً ، ثم قام فجلس ناحية ، حتى أغفى رسول الله (ص) . فلما أغفى خرج ، فقال له الناس : ما الذي أوعز اليك يا أبا الحسن ، قال : علمني الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب . ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الالقاء بمقاييس عادية متعارفة ، لان قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية ، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس مادية متعارفة ، لا سيما اذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية .

ثم حضر رسول الله (ص) الموت وعلي عنده ، فلما قرب خروج نفسه قال له : ضع يا علي رأسي في حجرك ، فقد جاء أمر الله ، فاذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولّ أمري وصلّ عليّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي ، واستعن بالله .

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر ، وأخذت فاطمة تقول : وا أبتاه من ربه ما أدناه ، وا أبتاه جنان الخلد مأواه ، وا أبتاه ربه يكرمه اذا أتاه . ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول :

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

صبّت علي مصائب لو أنها ... صبّت على الأيام عدن لياليا

# سيدة النساء «ع» (١)

كثيراً ما يعرض علينا الكتاب مثلاً عليا عن رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن ، وقلما نجد مثلاً عليا عن السيدات . فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) هي احدى النساء الكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الانساني . فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) : قال : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم ابنة عمران . وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » . وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال : « قال رسول الله (ص) سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » . وروى مسلم في صحيحه والامام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي (ص) فاطمة (ع) انه قال : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة » . وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للامام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً الى أن قال : « قال رسول الله (ص) : هذا ملك من الملائكة لم يهبط الى الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه في أن يسلم علي ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين » .

ولم تزل فاطمة (ع) بعد أبيها رسول الله (ص) بادية الحزن ، معصبة الرأس ، ناحلة الجسم ، لم تُرَ ضاحكة ولا مبتسمة ، فلم تعش بعد أبيها الا خمسة وسبعين يوماً . وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام . وتقام تخليداً لذكراها واظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات . فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسّى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم . فان الناس الى تكميل نفوسهم أحوج من املاء بطونهم . وان

(١) القيت في ١٤ ج ١/١٣٦٧ هـ .

المدنية الحاضرة لا تعمل الا لأجل اصلاح الظاهر واملاء البطون • بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق الى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء •

قد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني : كان رسول الله (ص) اذا رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم ثنّى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه • وبسنده عن ابن عمر أن النبي (ص) : كان اذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة واذا قدم من سفر كان أول الناس به عهداً فاطمة • وفي الاستيعاب بسنده : سُئلت عائشة : أي الناس كان أحب الى رسول الله (ص) قالت : فاطمة ، قلت فمن الرجال ؟ قالت : زوجها ، ان كان ما علمته صواماً قواماً » •

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة : ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) من فاطمة • وكانت اذا دخلت عليه قام اليها فقبّلها ورحّب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه ، وكانت هي اذا دخل عليها قامت اليه مستقبلة وقبلت يده •

وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة الفجر ويقول : « الصلوة ، يا أهل البيت ، الصلوة ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » •

وقال الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها ، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم وتكثر الدعاء لهم ، ولا تدعو لنفسها بشيء • فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ، فقالت : يا بني ، الجار ثم الدار •

وروى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله (ص) قال : فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني • وعن كنز الدقائق : « ان الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها » • ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم

في المستدرك أنه اذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب : يا أهل الجمع ، غضّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد (ص) حتى تمر . كيف لا يكون كذلك وان فاطمة (ع) ، كما روى الصدوق في العلل عن علي (ع) ، قد استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرّت ثيابها ، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها ( أي اسودت ) ، فأصابها من ذلك ضرر شديد ، فقال لها علي (ع) لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً [1] فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحيت وانصرفت . فعلم النبي أنها جاءت لحاجة ، فغدا علينا . ونحن في لحافنا ، فأردنا أن نقوم ، فقال مكانكما ، فجلس عند رؤوسنا ، فقال يا فاطمة ، ما كانت حاجتك أمس ؟ فأخبره علي (ع) ، فقال : أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم ، اذا أخذتما منامكما ، فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبرا أربعاً وثلاثين ، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت : ( رضيت عن الله ورسوله ) ثلاث مرات . وروى ابن حجر في الاصابة نحوه ، ثم قال : قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ، فقال له ابن الكوا ولا ليلة صفين فقال : قاتلكم الله ولا ليلة صفين .

وفي المناقب عن الحسن البصري انه قال : ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة ، كانت تقوم حتى تورّمت قدماها . وعن أبي جعفر (ع) قال : ما عبدا لله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله (ص) فاطمة (ع) . وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يوم مسحاً ( وهو كساء معروف ) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين (ع) قلبين ( أي سوارين ) من فضة ، فرجع ولم يدخل عليها . فظنت أنه من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلبين

(١) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا : المؤنث .

عن الصبيين فقطعتهما ، فبكى الصبيان فقسمته بينهما ، فانطلقا الى رسول الله (ص) وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله منهما وقال : « يا ثوبان ، اذهب بهذا الى بني فلان ، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب ( هو سن دابة بحرية ) وسوارين من عاج ، فان هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا » ..

وروى الصدوق في الأمالي ، قال : كان النبي (ص) اذا قدم من سفر بدا بفاطمة ، فدخل عليها ، وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفرة . فصنعت فاطمة مسكتين من ورق ( أي فضة ) وقلادة وقرطين وسترا للباب ، لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها ، فوقف أصحابه على الباب ، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه ، حتى جلس عند المنبر ، فظنت ، فاطمة أنه انما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعت ذلك وبعثت به الى رسول الله (ص) ، وقالت للرسول : قل له : « تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله » فلما أتاه ، قال : ( فعلت فداها أبوها ) ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافرا شربة ماء » . ثم قام : فدخل عليها .

وعن جابر الأنصاري (رض) : أنه رأى النبي (ص) فاطمة وعليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله (ص) ، فقال : « يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة » ، فقالت : يا رسول الله : الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه . فأنزل الله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

وقال لها النبي (ص) ذات يوم : أي شيء خير للمرأة ؟ قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، فضمها اليه وقال : ذرية بعضها من بعض ،

ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام الا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحات وطاعاته دون عجب ورياء الى الله تقرباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم . فاذا خطبت أتت بالدر المنثور . ومن قولها سلام الله عليها : « الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم والاها ، جمٌّ عن الاحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الادراك أبدها . ( الى أن قالت ) : الممتنع عن الابصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الاشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها ، كوّنها بقدرته وذرأها بمشيئته ، من غير حاجة منه الى تكوينها ولا فائدة لـه في تصويرها . الا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته واظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته واعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ، ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم الى جنته » ، ( الى أن قالت ) : « كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به أشياعه ، قائد الى الرضوان اتباعه . ومؤدٍّ الى النجاة استماعه ، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبياناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة ، فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلوة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق ، والصيام تثبيتاً للاخلاص والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وامامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للاسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة ،

وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة ايجاباً للعظة » (١) .

فالى التأسي بهذه المكارم الرفيعة والأخلاق الملكوتية أدعو اخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، ففي اتباعها الكمال النفسي المرجو ، ذلك الكمال الذي لابد للانسان من أن يقطع مراحله وان يسمو بنفسه الى حيث أراد الله تعالى . فان الله لم يخلق هذا الانسان الا ليتكامل نفسياً . ولذلك أرسل أنبياء (ص) وعيّن أوصياء (ع) . وان فاطمة الزهراء (ع) المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وللاسلام فلسفته الخاصة . قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي الى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وللاسلام تعاليمه الاخلاقية ونظمه الاقتصادية ، قد جاءت من وراء المادة ، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين . والاسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » . أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية .

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لاصلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الانسانية « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى . وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي الى الكمال المنشود ، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر الى الكمال !...

---

(١) ان هذا الخطاب لطويل . اقتبسنا منه شيئاً يسيراً .

# المأثور عن رياضيات علي عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول الى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلاهم كعباً وأكثرهم زهداً . فقد قال عليه السلام : « علمني رسول الله الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب » . ان هـذا النوع من التعليم لا يتوصل اليه الا من زاول تزكية النفس وتطهيرها . ولا يعلم كيفية : انفتاح الف باب من العلم من كل باب ، الا من أيقن : ان العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء . وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك . ولا يقوى عليـه الا الأفذاذ الأقلون . « وقليل من عبادي الشكور » . وقد قال الله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . وجاء في حديث : « المؤمن ينظر بنور الله » فعلمُ علي علم يستطع من نور أودعه الله فيه . فقد قال رسول الله (ص) : « من أراد أن ينظر الى آدم في علمه والى نوح في عبادته والى ابراهيم في خلته والى موسى في هيبته والى عيسى في زهده والى يحيى في ورعه ، فلينظر الى علي بن أبي طالب ، فان فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء » .

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار : « ان هاهنا علماً جماً لو أصبت له حملة » . وقال عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » . وقال (ع) : « سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سفط العلم . هذا لعاب رسول الله ، هذا ما زقني رسول الله زقاً » . وقال أيضاً : « سلوني ، فان عندي علم الأولين والآخرين . أما والله لو ثنيت لي الوسادة ، وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيَّ بحكم الله ويقول : يا رب ، ان علياً قضى بقضائك » الى آخر ما قاله عليه السلام .

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله (ص) : « لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني . فما علمت شيئاً الا علمته علياً ، فهو باب علمي » . وقال رسول الله (ص) أيضاً : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب » .

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر : « سلوني قبل أن تفقدوني فوالله ، لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة الا أخبرتكم بناعقها وسائقها » . قام اليه رجل ، فقال : أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر . فقال عليه السلام : « والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك ، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك ، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله (ص) » . وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي .

فعلم علي عليه السلام من علم رسول الله . وهو علم ينتقل من نبي الى وصي أو من ولي الى ولي . بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة . ان هذا النوع من العلم نور الهي ، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس ( Psychologues ) في الوقت الحاضر . انه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية . ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم فى معزل عن الواقع والحقيقة ، انه علم يترشح من اذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج الى أوج الملكوت . انه علم لدنى لا يحتاج الى وضع معادلات أو حك واصلاح فلا يتدخله سهو أو شك . انه علم ارتجالي دون تروٍّ أو تفكر . ذلك لأن النبي أو الامام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم . وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي (ص) مردود بحكم العقل . ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي

بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين اليه مطيعين .

فلا تثبت الامامة الا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي اتيان الخوارق والمعجزات ، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الاتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة .

ولقد امتحن المسلمون جعفرا ( أخا الامام الحسن العسكري ( ع ))، حين ادعى الامامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب . وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه الى الامام (ع) ، أي الى خليفة الحسن العسكري ( الامام الحادي عشر من أئمة الهدى ع ) ، فقام جعفر ينفض أثوابه قائلاً : « يريدون منا أن نعلم الغيب » ، فعلموا أنه ليس بامام .

وها نحن نذكر بعض ما أثر عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام في حل بعض المسائل الرياضية :

(١) يسأل علي عليه السلام ، عن عدد يقبل القسمة على ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ وهو راكب فرسا له، فيقول مرتجلا : «إضرب أيام سنتك في أيام اسبوعك » . ثم يهمز فرسه وينصرف (١) .

ذلك لأنا لو ضربنا ٣٦٠ ( عدد أيام السنة على ماكان معروفا في ذلك الوقت ) في ٧ عدد ( أيام الاسبوع ) ، لكان العدد : ٣٦٠ × ٧ = ٢٥٢٠ .

فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل .

***

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣ ، ذلك لأنه مجموع أرقامه ( القيمة المطلقة ) = ٩ = مضاعفات ٣ .

---

(١) لم يحتج علي عليه السلام الى ايجاد المضاعف المشترك البسيط للاعداد المذكورة . فان علمه بالاشياء يختلف عن علمنا . انه علم الامامة ، وهو أعلم الناس اجمعين . وهكذا كل امام من ائمة الهدى عليهم السلام .

توضيح ذلك :

١٠ = ٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠ = ٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠٠ = ٩٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

وبما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠

إذن :

٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ ( مضاعفات ٣ + ١ ) = مضاعفات ٣ + ٢

٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ ( مضاعفات ٣ + ١ ) = مضاعفات ٣ + ٥

٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ ( مضاعفات ٣ + ١ ) = مضاعفات ٣ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣

اذن : ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤ ، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤ .

ومعلوم أن : ٢٠ = مضاعفات ٤

وان العدد ٢٥٢٠ = ٢٠ + ٢٥٠٠

= ٢٠ + ٢٥ × ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ × مضاعفات ٤

= ٢٠ + مضاعفات ٤

= مضاعفات ٤

∴ العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفر ( أي أن رقم الآحاد ، تجوزاً ، صفر ) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفر يساوي :

٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥

إذن : ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥

فالعدد يقبل القسمة على ٥ .

***

وان العـــدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦ ، ذلك لأن ٦ = ٢ × ٣ ، ( حاصل ضرب عددين أوليين ) . وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢ ، ٣

إذن : $\frac{٢٥٢٠}{٢ \times ٣}$ ، يختصر مع ٢ أولا ، ثم مع ٣ . فلا يبقى باق .

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧ ، لأنه من مضاعفات ٧ ، ذلك لأنا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠ .

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ لأن العدد ينتهي بثلاثة أرقام تؤلف العدد : ( ٥٢٠ ) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{٥٢٠}{٨}$ = ٦٥

والدليل على ذلك كما يلي :

٢٥٢٠ = ٥٢٠ + ٢٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × ١٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × مضاعفات ٨

= مضاعفات ٨

∴ ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ .

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٩ لأن قيمته المطلقة أي ٢ + ٥ + ٢ = ٩ ، أو ( مضاعفات ٩ ) ٠

برهان ذلك :

الآحاد = ٠ ( تجوزاً )

العشرات = ٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ ( ٩ + ١ ) = ٢ × ٩ + ٢

= مضاعفات ٩ + ٢

المئات = ٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ ( ٩٩ + ١ ) = ٥ × ٩٩ + ٥

= مضاعفات ٩ + ٥

آحاد الألوف = ٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ ( ٩٩٩ + ١ )

= ٢ × ٩٩٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢

∴ العدد

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٢ + ٥ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٩ = مضاعفات ٩ + مضاعفات ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩

فالعدد يقبل القسمة على ٩

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده ( تجوزاً ) = ٠

∴ ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

٢٥٢٠ = مضاعفات ١٠

فثبت أن العدد ( ٢٥٢٠ ) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠ ٠

***

(٢) رجلان : ا ، ب ٠ كان لأحدهما : ( ا ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص ، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم ٠ فلم يبقَ شيء ٠ ودفع اليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم ٠

فقال ( ا ) لـ ( ب ) : خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥ . فأجابه ( ب ) : لا ، أبيتُ الا العدل ومر الحق . خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم . فأجابه ( ا ) قائلاً : كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣ . فكيف تأخذ نصف المبلغ . فأجابه ( ب ) : لنتحاكم عند علي عليه السلام .

فجاءا علياً (ع) وعرضا عليه القضية . فخاطب علي (ع) الرجل ( ب ) . وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً : اقنع بما منحك صاحبك ( ا ) . واقبل منه ٣ دراهم . فقال ( ب ) : لا والله ، لا رضيت منه الا بمرِّ الحق ، فقال (ع) : « ليس لك في مرِّ الحق الا درهم واحد وله سبعة » . فقال ( ب ) : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، هو ( أي ا ) يعرض عليَّ ٣ دراهم فلم أرضَ . وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن : لا يجب لي في مر الحق الا درهم واحد .

ان علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وانما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يُشبه علم البشر العادي .

وان الرياضي يحلُّ المسألة المذكورة بعد التفكير كما يلي :

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص . اذن أكل كل واحد منهم $٨/٣ = ٢\frac{٢}{٣}$ من الأقراص وبما أن ( ا ) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها $٢\frac{٢}{٣}$ إذن بقى من أقراصه :

$٥ - ٢\frac{٢}{٣} = ١\frac{١}{٣}$ وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص ( ١ )

وان (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو $٢\frac{٢}{٣}$ ( قرصين وثلثي القرص ) اذن بقى مما كان عنده : $٣ - ٢\frac{٢}{٣} = ١\frac{١}{٣}$ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص ( ب ) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة : $١\frac{١}{٣}$ ، $٢\frac{١}{٣}$ . أي بنسبة $٧\frac{٢}{٣}$ ، $١\frac{١}{٣}$ . وبما أن المخرجين متحدان ، اذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور ( البسوط ) أي بنسبة ٧ ، ١

∴ مجموع الحصص ٧ + ١ = ٨ .

فحسب قواعد التقسيم المتناسب

٨ دراهم

——— = ١ ، درهما ( الحصة الواحدة ) .

٨ حصص

وبما أن لـ ( ا ) ، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص ، ٧ حصص

∴ ٧ × ١ = ٧ دراهم ، نصيب الرجل ( ا )

وبما أن لـ ( ب ) ، حصة واحدة

∴ ١ × ١ = ١ : درهم واحد وهو نصيب الرجل ( ب ) .

***

(٣) جاء الى علي (ع) ٣ رجال ومعهم ١٧ جملاً ، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال بنسبة : النصف ، والثلث ، والتسع .

فأجاب عليه السلام : أضيفوا الى ١٧ واحداً ، ثم أعطوا نصف ذلك الى ( ا ) فيكون نصيبه ٩ جمال . وأعطوا ثلث ذلك الى ( ب ) فيكون نصيبه ٦ جمال ، وأعطوا تسع ذلك الى ( حـ ) فيكون نصيبه جملين .

وهكذا قسم علي عليه السلام ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧

توضيح ذلك :

من المعلوم : أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية ، يجب أولا : توحيد المخارج (المقامات) ، وذلك بايجاد المضاعف المشترك البسيط للمخارج : ( ٢ ، ٣ ، ٩ ) وهو ١٨ وان ١٨ يربو على ١٧ بواحد أي :

١٧ ( عدد الجمال ) + ١ = ١٨ ( على سبيل الصدفة ) ، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون . فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد : ( ١٨ ) كما يلي :

$$\text{حصة ا} = \frac{1}{2} = \frac{1 \times 9}{2 \times 9} = \frac{9}{18}$$

$$\text{حصة ب} = \frac{1}{3} = \frac{1 \times 6}{3 \times 6} = \frac{6}{18}$$

$$\text{حصة حـ} = \frac{1}{9} = \frac{1 \times 2}{9 \times 2} = \frac{2}{18}$$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور ، يجب تقسيم المقدار : ( ١٧ جملا ) حسب الصور أو البسوط وهي ٩ ، ٦ ، ٢ ، لانها مأخوذة من نفس المخرج • ( أي من نفس الأساس ) • ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة ، ومجموعها : ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة •

وذلك لأن :

في النسب الجديدة

| | ا | ب | و |
|---|---|---|---|
| | ٩ | ١٨ | ٣ |
| | ٩ | ١٨ | ٩ |
| | ٦ | ١٨ | ١٨ |
| | ٩ | ٦ | ٦ |
| | ١٨ | ٦ | ٢ |

في النسب الأصلية

| | ا | ب | و |
|---|---|---|---|
| | ١ | ٢ | ٣ |
| | ١ | ٣ | ٣ |
| | ١ | ٢ | ١ |
| | ٣ | ٢ | ٢ |
| | ٢ | ١ | ٢ |

ب ٦ ٢ ٦ ١٨ ٦

و — = — ÷ — = — × — = — = ٣ في النسب الجديدة

جـ ١٨ ١٨ ١٨ ٢ ٢

ب ١ ١ ١ ٩ ٩

وأيضاً — = — ÷ — = — × — = — = ٣ في النسب الأصلية

جـ ٣ ٩ ٣ ١ ٣

وهكذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{ا}{حـ}$ في النسب الجديدة والأصلية واحدة . فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية ، $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ ، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال .

١٧ جملاً

∴ ———— = ١ الحصة الواحدة .

١٧ حصة

وبما أن لـ (ا) ٩ حصص ∴ ٩ × ١ = ٩ جمال لـ (ا)

وبما أن لـ (ب) ٦ حصص ∴ ٦ × ١ = ٦ جمال لـ (ب)

وبما أن لـ (حـ) ٢ حصتان ∴ ٢ × ١ = ٢ : جملان لـ (حـ)

فالمجموع = ١٧ جملاً

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ في عدد واحد ( ١٨ ) وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات ، فان النسبة لا تختل ، فيكون الناتج ، ٩ ، ٦ ، ٢ فيقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة اذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد ، وان عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة .

(٤) جيء الى علي عليه الصلاة والسلام برجل قد حلف أن يزن الفيل

فقال (ع) : لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون ، فقال الرجل : قد ابتليت . فأمر عليه السلام بقر فور ( أي سفينة طويلة ) فيه قصب . فأخرج منه قصب كثير ، ثم علم صبغ الماء ، بعد ما عرف صبغ الماء قبل اخراج القصب ، ثم صيّر فيها الفيل حتى رجع الى مقداره الذي كان انتهى اليه صبغ الماء أولاً . ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج ، فلما وزنه ، قال هذا وزن الفيل .

توضيح الحل : معلوم في الفيزياء : نه لو غمر جسم في سائل فانه ينقص من وزنه مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور . ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل . أحدهما من الأسفل الى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل الى نهاية الجسم المغمور ، والآخر من الأعلى الى الأسفل ، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل الى سطح الجسم المغمور . فلو طرح الضغط الثاني ( قوة الدفع من الأعلى الى الأسفل ) من الضغط الأول ( قوة الدفع من الأسفل الى الأعلى ) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل الى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور .

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = و ، ووزن السائل الذي بحجمه = وَ . لظهر هاهنا حالات ثلاث :

(١) و > وَ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه . أي و — وَ > . فينزل الجسم الى قعر السائل ويستقر في القعر .

(٢) و = وَ أي يكون وزن الجسم مساوياً لوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر .

(٣) و < وَ أي أن و — وَ < . أي أن وزن الجسم يكون أقل من وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل ( أو الماء ) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه . أي أن مقدار الماء المزاح ( أو السائل ) يعادل وزن الجسم الطافي .

اذن ، ان السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها ( بما فيها من القصب ) . وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء ( وهذا ما يسمى بصبغ الماء ) .

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = و ، فوزن الماء المزاح = و ، أيضا ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = وَ

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة :

و — وَ

ووزن الماء المزاح حديثاً = و — وَ أيضاً .

فاذن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقدارا في الماء ونفرض ان وزن الفيل = س اذن يكون وزن السفينة و — وَ + س .

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل فى الماء الى العلامة الاولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف : ب ، فيكون وزن السفينة

و — وَ + س + ب

وبما انه قد نزلت السفينة الى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و

∴ و — وَ + س + ب = و

وبعد حذف ( و ) من طرفي المعادلة ، ونقل وَ الى الطرف الآخر

وَ = س + ب

أو س = وَ — ب

أي أن وزن الفيل ( س ) يساوي وزن ما اخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً .

ويظهر مما ورد في السؤال انهم لم يخرجوا ابتداءً كثيراً من القصب ، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب ، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة

وزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل الى العلامة الأولى — عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيـــل .

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = وَ

ووزن الفيل = س

∴ و — وَ + س = و

أو وَ = س وهو المطلوب .

٥ — وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيـــده : أن توضع رجله فى أجانة فيها ماء حتى اذا عرف مقداره ( أي مقـــدار ارتفاع الماء ) مع وضع رجله فيه ، يرفع القيد الى ركبته ، ثم يعرف مقدار صبغه ( أي مقدار ارتفاع الماء ) . ثم أمر عليه السلام : فألقى في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء الى ذلك الصبغ ( الحد ) الذي كان سابقاً والقيد فى الماء . فنظر : كم وزن الذي ألقى في الماء من الاوزان . فلما وزنه ، قال : هذا وزن قيدك .

توضيح الحل : معلوم أن القيد كان يزيح من الماء بقدر حجمه . فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء . فوضع علامة الى حيث ارتفع . وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً . ثم ألقي في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي ( أو الكثافة ) عين الوزن النوعي [1] للقيد ، حتى ارتفع الماء الى حيث كان أولاً . ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة المعدن الذي كان قد صنع منه القيد . وطبيعي أن الماء يرتفع اذ ذاك الى نفس العلامة لاتحاد الحجم .

---

(١) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما . اي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلا . ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و . ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = و . فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ وَ . وهو عدد مجرد . ويرينا ان ذلك المعدن كم مرة اثقل من الماء مثلا .

فاذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد .

***

٦ — وسأل ابن الكوّا علياً (ع) : « كم بين السماء والأرض ؟ » .

فأجاب عليه السلام قائلاً : دعوة مستجابة .

توضيح ذلك :

أن في الفلسفة القديمة بحثاً يقول بتناهي الابعاد . ويستدل على ذلك ببرهان يدعى برهان السلّم . وذلك انا لو أخذنا نقطة مثل ( م ) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما . ثم ان وصلنا بين نقطتين : ا ، ب . مأخوذتين على ذينك المستقيمين ( ضلعي الزاوية ) بمستقيم ، فان المستقيم ا ب يبقى محصوراً بين المستقيمين م ا ، م ب . ومهما مددنا المستقيمين م ا ، م ب . فان المستقيم ا ب يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية . اذن: الأبعاد تتناهى والفضاء محدود !!.

ان هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت . اذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة . لو مددنا الضلعين م ا ، م ب الى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم ا ب ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال . مثال ذلك :

نفرض أن حـ > ب ، أي ( حـ ) أعظم من ( ب )

أي حـ لا تساوي ب ، حـ ∓ ب

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن :

(١) ..... حـ × ∞ = ب × ∞ ( لأن ∞ = ∞ )

وبعد تقسيم طرفي المعادلة ( ١ ) على ∞ يخيل الينا أن :

حـ = ب

وليس كذلك .

فلا تبقى المتباينة على ما كانت عليه . وذلك لعدم امكان تفسيرنا التقسيم

على ∞ في الكميات المحدودة ، حين انه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه .

مثال ذلك : ١٠ > ٧

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

٥ × ١٠ > ٥ × ٧

أي ٥٠ > ٣٥

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على الكميات غير المحدودة .

مثال آخر :

٢٠ > ١٥

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ ( اللانهاية )

$$\frac{٢٠}{\infty} \quad \frac{١٥}{\infty}$$

لأن $\frac{٢٠}{\infty} = ٠$

و $\frac{١٥}{\infty} = ٠$

∴ ٠ = ٠ ، فيجب اذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك .

مثال آخر :

من المعلوم في الهندسة التحليلية ان مقدار الانحناء لنحن ما هو ( ر نصف قطر الانحناء ) . فمثلاً لو كان نصف قطر دائرة ٢ سم ، فان مقدار

الانحناء = $\frac{1}{ر}$ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم ، فان مقدار الانحناء =
أي أقل من الحالة الأولى بمقدار كثير .

فلو فرض ر = $\infty$

فيكون مقدار الانحناء : $\frac{1}{\infty} = \frac{1}{ر} = ٠$

عند ذاك لا يوجد انحناء . أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود ، فان سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً ، فلا كروية ولا انحناء ( استدارة ) .

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين :

ا س + ب ع + حـ = ٠

اَ س + بَ ع + حـَ = ٠

فالمستقيمان يتلاقيان لو كان $\frac{ا}{اَ} \neq \frac{ب}{بَ} \neq \frac{حـ}{حـَ}$ ( يراد بـ $\neq$ عدم التساوي

مع العلم أن ا ، اَ ، ب ، بَ ، حـ ، حـَ مقادير غير مبهمة .

وان المستقيمين المذكورين يتوازيان ، لو كان :

$\frac{ا}{اَ} = \frac{ب}{بَ}$ فقط

وان المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان :

$\frac{ا}{اَ} = \frac{ب}{بَ} = \frac{جـ}{حـَ}$

هذا اذا كانت المعاملات ( Coefficients ) والمقداران المعلومان

مقادير محدودة غير مبهمة . ولكن ، لو كانت ، ١ ، ١ ... الخ مقادير مبهمة فيها العامل ١ — ٧ : وهو ( المقدار المبهم ) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة .

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية .

انه يظن الروح ويظن الخالق جل جلاله من نوع المادة . فلما لم يَرَه في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك . حين أنه لا يزال لا يعلم لماذا يرى وكيف يرى . فاذا سُئل أجاب بجواب سوفسطائي قائلاً : ان الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما ! وأما الرؤية الحقيقية أو الاحساس والشعور فلا جواب له عليه . وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً انه ردّ فعل أيضا ! يقف عقل هذا المادي ، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه ودنوب لا تحصى قد رانت على قلبه ، عند هذا الحد . فلا يتجاوزه . فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة رد الفعل بالرؤية والعقل والنفس . وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت . أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو .

فلولا الأمواج الهرتزية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هـذه الآلات ، وان بعد التشبيه .

وما قيمة الحواس تجاه العقل أو ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس . هل القمر بهذا الكبر . وكم تخطئ الشامّة والباصرة !! . فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته ، استقرائه واستنتاجه . ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الانسان قوة الاستنتاج . وقد حرم منه القرد . مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية .

ان المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم

بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة الى العلم والعلم من كل ذلك براء . ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمى هذره وهذيه فلسفه !

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه . نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به . فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء . وان الله تعالى لا يخلو منه مكان . وهو القائل : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » [١] . وفي آية أخرى : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا » [٢] .

يقول علي (ع) : « مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة » [٣] .

هذا : ( لاگرانژ ) الذي يعرفه ( نابليون بوناپرت ) بقوله : هو الهرم الشامخ المعلوم الرياضية يقول : « لا أعرف » معترفاً بالجهل ..

وقد حاول ( آينشتاين ) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية . ولكنه عدل ، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل ، لا يعلم مداها الا الله . وقد قال ( آينشتاين ) بنظريات أخرى ثم عدل عنها ، ليس هنا محل ذكرها . وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم .

فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكوا الا بما قاله علي عليه السلام : « دعوة مستجابة » .

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو

---

(١) سورة : ق . الآية : ١٥ .
(٢) سورة المجادلة : الآية : ٨ .
(٣) المزايلة : المفارقة والمباينة .

منهاً ربنا تعالى . فقد قال الله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ومعلوم أن سرعة الضوء فى الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته الا الله تعالى . لا سيما أرواح الملائكة وروح جبرائيل عليه السلام . فاذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج اليه في يوم مقداره خمسون الف سنة ، فكم تكون هذه الأبعاد . ذلك لأن خمسين الف سنة = ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ ٥٥٥ ١ ثانيــة أو = ١٥٥٥٢ × ٨١٠ ثانية . فلو تصورنا أن الضوء سار في هــذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة الى سرعة الملائكة ، فانه يقطع :

٠٠٠ ٣٠٠ × ١٥٥٥٢ × ٨١٠ = ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٦٠ ٠٠٠ ٤٦٦

= ٤٦٦٥٦ × ١٣١٠ كم

فكيف بالملائكة ؟.. اذن ليس لأحد أن يحدّ ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء . وان قول علي (ع) : « دعوة مستجابة » دليل على عدم امكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل . ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس الا كحبة رمل صغيرة بالنسبة الى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم . وليست النجوم الا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة . ولكنا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعد النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصوره العقل البشري . ولو أن اسرع طائراتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغتها الا بعد ستة ملايين من السنين .

ويقول ( آينشتاين ) : « لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجئولوجي ( Geologique ) وعمر انسانيها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال ( ريورا ) الكثيفة » .

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب . فقال عليه السلام : مسيرة يوم للشمس .

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل اولبي بسرعة ٢٠ كم ثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع .

وقد سئل عليه السلام : ما اخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمر الآخر خمسون سنة ؟ فقال (ع) : هو عزيز وعزير . لأن عزيراً اماته الله مائة عام ثم بعثه .

وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي (ع) عن مقدار قطر الشمس . فأجاب مرتجلاً : تسعمائة في تسعمائة ميل . ومعلوم أن الميل في صدر الاسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق الى رؤوس الأصابع . فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات ( Inch ) فحولنا ( ٤٠٠٠ ) ذراع الى اينجات فياردات فأميال لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام : ٩٠٠ × ٩٠٠ = ٨١٠٠٠٠ ميل وأعني : ( الميل الذي كان معروفاً في صدر الاسلام ) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني : الميل الذي = ١٧٦٠ ياردا .

حقاً ، ان الانسان ليزداد تحيراً عندما يرى : كيف أن تزكية النفوس تؤدي الى علم لدني منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالحي عباده : وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء ابراهيم (ع) : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » . ( سورة البقرة : ١٢٣ ) .

وبالختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا الى تكميل نفوسنا وتزكيتها باتباع القرآن والعترة الطاهرة (ع) . فلا تكامل الا بالتمسك بهما ولا نجاة الا باتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاء عما نهيا عنه .

« انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث ان شاء الله تعالى »

# فهـــرس


| الصفحة | الموضوع |
| --- | --- |
| ٣ | المقـدمة |
| ١١ | أفي الله شك فاطر السماوات والأرض |
| ٢٨ | لهذا آمنت بالله |
| ٣٧ | أدلة أخرى في اثبات الصانع |
| ٤٥ | ما من دابة الا أمة |
| ٥٢ | كيف يتسرب الشك الى النفوس |
| ٥٨ | تفنيد أقوال الماديين |
| ٨٥ | هل من حاجة الى الدور والتسلسل في اثبات الصانع ؟ |
| ٨٧ | استحالة معرفة الله معرفة تامة |
| ١٠٢ | هل هناك تولد ذاتي |
| ١١١ | القصور الذاتي |
| ١١٦ | معالجة الشكوك |
| ١٣٣ | أثر الذنوب فى اتجاه النفس |
| ١٣٨ | جواب على شبهات الماديين |
| ١٥٤ | علة بعث الأنبياء (ع) |
| ١٧٢ | كيف يختار الله أنبياءه (ع) |
| ١٩٥ | دروس النبي (ص) في ساعاته الأخيرة |
| ١٩٩ | سيدة النساء (ع) |
| ٢٠٥ | المأثور عن رياضيات علي عليه السلام . |

# تصويب

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصحيح |
|---|---|---|---|
| ٢٨ | ١٠ | المسك | المسلك |
| ٤٩ | ٧ | ثقبب | ثقبت |
| ٥٨ | ٢١ | خاق | خالق |
| ٦٦ | ٩ | .. | différentielles |
| ٧٢ | ١٤ | بالاسلوب | الى الأسلوب |
| ٧٥ | ٢٢ | له | الله له |
| ٨٨ | ١ | ∞ | ∞ |
| ٨٨ | ٥ | ∞ | ∞ |
| ٨٨ | ٧ | $\frac{ب}{\infty}$ | $\frac{ب}{\infty} = ٠$ |
| ١٠٥ | ١٩ | تي | التي |
| ١٠٧ | ١٢ | نبت | ثبت |
| ١٠٨ | ٢٤ | أغاني | أغانٍ |
| ١١٥ | ٢ | يوفّق | يُوفّق |
| ١٢٣ | ١٢ | $\frac{1}{2}$ حـ | $\frac{1}{2}$ حـ د$^2$ |
| ١٤٧ | ٩ | بحث | بحث |
| ١٤٩ | ٥ | أن نعتقد | ليس لنا أن نعتقد |
| ١٥١ | ١١ | ليتناسب | لتتناسب |
| ١٥٣ | ٩ | بينا | بينما |
| ١٦٠ | ٢ | — | Octave |
| ١٦٧ | ٢٣ | humanite | humanité |

# التكامل في الإسلام

من أراد أن يقلع ما في نفسه من شكوك وان يعلم
ان الدين الإسلامي يطابق آخر ما توصل اليه
العلم الحديث فليطالع هـذا الكتاب

## الجزء الثالث

بقـلم

احمد امين

استاذ بدار المعلمين العالية سابقاً

الطبعة الثالثة

١٣٨٨ هـ

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين [1] ، الغالب لمقال الواصفين ، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين • والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين ، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد ، ولا علم مستفاد • المقدر لجميع الامور بلا روّية ولا ضمير ، الذي الاتغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه [2] ليل ولا يجري عليه نهار • ليس ادراكه بالإبصار ، ولا علمه بالاخبار •

---

(١) من كلام لعلي امير المؤمنين عليه افضل الصلاة والسلام .
(٢) برهقه : يغشاه .

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى أن منّ عليّ بتقديم الجزء الثالث من هذا الكتاب : ( التكامل في الاسلام ) ، وعلى هذا الإقبال الذي ألفيته من القراء الكرام والتشجيع الذي لمسته منهم مع مزيد الاعتزاز بهم وبتأييدهم .

وقد قرظ الكتاب ، نظما ونثرا ، لفيف من المؤمنين الافاضل الذين كنت عند حسن ظنهم ، فاني اذ اقدم جزيل شكري لهم ، أعتذر عن تدوين ما تفضلوا عليّ بما لا استحقه ، دفعا لتزكية النفس واعترافا بالواقع وما أنا فيه من قصور وتقصير .

ان الله تبارك وتعالى قد أودع في هذا الانسان غريزة بها يتوجه العبد بصورة فطرية الى ربه ، متفكرا في ملكوت السماوات والارض ، فيعزو بصورة طبيعية هذا النظام الرائع : النظام الكوني الدقيق الى الله العلي القدير . وهو القائل : « وهديناه النجدين » أي : طريقي الخير والشر . وفي آية أخرى : « فأقم وجهك للدين حنيفا [1] ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . لاتبديل لخلق اللهذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون [2]» « ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » [3] . وفي الحديث : « لولا أن الشياطين يحومون الى قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماوات والارض » .

الا ان الانسان يلوث نفسه بنفسه ، فيخمد بيده هذه الغريزة الثمينة ،

---

(١) حنيفا : أي مائلا عن العقائد الزائفة .

(٢) سورة التوبة : ٣٧ .

(٣) سبحانك : أي تنزيها لك :سبح الله أي نزهه وقدسه .. آل عمران: ١٩١

غريزة التوجه الى الخالق المتعال ، وتقديسه وتعظيمه ، حتى تتحجر النفس من جراء شتى المعاصي والآثام ، فتسود وتحجب عن رؤية الحق [١] والواقع ، فتتوارد عليه شكوك وأفكار مادية حالكة ، واتجاهات سلبية ، فيتراءى له : أنه قد بلغ شأوا قاصيا من الثقافة ، وانه كان خرافيا ، فأمسى متحررا عما يشين العقل البشري او يعوقه عن سيره التقدمي ، فيعد نفسه تقدميا وغيره رجعيا .

لقد اجمع علماء النفس أن التدين أمر فطري عند البشر ، وان المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها من نزعات ، قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة الامارة بالسوء ، الا انها سرعان ما تموت وترجع الفطرة الى فعاليتها الطبيعية وتدين بما وراء الطبيعة بدرجة تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتزكيتها . فانه تعالى يقول : « ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والارض لآيات لقوم يتقون » [٢] . فلابد من تقوى واجتناب للمحرمات حتى يعتبر الانسان بما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب !

فالظلم والاعتداء هما اللذان يحجبان الفرد عن رؤية الحق وهو غافل عما ينتهي اليه من جراء بغيه وطيشه على حد قوله تعالى « كذلك نطبع على قلوب المعتدين » [٣] . وفي آية أخرى : «وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » [٤] .

فلا ينتغي أن يقنط المؤمن اذا ما رأى امواجا وقتية تناهض الدين وتقاومه ، فانها امواج ترشحت من نفوس معدودة استولى عليها شيطانها نتيجة لآثامها ، فضغطت على حريات غيرها من نفوس كثيرة جدا لا توافقها

---

(١) عن النبي ( ص ) : « شر العمى عمى القلب » .
(٢) سورة يونس : ٦
(٣) سورة يونس : ٧٤ .
(٤) سورة العنكبوت : ٤٩ .

في الرأي وهي تؤمن في أعماق نفوسها بخالق أزلي ابدي ، منظم هذا الكون ابدع تنظيم .

وقد أملى بعض هذه النفوس على الآخرين أفكارا لاتوافق الواقع في شيء . منها : أن هناك تنافيا بين الدين ومعطيات العلم الحديث التي تسندها التجارب ، وتحددها المعادلات ، فلا ينبغي الالتفات الى ما يملي علينا الدين ! .

ان صح هذا بالنسبة الى بعض الاديان السماوية التي مستها اليد البشرية المحرفة . فلا يصح بالنسبة الى الدين الاسلامي ، لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ففي هذا الجزء يجد القارىء آيات كثيرة مما جاء في كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » سبقت العلم الحديث في اعطائها عصارة ما توصل اليه العلم المادي ، حيث لاتلسكوب ولا ميكرسكوب : ( مرقب ومجهر ) .

فلا تكاد تجد في الاسلام ما كان في عوالم الكنيسة في القرون الوسطى. فقد سلمت الكنيسة ( جوردانو برونو ) الى غرفة التعذيب وأذيق أمر أنواع العذاب ثم أوثق الى قاعدة خشبية وأحرق حيا عام ١٦١٠م لتصريحاته العلمية.

ونشر ( مجمع الكرادلة المقدس ) قرار الجرم لمن يقول بدوران الارض واعتبار القائل كافرا زنديقا .

وان غاليليو [1] قد وعد الكاردينال بالطاعة المطلقة ، مسلما بأنما قاله عن دوران الارض باطل ، كما اقسم بالاناجيل المقدسة سنة ١٦٣٣ م : أن

---

(١) هو ابن احد نبلاء ( فلورنسا ) واحد رواد العلم العظماء . وهو الذي وفق الى اعداد مرقب الرصد الذي أرانا به عوالم السماوات ، وقد كان يسر في تطبيق التحليل الرياضي على المعضلات الطبيعية ، وهو في عمله على نواميس الحركة قد عبد الطريق لـ ( نيوتن ) .

**الارض لاتدور حول الشمس !**

قد جعل الاسلام ( المنطق ) حاكما عند عرض تعاليمه من واجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات ومباحات بقوله : « افلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها » . وبقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ، « لعلهم يتفكرون » . وبقوله : « إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر » .

دين الاسلام يخاطب العقول ، تلك العقول التي لم تحجب عن رؤية الحق والواقع بالآثام والفسوق ، انه يدعو الى المنطق الصحيح ولا يفرض شيئا دون أن يرافقه برهان ودليل وذلك بقوله : « ولقد ذرأنا [1] لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها . اولئك كالانعام بل هم أضل ، اولئك هم الغافلون »[2].

فما من فرد إلا وأودع الله فيه عقلا يعرف به أصول المعارف الإلهية ، « العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان » ، لكن الانسان لسوء اختياره وفسوقه وفجوره يسدل ستارا على ذلك العقل الفطري . فيكون إذ ذاك كمن لاعقل له ، فلا يعمل بالنصوص الدينية ، فيكون كمن لا دين له ، فيكون مصداق هذا الحديث : « لادين لمن لاعقل له » على حد قوله تعالى : «واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لايعقلون»[3]. فالعقل نبيٌّ باطني لمن لم تبلغه الرسالة . فيحاسب حسبما يملي عليه عقله الفطري غير الملوث بالذنوب والآثام . فمن كان في ( آلاسكا ) مثلا ولم تبلغه الرسالة ، محاسب يوم القيامة وفق ما أودع الله في عقله من معارف أولية . فان ظهور آثار الدين في المرء إنما هو ظهور آثار العقل فيه .

---

(١) ذرانا : خلقنا .

(٢) سورة الاعراف : ١٧٨ /.

(٣) سورة المائدة : ٦١ .

إذن . فلا يعتبر بآيات الله إلا من صلح عمله وطابت سريرته وطهرت الى حد ما نفسه . إن نفسا كهذه تنجذب الى آيات الله والى ما وراء الطبيعة بصورة فطرية ، وتزداد فرحا وسرورا عند قراءة ما يؤيد عظمة الله تعالى في هذا العالم الواسع الارجاء : « إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خرو [١] سجدا وسبحوا [٢] بحمد ربهم وهم لايستكبرون . تتجافى [٣] جنوبهم عن المضاجع [٤] يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » [٥] .

فلا تكفي لتكامل هذه النفس العبادة والتهجد فحسب ما لم ينفق الفرد مما رزقه الله تعالى .

فالاسلام دين يحقق للنـاس سعادة الدارين وفي الوقت الذي يأمر بالتسبيح والعبادة يأمر في الوقت نفسه بأن يعطي الغنيّ من فضول ماله لتزكو نفسه ، ولئلا يبقى على وجه البسيطة فقير .

فقد قال الصادق سلام الله عليه : « ان الله فرض في أموال الاغنياء ما يسعهم ، ولو علم أن ذلك لايسعهم لزادهم » .

وفي البحار عن الصادق ( ع ) : « المال مال الله جعله وديعة عند خلقه ، وأمرهم أن يأكلوا منه قصدا [٦] ، ويلبسوا منه قصدا ، وينكحوا منه قصدا ، ويركبوا منه قصدا ، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين . فمن تعدى ذلك كان أكله حراما ، وما لبس منه حراما ، وما نكح منه حراما ، وما ركب منه حراما ، يتقلب في حرام . وبئس العبد عبد يعيش فيما حرم الله عليه ،

---

(١) خروا : سقطوا .

(٢) سبحوا : أي نزهوا ربهم عن النقص حامدين له نعمه .

(٣) تتجافى جنوبهم : ترتفع وتتنحى .

(٤) المضاجع : الفرش ومواضع الاضطجاع .

(٥) سورة السجدة ١٦ .

(٦) قصدا : فى حدود الاعتدال ، قصد يقصد قصدا : اي استقام واعتدل : ومنه الاقتصاد أي الاعتدال والتوسط .

يصبح ويمسي والرب ساخط عليه . هذا حاله في الدنيا . وأما آخرته : يخرج من قبره ويكون من الذين يأتيهم النداء من الله : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ،فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

انه تعالى يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما أتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم أتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين » [1] .

ويقول الصادق ( ع ) أيضا : « ولو أن الناس ادوا زكاة اموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا ولا ستغنى بما فرضه الله له ، وان الناس ما أفتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الاغنياء » .

فلو كان المسلمون مؤمنين حقا مطبقين أحكام الاسلام دونما تبعيض وتفريق لما رأيت من يشكو الفقر والمرض والجهل . ولرأيت الارض جنة عدن . ذلك لان الاسلام لم يدع أمرا فيه حياة الناس وسعادتهم الا وقد أمر به ، ولم يدع أمرا فيه هلاك الناس وانحطاطهم وتسافلهم الا وقد نهى عنه .

فدين الاسلام دين الكمال الانساني . وما جاء فيه من دساتير أخلاقية وعبادية وقضائية وادارية واقتصادية واجتماعية كلها ترمي الى تكميل النفس الانسانية وابلاغها أسمى مراتب الكمال .

فما علينا الآن إلا أن نقوم بتطبيق قواعد الاسلام وتعاليمه الرفيعة على أنفسنا أولا ثم نعمل مجاهدين مخلصين لأجل نشر هذه التعاليم في أرجاء الارض وإفهام الناس حقائق الاسلام : دين الفطرة ، بأساليب عصرية لاتخالف روح الاسلام ودساتيره المشروعة في شيء .

فالله تعالى يقول : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران

---

(١) سورة المائدة : ٩٦ .

لسعيه وإنا له لكاتبون » [١] .

« ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » [٢] .

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » [٣] .

وقد قال الإمام محمد الباقر عليه السلام : « ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الانبياء ومنهاج الصالحين وفريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب وتحلّ المكاسب وتردّ المظالم وتعمر الارض وينتصف من الاعداء ويستقيم أمر الناس » .

---

(١) سورة الانبياء : ٩٤ .

(٢) سورة النساء : ٩٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٨ .

# العلم والايمان

قال علي (ع) : « بالعلم يُعرف الله ويوحد » . فالعلم خير وسيلة لمعرفة الخالق جل جلاله والتعرف على ما أودع الله تعالى من دقائق الصنع وخواص مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا لايجاد عوالم من الجماد والنبات والحيوان ولتسيير هذه الافلاك بهذا النظام الرائع البديع . نظام يجعل عيني الفلكي الذي لم يقس قلبه بالموبقات ، تفيضان بالدموع خشوعا وتقديسا لله تعالى لما يرى هنالك من دقيق المعادلات وبديع القوانين . نظام يجعل ( هانري برگسون: Henri Bergson ) مؤمنا بوحدانية الله تعالى معظما اياه حين يتتبع نظام الذرة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول . هذه الذرة التي قد بلغت من الصغر بحيث لو وضعت ( ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ) منها ، على شرط الكروية، بعضها جنب بعض لكان طولها مليمترا واحدا . نظام يجعل الطبيب الذي لم يلوث باطنه بسكر أو فسق يركع أمام عظمته تعالى حين يرى انه تعالى قد رتب في المخ البشري ( ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ) عصب موضوعة بعضها جنب بعض بحساب دقيق بحيث لو جس أحد هذه الاعصاب لحدثت عوارض تخص هذا العصب المجسوس دون غيره .

نظام يخشع تجاهه العالم بالميكانيك السماوي والفيزياء ، حين يرى : كيف رتب الله تعالى الابعاد بين الاجرام السماوية ومنها بُعد أرضنا عن الشمس وبعد القمر عن الارض وهو القائل : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » [1] .

فلو كان بعد الارض عن الشمس ضعف ما عليه الآن لنقصت الحرارة

---

(١) سورة الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ .

التي تأتينا من الشمس الى ( ربع ) ما عليه الآن [١] ولقلت سرعة حركة الارض حول مدارها الى النصف [٢] ولطال فصل الشتاء الى ضعف ما عليه الآن ولا نجمد نتيجة لذلك جميع ما على الارض من كائنات حية ولاستحالت الحياة عليها .

ولو كان بعد الارض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الارض أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة حول المدار ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الاربعة : ( الربيع ، الصيف ، الخريف ، الشتاء ) الى النصف [٣] ، ولتبخر ما على الارض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة وذلك لقربها من الشمس .

ولولا أن الله تعالى قد احاط ارضنا بغلاف غازي ( جوي ) ثخنه (٨٠٠)كم لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية : ( ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ) حجارة في كل ثانية ، بسرعة ٥٠ كم / ثانية [٤] لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة . على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثرا هاما في ايصال حرارة الشمس الى الارض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والانسان . وكذلك

(١) حسب قانون فيزياوي : شدة الحرارة على اسطح ما تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة من مصدر الحرارة .

(٢) ذلك لانه يتناسب محيط الدائرة تناسبا طرديا مع نصف القطر : م = ٢ نق ط .

وان حاصل ضرب السرعة الزاويوية فى المسافة عن المركز مقدار ثابت لا × نق = ث .

(٣) ان كان بالامكان حصول تغيير فصلي اذ ذاك .

(٤) أي تقطع هذه الاحجار السماوية مسافة قدرها خمسون كيلو مترا فى الثانية ، اي ان سرعتها فى الساعة ( ١٨٠ ٠٠٠ ) كيلو متر .

وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الاقمار والصواريخ على ان حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الارض كل يوم .

في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات ( البحر المحيط ) الى القارات . فلولا هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات الى أرض قاحلة .

ولو كانت الارض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن ، لما كانت قوة الجذب عليها ( أي سطح الارض ) تكفي لجذب المياه والهواء ، ولما أستقر الماء على سطحها . لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الارض اليوم [١] . ولارتفعت درجة الحرارة الى حد يؤدي الى إبادة الحياة عليهـــا .

ولو كان قطر الارض ضعف ما عليه الآن ، لكان سطح الارض أربعة أمثال ما عليه الآن [٢] وكانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الارض الحالية ، ولقل ارتفاع الجو الى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلو غرام واحد على كل سانتيمتر مربع الى كيلو غرامين ولأشكلت الحياة على وجه الارض .

ولو كانت الارض من حيث الكبر بقدر الشمس لأمست قوة الجذب عليها ( ١٥٠ ) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون ( نيوتون ) ولنقص ارتفاع الجو حوالي (١٠) كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سانتيمتر مربع من السطح أي على ( ١سم٢ ) = ١٥٠ كيلوغراما . أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلو غراما واحدا = ١٥٠ كيلو غراما ، ولكان طول الانسان بطول السنجاب ( في الوقت الحاضر ) ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات .

وهكذا نرى أن الله تعالى قد جعل أرضنا هذه من حيث الكبر والبعد

---

١) قوة الجذب : ق = ى × $\frac{ك}{ن^2}$ ، ولابد من ملاحظة نصف القطر .

٢) ان سطح الكرة يتناسب طرديا مع مربع نصف القطر :

سطح الكرة = ٤ط نق٢ .

عن الشمس والقمر وسائر الانجم ومن حيث الكتلة وقوة الجذب بدرجة تتيسر معها الحياة على سطحها ، فان زلّ أحد هذه الاشياء او غيرها مما نعلمه أو لانعلمه لاستحالت الحياة عليها .

« إن الله يمسك السماوات والارض أن تزولا . ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ، انه كان حليما غفورا » (١) .

البروتين ( Proteine ) جزء هام من مادة البروتوبلازم ( Protoplasme ) (٢) ، وهي المادة التي منها تتكون جميع الخلايا وكل الاحياء . فالبروتين هو المادة الابتدائية الاولى التي تشكل ، مع الجزء الاصلي ، الخلايا الحية . وهذه مؤلفة من عناصر خمسة : الكاربون والإيدروجين والنيتروجين والاكسجين والكبريت . وعلم انه يوجد في الجزيء (٣) الثقيل منها : ٤٠٠٠٠ ذرة ( Atome ) .

فان ادعى مدعٍ أن في الطبيعة ٩٨ عنصرا قد وزعت أو وجدت دونما نظام وترتيب ، بل وجدت ورتبت بالصدفة ، فللعلوم الرياضية أن تحقق إمكان حدوث هذه الصدفة ! وأن تحسب مرتبة الاحتمال او درجة الصدفة التي يمكن أن تحدث لإمكان انضمام عناصر خمسة ( الكاربون والايدروجين والنيتروجين والاوكسجين والكبريت ) (٤) لايجاد ذرات المادة الاولى : البروتين ( Proteine ) وان تحسب مقدار المادة التي يجب أن تكون موجودة قبلا وفي حالة خلط ومزج دائم ، وأن تحسب المدة التي يجب أن

(١) سورة فاطر : ٤١ ، ان أمسكهما : أي : ما امسكهما .

(٢) كان يعرف : البروتوبلازم : انه المادة الزلالية الحية التي تتكون منها خلية الاجسام النباتية والحيوانية فهو مصدر كل حياة .

(٣) Molecule .

(٤) على ان للانسان ان يسأل : كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءا وما هو الاساس وهل للمادة العمياء أن ترتب وتنظم وتنظر الى المستقبل ؟

تنقضي لحصول هذا التركيب أي لاجتماع هذه العناصر الخمسة .

فالعالم السويسري : ( شارل أوژن گوي ) تمكن من حساب مرتبة الاحتمال لحدوث ما في البروتين ( Proteine ) من تركيب .

فقال : ان مرتبة الاحتمال لحدوث هذا التركيب للعناصر الخمسة فقط

$\frac{1}{10^{16}}$ هي : ـــــ أي في كل ... ... ... ... ... ... ... ١٠ حادثة تركيب

يحتمل أن يحصل تركيب يشبه تركيب المادة الاولى : البروتين .

واذا قلنا انه يوجد في الكون مثل هذا التركيب وأعقد منه تراكيب لا تتناهى ، وذلك لحصول هذا النظام البديع في عوالم الجماد والنبات

والحيوان ، لأصبحت إذن مرتبة الاحتمال $\frac{1}{\infty}$ ( أي : واحدا منسوبا الى اللانهاية ) ومآل ذلك : الصفر . اذن فلا صدفة وانتفى كل احتمال .

وقد حسب أيضا العالم السويسري ( شارل ) أن المقادير اللازمة من المواد المذكورة التي يجب ان تقع بالصدفة بعضها جنب بعض لتشكيل ( البروتين ) وذلك بعد تبدلات وتحولات كثيرة جدا ، هي ملايين مرة أكثر من جميع ما في هذا الكون المادي من مواد .

كما علم أنه لابد وان ينقضي $١٠^{(٢٤٣)}$ [ عشرة مرفوعة الى قوة ٢٤٣ ، أو ١٠ متبوعة بـ ٢٤٣ صفرا ] من السنين لحدوث ترتيب البروتين المؤلف من عناصر خمسة فقط ، فكيف بالمدة اللازمة لحدوث عناصر أخرى ، لاتعد ولا تحصى .

ان البروتينات مكونة من مواد متسلسلة تسمى بالحوامض الامينية Amino acides ويحار الانسان اذا ما رام أن يستقصي هذه المواد

المتسلسلة وكيف ترتبت وتسلسلت ذرات هذه المواد . فان الذرات ، لو كانت قد اتصلت وانضمت بعضها ببعض بصورة خاطئة لشكلت مواد سامة مهلكة .

وقد حسب البروفسور ( ج . ب . ليڤ ) انه : تتشكل سلسلة پروتين بسيط بـ ( $10^{48}$ ) شكلا مختلفا . ويقول انه لايمكن أن ينتظم جزيء من البروتين الحالي بالصدفة مع ضآلة هذا الاحتمال .

على ان البروتين ( Proteine ) مادة كيمياوية فاقدة الحياة . وان الحياة او الحيوية أمر هام خطير جدا تأتيها من الخارج وان الله تعالى هو الذي نفخ فيها الروح وجعلها حية بعد أن كانت مادة ميتة لاحياة فيها ولا حيوية ، الاسيما مع تلك الدرجات العالية من الحرارة حين تشكل الارض ، عندما كانت سديما [1] ، على ما ثبت في علم طبقات الارض : « ثم استوى الى السماء وهي دخان . فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين » [2] .

فما أعظم قول الله بالنسبة الى ولوج الحياة في الخلية الميتة ( Cellule ) حين يقول :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » [3] .

إن العلم بأحوال الكون يجعل الفرد المؤمن يركع لله تعالى خشوعا ، ويسجد له تواضعا وخنوعا وتفيض عيناه بالدموع حبا وتسبيحا وخضوعا ، لو كان قد بلغ مرتبة من اليقين لأعمال كان يقوم بها صالحة مع تهجد وتزكية وتحلية وتطهير وهو القائل : « وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . حقا ، الا يستفيد في مجالات تكامل النفس العالمون ببعض

---

(١) السديم : الضباب ، ويراد به هنا غاز عالق به مواد صلبة .

(٢) سورة فصلت : ١١ (٣) سورة الحج : ٧٣ .

ما أودع الله من دساتير وخواص ودقائق الصنع في هذا الكون إلا الموفقين منهم . ولا يقين الا بعد تزكية وتطهير وترك للموبقات والإجرام ، عند ذلك يوقن من وفق الى التزكية بهذه الآية المنيفة حين يقول تعالى : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم مَن في السماوات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » .

وقد أتم الله الحجة على عباده بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

## نفي الصدفة بتوضيح آخر

لو أرادت الصدفة ( دون مدبّر عاقل ) أن ترتب حروف هاتين الكلمين : ( انسان يقظان ) المؤلفتين من ١٠ حروف وكان عدد العلب ( أو الخانات ) الجاهزة في المطبعة لهذا العمل ١٠٠ علبة [1] ، فدرجة الاحتمال لظهور حرف

١

( ا ) ( أولا ) من بين ١٠٠ علبة تكون : ـــــ ( واحدا من مائة ) .

١٠٠

ولأجل أن يظهر حرف ( ن ) من كلمة انسان ، بعد حرف ( ا ) مباشرة

١

تكون درجة الاحتمال لهذا الظهور = ـــــــ ( واحدا من عشرة آلاف ) .

١٠٠٠٠

ذلك لأنا مع كل سحبة من السحبة الاولى لظهور حرف : ا ( اولا ) ، يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة كي يظهر حرف (ن) بعد (ا) مباشرة . وبما أنه يحتمل ان نسحب ١٠٠ مرة لظهور حرف ( ا ) أولا ومع كل سحبة يحتمل أن نسحب أيضا ١٠٠ سحبة لظهور حرف (ن) ، إذن درجة احتمال ظهور

(١) باعتبار الحرف الاول والحرف الوسط والحرف الاخير والحرف المفرد .

حرف (ن) بعد ( أن ) مباشرة تكون واحدا من عشرة آلاف ، أي واحدا من

$$\frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠٠} = \frac{١}{١٠٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤}}$$

ولأجل ظهور أو مجيء حرف ( س ) بعد حرف ( ن ) مباشرة ( من لفظ: انسان ) تكون درجة الاحتمال واحدا من مليون أي :

$$\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠ \times ١٠٠} = \frac{١}{١٠^{٦}}$$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور أو مجيء حرف ( ا ) بعد حرف ( س ) من لفظ انسان ، مباشرة ، تكون : $\frac{١}{١٠^{٨}}$

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور حرف ( ن ) بعد ( إ ) من كلمة ( إنسان ) مباشرة ، تكون $\frac{١}{١٠^{١٠}}$

ودرجة الاحتمال لترتب حروف : ( انسان يقظان ) بالصدفة ( دون أن يكون للعقل أو الحافظة دخل في الموضوع ) تكون واحدا من مائة مليون مليون مليون ، = $\frac{١}{١٠^{٢٠}}$ أي نحتاج الى ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سحبة .

واذا كان عدد حروف صفحة من كتاب رتبت حروفها بالصدفة العمياء ٢٠٠٠ حرف ، فتكون درجة الاحتمال :

$$\frac{١}{١٠^{٢} \times ٢٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤٠٠٠}}$$

واذا فرضنا أن كتابا عدد صفحاته ٤٠٠ وان الصدفة العمياء هي التي نظمت ورتبت حروف هذا الكتاب ، فتكون درجة احتمال وقوع هـذه

$$\text{الصدفة} = \frac{١}{١٦٠٠٠٠^{١٠}}$$

وبما ان المقام صار يقترب من اللانهاية ∞ ، فان درجة احتمال ترتب حروف مكتبة تضم مائة الف مجلد أو أكثر تساوي واحدا منسوبا الى

$$\text{اللانهاية : أي } \frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty} = ٠$$

١٠

ثم ، ألا ينبغي للقائل بالصدفة أن يسأل نفسه : كيف وجـدت هذه الحروف : ( الحرف الاول بشكله الخاص والحرف الوسط بشكله الخاص ... الخ ) بهذا النحت الجميل عن تدبير وهندسة خاصة في باديء الامر حتى يأتي دور الصدفة وترتب اللفظين : ( انسان يقظان ) بالصدفة العمياء دون ارادة وعلم !

فالتنظيم ضارب أطنابه ابتداءاً واستمراراً وابدا في هذا الكون ، فلا بد من موجد ومنظم ابتداءاً واستمراراً وأبدا وهو الله جلت عظمته ، ووسعت رحمته .

فلنأت بعد ذلك الى هذا الكون الرحيب وما فيه من ذرات وجزيئات وعناصر ومركبات لاتتناهى في السماوات وفي الارضين ، سواء في عالم الجماد أو النبات او الحيوان وفي عوالم أخرى لايعلمها إلا الله تعالى ، لنرى انعدام الاحتمال بطريق الصدفة لحدوث هذا النظام الرائع في مالا يتناهى من

أجزاء مترتبة بعضها أثر بعض عن حكمة وتدبير . فدرجة الاحتمال في

هذه الحالة = $\frac{١}{\infty}$ = ٠ ، تساوي الصفر الا محالة ودون أي ريب .

فلابد اذن من مدبر منظم حكيم عارف بقوانين الميكانيك والتفاعلات الكيمياوية والرياضيات العالية والطبيعيات الى ما هنالك ، وهو الله تعالى : « ألا يعلمُ مَن خلق وهو اللطيف الخبير » .

على أن للسائل أن يسأل : كيف وجدت هذه الاجزاء ابتداءا ، وكيف تسلسلت متكاملة بعضها عن بعض ثم استمرت وهي متكاملة . ومن الموجد لها أولا قبل أن تترتب ؟ وما هو اساس الوجود المادي ؟ وما هو اساس الوجود الروحي ؟ وكيف جاءت هذه الحيوية وما حقيقتها ؟

فلا مناص من الاعتراف بمن هو واجب وجوده من الازل لايجاد هذا الكون الرحيب بهذا الترتيب البديع وهو الله تعالى واجب الوجود .

« سبح [١] ؟ اسم ربك الاعلى ، الذي خلق فسوّى ، والذي قدّر فهدى [٢] ، والذي اخرج المرعى ، فجعله غثاء [٣] احوى » [٤] .

« ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . ( سورة النحل : ١٢٥ ) .

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » . « وان الملائكة لتضع

---

(١) سبح : أي قدس ونزه ربك عن النقائص .

(٢) قدر فهدى : أي قدر كل ما خلقه تقديرا مناسبا للحكمة ومؤديا للاغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال .

(٣) غثاء : ما يلقيه السيل من ورق بال وزبد .

(٤) أحوى : ما به حوة ، والحوة سواد الى خضرة .

أجنحتها لطالب العلم رضا به وانه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الارض حتى الحوت في البحر . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر » . و « إن العلماء ورثة الانبياء » .

ما هو هذا العلم الذي تضع الملائكة أجنحتها لطالبه رضا به ؟ هل هو هذا العلم المادي الذي يقطع العالم به علاقته بواضعه وموجده وخالقه ؟ هل هو العلم بأحوال الكون وقوانينه دون عزو ذلك الى مرتبها وواضعها ، بل صار يكفر العالم بها بمن أوجدها ونظمها غاية التنظيم ؟ هل هو هذا العلم الذي يعتبره المنحرفون والمنجرفون معبودا جديدا وإلها قهارا ، حلالا للمشكلات ، يدفع المعضلات ويقهر كل شيء ويسير العالم حسب أهواء الضالين المضلين ؟ فلا حاكم ولا قاهر خارج حدود هذا العالم إلا العلم ؟ ! ولا مسيطر ولا مدبر في الكون كله دونه ! ( أي دون العلم ؟! ) .. أهذا هو ذلك العلم الذي يقول عنه علي عليه السلام : « ايها الناس إعلموا : ان كمال الدين طلب العلم والعمل به » . فأي كمال رأينا في نفوس بعض العلماء الماديين وبعض الفلاسفة الماركسيين ! » فهم أعداء الله في أرضه ولا غنى لهم عن رزقه . فلو سلط الله تعالى على مخ أحدهم جرثومة ضئيلة لاترى بالعين المجردة لأمسوا مجانين ولعلموا ما هم عليه من فلسفة زائفة ضالة هدامة !

على أن هذا العلم لايستطيع أبدا ان يكون بديلا عن الايمان بالله في حياة الانسان ، يملي على الانسان سنن الكمال . ذلك الان هذا العلم انما خرج من نفوس لم تزك ولم تتطهر . فلا يزال عليه طابعها : ذلك الطابع المادي الحالك . ولأن هذا العلم متغير ومتطور من لحظة الى أخرى وأن نتائجه التي تؤكد اليوم من قبل العلماء تنقض غدا بفعل الاختبارات والتجارب في كثير من ميادين العلم . وهكذا سيظل (العلم) له خاصية التغير والتبدل ويخضع لعامل التطور ، إلا ما كان مجردا بحتا كالرياضيات البحتة وذلك في حدود

معينة محدودة .

أهذا العلم الذي يقول به المادي دون ان يتجاوز بفكره حدود الارض والجسد ، هو ذلك العلم الذي يقول عنه رسول الله (ص) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، « ألا إن الله يحب بغاة العلم » . أترى ان الله يحب العلماء المفسدين في الارض ، وهو القائل : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار » (١) .

أنظروا الى هذا الحديث ، لتعلموا ماذا يراد بالعلم في لسان الشرع وماذا يراد بالفضل .

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام : قال دخل رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، المسجد . فاذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا ؟ فقيل علامة . . فقال : « ما العلامة ؟ » فقالوا له « أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والاشعار والعربية » . قال : فقال النبي (ص) : « ذاك علم لايضر من جهله ولا ينفع من علمه » . ثم قال النبي (ص) : « إنما العلم ثلاثة : آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أوسنة قائمة وماخلاهن فهوفضل» .

فترون أن المراد في لسان الشرع من (العلم) هو ذلك العلم الذي يوحد به الله تعالى في أرضه وسمائه فيعبد ويقدس . هو ذلك العلم الذي يأخذ بالنفس الانسانية الى ساحات القدس بعد تزكيتها وتطهيرها من الدنس والرجس بما يقدم للبشر من تعاليم إلهية ودساتير ربانية ، وكذلك العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والفلكية ، وكل علم يُمظهر لعظمة الله في أرضه وسمائه ، اذا كان هذا العلم لا ينفك عن عزو جميع المكتشفات الى الله المبدع العظيم .

لذلك يقول ( اسحق نيوتن ) وهو أعظم علماء القرن الثامن عشر وله الفضل الاكبر في تقدم العلوم المادية في القرن العشرين الى هذه المرتبة ، انه

(١) سورة ص ٢٨ .

يقول : « لاشك في الخالق . فان هـذا التنوع في الكائنات وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها وتناسبها مع غيرها ومع الازمنة والامكنة لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم » ..

وهو القائل أيضا : « لا ادري كيف ينظر الى العالم . ولكن اتراءى لنفسي كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر وأسلي نفسي بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة ، أو صدفة اجمل من المعتاد . بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد امامي دون كشف » . .

ويقول أيضا في محل آخر : « ما من شك أن خالق العالم هو محيط بأسرار علم الميكانيك احاطة تامة كاملة » .

( پاستور ) كان ينكر إله الكنيسة .إلا أنه كان مؤمنا بالخالق المعبود ، إله العالمين ، خالق الجراثيم ... على حد تعبيره .

في القرآن الكريم ( ٧٥٠ ) آية كونية تشرح بايجاز : عصارة ما أودع الله تعالى من كمال في العالم المـادي من سماء وأرض وفي عالم النبات والحيوان ، وآيات أخرى تذكر شيئا عن عوالم النفوس والارواح . كل ذلك، ليوقن هذا الانسان ، لو نال قسطا من طهارة النفس ، أن هذه القوانين والنظم التي لم يتوصل الانسان إلا الى جزء ضئيل منها ، انما هي خير دليل على وجود صانعها ومبدعها العلي القدير وخير مرشد الى مدبر ومسير أوحـد جميعها بقدرته ، بقاؤها بارادتها ، زوالها بأمره . فليس (للعلم) ، هذا العلم الذي يعتز به المادي وهو من صنع الله ، أن يدير العالم ، لو تخلف هذا العالم عن ارادة الله تعالى ومشيئته طرفة عين . « إن الله يمسك السماوات والارض أن تزولا . ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده » .

لذلك يقول ابو جعفر عليه السلام : « الكمال كل الكمال : التفقه في

الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة » .

وفي حديث آخر : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين » .

وفي حديث آخر : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين الف عابد » .

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « يغدو الناس ثلاثة أصناف : عالم ومتعلم وغثاء ، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء » (١) .

وقال ابو عبد الله (ع) : « من تعلم العلم وعمل به وعلم لله دعي في ملكوت السماوات عظيما . فقيل : تعلم لله وعمل لله وعلم لله » .

وقد جاء في تفسير « إنما يخشى الله من عباده العلماء » : من صدّق فعله قوله . ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم .

فالمادي الذي قد تعلم شيئا من قوانين الطبيعة وخواصها ، أو وفقه الله تعالى الى كشفها ولم يتأثر بما أودع الله من دساتير رياضية لاتحصى في هذا الكون ومن دقيق الصنع ولم يخشع قلبه ولم يخش الله في حركاته وسكناته ، ولم يكن لنفسه نصيب من الخضوع لله « الذي خلقه ، فسوّاه فعدله . في أي صورة ماشاء ركبه » ، ليس ذلك العالم الذي عناه الله في الآية المتقدمة .

فقد قال ابو عبد الله (ع) : « اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم » .

ما أعظم هذا الدستور انه أدب التعليم الرفيع . لو عُمل به لما بقي على وجه البسيطة من يشك في وجود الله جل جلاله ، أو ينحرف عن الصراط السوي .

ق

وقال عيسى (ع) : « بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر » .. وقد قال الحواريون لعيسى ( ع ) ، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ياروح الله ، من نجالس ؟ » قال : « من يذكركم الله رؤيته ويزيد

(١) الغثاء : الزبد والبالي من ورق الشجر .

في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله » .

وإن قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا والذين اوتوا العلم درجات» يدل دلالة صريحة أن الذي اوتي قسطا من العلم ولم يكن مؤمنا الا ترفع له درجة بل بنص هذه الآية هو من الخاسرين : « ومَن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » [1] . « إن الدين عند الله الاسلام » [2] .

وان قوله : «شهد الله انه لا إله الا هووالملائكة وأولو العلم قائما بالقسط» يدل دلالة واضحة على أن أولي العلم في هذه الشهادة العظيمة انما هم من العلماء الذين بلغ بهم علمهم وتقواهم معا الى توحيد الله والاعتراف بعدالته.

وما أعظم هذا الحديث القدسي وما أجل معناه : « ياموسى عظم الحكمة فاني لا أجعل الحكمة في قلب إلا واردت أن اغفر له ، فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها ، كي تنال كرامتي في الدنيا والآخرة » .

فلا يستفيد العالم بأحوال الكون ودساتيره من علمه مالم يكن قد جعل التقوى لنفسه شعارا والاخلاق الفاضلة دثارا . لذلك جاء في الحديث عن الرسول (ص) : « قطع ظهري رجلان : عالم متهتك . يصد الناس عن علمه بفسقه ، وجاهل متنسك يدعو الناس الى جهله بنسكه » . وقال علي (ع) : « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك » .

وقد جاء في حديث آخر : « كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم . ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع » .

ومن جملة صفات العلماء على ما ورد في اصول الكافي : « لاحقود ولا حسود ولا وثاب ولا سباب ولا عياب ولا مغتاب ، يكره الرفعة ويشنأ السمعة ، سهل الخليقة ، لين العريكة ، هشاش بشاش ، لا بعباس ولا بجساس ، كظام ، بسام » .

---

(١) سورة آل عمران : ٨٥ (٢) سورة آل عمران : ١٩ .

فطوبى لأولئك العلماء الذين يدعون الى الله بعمل صالح ويرفعون لواء الاسلام عاليا بجهادهم المتواصل : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين » (١) .

ان الله تبارك وتعالى أكد في آيات جمة ان نتتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض ، كي نزداد معرفة به تعالى . فنخشع له وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمر به ، فنزداد بصيرة وذلك غاية الغايات . فقد جاء في الحديث : « أعلمكم بالله أخوفكم له » شريطة ان لايتجرد هذا العلم ( أي العلم بأحوال الكون ) عن طاعة الله تعالى ، وأن لايكون آلة هدم وتخريب . فقد قال علي عليه السلام : « كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب » .

انه تعالى يقول : « قل انظروا ماذا في السماوات والارض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » (٢) . فانه تعالى يصرح : أن التعرف على ما أودع الله من قوانين ومعادلات في الكون المادي (٣) وما أودع فيها من قوي وطاقات ، وما يربط هذه الطاقات أو المواد بعضها ببعض من قوانين وخواص لا تفيد الذين تخلّوا عن طاعة الله ولا تؤثر في تكميل نفوسهم : هؤلاء الذين الازموا الشهوات والنزوات وحضروا المراقص والملاهي ومجالس الفسق والفجور وأفسدوا في الارض بأنواع البغي وضروب الظلم . وهذا ما نشاهده اليوم . ويشهد لنا التاريخ في الامم الغابرة . « سنة الله في الذين خلوا من قبل » (٤) .

---

(١) سورة حم ، السجدة : ٣٣ (٢) سورة يونس : ١٠١ .

(٣) يوجد فى الكون مثل شمسنا مائة الف مليون شمس . وان كلا من هذه الشموس المضيئة لابد وان تجمع حولها كواكب أخرى ذات أقمار تضيء ساعة وتظلم أخرى .

(٤) سورة الاحزاب : ٣٨ ، ( خلوا : مضوا ) .

نرى اليوم من ينكر وجود الخالق جل جلاله أو يستهزىء برسالة الانبياء (ع) وقد درس شيئا من قوانين الفيزياء أو الكيمياء ، او درس شيئا من علم الحيوان والنبات الى ما هنالك ، مع اعترافه ببعض ما أودع الله من خواص ودساتير في هذا الكون . وان البعض من هؤلاء مع جهلهم المرير بالعلوم الحقيقية كالرياضيات العاليـــة والفيزياء الرياضية العالية وحقائق الكيمياء وما ثبت هناك من دساتير ، يتبنون فلسفة مادية ، فلسفة تجعل المادة الصماء كل شيء في هذا الكون . وتعتبر الاقتصاد محورا أساسيا لكل الفضائل والمكرمات والمعتقدات والمثل العليا ، حين أن الفلسفة الاتبنى على جهل . ففلسفة تبنى على جهل بحقائق الكون ، فلسفة فاشلة ، واهية مضلة. انها فلسفة الشهوات ، والتفكك من قيود يتحقق بها شرف الانسان وكماله . انها فلسفة اباحة همجية ترجع بهذا الانسان المسكين الى جاهلية جهلاء ، انها فلسفة هدم وتخريب ! . « فان لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لايهـــدي القوم الظالمين » [1] .

يقول ( پوانكارة ) وهو من أعلام الرياضيين : « نحن الرياضيين انما نعمل للفيزياء والفلسفة » . ومعنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تبنى على آخر ما توصل اليه العلم الحديث ، لاعلى مفتريات وأكاذيب لاتدعمها المكتشفات الحديثة وما ثبت من أحوال الامم الماضية .

فالتجربة ليست كل شيء في نمو الانسان الرياضي ، خلافا لما يقوله الماديون . ففي الانسان ملكة التعليل والتسبيب ، وملكة التعميم والتجريد ، دون أن يكون للتجربة دخل فيها . لذلك يقول ( البرت آينشتاين ) : « كيف أمكن للرياضيات أن تكون اداة مناسبة بشكل يستحق الاعجاب لواقـــع

---

(١) سورة القصص : ٥١ .

الاشياء مع انها ثمار التفكير الانساني مستقلا عن التجربة » .

وقول ( فيثاغورث ) : « العدد يحكم العالم » دليل على وجود خالق مبدع ربط أجزاء هذا العالم بحكمة فائقة تحت حساب دقيق يمكن ان يعبر عنها بمعادلات واعداد وقوانين :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء ، انه خبير بما تفعلون » [١] « قد جعل الله لكل شيء قدرا » [٢] .

ان الله تعالى يقول : «فلينظر الانسان ممّ خلق » [٣] . وهو يحثنا على تعلم علم الاحياء ( Biologie ) وعلم الحيوان ( Zoologie ) وعلم وظائف الاعضاء Physiologie . ففي جسم الانسان أكثر من ٢٠٠ عظم ولكل واحد منها شكل خاص ، ولولا هذا الشكل الخاص لما تمكن الانسان من الحركة . وفي جسم الانسان ٥٠٠ عضلة : كل منها ، تتغذى بمئات الاوردة والعروق ، تديرها أعصاب كثيرة . والقلب ، وهو بين هذه العضلات ، ينبض في السنة ( ٣٠ ) مليون مرة .

وأما طبقات العين ، فهي الطبقة القرنية والعدسية ، ثم طبقة مائية زجاجيه تنتهي في الشبكية . وان الطبقة الشبكية لاتزيد عن ثخن الورقة ، وهي تتألف من تسع طبقات ، أبعدها تتألف من ( ٣ ) ملايين اسطوانه و ( ٣ ) ملايين مخروط .

وقد حسب أحد علماء الفسلجة أنه توجد في المادة السنجابية التي هي في تلافيف الدماغ : ستة ملايين خلية وان كل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وأن كل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر . انه تعالى يقول : « قل سيروا في الارض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » [٤] ثم يذكرنا الله بالآخرة

---

(١) سورة النمل : ٨٨ (٢) سورة الطلاق ٣

(٣) سورة الطارق ٥ (٤) سورة العنكبوت : ٢٠

لنستعد لها لأنها هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن يطلق عليها : كلمة الحياة ، وذلك بقوله في بقية الآية : « ثم الله ينشيء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شيء قدير » (١) .

لقد سبق القرآن العلم الحديث في التكلم عن بداية الخلق وهي ( الخلية الحية ) . فهي جوهر الحياة . وذلك لان كل مشكلة تتعلق بالحياة تبحث في النهاية في الخلية وان كل كائن حي ما هو الا خلية .

يقول الدكتور ( كلارنس كوك لتيل ) : « إننا قد نفهم النشاط العظيم المتنوع في مدينة كبيرة ، ولكنا قد لانصدق انه من الممكن أن تقوم أجسامنا بعملية أكثر تعقيدا واشد غرابة في هدوء ودأب لايعرف الكلل ، عملية فيها صناعة تخزين واصلاح ومواصلات ونقل واعمال پوليسية وتخلص من نفايات وادارة انتاج للغذاء وضبط للحرارة . وان هذا هو ما يحدث حقا في الخلية الواحدة » . فما أعظم ما أودع الله بحكمة فائقة من أعمال شتى متنوعة في غاية الدقة . اعمال ميكانيكية مختلفة ، في هذه الخلية التي تبلغ من الصغر ما لايمكن للعين المجردة مشاهدتها .

يقول ( راتكليف ) : « في اللحظة التي يتم فيها الاخصاب ، تقرر الخليه الصغيرة بدقة تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري انتاجه ، حتى لون عينيه وتموجات شعره ، وان العلم ما زال قاصرا عن ادراك الاسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة الى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل الى الرحم . وان يتخلص الحيوان المنوي كذلك من نصف ما به ، حتى اذا اتحد النصفان كونا خلية واحدة صغيرة بالغة من الصغر حدا كبيرا . إذ يبلغ وزنها ١٥ جزءا من عشرة ملايين جزء من الغرام . وتصل يوم الميلاد الى حوالي ثلاثة كيلوغرامات وذلك باقسام هذه الخلية الواحدة الى عدد من

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٠ .

الخلايا تبلغ حوالي ( ٢٠٠ ) مليون خلية » .

فالخلية على الرغم من صغرها كيان عضوي معقد أشد التعقيد . ففي الخلية خصائص ظاهرة وخصائص خفية كثيرة وكثيرة جدا ، لم يظفر بها العلم الحديث ، تعمل في التغييرات الطبيعية الكيميائية في الوسط الانساني لتواجه الحالات الجديدة الطارئة في حالات الصحة والمرض تبعا لما تستلزمه حالة الجسم .

يقول الدكتور ( روسكو سبنسر ) : « ليس في الطبيعة شيء أعجب من الحكمة التي تقسم بها الخلية نفسها الى جماعات شتى ، لكل جماعة وظيفة تؤديها ، وكل جماعة منها تختلف لهذا الغرض عن الاخرى قواما وتركيبا ، ولكنها كلها أصلها واحد وان الله تعالى قد زود الخلايا بقوى عجيبة وبخصائص مدهشة كل ذلك لتشييد الكيان العضوي الحي » . « أمَّن خلق السماوات والارض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » [1] . ( أي يميلون عنه ) .

* * *

وقد أمر الله تعالى بدراسة النبات كي يعتبر الانسان بهذه الحيوية التي اوجدها الله في خلايا النبات وهذا النمو الذي نشاهده فيه ، انه ( أي النمو ) لأمر عجيب ، انه نمو بأمر الله ومشيئته ، اذ العطالة أو القصور الذاتي : ( Inertie ) شيء لا ينفك عن أي جسم او أية مادة في هذا العالم المادي على ما ثبت في علم الفيزياء . فلابد من يد غيبية تعمل بحكمة في ترتيب هذا النمو تحت آلاف بل ملايين من عوامل وخواص وتأثيرات مترتبة بعضها إثر بعض بحكمة فائقة وبشكل بديع وجمال رائع ، انه تعالى يوضح لنا ذلك بقوله جل من قائل : « فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا [2] وزيتونا ونخلا وحدائق

---

(١) سورة النمل : ٦٠ (٢) قضبا : كل شجرة طالت واسترسلت اغصانها .

غلبا [١] وفاكهة وأبًّا [٢] ، متاعا لكم ولأنعامكم » [٣] .

انه تعالى يقول في سورة أخرى : « فأين تذهبون » [٤] . الى أين يذهب هذا الانسان وهو تحت هيمنته تعالى وبين يدي جبروته سبحانه : فمن الغفلة أن لايطيع الانسان ربه ولا يؤمن برسالة رسله ( ع ) ، حسب التسلسل ، وأن يبقى جاحدا لرسالة خاتمهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإمامة الاوصياء من بعده عليهم السلام . حقا ان الآية المتقدمة « فأين تذهبون » : « لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد» [٥] .

فالى أين يفر والى أين يتوجه هذا المخلوق الضعيف بين يدي ربه ، المغرور بما منّ عليه خالقه من علوم ومعارف ، فلا ملجأ الا اليه . على حد قوله تعالى : « ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين » [٦] ، فطوبى لمن أقنع عن طيشه وغروره وفكر في عقباه ومصيره ، فشمر عن ساعد الجد لاصلاح نفسه والمثول بين يدي ربه واستعد ليوم « لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله » [٧] . « ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » [٨] .

ان الله تعالى قد حث على تعلم علم الفلك بقوله جل من قائل : « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » [٩] . فما أعظمها من آية . انه تعالى يعظم مواقع النجوم والابعاد المقدرة بينها بحكمته ، فانها من الدقة بمكان ، بحيث لو تغير بعضها عن مواضعها شيئا يسيرا بالنسبة الى

---

(١) حدائق غلبا : بساتين ذات أشجار غليظة .
(٢) أبا : تبنا ، أو العشب رطبه ويابسه ، مرعى .
(٣) سورة عبس : ٢٤ — ٣٢ .
(٤) سورة التكوير ٢٦ .
(٥) سورة ق : ٣٧ .
(٦) سورة الذاريات : ٥١ .
(٧) سورة الانفطار : ١٩ .
(٨) سورة المطففين : ٥ ، ٦ .
(٩) سورة الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ .

الفضاء اللانهائي ، لاختل نظام السماء لما هنالك من تجاذب من جميع الجهات حسب الدستور الآتي :

$$ق = ى \times \frac{ك \, ك'}{م^{٢}}$$

أي تتجاذب الكتلتان في الفضاء بنسبة حاصل ضرب الكتلتين : ( ك ، ك' ) مقسوما على مربع المسافة بينهما ( م ) بعد ضرب الناتج في نسبة ثابتة معلومة $= \frac{١}{١٥\,٠٠٠\,٠٠٠\,٠٠٠}$ من ثقل الغرام [١] .

اكتشف ( ليڤرييه Leverier ) استنادا الى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ ( نپتون Neptune ) وعين موضعه قبل أن يراه ، فحرر الراصدون تلسكوباتهم الى هذا الموضع المزعوم . فرأوه رأي العين بعد ان كان ( ليڤرييه ) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب ، ثم رأى الفلكيون ايضا ان هنالك ايضا اختلافا يسيرا في مدار الكوكب ( اورانوس ). زعموا من أجله ان كوكبا أبعد من ( نپتون ) ما زال مختبئا في السماء فاكتشفوه واسموه ( پلوتو ) سنة ١٩٣٠ ميلادية . وهكذا يتنبأ العلم والدساتير عن أشياء لاترى بالعين ، فتكشف لتبرهن مرة أخرى على ما أودع الله من نظام رياضي متقن في سير الكواكب والانجم : مداراتها وحركاتها .

حقا ان في مثل جزيرة العرب التي لاترتبط حواضرها بعضها ببعض إلا أراض واسعة جرداء غير ذات زرع ، ما كان ليمكن أن ينمو العلم وان تكون

---

(١) ى $= ٦٫٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام $= \frac{١}{١٥٠٠٠٠٠٠}$ من الداين .

فيها حياة علمية . فللاسلام فضل كبير في ايجاد وسائل الحضارة في البلاد العربية ، ومن ثم وجود علماء في شتى العلوم والفنون ومكتشفات جمة كانت أساسا للمكتشفات الحديثة .

لم يكن للعرب في الجاهلية أي أثر للعلوم ولم يكن هناك اي مظهر من مظاهر الحياة العقلية . ومنذ بزوغ فجر الاسلام لم يكن في قريش إلا ( ١٧ ) رجلا يكتبون ويقرأون . ولذلك كان يلقب من يجيد الكتابة والرمي بـ ( الكامل ! ) .

فالقرآن هو أول كتاب دعا الاعراب الى التفكير في أحوال السماوات والارض والجماد والحيوان والنبات بقوله تعالى : ( أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت ) .

ان العلم الحديث كان يجهل حقيقة قوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم » [١] الى قبل ٥٠ سنة تقريبا . حتى تقدم الميكانيك الرياضي وأسست مراصد كبيرة واخترعت مراقب جسيمة ، فعلم أن ما كان يعتقده الفلكيون من ثبوت الشمس في محلها خطأ فاحش ، وأن للقرآن القول الفصل في شرح حقائق السماء والميكانيك السماوي كعصارة للعلوم . كما ثبت أخيرا ان لكل كوكب او نجمة فلكا خاصا لايتعداه ، وان الجاذبية التي أودعها الله بين الكرات الاتدع مجالا ليزل بعضها عن مكانها وما رسم لها من أفلاك ومدارات وحركات قيد شعرة . « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » [٢] .

---

(١) سورة يس : ٣٩ .

(٢) سورة يس : ٤١ .

دعا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، المسلمين الى تعلم الكتابة والقراءة وأمرهم بكتابة القرآن وتعلمه ونشره • حتى أنه جعل ، في غزوة بدر ، فداء بعض الاسرى : أن يعلموا صبيان المدينة القراءة والكتابة ، على أن يعلم كل واحد من الاسرى عشرة من المسلمين •

كما انه امر رسول الله ( ص ) بعض المسلمين بتعلم لغات اخرى • فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية • وهكذا أمر بعضهم بتعلم لغات اجنبية، وذلك لبث الدعوة في الاقطار النائية وارسل كتب الى بعض الملوك •

ويا حبذا لو أسست جامعة دينية كبرى ، تدرس فيها شتى العلوم الدينية مع شيء من العلوم الحديثة ، الاسيما الرياضيات والطبيعيات والفلسفة الحديثة على ضوء الفلسفة الاسلامية الحقة وردّ نواحي الضعف فيها ( وما اكثرها ! ) بالحجج الدامغة المنطقية على ضوء العلم الحديث • وتدرس فيها لغات شتى • يتعلم كل عشرين طالبا مثلا حسب رغباتهم لغة أجنبية خاصة بصورة متقنة ، حتى يتمكنوا من الكتابة والخطابة فيها • ثم يوفدون ويوزعون على بعض مدن العالم لبث الدعوة الاسلامية الحقة وذلك بعد أخذهم شهادة عالية ، شهادة التخرج من هذه الجامعة الدينية الكبرى • فينيروا الارض بجهودهم المشكورة عند الله تعالى كما فعل آباؤهم من قبل •

وقد حث الرسول (ص) على التعلم والتزود من العلوم الموجودة في كل وقت حتى قال : « أطلبوا العلم ولو في الصين » • فهو أول من دعا ، بقوله هذا ، الى الهجرة الى البلاد النائية طلبا للعلم واول من اسس مشروع البعثات • ولكن هذا النوع من البعثة لايشبه ما نحن فيه من البعثات في الحال الحاضرة بحال • الان المسلم عندما كان يهاجر من بلده الى الخارج لتحصيل بعض العلوم ، إنما كان يهاجر وهو مملوء ايمانا بالله وتقوى وورعا وخوفا من الله تعالى • لا يدفعه والا يزيغه عن طريقته الحاد الملحدين وتشكيك الضالين

ودسائس المستعمرين باسم الثقافة والتقدم ! بل كان مجهزا بعقيدة راسخة عن براهين قطعية وتعاليم اسلامية رائعة • حافظا للقرآن ، عاملا به ، مؤتمرا بما امر الله من صلاة وصوم وزكاة وواجبات اخرى • متناهيا عما نهى الله عنه من رقص وسكر وفجور !

ولكن شبابنا اليوم بعيد عن روح الاسلام وحقيقته وتعاليمه ، فالبعض منهم يمقت الاسلام ويظنه ضربا من الرجعية والخرافة بنتيجة سموم بثها المستعمرون واعداء الاسلام •

وقد يصلي بعض هؤلاء الشبان خوفا من اوليائهم او إرضاءاً لآبائهم وامهاتهم إن كانوا مصلين يحثون اولادهم على اداء الصلاة • إنهم يصلون ما داموا مراقبين ، ولكنهم يتركونها عند رفع هذه المراقبة • يفرح الاب عندما يرى ان ولده يطيعه فيصلي ، لانه يعلم علم اليقين ان مآل ولده النار ان ترك صلاته • وقد فاته ان السموم المبثوثة هاهنا وهاهنا قد اثرت فيه • وعلى رأسها ما يقوم به ولده من اعمال غير مشروعة • فصار لا يأنس بمناجاة ربه والمثول بين يديه خاشعا تائبا من ذنوبه •

وقد حث رسول الله (ص) المسلمين على الحضور في مجالس علماء الدين بصورة خاصة ليتعلموا معالم دينهم ويتأدبوا بآدابهم • وكانت المساجد محلا للعبادة والدراسة معا حتى القرن الرابع الهجري • فأسست دور خاصة بالتدريس في فاس • يقول ( دلفان ) : ان جامعة ( القروين ) هي أول جامعة في الدنيا ، وقد تخرج في هذه الجامعة عشرات من الطلاب الاجانب من غير المسلمين ومنهم الراهب ( جربرت ) الذي أدخل الاعداد العربية الى أوروبا • وقد ترجم كل ما دوّنه المسلمون من علوم •

وقد تعلم ( سبتاي بن ابراهام ) اليهودي الذي قد أسر من قبل المسلمين في النصف الاول من القرن العاشر اللغة العربية في بغداد وبقي فيها يدرس

الطب ، ثم عاد الى اوروبا وقاد هناك حركة علمية مرموقة .

وهكذا ( قسطنطين ) الذي كان يعيش في ( قرطاجنة ) أتقن اللغة العربية وذهب الى ايطاليا حيث ترجم كثيرا من كتب المسلمين في علوم شتى .

وان المسلمين هم الذين أنشأوا اول كلية طبية في ( ساليدن ) في ايطاليا ، وأسسوا أول مرصد فلكي في ( أشبيلية ) . وهكذا كان للمسلمين اليد الطولى في الهندسة المعمارية والنحت والزخرفة . وان ( كنيسة نوتردام دوباري ) إنما بنيت من قبل مهندسين مسلمين .

وكذلك المسلمون هم الذين اخترعوا طريقة الكتابة بالحروف البارزة لتعليم العميان القراءة .

لذلك يقول : ( أرنست رنان ) : « إن الآثار والاسفار المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفاها علماء الاسلام على الكون ونقلتها الحملات الصليبية الى جميع بلاد الغرب وما سبق ذلك من احتكاك بين العرب وأوروبا عن طريق الاندلس ، أدى كل ذلك الى افعام المكتبات الاوروبية الخاوية الفقيرة بكنوز لاتفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب . وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الاوروبية بأسرها ، كما رفع مستوى شعوبها الى أفق التمدين الذي نشاهده عليها اليوم » .

ويقول ( هـ . ج . ويلز ) : « قد سبق العالم الاسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه . فقد أسست في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة سلسلة من الجامعات العظيمة ، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الاسلامي الى مسافات بعيدة واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب » .

ويقول ( نهرو ) رئيس وزراء الهند الراحل وهو هندوكي العقيدة : « كان محمد واثقا بنفسه ورسالته . وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة ... الى أن يقول : ان قصة انتشار العرب في

آسيا وأوروبا وافريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي اعجوبة من اعجوبات التاريخ • لقد امتازوا بالروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث » •

فهل يحق لأحد بعد قراءة هذه الفقرات أن يقول : إن الدين أساطير وتقاليد تقف في سبيل الحياة !

فالاسلام يناصر العقل والعلم ويرحب بالافكار والنظريات العلمية الصحيحة والمكتشفات العلمية التي تخدم البشرية في مجالات تكميل النفوس البشرية ويحارب الجهل والخرافة وكل ما يخالف العقل •

فالمسلمون بتمسكهم بدينهم أصبحوا مكتشفين ومنقذين قسما من العالم من الجهل والخرافة بعكس أوروبا التي لم تظهر الحضارة الحاضرة فيها إلا بعد أن تغلب العلم الحديث على الكنيسة ورجال الدين فيها !

يقول المستشرق الايطالي : ( ليبرتيني ) في كتابه : ( الإسلام في أمجاده ) [1] : « إنني أكاد أعتبر اقطاب الاندلس وجزيرة العرب — عندما اضاء سناء الحضارة العربية بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم — أكبر أعداء العالم • لانهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضا ، بل تعدوا ذلك الى وأد ألمع حضارة اوجدها انسان على وجه الارض • وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الاسلامية الخارقة •فلوأتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء الباهر أن تمشي في سبيلها الى التكامل لما بقي على وجه الارض إلا كل عربي أو مستعرب • ولما كان غير الاسلام دينا للمجموعة البشرية • فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام الى دول ونحل وملل لايحصيها قلم أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها » •

---

(١) المسلمون والعلم الحديث : للاستاذ عبد الرزاق نوفل .

يقول ( نيتزه Nitza ) : « إن القسيسين عوضا من أن يفتحوا أبواب أوروبا للمسلمين والمبشرين بالدين الاسلامي وأن يخضعوا وينحنوا لهم تعظيما واجلالا شهروا سيوفهم في وجوههم ، فأمسى الدين في عرفهم عبارة عن مجموعة خرافات فحسب » .

وقد بدأت ترجمة معظم كتب المسلمين في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات الى اللغة اللاتينية منذ النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وفي مقدمة هؤلاء ( رايموند Raymond ) رئيس أساقفة ( توليدو ) وحاكم مدينة ( كاستيل ) : ( ١١٣٠ — ١١٥٠ م ) الذي شكل هيأة من المترجمين تولى رئاستها وأسماها : ( Dominican Gondeslavi )

وأما المسيحيون فقد جهلوا طوال العصور الوسطى محمدا (ص) نبيّ الرحمة ، وظلوا قرونا يعتقدون أن محمدا هو ( إله ) المسلمين . فكانوا يقولون بوجود وثن ذهبي يسمى محمدا Mohom وانه يمثل رسول الله . وإن كتاب العصور الوسطى قد نعتوا محمدا (ص) بنعوت كاذبة عجيبة ، فقالوا : « ليس محمد نبيا كاذبا وشابا ماجنا فحسب بل رجل مخادع مخرب ، قاد نفوسا ضعيفة بعيدا عن جادة الصواب ، بعد أن مناهم بكثير من المتع ، معظمها متع شهوانية » ! ؟

وإن معظم هذه الاتهامات ترجع الى البيزنطيين الذين هوجموا من قبل المسلمين ، فعمدوا الى تشويه سمعة الاسلام باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان .

ومما يثير الدهشة أن قسا إسبانيا يدعى ( Euloguis of Cordova ) رغم وجوده مدة طويلة بين المسلمين وتعرفه على كثير من حقائق الاسلام ، يذكر فيما كتب : « ان محمدا قد أخبر أن الملائكة ترفعه الى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة ورغم ذلك فقد التهمت الكلاب جثمانه العفن ! » (١) .

---

(١) الحضارة الاسلامية : تاليف : خدابخش ، المؤرخ الهندي ، وترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرس التاريخ الاسلامي بجامعة عين شمس .

إن هذه الاتهامات قد شوهت سمعة الاسلام في الغرب ، فأحدثت انطباعات سيئة أبعدت الغربيين عن الميل الى الاسلام واستقصاء ما فيه إلا من ساقه حب البحث والاطلاع كـ (كارليل) و (تولستوي) و (كوستاولوبون) و ( برناردشو ) وغيرهم. فكتبوا شهادات حقيقيةعن الاسلام وبعض حقائقه.

فالواعظ ( نيكلدوس ) الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر طلب من أخوانه المسيحيين أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم وكان معجبا بدراسة القرآن في مدارس بغداد وأثنى كثيرا على نظام الزكاة والوقف لأغراض الخير ، وشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات وفكرة التوحيد الناصع في الاسلام وكتابة المسلمين ( بسم الله الرحمان الرحيم ) في أعلى الرسائل وخلعهم الاحذية قبل دخول المساجد وكرمهم وحسن ضيافتهم .

ولا ننسى كتاب ( الاسلام على حقيقته ) تأليف ( شارل فوستر ) سنة ١٨٢٩ وما كتبه ( كوسان ) و ( ويل ) و ( ڤون كريمر ) و ( وليام ميور ) وغيرهم مما أزاح كثيرا من الاتهامات .

ولنذكر دليلا على عدالة المسلمين هاتين الشهادتين :

نقل ( توماس ارنولد ) طرفا مما روته كتب الفتح في كتابه الدعوة الى الاسلام :

١ ــ انه لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن وعسكر أبو عبيدة في ( فحل ) كتب الاهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون : « يامعشر المسلمين ، أنتم احب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، انتم اوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكفّ عن ظلمنا ، واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على امرنا وعلى منازلنا » .

ومن ذلك أيضا :

١ — ان أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وابلغوا المسلمين : ان ولايتهم وعدلهم احب اليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم وإن كانوا على دينهم .

ولولا الكتب التي نشرت في أوروبا في القرن الحادي عشر للميلاد ، وهي مليئة بالاتهامات والشتائم وافتراءات غريبة وما قام به القوالون في الطرق والشوارع ، لكانت نظرة أوروبا الى الاسلام غير ما نراه اليوم .

فواجب الشباب المسلم اليوم واجب خطير جدا . عليه أن يقوم بإزاحة ما ترسب من أكاذيب ومفتريات عن الاسلام في الغرب وعرض الاسلام كما هو ببيان واضح وبلغات مختلفة وبذل النفس والنفيس في هذا المضمار . فلا شيء يقرب العبد الى الله كهداية عباد الله وانقاذهم من الضلال .

ومما يبشر بمستقبل زاهر أن قد تأسس في ( جنيف Geneve ) مركز اسلامي : ( Isiamic Centre 333 ) لنشر حقائق الاسلام في الغرب وكذلك تأسست جمعيات اسلامية في ( اليابان ) : ( ژپن ) تدعو الناس الى الاسلام .

***

ومما هو دليل على تقدم المسلمين في الهندسة الى حد بعيد هو : أن أعظم جسر اقيم على نهر ( التيمس ) كان من صنع مهندسي العرب . وأن قباب معظم الكنائس الشهيرة في ( باڤاريا ) كانت من صنع العرب . وأن الاسطول البحري الهولندي الذي قهر الاساطيل الانكليزية في معركة ( ليزبونة ) عام ١٥١٢ م كان من صنع العرب . وان الورق العبادي الذي كانت تستخدمه البلاد الاوروبية لتأليف الكتب ونسخ [1] المناشير الرسمية كان من صنع العرب . وان علم الجبر والفلك والجغرافية والمثلثات والتشريح والكيمياء كانت من وضع المسلمين . وان أول خريطة وضعت للكرة الارضية

---

(١) أستنساخ .

كانت من صنع الإدريسي العربي الاندلسي ، كل ذلك : إستجابة لقوله تعالى: « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج • تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » [1] • ( سورة ق : ٦ — ٨ ) • واستجابة لقوله تعالى : « قل انظروا ماذا في السماوات والارض » • واستجابة لقوله تعالى : « ويتفكرون في خلق السماوات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » •

ويقول العلامة ( دوسن ) : « إن المدنية الاوروبية بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين • ومن المدهش أن يصبحوا — وكانوا أول أمرهم على الفطرة — عنصرا فاتحا ، ويعتبروا سادة لنصف العالم في مائة عام • ومن أشد العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم • حتى وصلوا الى مستوى عالٍ في مائة سنة • بينهما نرى الجرمانيين ، لما فتحوا الامبراطورية الرومانية • قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم » •

وفي مكتبات اوروبا اليوم آلاف الكتب التي ألفها المسلمون في شتى العلوم • مما يدل على أن الاسلام دين يرافق العلم ويحث على العلم ولا تنافي بينه وبين العلم أبدا •

فالمسلمون قد نبغوا في شتى العلوم • فهم الذين قد أبدعوا في علم الكيمياء والطب وأوجدوا القوانين والدساتير التي هي أساس العلم الحديث• وبثوا المراصد واكتشفوا قواعد علم الفلك ونظموا الخرائط الجغرافية • وكان الادب والشعر يلعب دورا هاما في التعبير عن المكتشفات • فهم كانوا يعبرون أحيانا عن دستور رياضي أو قاعدة نحوية أو قانون هندسي الى غير ذلك

(١) منيب : أي راجع الى ربه •

بالنظم ، عدا النثر . وقد قرأت قبل اكثر من ثلاثين سنة قطعة شعرية ، هي دستور لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في كتاب ألفه استاذ الفيزياء الرياضية بجامعة استانبول : صالح زكي في اربعة مجلدات أسماه : ( الآثار الباقيـــة ) .

والمسلمون هم الذين أوجدوا ( علم الجبر ) . ولا يزال يعبر عن هذا العلم في الغرب بنفس ما أصطلح عليه المسلمون : ( Algebre , Algebra ) . كما أن اسماء كثير من النجوم في علم الفلك لاتزال باقية في كتب الافرنج على ما اصطلح عليه المسلمون . والمسلمون هم أول من عرفوا أصول الرسم على سطح الكرة الارضية وقالوا بدوران الارض على محورها وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل أفلاكها في افلاك أخرى . وهم اول من عملوا الأسطرلابات وبنوا مراصد كثيرة . ولهم اكتشافات هامـــة في المساحات والحجوم وتقسيم الزاوية . وهم واضعوا الهندسة التحليلية . وقد أدخلوا تحسينات جمةعلى حساب المثلثات الكروية وأضافوا عليهاوألفوا في البصريات وحسبوا زاوية الخسوف . وكانوا قد تعرفوا الى استعمال التخدير في العمليات الجراحية . حين أن الكنيسة كانت تحرم إذ ذاك ممارسة الطب انتظارا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها القساوسة تاركين ما خلق الله من أنواع العقاقير والادوية لدفع ما يصيب الانسان من أمراض . وقد صنعوا الورق وأبدعوا في صناعة المنسوجات وصنعوا السكر من القصب ونبغوا في طرق الري والزراعة العلمية .

يحدثنا العلامة : ( هولميارد ) استاذ الكيمياء بكلية ( ايتون ) والذي يعتبر أعظم الاساتذة في الكيمياء في اوائل القرن التاسع عشر فيقول :

إن سبب نبوغه في الكيمياء هو تعلمه اللغةالعربية وتضلعه منها ودراسته ما اخترعه المسلمون في علم الكيمياء .

وهذا : ( جابر بن حيان ) أملى عليه الإمام الصادق ( جعفر بن محمد ) عليهما السلام ، خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ هـ يروون عن علي عليه السلام موازين الصناعة .

إن جابر بن حيان يُعد من أساطين علم الكيمياء وحجة فيه بلا نزاع .. وقد نبغ في علوم أخرى أيضا كالطب والفلسفة وقد الف ( ٢٠٠ ) كتاب ، ( ٨٠ ) منها في علم الكيمياء . وقد جاء بنظريات هامة في علم الكيمياء تحققت صحتها من قبل علماء الغرب عندما بدأوا في توسيع علم الكيمياء . وقد علمه الإمام الصادق عليه السلام طريقة تحضير ( مداد مضيىء ) ، يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة ، لإمكان قراءتها في الظلام . وعلمه أيضا طريقة صنع صنف من الورق غير قابل للاحتراق .

وهكذا ( عز الدين الجلدكي ) قد جاء بقوانين هامة في علم الكيمياء : منها قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي ومن كتبه : ( نهاية الطلب ) ، ( التقريب في أسرار التركيب ) ، ويبلغ كل منهما نحوا من ألف صفحة .

وهكذا قاد ( أبو القاسم المجريطي ) اكبر حركة كيميائية في الاندلس .

فهل كان كل ذلك ، الان الدين يعارض العلم ولا يوافقه في شيء ؟!..

تلك هي سلعة غربية ، جاءت من معارضة الكنيسة للعلم وإعدامها كثيرا من العلماء فسرت الى الشرق والى شبابنا المثقف ، فتأثروا بها وتغيرت وجهة نظرهم الى دينهم القويم ، دون أن يتحملوا أعباء البحث والتنقيب !

***

وقد نبغ المسلمون في علم الطب ، حتى ترى أن ( وليم أوسلر ) يقول في كتابه : ( تطور الطب ) : « إن المسلمين أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية . وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن الى الحادي عشر

للميلاد من المكانة والاهمية ما لاتكاد تجد له مثيلا في التاريخ » .

ولا بأس بذكر ما جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو :

« إن انكلترا ، كانت في القرن السابع الميلادي الى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها ، منقطعة الصلات بغيرها ، تعترض الامراض والاوبئة المتكررة المواشي والسائمة . وكانت أوروبا غاصة بالغابات الكثيفة . وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة ، لم يعرف أهلها النظافة » . ويقول ( درابر ) : « وكان من أثر ذلك ان عمت الجهالة اوروبا وساورتها الاوهام . فانحصر التداوي في زيارة الاماكن المقدسة [1] ومات الطب وحييت احابيل الدجالين . وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين الى الصلاة واغفلوا أمر النظافة ، وكانت الاوبئة تفتك بهم فتكا ذريعا » .

المسلمون هم أول من مارسوا العمليات الجراحية . مع العلم ، أن اوروبا كانت ترى ، في القرن الثاني عشر الميلادي ، أنه لا يجوز للإنسان أن يغير ما خلق الله وان يتصدى الى عملية جراحية ! حين أن المسلمين قاموا في ذلك الحين بتأليفات جمة في علم الجراحة وشرحوا الآلات التي كانوا يستعملونها في كتبهم وهي تزيد على مائتي آلة عدا تأسيسهم مستشفيات ، بعضها للرجال وبعضها للنساء ، مقسمين المستشفى الى أقسام متعددة حسب نوع المرض ، وأقاموا معازل لعزل المرضى المصابين بأمراض معدية .

---

(١) إن لشفاعة انبياء الله (ع) والائمة (ع) والصلحاء من عباد الله (رض) وفي التوسل بهم الى الله تعالى أثرا بالغا في دفع المكروه وقضاء الحوائج . مع العلم أنهم « لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » . ( سورة الانبياء : ٢٨ ) . إنهم أبواب الله والوسيلة اليه بإذنه تعالى .. انهم : « عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

وقد كتبت الجرائد معجزة للإمام علي بن موسى الرضا (ع) قبل سنين :

والمسلمون هم أول من أسسوا المستشفى السيار . فكان ينتقل هذا المستشفى من بلد الى بلد ، مجهزا بالادوات والادوية والاطعمة والاشربة وملابس وصيدلية كاملة مع أطباء ، لاسيما حين حدوث وباء أو مرض

---

وذلك أن امرأة اصيبت بداء السرطان ، وقد أثبت ذلك معهد الاشعة السينية ( X. R. ) ويئس الاطباء من شفائها وقالوا انها تموت قريبا لامحالة ، فنذرت لله وتوسلت الى الله تعالى بالإمام الرضا (ع) . فرأت ، ذات ليلة في ما يرى النائم : يقال لها : قد شفيت وما بك من داء . قامت من فراشها فرحة مستبشرة ، وعرضت نفسها على الاشعة والاطباء ، فلم يروا أثرا للسرطان ، فتعجبوا من ذلك وقالوا : « إن ما حدث ليس بحادث طبيعي وليس للطب العادي أن يفسر ذلك » .

ليس المراد من الإستشفاء أو التوسل الى الله تعالى بالانبياء والاوصياء عليهم السلام ، أن نترك ما خلق الله من أدوية للأمراض تفضلا منه وما علم البشر من عمليات جراحية . فقد جعل الله تعالى لكل شيء سببا . والشفاعة أو التوسل عند تعسر الامور وغلق الابواب العادية سبب من الاسباب ، ان أذن الله بذلك . والحديث القائل : داووا مرضاكم بالدعاء والصدقات ، ليس معناه أن نترك الطرق العادية التي هيأها الله لنا وألهمها ثلة من عباده ، ولكن ندعو ونتصدق مع المعالجة من طرقها والالتزام بالنظافة والتعقيم الى حد بعيد، كي لايحدث خطأ في المعالجة ولا يحدث اشتباه في تشخيص المرض ومقدار الدواء وتسمم حين أجراء عملية جراحية واشتباه غير منتظر الى ما هنالك ،فالدعاء والتصدق والتوسل والمعالجة والتعقيم والنظافة كلها أسباب هيأها الله تعالى لقضاء الحوائج والشفاء تفضلا منه ورحمة .. انه تعالى يقول : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » . ( سورة البقرة : ٤٦ ) .

معدٍ . والمسلمون هم أول من اكتشفوا وسائل التخدير واستعملوها في العمليات الجراحية .

* * *

وان أجمل بناء من أبنية جامعة ( برنستون ) الامريكية يحمل اسم طبيب مسلم هو : محمد بن زكريا الرازي . وانه أول من اسس الطب التجريبي ، وذلك بإجراء تجاربه الطبية العلاجية على الحيوان قبل تجربتها على الانسان . وقد وضع ( ٢٢٩ ) كتابا في الطب ترجمت الى معظم اللغات العالمية ، وتقرر تدريسها في كليات الطب ، كما انه اشتغل في الكيمياء وألف فيها كتبا عدة .

كان الرازي رجلا متدينا ، يعالج الفقراء مجانا ويشتري لهم الدواء من ماله . ولذا مات فقيرا رغم شهرته الواسعة .

نعم ، إن رجال العلم في الاسلام ما كانوا لينفكوا عن دينهم ، بل كان تعلقهم بدينهم تعلقا شديدا . يتعبدون في أوقات معينة ويستعيون بالله في حل مشاكلهم العلمية ، بصلاة يصلونها ، أو دعاء او صدقات .

* * *

وهكذا ابن سينا [1] ، كان كلما أشكلت عليه مسألة ، توجه الى القبلة ، صلى ركعتين ودعا الله تعالى ، متضرعا ، فيلهمه الله تعالى ما يزيل مشكلته . كان قلبه متعلقا بالمسجد ، وقد يعتكف فيه إذا أعيته مشكلة أو عسرت عليه مسألة .

وابن سينا هو أول من قال : إن الإضطرابات النفسية تسبب اضطرابات معدية ، وقد تسبب قرحة المعدة . وهو الذي اكتشف الدورة الدموية في الانسان قبل ( وليم هارفي ) بـ ( ٦٠٠ ) سنة . وقال في معالجة السرطان ما توصل اليه العلم الحديث . وكتابه : القانون ، هو من أكبر الموسوعات

---

(١) هو : أبو علي بن عبد الله بن سينا المعروف بالرئيس .

الطبية • وكان يدرّس في مختلف كليات الطب • وكان أهم مرجع طبي لكل من أراد التخصيص في علم الطب •

وضع ابن سينا نظريات في تكوين الصخور والجبال اتخذت أساسا لعلم طبقات الارض ( Geologie ) في الوقت الحاضر •

ويقال عنه ، انه قال عند دنوّ أجله : « إن الذي كان يمدني بقوة • قد أمسك عني » • فاغتسل غسل التوبة وأنفق ما كان لديه واعتق مواليه وعبيده وصار يختم القرآن في كل ثلاثة أيام ، حتى وافته منيته •

* * *

إن المسلمين اشتغلوا في العلوم الطبيعية وتمكنوا من حساب الوزن النوعي للعناصر • ووجدوا أن الوزن النوعي للرصاص ١١٫٣٣ • ويقرر العلم الحديث انه ١١٫٣٥ • فالاختلاف يسير جدا •

كما أنهم اخترعوا بنـــدول الساعة والآلات الدقيقة • واستعملوا ( البوصلة ) ، ووضعوا قوانين الصوت والضوء ، ونظريات في كلا الموضوعين لازالت تدرس حتى الآن • ويقال ان الغربيين اندهشوا عندما شاهـدوا ( ساعة ) أهديت الى ( شارلمان ) ملك فرنسا • وقالوا : أن فيها جنيا يحركها •

وقد ألف ابن الهيثم ( ٤٧ ) كتابا في الرياضيات والطبيعيات و ( ٥٨ ) كتابا في الهندسة وكتبا أخرى في مواضيـع شتى وهي مما مهـد الطريق للمكتشفات الحديثة •

* * *

وان كمال الدين الفارسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري يعتبر حجة في علم الضوء بلا منازع •

وقد وضع أبو الريحان البيروني في كتابه : ( الآثار الباقية ) والذي يبحث عن ( الإيدروستاتيكا ) مثل صعود مياه الفوارات والعيون الى الاعلى

وعن تجمع مياه الآبار بالرشح الجانبي الى غير ذلك . ولا مجال لذكر ما وضع من كتب في مباحث علم الفيزياء .

وقد نبغ المسلمون في الزراعة وعلم النبات وأعمال الري وتربية الدواجن ، ووضعوا فيها كتبا مفيدة . ومن أساطين هذا العلم : عبد اللطيف البغدادي ، وضياء الدين البيطار ، ورشيد الدين الصوري .

والمسلمون عند دخولهم الى بلد جديد كانوا يهتمون بأمرين في وقت واحد : ١ ــ تنظيم الحدائق ، ٢ ــ بناء المساجد .

ولا مراء ان : محمد بن موسى الخوارزمي ، يُعد واضع علم الجبر وقد ترجم كتابه في الجبر الى لغات عدة .

والمهم أن العلماء المسلمين ما كانوا لينفكوا عن ذكر الله تعالى في عملهم العلمي وتجاربهم العلمية . سواء حين التدريس أو الكتابة أو العمل في المختبر . لذلك يقول الخوارزمي في أول صفحة من كتابه : «يقول الخوارزمي بعد حمد الله : هادينا وحامينا » . ويقول في مقام آخر : « وبالله توفيقي في هذه وغيره ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

وأما خواجه نصير الدين الطوسي . فهو معروف في أوساط الغرب . إنه نابغة من نوابغ الرياضيات . يعتبر الطوسي كما قال بعض العلماء متفرقا في الهندسة لا على معاصريه فحسب ، بل وعلى علماء الهندسة في العصر الحاضر .

وأما ( ثابت بن قرة ) فقد أخذ يستعمل الهندسة في حل المعادلات من الدرجة الثالثة . وقد أخذ العالم الايطالي ( چيرو الاموكاردان ) في القرن السادس عشر عن ( ثابت ) طريقته هذه في حل المعادلات من الدرجة الثالثة . و ( ثابت بن قرة ) هو أول من وضع حساب التكامل والتفاضل وأوجد

حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافيء حول محوره .

ولعمر الخيام حلول قيمة في الهندسة ترجمت الى لغات أجنبية .

والمسلمون هم واضعوا علم الفلك بأسلوب علمي صحيح مستعملين في ذلك الهندسة والجبر وحساب المثلثات . وقد أسسوا مراصد عدة وكان في ( مراغة ) مرصد كبير ، أشتهر بآلاته الدقيقة وأجهزته المتعددة .

وأما التاريخ والجغرافيا ، فقد نبغ المسلمون ودونوا فيهما كتبا مفصلة وموسوعات مشهورة وهم واضعوا علم الاجتماع .

يقول المؤرخ « گوتية » عن الشريف الادريسي : « إن الشريف الاريسي الجغرافي كان استاذ الجغرافيا وهو الذي علم أوروبا هذا العلم وبقي معلما لها ثلاثة قرون . ولم يكن لاوروبا مصور للعالم إلا ما رسمه الادريسي » .

ولو أردنا ان نستقصي علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين وما ألفوا من مؤلفات وماقاموابه من اكتشافات لاحتجنا الى وضع كتب متعددة في هذا المقام

وأبو عبد الله القزويني اشتهر بأنه من علماء العلوم الطبيعية ومع ذلك فهو يعد من أساطين علمي التاريخ والجغرافيا وله مؤلفات في الفلك والعلوم الرياضية مما يجعله في القمة .

كان أبو عبد الله القزويني رجلا متدينا ، وهو القائل : « ليس المراد من النظر تقليب الحدقة ، فإن الحيوان يشارك الانسان في ذلك . ومَن لم يرَ من السماء إلا زرقتها ومن الارض الا غبرتها فهو مشارك الحيوان . وأدنى حالا وأشد غفلة ، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر حقائقها » .

وكم من رجال العلم قاموا برحلات موفقة واستكشافات ناجحة وضحوا بحياتهم بغية العثور على ما في الارض من بقاع مجهولة .

* * *

ومما يدل أن للمسلمين كفاءة مرموقة في الاختراع والاكتشاف حتى في العصر الحاضر نبوغ بعض علماء المسلمين في بعض المواضيع الحديثة • ومنهم المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة المصري • فقد وضع رسالة علمية أثبت فيها خطأ وقع فيه ( أينشتين ) وصحح فيها خطأه • ولذلك ، قد اختاره ( انشتين ) ليساعده في ابحاثه • وهو الوحيد الذي زامل هذا العالِم في ابحاث المادة والذرة [1] •

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة على جانب عظيم من التقوى وحب الله تعالى وتقديسه • وهو القائل : « إن المجد لا يبنى على القوة ، حتى ، ولا على العلم ، إنما يبنى على شيء آخر ، وهو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعا بأنه يميز الانسان على سائر الحيوان ، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال • وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم • وعندي ان ما وصل اليه الانسان من العلم وما ترتب على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق كما أن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال • فالحق والخير جميلان • ولذلك من أحب الجمال أحبهما جميعا • ووددت لو استطعت أن اصور للقارىء فيض ذلك الجمال الذي يدركه طالب الحقيقة العلمية : ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون ! » •

وهو القائل : « اليوم ، وقد امتزج العالم بحياة الامم والافراد صار لزاما على رجال العلم أن يبتعدوا عن الفلسفة المادية في جميع صورها وأشكالها • كما صار لزاما على الشعوب أن يتقبلوا رسالة العلم وأن يستعينوا بها على محاربة الشر ، وقد بينت أن الارض لاتزال رحبة تتسع للناس جميعا وأن القوى الموجودة على سطحها قوى عظيمة ، فاذا استعان بها الناس على

(١) المسلمون والعلم الحديث : الاستاذ عبد الرزاق نوفل .

قضاء حوائجهم وسخروها لخيرهم ورفاهيتهم مستعينين بالعلم والروح العلمية، كان لنا أن ننتظر للبشر مستقبلا يكفل طمأنينتهم وسعادتهم وسموهم » .

إسمعوا ماذا يقول ( أينشتاين ) نابغة القرن العشرين في الفيزياء وعلم الذرة عن التوجه الديني وأثره في الاكتشافات . إنه يقول : « إن بصيرتنا الدينية هي المنبع وهي الموجهة لبصيرتنا العلمية » . لذلك كان كلما حاضر محاضرة في النظرية النسبية يطلب الى المسؤولين أن يكون الناس أحرارا في القيام بطقوسهم الدينية وتطبيقها .

* * *

يكفي في تأييد الاسلام النواحي العلمية أن قد ورد في القرآن الكريم لفظ العلم في أكثر من ( ٥٥٠ ) موضعا مما يدل على الحفاوة البالغة في الدين الاسلامي بمفهوم العلم ومشتقات لفظ العلم . ولكن القرآن لايدع مفهوم العلم مفهوما مجردا من التعليل والتوصل الى النتيجة العقلية الحتمية التي يجب أن تؤخذ من العلم بأسرار هذا الكون : ألا وهو الوصول الى ( واضع العلم ) وخالقه ومبدعه وهو الله جلت قدرته . أي يريد القرآن أن لاينظر الفرد نظرة مادية الى ما أودع الله من دقيق الصنع والقوانين في هذا الكون دون ارجاع هذا الصنع الى صانع حكيم قدير .

ان أول آية نزلت من القرآن الكريم هي : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » [1] . فالله تعالى هو الذي علم الانسان بما أعطاه من مواهب وقابليات أن يكتب بالقلم وأن يتعرف الى أشياء كثيرة من قوانين اودعها الله في هذا الكون الواسع الارجاء .

لذلك يقول ( رينورت ) : « يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك

---

(١) سورة العلق ١ — ٤ .

والفلسفة والرياضيات التي أنعشت اوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن » .

* * *

ومما يؤيد اهتمام الاسلام بالعلم الى حد بعيد ، حلّ علي سلام الله عليه كثيرا من المسائل الرياضية والفيزيائية ، ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ووضعه أسس علم النحو . وقوله لكميل ( رض ) : « ياكميل ، لو شئت ان أصير من هذا الماء نورا لفعلت » . يقول علي ( ع ) هذا القول في وقت لم تعرف الكهربائية وكيفية استخدام الشلالات في تحريك ( الدينامو ) وايجاد التيار الكهربائي ومن ثم تأسيس المصابيح الكهربائية . ولم تعلم القوى النووية وتحطيم الذرة وتحرر طاقات هائلة : حسب دستور أوجده ( أينشتاين ) : ط = ك × س$^{٢}$ .. أي ان الطاقة المتحررة من تحطيم ذرةٍ ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروبا في الكتلة .

لذلك يخاطب رسول الله (ص) عليا (ع) قائلا : « ليهنئك العلم يا أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا » .

وقول علي عليه السلام : « لو شئت أو قرت سبعين بعيرا من سورة الفاتحة » . دليل على أن الاسلام يرافق العلم ويعظمه .

* * *

وقد كان للمسلمين الفضل الاكبر في ايجاد الطريق التجريبي في الاكتشاف العلمي لذلك يقول : ( گوستاو لوبون ) أحد فلاسفة اوروبا : « إن القاعدة عند العرب هي : جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » حين أن القاعدة كانت عند الاوروبي الى ما بعد القرن العاشر المسيحي . إقرأ في الكتب وكرر ما يقوله الاساتذة تكن عالما ! » .

ويقول ( گوستاو لوبون ) في كتابه حضارة العرب : « إن العرب لم

يظلوا طويلا معتمدين على كتب اليونان التي نقلت لهم • فقد أدركوا بعد لأي ان التجربة والترصد والمشاهدة خير من أفضل الكتب • ولذلك سبقوا أوروبا الى هذه الحقيقة التي تعزى الى ( بيكون ) [1] انه اول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة • فالمسلمون هم أسبق الى نظام التجربة في العلوم » •

لذلك يقول ( گوستاو لوبون ) : « إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الامم المسيحية عدة قرون • ونحن الغربيين لهم يُتح لنا الاطلاع على التراث اليوناني والروماني إلا بفضل العرب ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عما نقل الى لغاتنا من كتب العرب إلا في أزمان متأخرة » •

والحق ان ما يعرف اليوم باسم الطريقة ( البيكونية ) التي قوامها كما يقول ( بيكون ) : « اننا لانستطيع ان نخضع الاشياء مالم نخضع لها أولا » أي لانتمكن من الاستفادة منها مالم نكتشف قوانينها ، ترجع اصولها الى المسلمين المكتشفين الطريقة التجريبية • فتأثر بها ( بيكون ) وغير ( بيكون )• لذلك يقول ( سيديو ) : الفرنسي في كتابه عن تاريخ العرب : « ان ما يميز مدرسة بغداد هو الروح العلمية الحقة التي تسيطر على أعمالها • فالمضي من المعلوم الى المجهول ، وملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة من أجل الصعود بعد ذلك من النتائج الى الاسباب ، ورفض كل شيء لم يؤيد بتجربة • تلك هي المبادىء التي سادت والتي أشاعها كبار معلمي تلك المدرسة » •

ويقول ( جيب ) في كتابه عن : ( الاتجاهات الحديثة في الاسلام ) : « إن انصراف الفكر الى الحوادث الجزئية ، هيأ للعلماء العرب أن يذهبوا بالطريقة التجريبية الى أبعد بكثير مما فعله سابقوهم من يونان ورمان ،

(١) باكون ( Bacon ) : راهب فرنسيسكاني انكليزي ، من كبار علماء القرون الوسطى ، ومطبقي الطريقة الاختبارية ( التجريبية ) •

وانهم الاصل في دخول الطريقة التجريبية الى أوروبا » . ويقول ( همبولت: Humbolt ) : « من الواجب أن يعد العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية » .

يقول المؤرخ ( جيبون ) : ان ولاة الاقاليم والوزراء ( يعني في البلاد الاسلامية ) ، كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلب العلم . وكانت نتيجة ذلك : أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من ( سمرقد ) و ( بخارا ) الى ( فاس ) و ( قرطبة ) . فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين — هو نظام الملك — مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد . وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها ما يعادل : خمسة عشر ألف دينار في السنة . وكان عدد الذين يغذّون بالمعارف فيها ( ٦٠٠٠ ) تلميذ . فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الناس فيها . غير أن الفقير يُنفق عليه من الريع المخصص للمدرسة . وابن الغني يكتفي بمال أبيه . وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة » .

وان الفيلسوف الامريكي ( درابر ) يعجب من وجود آراء علمية في كتب العرب كان الغربيون يعتقدون انها لم تولد إلا في عصرنا الحديث .

وان علماء أوروبا يقدرون ما للمسلمين من خدمات جمة في الفلسفة ، لذلك يقول ( رينان ) : « إن (آلبرت الكبير) مدين لـ ( ابن سينا ) في كل شيء وان ( سان توما الاكويني ) مدين في فلسفته لـ ( ابن رشد ) [1] . وفي الوقت الذي نرى أن المسلمين يعملون في توسعة العلم الانساني نرى بمزيد الاسف

(١) على انا لانوافق ( ابن رشد ) فى نظرياته الفلسفية كلها . ففيها نقاط ضعف لاتوافق النصوص القرآنية وفلسفة الاسلام الحقة فى شيء ، لا مجال الى ذكرها وردها هنا .

ان ( الكاردينال : أكزيمنيس ) يأمر باحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية في الاماكن العامة بغرناطة » .

وها هو المستشرق النمساوي المسلم ( ليوبولد ڤايس ) يقول : — وما أصدقه — : « إن اوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة : أن ثقافتها مدينة للاسلام بتلك النهضة على الاقل بعد قرون من الظلام الدامس ، ولم يقف الاسلام يوما ما سدًا في وجه التقدم العلمي . انه يقدر الجهود الفكرية في الانسان الى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة . وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة » .

***

يظهر من كل ما ذكر بشأن علماء المسلمين ومكتشفاتهم وما كانوا عليه من تمسك بالدين وتعبد وتهجد : أن العلم الايعارض الدين في شيء . بل ، إن الدين وتعلق الفرد بربه واستمداده من علم الله الذي الايتناهى ، وطلب المعونة منه تعالى لكشف بعض أسرار الكون ، يفتح على المتتبع أبواب المعرفة . ثم ان الله تعالى يهيىء له بلطفه مصادفاتٍ واتفاقات غير منتظرة ، وعجيبة جدا ، يظفر بسببها العالم المتتبع بحقائق جديدة وخواص مجهولة قبلا ، لم تكن بالحسبان . كل ذلك لتوجهه الى الله تعالى ومكافأة له ازاء تعبه وتضحيته .

وأي تنافٍ بين دستور يجده المتتبع في ربط العناصر بعضها ببعض أو ربط أجزاء العالم بعضها ببعض وبين عبادة الله في أرضه والقيام بتزكية النفس وما امر الله به من صلاة وصوم وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وانفاق وأعمال صالحات وما أكثرها ... الخ .

بل هناك علاقة متينة بين ما يجده العالم من دساتير وبين واضع هذه الدساتير في هذا الكون الرحيب . ثم الخشوع والخضوع ، بصلاة وتسبيح

تجاه عظمة مَن وضع هذه الدساتير بهذا الاتقان المحير للعقول وهو الله جلت عظمته . إذ أن ارجاع المعلول الى العلة أمر فطري في البشر ما لم تتلوث هذه الفطرة بخمور وفجور وبغي وظلم . أي ما لم تتلوث هذه النفس التي هي أعز الانفس علينا بما يبعدها عن ساحات القدس . فقد جاء في الحديث : « اذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه . فان هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه . وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب » .

فما على هذا الانسان إلا أن يقلع عن ذنبه حالا ، كي لاتتراكم ذنوبه ، فيسودّ قلبه ، فلا يبصر الواقع والحق وتتغلب إذ ذاك عليه المادية الحالكة ، فيتمسك — لا سمح الله — بالمادية العمياء ، وهو لايعلم عن حقيقة المادة شيئا ! لذلك يستحب أن يستغفر العبد ربه ، عندما يأخذ مضجعه ليلا قائلا ثلاث مرات : « استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب اليه » . كما يستحب له أن يستغفر الله بصوت خافت بعد التسبيحات الاربع في الركعة الثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء .

* * *

وهكذا الفلسفة التي يتبناها الفيلسوف وغير الفيلسوف هي رشحات نفسه ، فإن كانت نفسه نفسا طاهرة زكية بعيدة عن الفسوق والعصيان مؤمنة بالله والبعث كانت فلسفتها فلسفة تناسب نفسه ، فلسفة قريبة الى الواقع وإن كانت نفسه نفسا لئيمة ، خبيثة ، مكارة ، غدارة ، قاسية ، متحجرة ، ففلسفتها تكون فلسفة هدامة ، سفاكة ، مخربة ، لا ينبض فيها شيء من محاسن الاخلاق ، شيء من العطف والحنان ، ففلسفة كل انسان مرآة نفسه.

وقد أخطأ ( تنمان Tenne mann ) في قوله « إن جملة عوائق وقفت تقدم المسلمين في الفلسفة ، وهذه العوائق ترجع الى كتابهم المقدس الذي

يتعارض ونظر العقل الحر » . وذلك لان القرآن الكريم يدعو الناس الى التفكير الحر وينهى عن التقليد الاعمى بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها » (١) . «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٢) . وبقوله: « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣) . و « لآيات لقوم يعقلون » (٤) . « إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب» (٥) . « أفلا تعقلون » (٦) ، « وما يعقلها إلا العالمون » (٧) . وبقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

وقد ذم الله تبارك وتعالى اولئك الذين لايعقلون بقوله : « واذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، اولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون » (٨) . وبقوله : « إن شر الدواب عند الله الصمُّ البكم الذين لايعقلون » (٩) . وبقوله : « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الالباب » (١٠) .

الاسلام يريد منا أن لانتقبل شيئا دون تمحيص وتمييز وذلك بقوله : « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب » (١١) .

وقد عظم أمر العقل والتفكير الى حد بعيد بقوله : « ويتفكرون في خلق السماوات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » (١٢) .

وقد جاء في حديث : « إنما يُداق الله العبادَ في الحساب يوم القيامة

---

(١) سورة محمد ( ص ) : : ٢٤ (٢) سورة الرعد : ٣ .
(٣) سورة النحل ١٢ ، وسورة الروم : ٢١ (٤) سورة البقرة : ١٦٣ .
(٥) سورة آل عمران : ١٩٠ .
(٦) سورة الانعام : ٣٢ ، وسورة القصص : ٦٠ .
(٧) سورة العنكبوت : ٤٣ (٨) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٩) سورة الانفال : ٢٢ (١٠) سورة البقرة : ٢٦٩ .
(١١) سورة الزمر : ١٨ (١٢) سورة آل عمران ١٩١ .

على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا » .

واذا أردت أن تعرف مَن هو ذلك العاقل الذي يتبنى فلسفة حقة لاتزيغ به الاهواء ، فيميل الى هاهنا وهاهنا من مسالك ضالة مضلة . فانظر الى ما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين يعرفنا ( العاقل ) انه يقول مخاطبا هشاما أحد أصحابه : « يا هشام ، إن العاقل هو الذي لايشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره » . فمن كان مصداق هذا الحديث فانه يزيف كل فلسفة بشرية ، ولا ترتاح نفسه إلا الى فلسفة الاسلام الحقة.

وإن كانت التجربة سند العلم الحاضر ، فليجرب من كان يشك في صحة هذا المقال ، ليرى كيف يخرجه الله تعالى من الظلمات الى النور بمنه . « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » .

القرآن وما فيه من فلسفة حقة لم يدع مجالا لظهور فلاسفة في الشرق بالمعنى الذي يريده ( تنمان ) ، إلا اذا انحرف هذا الفيلسوف عن النصوص القرآنية وجاء بنظريات هوجاء تعبر عن هوى نفسه ! ذلك ، لان حقيقة الوجود وما أودع الله فيه من كمال ووظيفة الانسان وما سخر له من عوالم شتى من جماد ونبات وحيوان وربط العوالم المختلفة بعضها ببعض كل ذلك مسطور في كتاب الله الذي « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » [1] ـ بتعبير واضح . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » [2] . « ما فرطنا في الكتاب من شيء » [3] .

إلا أن هذه الفلسفة الحقيقية التي يضمها القرآن الكريم ، هذه الفلسفة الإلهية التي منّ الله بها على عباده من عالم الغيب أي من عالم غابت عناحقيقته

(١) سورة حم السجدة : ٤٢ (٢) سورة النحل : ٨٩ .
(٣) سورة الانعام : ٣٨ .

وليس لنا أن نصل الى كنهه ، لايصل الى تفهم عمقها وأثرها في تكامل البشر فيلسوف" لم يخرج بعد عن ماديته الضيقة وهو ينظر الى الوجود نظرا سخيفا متأثرا ببيئته ، فيلسوف ظن أن الاصطلاحات والظنون والمزاعم الباطلة ، او تلفيق وجهات نظر فلاسفة متعددين ( أو متفلسفين ) تؤلف فلسفة حديثة أو تقدم معطيات جديدة في عالم الفلسفة والعلم .

إن فلسفة هؤلاء ، هذه الفلسفة التي طابعها المادية ، هي وليدة نفوس متحجرة ، بعيدة كل البعد عن فلسفة الاسلام الحقة ، وان هذا البعد نفسه يجعل الفيلسوف الغربي ومنهم ( تنمان ) يزعم أن ليس في القرآن فلسفة أو ان القرآن يتعارض ونظر العقل الحر ، انه يريد اصطلاحات وتلفيقات ليس من ورائها الوصول الى صلب الحقيقة والواقع وإنما هي ظنون وأهواء !!.. «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » [1] .

* * *

لذا كان موضوع الفلسفة البحث عما وراء الطبيعة وكان ما هو وراء المادة أو الطبيعة مجهولا لهذا الانسان لعدم وجود مقياس مشترك بين هذين العالمين ، فمن العبث أن يزعم أو يوقن هذا الانسان ان ما تمليه عليه نفسه ( هذه النفس التي تتحول معطياتها من وقت الى وقت ) هو الواقع الصحيح . أما الفكر البشري ، فيعمل لأجل البحث عن خواص المادة والقوانين التي تتحكم فيها وليس له أن يقيس ما وراء الطبيعة على ما هو في الطبيعة ، فيعمم ما يجده من قوانين ومعادلات في الطبيعة على ما وراء الطبيعة ، وان قول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم إلا قليلا » هو غاية ما يمكن أن يقال عن الروح مع ما نحن فيه من جهل مرير . فما تقوّله الفلاسفة عن الوجود ، وعن الله تعالى ، وعما وراء الطبيعة

---

(١) سورة النجم : ٢٣ .

لايخلو عن مقترحات تنمُّ عن مرتبة تفوس أصحابها في ساحات الكمال أو أودية التسافل وهو ليس من الواقع الحقيقي في شيء . ذلك لان العقل الفطري ينحجب عن فعاليته واعطاء الحكم الصحيح عند تلوث النفس . « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ، فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم الى الهـدى ، فلن يهتدوا إذن أبدا » (١) . « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (٢) ، لايؤمنون به وقد خلت سنة الاولين » . فهناك رابطة وثيقة بين معطيات العقل عن الفلسفة الحقة ودرجة تكامل النفس وتسافلها .

وأما فلسفة القرآن او الحقائق التي اوحاها الله تعالى الى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فهي الحق الصريح الذي لاغبار عليه ولا ريب فيه ، بعد اثبات نبوة محمد خاتم النبيين، بالعقل والمنطق . ذلك لان هذه الحقائق إنما جاءت من منبع صافٍ فياض . جاءت بوحي منه تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٣) . « وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين » (٤) .

* * *

وقد أضرت فلسفة اليونان وفلسفات أخرى بالاسلام ضررا بالغا . على انه قد نبغ في المسلمين من تفهم الفلسفة اليونانية وصححها على ضوء فلسفة الاسلام الحقة ، ومع ذلك كله لم ينجُ هؤلاء الفلاسفة من الزلل في القول والابتعاد عن صريح القرآن . فالاسلام في غنى عن استجداء فلسفة بشرية حالكة . فقد جاء في ( اصول الكافي ) ، عن الصادق عليه السلام : « قال رسول الله (ص) القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى ، واستقالة من

(١) سورة الكهف : ٥٨ (٣) سورة الملك : ١٤
(٣) سورة الحجر : ١٢ (٤) سورة النمل : ٧٥ .

العثرة ونور من الظلمة وضياء من الاحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا الى الآخرة . فيه كمال دينكم . وما عدل احد عن القرآن الا الى النار » .

ولا يعلم صحة ما قاله رسول الله (ص) الا من سلك مسالك الصلحاء ونهج مناهج الاتقياء ، عند ذلك يعلم ان لا فلسفة تطابق الواقع والمنطق الا فلسفة القرآن الحقة .

* * *

وكم للمنصفين من الغربيين من شهادات تنص على عظمة القرآن وانه كتاب الله المنزل « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

فقد قال : « ادموند يورك » الخطيب السياسي الانكليزي : « القانون المحمدي : ( القرآن ) قانون ضابط للجميع من الملك الى اقل رعاياه ، وهو قانون نسج بأحكم نظام قضائي واعظم قضاء علمي ، تشريع لامع ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل » .

وقد قال الكاتب ( مراشي ) : « من يتأمل آي القرآن يجد ان اساس الاسلام التوحيد وقطبيه التآخي وتحسين شؤون العالم تدريجيا بواسطة العلم . فهذه هي الاسباب الحقيقية لظهور الاسلام » .

وقال ( المستر بيكتول ) : « القرآن هو الذي دفع العرب الى فتح العالم ومكنهم من انشاء امبراطورية فاقت امبراطوريات اسكندر الكبير ، والامبراطورية الرومانية ، سعة وقوة وعمرانا وحضارة ودواما » .

وقال ( گوستاو لوبون ) : « ان القرآن لم ينشر الا بالإقناع لا بالقوة ، فاستطاع بذلك أن يجذب اليه الشعوب وتدين به تلك الشعوب » .

وقال ( ريتونبورث ) : « يجب ان نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك

والفلسفة مقتبسة من القرآن ، فجميع العلماء مدينون له » .

ويقول أحد الغربيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي : « هل يتأتى لجميع فلاسفة العالم أن يثبتوا غلطة واحدة في القرآن ، ولو ارتكنوا على كل ما في أيديهم من العلوم العصرية ، لايتأتى لهم ذلك . ولو وجدوا فيه خطأ صغيرا ما كانوا إلا مظهريه . ولكن أنى لهم ذلك ! ؟ والعلوم كل يوم في تبدل وتغير . وفي كل لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنية ، ما كنا لنفهم معناها إلا بعد تقدم العلوم » .

« لأضرب لكم مثلا : كان الفلكيون يدعون أولا أن الارض ثابتة والشمس متحركة [1] ، ثم قالوا : بل الارض متحركة والشمس ثابتة ، ثم جاءوا اليوم يقولون : علمنا الآن أن كلا في فلك يسبحون ، وان الشمس تجري لمستقر لها . فمن هنا علمنا أن العلوم تتغير وتترقى والقرآن ثابت لا يتغير بالحوادث » .

« فإن وجد في الكتاب الحكيم شيء لانفهمه ، وجب علينا أن ننتظر رقي العلوم ، ولا نشك لحظة في صحة القرآن » .

ثم يقول : « قصدت في سياحاتي مدينة ( بو تارليه ) لمقابلة الدكتور ( جرينه ) المسلم الفرنسي الشهير ، الذي كان عضوا في مجلس النواب ، للسؤال عن سبب دخوله في الاسلام ، فعند الوصول والسؤال منه ، قال لي: « تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية والصحية والطبية التي درستها من صغري وفهمتها جيدا فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة ، فأسلمت ، لاني تيقنت أن محمدا ( ص ) أتى بالحق الصراح ، من قبل ألف سنة ، من غير أن يكون له مدرس من البشر . ولو

(١) لقد قال فيثاغورث قبل الميلاد : أن الارض تدور حول الشمس ، اي أن الشمس ثابتة والارض متحركة . وقد فات الكاتب أن يضيف ذلك ... وقد بينا حركة الشمس فى الجزء الاول مع شيء من التفصيل .

أن صاحب كل فن من الفنون أو علم من العلوم ، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه جيدا ، كما قارنت أنا ، لأسلم • دون ريب ، ان كان عاقلا خاليا من الأغراض » [1] •

* * *

يقول المؤرخ الكبير : ( لوثرب ستودارد ) في كتابه ( حاضر العالم الاسلامي ) :

« قد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها ( ٦٥٠ — ١٠٠٠ م ) أحسن سير • فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا ، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان اشعاعا باهرا ، وما انفك الشرق الاسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل الى الغرب نورا » •

ويقول : ( گولدزيهر ) تحت عنوان ( الدين والمروءة ) : « إن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية • وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيرا مايتناقضان ، فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حدّ لها والكرم الى حد الإسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقوة في الانتقام والاخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه هي اصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية ، أما في الاسلام : فالخضوع لله والانقياد لأمره ، والصبر واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة ،وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للانسان في الحياة » •

---

(١) من مقال للاستاذ السيد احمد الحسيني فى مجلة « صوت المبلغين » التي تصدر بكربلاء .

ويقول : ( ليودوروش ) : « إن الاسلام دين انساني طبيعي اقتصادي أدبي ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل إني عدت الى الشريعة التي يسميها ( جول سيمون ) : ( الشريعة الطبيعية ) ، فوجدتها كلها أخذت عن الاسلام ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين ، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب » .

ويقول (ماسينيون) : « يمتاز الاسلام بانه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فردمن أفراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة، والاسلامينبذ التبادل غير المقيد ، كما يناوىء الاموال المصرفية في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوجة والملكية ورؤوس الاموال التجارية . فهو بذلك يقف موقفا وسطا بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية . وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام ماض كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات ،ولقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى في افريقيا والهند ، والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل الى التوفيق بينها » .

* * *

ولكي نعرّف الاسلام أنه دين الفطرة والتسامح ، لا بأس بذكر شهادة ( سيرت . و أرنولد ) في كتابه : ( الدعوة الى الاسلام ) : « ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر في الأجيال

المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وارادة حرة • وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » •

حقق الله على أيدي العاملين المجاهدين : أن يدين العالم أجمع بدين الفطرة : دين الاسلام ، دين العقل والمنطق ، فيقول كل فرد من أبناء العالم : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » [١] .

* * *

وهكذا نرى ( الاسلام) دين العلم والعمل الصالح ، قد حقق على أيدي المسلمين كثيرا من المكتشفات في شتى الحقول حتى عُدوا مؤسسي النهضة العلمية الحديثة في أوربا ، ولم يكتفي الاسلام بالحث على العلم فحسب ، بل أراد للبشر الاستمرار في البحث والاستزادة من العلم دوما وذلك بقوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم : « وقل رب زدني علما » •

غاية ما هنالك : يريد ( الاسلام ) ان يرافق الورع والتقوى العلم والمكتشفات ، كي يترشح منهما [٢] اليقين بالله وكتبه ورسله وبعوالم القدس وحياة لاظلم فيها ولا فساد • وذلك بقوله جل من قائل :

« امَّنْ هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر أولو الالباب » [٣] •

---

(١) سورة آل عمران ١٩٣ .

(٢) التقوى والعلم .

(٣) سورة الزمر : ٩ ، قانت : طائع ، مواظب على الطاعة .

# من حقائق القرآن

« والسماءَ بنيناها بأيدٍ وانا لموسِعون »

في القرآن الكريم ( ٧٥٠ ) آية كونية ، هي عصارة ما توصل اليه العلم الحديث ، لاسيما في القرن الاخير . وانها معجزة خالدة ما بعدها معجزة . كل ذلك ، لكي يعتبر هذا الانسان بهذا الكتاب السماوي ويعلم أنه منزل من ربه لهدايته ، ويعلم أنه لم يُخلق عبثا وإنما خُلق لغاية سامية تتناسب وعظمة خالقه : « وما خلقنا السماوات والارض ومابينهما ، لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون » . ( سورة الدخان : ٣٨ ــ ٣٩ ) .

إنه تعالى يقول نحن بنينا السماء بقوتنا وقدرتنا ونحن نوسع السماء ونوسِعها حيث لايعلم مدى هذا التوسع والامتداد إلا الله تعالى .

كان ( أينشتاين ) يريد أن يحسب وزن العالم : ( الكتلة ) اي وزن ما في الكون من كواكب وانجم واجرام ، ثم عدل عن هذا الرأي لما رأى ان نجوما تتشكل حديثا ونجوما اخذت تقطع مراحل الكهولة وقد أوشكت ان تبيد .

وقد ثبت أخيرا ان الاجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة ، وأن الكون آخذ بالتوسع بسرعة فائقة .

يقول علماء الفلك : إن مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون من النجوم أو أكثر . وإن ما بين النجوم ممتلىء بالغازات ومواد مختلفة ، خلاف ما كان يتصوره بعض الناس قبل ذلك . وان التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جدا قد دل بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرّات بحالة تخلخل شديد جدا ، إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون

ميل مكعب من الفضاء . وهذا الغاز مكون كله تقريبا من غازي الايدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية .

قد ثبت أن النجوم كلها متحركة « كل يجري لأجل مسمى » وأن مواضعها بالنسبة لبعضها البعض قد تغيرت . ولكن لكونها بعيدة عنا جدا أي بعيدة عنا ملايين السنين من السنين الضوئية لانشعر بحركتها ، فلا تتبدل خارطة السماء إلا في بضع مئات من آلاف السنين . وأما السنة الضوئية فهي ما يقطعه الضوء بسرعته الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال او كيلو مترات . وبما ان الضوء يقطع في الثانية (٠٠٠ ١٨٦ ) ميل أو ( ٠٠٠ ٣٠٠ ) كيلومتر تقريبا . وان السنة تعادل ( ٠٠٠ ٥٣٦ ٣١ ) ثانية . إذن : ٦٠×٦٠×٢٤ × ٣٦٥×١٨٦٠٠٠ ميل = ٠٠٠ ٠٠٠ ٦٩٦ ٥٨٦٥ ميل وهو ما يقطعه الضوء من أميال خلال سنة واحدة . أي ٦ مليون مليون من الاميال على وجه التقريب . او ١٠ مليون مليون كيلو متر تقريبا .

وقد علم أن متوسط سرعة النجوم في حركتها الى جهات شتى هو (٢٠) كيلو مترا في الثانية . فالشمس مع سياراتها ( عطارد ، الزهرة ، الارض ، المريخ ، المشتري ، زحل ، أورانس ، نپتون ، پلوتو) وتوابعها من أقمار تتحرك بسرعة تبلغ ( ١٩٫٥ ) كيلو مترا في الثانية الواحدة بالنسبة للنجوم القريبه حولها أي أن الشمس مع سياراتها وتوابعها تتحرك بهذه السرعة الهائلة : ( سبعين الف كيلو متر في الساعة تقريبا ) على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمى بالنسر الواقع . وتتحرك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرة .

والمجرة هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ويمتد من افق الى افق وقد تركزت فيها النجوم اكثر تركز وتكثفت فيها بعضها فوق بعض اكبر تكثف ، او هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاما وما سالكوه إلا النجوم . على ان في السماء مثل هذه المجرة التي فوق

رؤوسنا مجرات متعددة لاتعد ولا تحصى .

وقد دلت الابحاث على ان نجوم كل مجموعة في المجرة فضلا عن دورانها في افلاكٍ بعضها حول بعض ، فانها جميعا تتحرك بحركة مشتركة حول المحور الاصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة .

الاجرام تدور في مجموعتها في افلاك ثابتة بالنسبة لبعضها البعض وفي الوقت ذاته تدور كل مجموعة بأجرامها المتلازمة حول المحور الاصلي للمجرة في فلك خاص .

وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفي للمجرات الخارجية على أنها تتباعد عنا ، أي يتباعد بعضها عن بعض باستمرار وسرعات عظيمة جدا تقدر بآلاف الاميال في الثانية الواحدة . فعلم أن الفضاء يتمدد بين المجرات ويتسع باستمرار . وان هذا التمدد يقدر بمائة وخمسة اميال في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية . وعلم ان حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة امثال حجمه منذ بداية تمدده . أي ان كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلا على ضعف ما كان عليه أولا . وعلم ايضا ان هناك من النجوم حجومها ملايين المرات قدر حجم الشمس .

ولقد أمكن باستعمال أجهزة خاصة التعرف الى نجوم قد ارسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنه لم يصل الينا لحد الآن . فعلينا أن نتصور سعة الكون الذي خلقه الله تعالى وهو يتسع يوما بعد يوم بأمره تعالى كما أتسع بأمره حتى بلغ ما عليه اليوم .

وعلم أيضا بعد مشاهدات دقيقة ان هناك ملايين من مجرات خارجية منتشرة في الفضاء كما بينا وان كل مجرة مؤلفة من ملايين النجوم .

يقول ( سير جينز ) : إن أكثر هذه المجرات منتشرة انتشارا منظما في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعدين بعضها والبعض الآخر نحو مليون ونصف

من السنين الضوئية مع العلم ان الضوء يقطع ٦ مليون مليون من الاميال ( تقريبا ) في سنة واحدة .

يقول الاستاذ ( كامو ) : إن ( هبل ) مدير مرصد ( مونت ولسن ) الذي له أبحاث هامة عن المجرات الخارجية : قد سبر أغوار الفضاء بمرقب مرصده الكبير وتوغل فيها فتمكن من النظر الى مسافات سحيقة تقدر نحو خمسمائة مليون سنة ضوئية . وقد أحصى من المجرات الخارجيه نحو مائه مليون مجرة وإنه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات اعظم من هذه التي شاهدها ( هبل ) .

ويقول : إن أبعاد هذه المجرات الخارجية تتضاءل بجانبها أبعاد النجوم في مجرتنا التي يبلغ قطرها نحو مائة الف سنة ضوئيه وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية .

وقد دل الحساب الرياضي من المشاهدات الدقيقة :على أن ابعاد المجرات الخارجية عن مجرتنا مذهلة . إذ وجدوا ان اقربها منا ، ويدعى سديم : ( أندرو ميدا العظيم ) يبعد بنحو ستمائة وثمانين الف سنة ضوئية . ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك الى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ومئات الملايين من السنين الضوئية . فما أوسع فضاء هذا الكون وما أعظم ما خلق الله العلي القدير .

اذا كانت شمسنا هذه تبعد عن أقرب نجمة اليها ٢٦ مليون مليون ميل ، فإن الصاروخ يجب أن يسير بسرعة الضوء أي بسرعة ( ١٨٦ ٠٠٠ ) ميل في الثانية ، مدة اربع سنوات واربعة اشهر تقريبا كي يصل الى أقرب نجمة الينا . وانى للصاروخ ان يسير بهذه السرعة العظيمة وان يقطع في الثانية الواحدة ( ١٨٦ ٠٠٠ ) ميل او ( ٣٠٠ ٠٠٠ ) كيلو متر . مع العلم أن أسرع ما وجد من الاجسام المادية السريعة ( عدا الارواح طبعا ) هو الضوء . وكل

ما كان اكثف من الضوء كانت سرعته اقل • ويقال إن سرعة الامواج الهرتزية هي بقدر سرعة الضوء تقريبا وهي طاقة كهربائية • فلايمكن أن توجد واسطة مادية سرعتها بقدر سرعة الضوء على ماثبت في الفيزياء • وعلى فرض الإمكان فنحتاج من العمر مئات الملايين من السنين كي نصل الى بعض النجوم التي نشاهدها بآلاتنا الحاضرة ، شريطة ان نسير بسرعة الضوء • ومما لا شك فيه أنه مع تقدم العلم سوف يمكن ( باذن الله ) كشف آلات أدق وامتن ، فيرى إذ ذاك من النجوم والمجموعات النجمية والمجرات ما الايمكن رؤيته في الوقت الحاضر •

إن الله تعالى يقول : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » [1] ، فيصعد الملك او جبرائيل في ما خلق الله من اكوان في يوم مقداره خمسون الف سنة ، وبما انه الايمكن قطع ما خلق الله تعالى من مسافات شاسعة واكوان متعددة بسرعة الضوء وان استمر السير ملايين ملايين من السنين ، إذن وجب ان نقول ان سرعة سير الملك اضعاف اضعاف سرعة سير الضوء •

وقد عُلم أخيرا ان في الفضاء منظومات شمسية تعدّ بالملايين تشبه نظامنا الشمسي ، أي ان كلا منها له سيارات تُفتقت منه وتدور حوله وتوابع واقمار فتقت من سياراتها وتلفّ حولها وانه بسبب ابعاد النجوم الساحقة وضآلة الضوء المنعكس من السيارات وضعف قوة المراقب Telescopes الحالية الايمكن اثبات وجود هذه الانظمة ( المنظومات الشمسية ) بالمشاهدة الفعلية •

فانظر كيف تتحقق الآية الكريمة : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » وقد نزلت في وقت لم تكن هناك مراقب ( تلسكوبات ) ، ولم

---

(١) سورة المعارج : ٤ .

يكن يعلم أحد ان هذه السماء تتوسع يوما بعد يوم بنظام خاص اودعه الله فيها وطاقات هائلة جهزها الله بها . فقد حدث انفجار في الشمس سنة ١٩٥٦م قدرت الطاقة المتحررة ، فكانت تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينية مع العلم أن طاقة قنبلة هيدروجينية تعادل طاقة الف قنبلة ذريه . والقنبله الذريه لاتبقى ولا تذر ! فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة بإرادته وشكلها كما يشاء بحكمته ، واودع فيها من النظم والقوانين والمعادلات كما اراد بتدبيره . وهو القائل : « ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم » (١) .

إن الانسان ليندهش حين يرى ان عليا عليه السلام يجيب عندما يسأل عن المسافة بين السماء والارض . بقوله : « دعاء مستجاب » . ذلك لانه ليس هناك عدد يمكن ان يعبر به عن هذه المسافة التي لايعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى . إلا أن يقال : « دعاء مستجاب » فإن الله تعالى لايخلو منه مكان وهو القائل : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (٢) ... « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم » (٣) .

فهل يجدر بهذا الانسان أن يركبه الغرور ، فيترك عبادة ربه ، هذه العبادة التي تأخذ بمجامع قلبه وتجعله سائرا في عوالم الملكوت ، سائرا في ساحات القدس ، حيث لا دنس ولا رجس . سائرا في عوالم من الاطمئنان والحبور ما لايمكن أن يقاس بأفراح هذا العالم المادي وما يترشح من المادة الصماء ، منغمرا في موسيقى العالم اللانهائي تاركا العالم المادي الضيق

---

(١) سورة الكهف : ٥٢

(٢) سورة ق : ١٦

(٣) سورة المجادلة : ٧

الخالق وراء ظهره .

فطوبى لنفوس عرفت لماذا خلقت ، فازدادت معرفة بالله تعالى وحققت الغاية الرفيعة التي خلقت لأجلها . وهو القائل كما جاء في حديث قدسي مخاطبا ابن آدم : « خلقتُ الاشياء لأجلك وخلقتك لأجلي » . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ ، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمونِ . إن الله هو الرازق ذو القوة المتين » (١) .

أيجدر بهذا الانسان أن يعثو فسادا في الارض والله تعالى يقول : «كلوا واشربوا ولا تعثوا في الارض مفسدين » . كل ذلك : لانه جاء بصاروخ أدواته من خلق الله ، وتركيبه بعقل أوجده الله . مع علمه ان هذا الصاروخ مركب من ( ٣٠٠ ٠٠٠ ) قطعة مرتبة ترتيبا هندسيا دقيقا لو تخلفت احدى القطع عن الترتيب الهندسي لفشل الصاروخ ووقف عن الإنطلاق فكيف لايعظم ولا يقدس خالقه الذي جهز مخه بـ ( ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ) عصب لكل واحد منها وظيفته ، فلو جسّ أحدها حدثت عوارض تختلف عما لو جس غيره . ولو حسبنا بحساب رياضي ( حساب الاحتمالات ) نرى أن ليس هناك أية صدفة تجعل عشرين مليون عصب تترتب بهذا الترتيب الدقيق حتى تتوارد عليها الإحساسات فتشعر الروح بواسطتها بما حدث . فهي دوننا تشبيه كآلة الراديو . فكما أن الراديو ليس هو الصوت والمتكلم هكذا هذه الاعصاب الكثيرة في المخ الانساني ليست هي الروح والانسان وإنما واسطة لتحسس الروح أو النفس . وحسب ما هو مقرر في حساب الاحتمالات : إن الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون عصب تترتب ترتيبا هندسيا فيؤدي الى انتاج مطلوب هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر إلا صفرا واحدا ، أي : واحد من ١٠ مرفوعة الى قوة عشرين مليون . ومعلوم ان

(١) سورة الذاريات : ٥٦ — ٥٨

$$\frac{١}{١٠} \qquad \frac{١}{٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$$

مآل نسبة : ——— أو : ——— هو الصفر .

$$\frac{١}{١٠} \qquad \frac{١}{٢ \times ١٠^{٧}}$$

ولما كان ما خلق الله من عوالم مختلفة من جماد ونبات وحيوان وما رتب لكل منها ترتيبا دقيقا لا يُعد ولا يحصى إذن تصبح النسبة :

$$\frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty} = \text{صفر . فلا صدفة أبدا .}$$

على ان للمفكر أن يقول : ومن اين جاءت هذه الاجزاء التي كل منها بدورها مشكل من جزيئات أخرى بصورة دقيقة وهندسية وهكذا دواليك حتى ينتهي بنا الى جهل الواقع .

« فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » [١] .

كيف لايفكر هذا الانسان أن من يأتي بتركيب هذا الانسان العجيب لايخلق عبثا والا يوجد لاهيا ، وان وراء هذا الخلق غاية رفيعة سامية . ألا وهي معرفة الله تعالى وهو القائل كما جاء في حديث قدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت ان أعرف ، فخلقت الخلق لكي اعرف » .فلابد من أنبياء ولابد من دساتير تقرب النفوس الى الله تعالى . وهو القائل : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » [٢] .

ولكنها الذنوب والفجور والخمور ، تراكمت دون توبة واستغفار على قلب هذا الانسان فحجبته عن رؤية الحق والواقع وأعمته : « إن أعمى العمى عمى القلب » فصار لا يؤمن إلا بالمادة العمياء ، وسول له شيطانه مزاعمه وصار يتشدق ويعزو كل شيء حتى الاخلاق الى المادة والوضع الاقتصادي

(١) سورة الحج : ٤٦ (٢) سورة الانبياء : ١٧

وكأنه جاء بفلسفة ! وفهم سر الحياة متهما غيره بالرجعية والخرافة ! « ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » (١) .

ما أعظم هذا الحديث ، حيث يشرح تأثير الذنوب في النفس : « اذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه ، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه . وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب » . لذلك يستحب أن يستغفر كل منا عندما يأخذ مضجعه ليلا قائلا : ثلاث مرات : « استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب اليه » . كي لاتتراكم ذنوبه بعضها على بعض فيسود قلبه ، فيأتي دور الإنكار والجحود : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » (٢) .

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا » (٣) .

ولكن مهما يكن من شيء فان الغلبة للمؤمنين في هذا العالم على قلتهم ذلك لان الله تعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٤) . فلابد من تضحية ولابد من جهاد . وهو القائل : « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » (٥) .

---

(١) سورة الزخرف ٣٦ — ٣٨
(٢) سورة العنكبوت : ٤٩
(٣) سورة الكهف : ٥٧
(٤) سورة الحجر : ٩
(٥) سورة العنكبوت : ٦٩

# فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون

## — ١ —

إن الله جل وعلى يُقسم بما نراه وبما لانراه مما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان وعالم الأرواح وعالم جن وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى بأدق الآلات .

والقسم بما خلق قسم" بعظمته تعالى وبالدقة المتناهية التي أودعها في مخلوقاته ،وارتباط هذه المخلوقات بعضها ببعض ارتباطا وثيقا يحير الألباب: « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين : ، ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » . ذلك لان الانسان كلما تقدم في تحقيقاته وتجاربه ، كلما ظفر بدساتير جديدة كانت تخفى عليه ، وخواص عجيبة ، وسعة لاتنتهي ، ودقة لاتستقصي ،أودعها الله في أرجاء هذا الكون الرحيب .

فيحق لله تعالى أن يقسم بعظمته التي — لا تتناهى — هذه العظمة التي تتجلى في ما نبصره وما لا نبصره .

إن قابلية الانسان في الإبصار قابلية محدودة ، لذلك يستعين بآلات شتى : ( المجهر : Microscope ) كي يُبصر الدقيق من الأشياء ، كالميكروبات والجراثيم التي يجب أن تكبر آلاف المرات بل عشرات الآلاف ، كي يمكن رؤيتها ، أو يستعين بالمرقب : ( Telescope ) ليرى في مسافات شاسعة ما خلق الله من كواكب وأنجم وشموس ومجرات وما أودع الله في القضاء من مادة غازية قليلة الكثافة جدا .

قد بلغ ببعض الافراد في أوروبا التسافل في النفس حتى صاروا يجحدون الروح والنفس والملائكة ، يجحدون الخالق جل جلاله وكل ما لا يرى بالعين ويؤمنون بكل ما يرى بالعين .

حين أن العين ذات قابلية محدودة . فهناك كثير من الاشياء كان ينكرها المادي سابقا لعدم وجود آلات يبصرها بها ، ثم اعترف بها بعد اكتشاف آلات تساعد على الرؤية . وكذلك اليوم ، هناك كثير من الاشياء لا ترى حتى بأدق الآلات ولكنها سوف ترى في مستقبل قريب عندما تكتشف آلات جديدة ودقيقة جدا .

لذلك تنقسم الموجودات الى : منظور وغير منظور . فكل ما يراه الانسان بعينه المجردة أو بالمجاهر أو بالمراقب او الاجهزة المقربة وكل ما في السماء وما تحت الارض وما في قاع المحيطات وما في السحب : كل ذلك من العالم المنظور . واما العالم غير المنظور فهو ما لا يمكن رؤيته بالآلات او بالعين المجردة ولكنه موجود ، يحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور كالخشبة .

فهناك أشعة لا ترى بالعين ولا بالآلة : أشعة غير منظورة . اي ان هناك اشعة مرئية واشعة غير مرئية . وإن الاشعة المرئية هي جزء صغير من الصورة الكلية للضوء . والاشعة غير المرئية اكثر تفرعا وتأثيرا من الاشعة المرئية . لذلك أخذ يقول علماء الضوء : إن كلمة ( ضوء ) أو ( حزمة ضوئية ) أو ( إشعاع ) قد لا تدل على حقيقة الضوء ، والاولى أن يقال : ( الطاقة المشعة ) ، لتدل على جميع أنواع الإشعاع : المرئي منها وغير المرئي .

على ان العلم الحديث لم يصل الى حقيقة الضوء كما لم يصل الى حقيقة القوى أو كل شيء قواني ( منسوب الى القوة ) ، لم يصل الى حقيقة القوة الجاذبية وحقيقة الكهرباء . إنما تفرض فروض فيفسر بها بعض الظواهر ، ثم

تخمد تلك الفروض بعد برهة من الزمن ويعوض عنها بفروض أو فرضيات ( Hypotheses ) أخرى يمكن تفسير الظواهر القديمة والجديدة بها معا وهكذا دواليك ..

فالعلم الحديث لا يتيسر له الولوج الى أعماق الاشياء والوصول الى حقائقها التي لاحقيقة بعدها . وهو يعمل دوما للوقوف على أسرار الاشياء واذا به يقف امام اودية جديدة من المجاهيل تدهش الالباب .

فمن تلك الاشعة غير المرئية : الاشعة السينية ( X Rays )، أو اشعة ( رونتكن ) . هذه الاشعة تخترق الاجسام التي لا يمكن أن يخترقها الضوء العادي ! وقد اكتشفت بالصدفة . إنها قوية جدا ذات موجة قصيرة . فإن طول موجتها ( ١٠٠٠٠ ) مرة اقصر من طول موجة ( الضوء المنظور ) .

ومن الاشعة التي لاترى بالعين ( ولو بالآلة ) الاشعة الجيمية ( أشعة گاما ) . وهي ذات موجة قصيرة أيضا ، اقصر من طول موجة الاشعة السينية .

ومن الاشعة التي لاترى : الاشعة ( فوق البنفسجية Ultra - Violet فان طول موجتها اطول من طول موجة الاشعة السينية واقصر من طول موجة الضوء المرئي .

ومن الاشعة غير المرئية : الاشعة ( دون الحمراء ) في شعاع الشمس . وهي موجات حرارية نحسّ بها ولا نراها وهي تصل الى الاعصاب والعضلات ، والا يحس فيها الفيلم العادي للتصوير .

وقد استخدم الانسان الانواع المذكورة من الاشعة في الكشف عن أمراضه ومعالجة كثير منها وقد استخدمها أيضا في الغذاء والدواء .

وقد علم أن الاشعة فوق البنفسجية التي هي في شعاع الشمس ، تقتل كثيرا من الجراثيم المضرة . وقد جاء في الشرع المحمدي (ص) : أن احد

المطهرات هو الشمس . فتطهر الارض النجسة او الابواب أو الجدران أو الاشجار أو الثمار التي عليها ( من غير المنقول ) والحصران والبواري ( من المنقول ) بعد زوال العين : بإشراق الشمس عليها حتى تجف ، وإن كان ما ذكر جافا فيصب عليه الماء حتى تجففه الشمس بالإشراق عليه .

وهكذا موجات الراديو ، وموجات الرادار الذي يكتشف وجود الاشياء في الفضاء ويحدد مكانها بالضبط من النوع غير المنظور .

وقد تكون بعض الاجسام المادية ، في وقت ، من نوع غير المنظور ، لعدم وجود آلات تكشف عنها . وبعد اكتشاف آلات جديدة ودقيقة وتقدم الفيزياء والرياضيات العالية ، تصبح من النوع المنظور .

* * *

مثال ذلك : ما كان يعلم قبل ( ١٠٠ ) سنة أن في كل مجرة عددا كبيرا جدا من النجوم تكاد تعد بالملايين تسودها أنظمة كالنظام الشمسي . أي ان كلا منها شمس في حد ذاتها وقد فتقت منها سيارات وفتقت من السيارات هذه توابع واقمار تدور حول الام وتدور في الوقت نفسه حول نفسها . فاذا تقدمت الآلات الفلكية ، سيأتي اليوم الذي يتلافى فيه ضآلة الضوء المنعكس من الانجم التي تقع في مسافات لا نهائية وسوف نشاهد أنجماً وعوالم كانت سابقا من نوع غير المنظور .

لذلك يقسم الله تعظيما لشأن ما خلق من عوالم لاتتناهى ، عوالم لاترى بالعين المجردة ولا بالآلات بقوله : « فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » .

كما انه كان يعد سابقا الغاز الموجود في الفضاء بين النجوم والذي اكتشفه اخيرا العلم الحديث من غير المنظور ، وقد امسى منظورا او ملموسا محسوسا . ذلك لان كثافة هذا الغاز تساوي ميليغراما واحدا في كل مليون ميل مكعب من الفضاء .

# فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون

## — ٢ —

ومما لايمكن إبصاره : الذرة ، فانها من الصغر بحيث لايمكن للانسان ان يبصرها حتى بأدق الآلات . وقد اصبح اليوم التعرف الى ( الذرة ) وما أودع الله فيها من تركيب وقوانين ومعادلات من اهم العلوم الحديثة وأدقها واصعبها . وأصبح علم الذرة علما هاما يتخصص فيه بعد دراسة الفيزياء العالية على ضوء الرياضيات العالية . لذلك يجدر بنا أن نتكلم عن الذرة — وهي من النوع ( غير المنظور ) مما خلق الله تعالى — بشيء من التفصيل .

كان يقول : ( ديموقراطيس ( Democrite ) ) الفيلسوف اليوناني منذ زمن بعيد [1] : إنه لو قسمت قطعة من الحديد مثلا الى جزئين ، ثم قسم أحد الجزئين الى جزئين آخرين أيضا وكررت هذه العملية مرات متعددة جدا ، فاننا سنصل الى مرحلة لاتتمكن فيها تقسيم الجزء الاخير الى جزئين آخرين مع الاحتفاظ بخواص الحديد ، أي انه لو قسم الجزء الاخير أيضا لانحصل على الحديد بل يكون شيئا غير الحديد ، فصار يسمى الجزء الاخير الذي لايمكن تجزئته بـ ( جزء لا يتجزأ ) . وهذا ما يسمى اليوم بالذرة : ( آتوم Atome ) ومعناها في اليونانية غير المنظور .

إن البحوث الاخيرة في علم الفيزياء أيدت هذه النظرية وبرهنت على صحتها . وذلك أن كل عنصر كالحديد أو الذهب يمكن تجزئته الى اجزاء متعددة الى مرحلة يقف امكان التجزئة فيها مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر ، حتى نبلغ الى جزء لا يتجزأ اي جزء لا يمكن تقسيمه وتجزئته مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر ، أي لايكون بعد ذلك جزيء الحديد حديدا

---

(١) قبل الميلاد بخمسة قرون .

أو جزيء الذهب ذهبا . والذرة هي هذا الجزيء الذي لايتجزأ .

إن العالم المادي مكون من عناصر مختلفة : كالحديد والذهب والفضة والكاربون وغاز الهيدروجين ( أو الإيدروجين ) وغاز الاوكسجين . الخ . وأصبح عدد هذه العناصر التي اكتشفها العلم الحديث : ( ١٠٠ ) عنصر لحد اليوم .

وقد أعلن في عام ١٨٩٧ ( السير تمسون ) وغيره انهم تمكنوا من ان يفصلوا من جميع أنواع الذرات التي هي في حالة تعادل جسيمات متساوية في الوزن وذات شحنات كهربائية سالبة متساوية ، اطلقوا عليها اسم ( الألكترونات ) بالنسبة لشحنتها السالبة ، وان ذلك يدل على ان ( الذرة ) المتعادلة ، لابد ان تكون مكونة من جزيئين احدهما : موجب التكهرب والآخر : سالب التكهرب ، ومن شحنتين كل منهما مساوية ومضادة للأخرى . وكان ذلك اول اكتشاف علمي عن إمكان تجزئة الذرة . ولكن وقفت الاكتشافات العلمية في هذه الناحية مدة من الزمن حتى كشفت المواد المشعة ودرست أحوال انحلالها الذاتي .

ويقال عن ( ما دام كوري ) مدرسة الفيزياء في جامعة ( صوربون ) : إنها قد وضعت في جيب ثوبها بالقرب من الصدر قطعة من الراديوم قد نسيتها وبعد مدة شعرت بخدشة في صدرها وكانت تعلم وزن تلك القطعة قبلا ، فلما فتشت عن سبب تلك الخدشة علمت أن الراديوم هو الذي أثر في صدرها بإشعاعاته ووزنت القطعة من جديد ، فوجدت نقصا فيها وعلمت ان قسما من المادة قد تحولت الى طاقة : ( إشعاعات ) .

كما ان ( بيكريل ) العالم الفرنسي كشف في آخر القرن التاسع عشر بمحض الصدفة ! ودون ترتيب سابق اشعاعا غريبا غير مرئي ينبعث من احد مركبات عنصر ( اليورانيوم ) — اثقل العناصر المعروفة — ، ورأى ان هذا

الإشعاع الغريب يؤثر في مادة اللوح الفوتوغرافي كأشعة الشمس ، وعلاوة على ذلك : ينفذ هذا الاشعاع خلال الاجسام غير الشفافة .

فعلم بعد هذا الاكتشاف ان كل ما في الكون من مظاهر مادية وجميع ما هنالك من عناصر : ( كالحديد والراديوم ) وجدت من شيء واحد هو الطاقة : ( Energie ) ، وان هـذه الطاقة هي القوة الكهربائية السالبة التي تتجلى في الألكترونات ( Electrons ) وفي القوة الكهربائية الموجبة التي تتجلى في ( البروتونات ) ( Protons ) وكهربائية متعادلة : موجبة وسالبة وتتجلى في النيوترونات ( Neutrons ) ، وعلم ان العالم المادي هي قوة كهربائيـة : موجبة وسالبة أو طاقات هائـلة تكدست فكانت ذرات واجساما ، فليس هناك مادة بالمعنى الذي يفهمه المادي . وإنما هي قوى وطاقات خلقها الله بقدرته وارادته ، ورتبها ترتيبا بديعا ، خاضعا لمشيئته تعالى ، فكانت هذه الذرات وهذه العناصر وهذه الاجسام والمواد .

وخلاصة ما قلنا : إن الذرة مكونة من :

١ ــ بروتونات موجبة .

٢ ــ الكترونات سالبة ، شحنتها مساوية ومضادة لشحنة البروتونات .

٣ ــ ومن نيوترونات ، كل منها مكون من اتحاد بروتون موجب والكترون سالب .

فتكون الذرة في مجموعها مكونة من جزئين ، أحدهما موجب التكهرب : ( كهربائية موجبـة ) والآخر : سالب التكهرب : ( كهربائية سالبة ) . وشحنتاهما متساويتان ومتضادتان .

وهذا مما يجعلنا أن تتصور العالم مكونا من جسيمات مكهربة . لذلك كان يقول ( أينشتاين ) : ان العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسية أو ( كهرطيسية ) . فأين المادة التي يتشدق بها المادي . ضاربا يده على منضدته

قائلاً : هذه هي المادة ! .

تصوروا دائرة كبيرة ( او بالاحرى كرة كبيرة ) نصف قطرها طويل جدا فهذه هي الذرة . توجد في مركز هذه الذرة دقائق صغيرة متجمعة تسمى بنواة الذرة وفيها البروتونات وهي الكهربائية الموجبة اي شحنتها موجبة ، وان وزن الذرة او وزن المادة هو وزن هذه النواة اي البروتونات ( او الكهربائية الموجبة ) تقريبا .

إن عدد البروتونات في ذرة كل عنصر يختلف عن الآخر . فمثلا عدد البروتونات في نواة ذرة الحديد لا يساوي عدد البروتونات في نواة ذرة الاورانيوم ( يورانيوم ) . ففي نواة كل ذرة من كل عنصر عدد معين من البروتونات .

وفي محيط الدائرة ( او الكرة التي تصورناها ) عدد معين من الألكترونات ( كهربائية سالبة ) مجموع شحناتها مساوٍ لشحنة النواة في حالة تعادل معها وتتحرك بسرعة عظيمة حول النواة تبلغ مئات الاميال في الثانية لكي تمنع سقوطها عليها تحت تأثير التجاذب بينهما . وان كتلة النواة تبلغ بضعة آلاف المرات قدر كتلة مجموع ( الالكترونات ) . ويفصل بينهما أي بين النواة والالكترونات الدائرة حولها فراغ هائل . وان حجم كل منهما ضئيل جدا بالنسبة لحجم الذرة الذي كله فراغ تقريبا . وقد صور ( رذر فورد ) تكوين الذرة بصورة المجموعة الشمسية وقد ادخل عليها بعض التعديلات . وهذا دليـــل على عدم تناهي ما أودع الله من خواص وقوانين في دقائق هذا الكون ! ! ..

قلنا إن الالكترونات وهي عديمة الوزن تقريبا تدور بسرعة هائلة حول مركز الذرة ( البروتونات ) وهي تقع عن المركز بفواصل معينة كما في النظام الشمسي . وإن الابعاد بين الالكترونات الدائرة ونواة الذرة هي تقريبا تساوي الابعاد بين الشمس والكواكب السيارة حولها مع حفظ النسبة .

فإذن كل ذرة هي مجموعة شمسية .

وقد ذكر الفيلسوف العربي : فريد الدين العطار : أن ذرات العالم في عمل مستمر وانه توجد في كل ذرة شمس ظاهرة وروح باطنة .

وقال : هاتف الاصبهاني الذي توفى سنة ١١٩٨ هجرية :

دل هر ذرة را كـل بشكافى آفتابيش در ميـان بيني

أي اذا كشفت عن باطن كل ذرة لألفيت شمسا في وسطها .

فهو قد توصل الى كشف هذه الحقيقة بإلهام رباني ونور قذفه الله تعالى في قلبه . فقد جاء في الحديث وما أعظمه : « العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء » .

وكم قذف الله من أنوار في قلوب المخترعين والمكتشفين وكم هيأ لهم صدفا تمكنوا بهامن العثور على حقائق جديدة . وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلا ! تجاه نعم الله التي لاتعد ولا تحصى ...

وكذلك ، فالألكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة يختلف عددها في كل ذرة باختلاف العناصر . كالحديد والفضة والذهب مثلا . وعدد هذه الألكترونات التي تدور بسرعة هائلة في محيط الذرة يساوي دائما عدد البروتونات التي هي وسط الذرة . وان لحركات الألكترونات وسيرها في أفلاكها الخاصة بسرعة فائقة آثارها العجيبة لامجال الى ذكرها . وان حركة الألكترونات هي من الانتظام والدقة مما يجعل أن يعترف الفيلسوف الفرنسي ( هانري بركسون ) : Henri Bergson بخالقه وأن يقول : « إن يدا غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربائي وأمواج كهربائية مختلفة وتفاعلات كيميائية الى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث» .

تصوروا الذرة عادة على أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الألكترونات تكوّن معظم حجم الكرة تقريبا ، وبالرغم من ذلك فإنها لاتكاد

تكون شيئا من وزن الذرة • ويحدد عدد الألكترونات في هذه السحابة خواص الذرة الطبيعية والكيموية •



شكل (١) نواة الذرة

الذرة : هي أصغر جزء من المادة وتتركب من نواتها بروتونات ونيوترونات ويحيط بها الكترونات •

* * *

قلنا إن الذرة تبلغ من الصغر بحيث لايمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من « ما لاتبصرون » ، أي من نوع غير المنظور • ذلك ، لانه لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض على شرط الكروية يكون طول ذلك

١

كله ميليمترا واحدا • ومعنى ذلك أن معدل قطر الذرة هو ـــــــــ من

١٠ ... ... ...

الميلمتر • وان قطر ( نواة الذرة ) يساوي واحدا من مائة الف جزء من

١

الذرة أي يساوي ـــــــ من الذرة • إذن قطر نواة الذرة يساوي

١٠٠ ... ...

١

ـــــــــــــ أي واحـدا من ترليـون جزء من الميليمتر أو

١٠٠٠ ... ... ... ...

١

ـــــــ مم • واذا جمعنا من نوى الذرة مليارد نواة فلا يمكن رؤيتها مع

١٢١٠

أقوى المجاهر Microscope ، ومع ذلك فقد عبأ الله تعالى في هذه النواة طاقة ( قوة ) عجيبة خارقة تدعى : ( بطاقة النواة ) • وان الطاقات ( القوى ) المدمرة عند انفلاق القبلة الذرية إنما هي نتيجة تحرر هذه القوى الخارقة من نواة الذرة الضئيلة • فان كيلو غراما واحدا من الاورانيوم : ٢٣٥ يطلق

حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ كيلو غرام من الفحم !

فسبحان الذي أودع هذه القوة الخارقة في نواة ( الذرة ) وأجرى الألكترونات التي لايمكن أن ترى بأية آلة حولها ، وهذا مما يقسم الله تعالى به بقوله : « فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون » . لما هنالك من عظمة خارقة وإتقان في الخلق ما بعده اتقان .

* * *

قلنا إن نواة الذرة مؤلفة أو مكونة من نوعين من الدقائق :

١ ــ البروتونات وفيها شحنة كهربائية موجبة . والبروتون جسيم صغير ثقيل نسبيا ، يبلغ وزنه $١ر٦٧٣ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام ( وهو محمل بشحنة كهربائية موجبة ) .

٢ ــ نيوترونات . وهي متعادلة من حيث الكهربائية أي تتعادل فيها الشحنة الموجبة مع الشحنة السالبة . ووزن النيوترون $= ١ر٦٧٤ \times ١٠^{-٢٤}$ من الغرام

واما الألكترونات فتدور حول النواة بسرعة هائلة تبلغ ( ٣٦٠ ٠٠٠ ) ميل في الساعة وهي ذات شحنة سالبة ووزن الألكترون $= ٩ \times ١٠^{-٢٨}$ من الغرام .

وهناك فضاء واسع أو فراغ رحيب بين النواة ( نواة الذرة ) وبين الألكترونات التي تدور حولها .

يختلف عدد البروتونات في نوى ذرات العناصر المختلفة وكذا عدد الألكترونات التي تدور حول النواة ، مع العلم ان عدد الالكترونات في ذرة كل عنصر يساوي دائما عدد البروتونات في ذرة نفس العنصر . فيعتبر عدد البروتونات الموجودة في نواة كل ذرة عددا دالاً على عددها الذري أو رقم ترتيبها في الجدول الدوري . أي ان العدد الذري يساوي عدد البروتونات الموجودة بها .

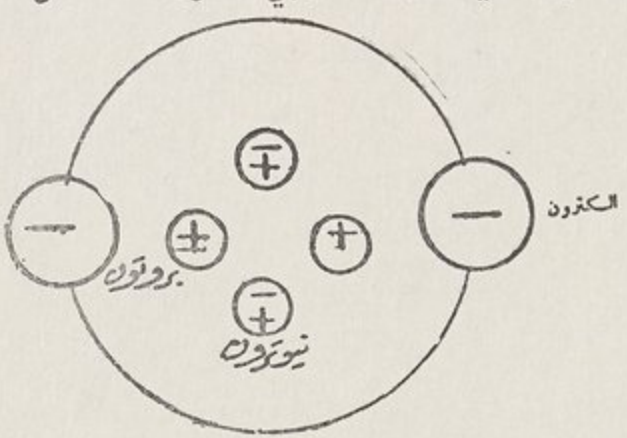
وفي مركز الذرة ، كما قلنا ، توجد البروتونات والنيوترونات مكدسة بعضها مع بعض في وسط الذرة ، إذ أن حجمها عبارة عن جزء من ٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠ ٠٠٠ ٢ من حجم الذرة كلها . فإذا كان حجم الذرة في حجم منزل كان حجم هذه المجموعة لا يتجاوز حجم رأس دبوس . ولبيان مدى تكدس هذه الجسيمات ، فان حجما منها يزن ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٨٠ مرة قدر وزن نفس الحجم من الماء .

تصوروا دائرة كبيرة ضعوا بروتونا واحدا في مركزها ، وضعوا الكترونا واحداً على محيط الدائرة . فهذه تمثل لنا ذرة الايدروجين ( وهو غاز فيه قابلية الاحتراق ) وأحد عنصري الماء .

ففي ذرة الإيدروجين وهو أخف العناصر يوجد : بروتون واحد في الوسط وإلكترون واحد في المحيط يدور حول البروتون بسرعة هائلة وبينهما فضاء او فراغ واسع رحيب .

ويليه من حيث الوزن : ( الهليوم ) وهو غاز غير محترق يُملأ به المناطيد ( بالون ) .

ففي ذرة ( الهليوم ) يوجد ( بروتونان ) في الوسط و ( نيوترونان ) في الوسط أيضا ويوجد في مدارها الخارجي الكترونان . شكل : ٢ .




شكل ( ٢ ) ذرة الهليوم

الكترونان يدوران حول بروتونين وفي النواة أيضا يوجد نيوترونان

وأما العنصر الثالث من حيث الترتيب فهو : ( ليثيوم ) • يوجد في نواة ذرة الليثيوم ٣ بروتونات ومعها ٤ نيوترونات ، وتدور في الاطراف حول النواة ٣ الكترونات : الكترون واحد على المحيط تماما واثنان منها على محيط دائرة أخرى من الداخل بالقرب من المحيط الاصلي •

وهناك عنصر آخر يسمى بـ ( نئون ) • فان في ذرتها ( ١٠ ) الكترونات، يدور إثنان منها على محيط دائرة قريبة من المحيط الاصلي وتدور ( ٨ ) الكترونات على المحيط الاصلي تماما • وان الدائرتين متقاربتان • ومتحدتا المركز •

شكل ( ٣ ) ذرة الكالسيوم

شكل مبسط لذرة الكالسيوم ، ( ٢٠ ) الكترونا تدور في دوائر مختلفة بنظام خاص حول النواة ( المركز ) •

واذا أردتم أن تتصوروا ذرة الكالسيوم فأرسموا اربع دوائر متحدة المركز • وضعوا : الكترونين في نقطتين متقابلتين على الدائرة الاولى من الداخل وضعوا على كل من الدائرتين الثانية والثالثة ( من الداخل الى الخارج ) ٨ الكترونات في نقاط متقابلة أي ( طرفي القطر ) ، وضعوا في الدائرة الرابعة و ( هي محيط الذرة الخارجي ) الكترونين في نقطتين متقابلتين،

وهذه الالكترونات تدور حول البروتونات بسرع هائلة ونظام بديع كما أمرها الله تعالى : « ألا له الخلق والامر » .

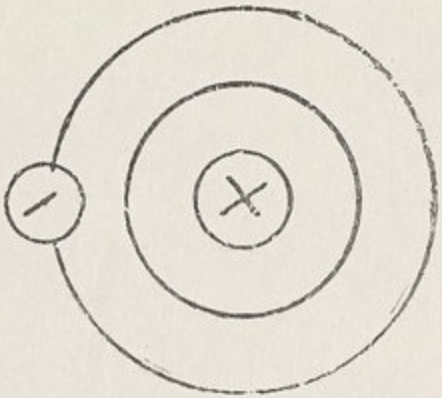
وأما ذرة : ( الاورانيوم ) او ( يورانيوم ) فيوجد في نواتها : ( ٩٢ ) بروتونا ومن ( ١٣٦ ) الى ( ١٤٧ ) نيوترونا تصاحب البروتونات فيها . ويوجد ( ذريا ) : ١٢ نوعا من الاورانيوم يشبه بعضها البعض ، ولها تقريبا نفس الخاصية . وفي نواة كل من هذه الانواع ( وهي ١٢ نوعا ) يوجد ٩٢ بروتونا ولكنها تختلف من حيث عدد النيوترونات . وتسمى هذه الانواع من العناصر المتشابهة : ( النظائر Isotope ) أو ( المماكِنات ) .

والنظائر هي العناصر التي تتساوى ذراتها من حيث عدد البروتونات وعدد الالكترونات ولكنها تختلف قليلا في عدد النيوترونات التي في نواها . وفي الحقيقة هي عنصر واحد . وهذا الاختلاف في عدد النيوترونات لعنصر واحد يؤدي الى اختلاف في أوزانها الذرية .

واذا جمعنا عدد النيوترونات مع البروتونات فالمجموع يعطينا العدد الكتلي ( Mass Number ) أو الوزن الذري . كما أن الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري يساوي عدد النيوترونات .

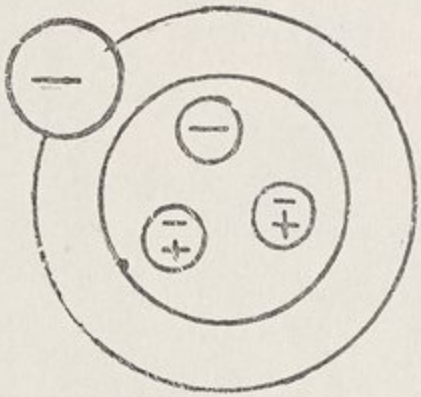
وان النظائر أوالتوائم او المتشابهات الخاصة بعنصر معين لها جميعا نفس التفاعلات والخواص الكيميائية . وبما أنه ما يحدد هذه الخواص الكيميائية هو عدد الالكترونات الخارجية وبالتالي عدد البروتونات التي في النواة ، وعلى ذلك ، فالنظائر الخاصة بعنصرٍ ما لها عدد ذري واحد ، وانما تختلف في أوزانها الذرية أي تختلف بإختلاف عدد النيوترونات فيها . والوزن الذري = عدد البروتونات + عدد النيوترونات .. إذن فالنظائر لعنصر ما كالايدروجين مثلا هي ذرات نفس العنصر تختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف عدد النيوترونات الداخلة في نواة كل ذرة أو توأم او نظير من النظائر المختلفة الخاصة بذلك العنصر .

وقد علم أنه يوجد ٣ نظائر للأيدروجين ٠ و ٣ نظائر للفوسفور و ٥ نظائر للكبريت و ٦ نظائر للكالسيوم ويمكن توضيح النظائر الثلاثة الخاصة بالإيدروجين بالأشكال ( ٤ ، ٥ ، ٦ ) :



شكل ( ٤ )
Hydrogen
أيدروجين

شكل ( ٥ )
Deuterium
الايدروجين الثقيل



شكل ( ٦ )
الايدروجين الثلاثي Tritium

إن هذه النظائر الثلاثة تشترك جميعا في شيء واحد وهو : أن فيها جميعا الكترونا واحدا في مدارها الخارجي ، وكذا پروتونا واحدا في نواتها ، أي أنها جميعا لها عدد ذري واحد ٠ بينما نرى أنها تحتوي على عدد مختلف

ما النيوترونات في النواة ؟

فالإيدروجين العادي لايحتوي على نيوترونات إطلاقا ، بينما يحتوي الايدروجين الثقيل ( Deuterium ) على نيوترون واحد الى جانب البروتون . ويحتوي الايدروجين الثلاثي ( Tritium ) على نيوترونين . وهكذا نرى ان هذه النظائر الثلاثة لها عدد ذري واحد هو الواحد الصحيح . بينما نرى ان لها ثلاثة أوزان ذرية مختلفة . فالإيدروجين العادي وزنه الذري = ١ والايدروجين الثقيل وزنه الذري = ٢ ، وعند اتحاد الايدروجين الثقيل بالاوكسين نحصل على ما يعرف الآن باسم الماء الثقيل .

وعند اكتشاف الإيدروجين الثلاثي Tritium وجد أنه أثقل فعلا من كل من الايدروجين العادي والثقيل لان وزنه الذري = ٣ . تلك هي النظائر العادية .

وأما النظائر المشعة هي تلك النظائر الخاصة بالعنصر الواحد ، والتي لها نشاط إشعاعي ، وهنا نسأل ما هو النشاط الإشعاعي ؟

يعرف النشاط الاشعاعي بأنه نشاط ينتج عن اضطراب نواة الذرة نتيجة اختلاف نسبة ما فيها من ( النيوترونات ) الى ( البروتونات ) عن ( النسبة اللازمة ) لاستقرار نواة الذرة . وذلك كأن تواجه النواة بإدخال بعض البروتونات أو النيوترونات اليها . وبديهي أن مثل هذا العمل يؤدي الى اختلاف ( نسبة النيوترونات الى البروتونات ) عن الحد اللازم لاستقرار النواة ، ولهذا السبب تضطر النواة الى محاولة إصدار نوع او آخر من الإشعاعات المختلفة حتى تصل الى حالة الاستقرار .

وقد وجد في الهواء الجوي أن غاز ( النتروجين ) مكون معظمه من ذرات وزنها الذري ١٤ مخلوطة بقدر ٣ في الالف من ذرات وزنها الذري ١٥ . والاوكسجين في الجو كذلك معظمه مكون من ذرات وزنها ١٦ مخلوطة بذرات بقدر ٣ في كل ٠٠٠ ١٠ منها وزنها الذري ١٧ .

وان الجدول الآتي يوضح لنا تركيب ذرات بعض العناصر :

تتركب ذرة الهليوم من :

( ٢ بروتون موجبة + ٢ نيوترون متعادلة ) + ٢ الكترون سالبة .

تتركب ذرة الليثيوم من :

( ٣ بروتون موجبة + ٣ نيوترون متعادلة ) + ٣ الكترون سالبة .

تتركب ذرة الكاربون من :

( ٦ بروتون موجبة + ٦ نيوترون متعادلة ) + ٦ الكترون سالبة .

تتركب ذرة النتروجين من :

( ٧ بروتون موجبة + ٧ نيوترون متعادلة ) + ٧ الكترون سالبة .

تتركب ذرة الاكسيجين من :

( ٨ بروتون موجبة + ٨ نيوترون متعادلة ) + ٨ الكترون سالبة .

تتركب ذرة اليورانيوم من :

(٩٢ بروتون موجبة + ١٤٦ نيوترون متعادلة) + ٩٢ الكترون سالبة.

وقد دلت التقديرات العملية على أن وزن الذرة يساوي تقريبا وزن نواتها [1] .

وان القنبلة الذرية هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذرة (اليورانيوم) تدعى : (يورانيوم ٢٣٥) . ففي نواتها يوجد : ٩٢ بروتونا و ١٤٣ نيوترونا. فلا تصنع من بقية أنواع اليورانيوم القنبلة الذرية . فيكون الوزن الذري :

٩٢ + ١٤٣ = ٢٣٥ .

فتحطيم الذرة ( أو التفاعلات النووية ) هو عبارة عن تفاعلات بين جسيمات نواها ، وتغيير في أوضاع الالكترونات حولها تنشأ عنها نوى ذات عناصر جديدة يحيط بكل منها العدد اللازم من الالكترونات .

ومن الواضح أن التفاعلات العادية بين العناصر كالاكسيجين والايدروجين

---

(١) في نهاية الكتاب جدول يبين اسماء العناصر المكتشفة مع اوزانها الذرية .

في تكوين الماء مثلا تحدث بين ذرات كاملة من الاكسيجين وذرات كاملة من الإيدروجين ( مثلا ) في حالة تعادل دون حدوث تغيير في نواها . أي لايحدث حين تكون المـاء من الغازين ( الاكسيجين والايدروجين ) أي تغيير في نواة ذرة الاكسيجين وذرة الايدروجين . ذلك لان تفاعل ذرات الاكسيجين والايدروجين المتعادلة لتكوين الماء عبارة عن اتحاد ذرة كامـلة من الاول بذرتين كاملتين من الثاني . ويعزون مثل هذه التفاعلات الى حدوث انتقال بعض الالكترونات في المحيط الخارجي لذرات العناصر المتفاعلة من بعضها الى بعض ، فيصبح بهذا الانتقال بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب فيحدث الاتحاد بينهما تحت تأثير التجاذب الكهربائي . وان الطاقة التي تنتج من مثل هذه التفاعلات العادية تكون غالبا على صورة حرارة : تكافيء الفرق بين طاقة تماسك الالكترونات بالنوى في الذرات قبل التفاعل وبعد التفاعل .

إلا أن التفاعلات النووية في الانحلال الذاتي أو بين نوى الذرات في أعمال التحطيم ( وهو موضوعنا الذي نبحث عنه ) ، فيحدث عنها تغيير في ( تكوين النوى ) من الجسيمات التي تتركب منهـا وهي : ( البروتونات والنيوترونات ) علاوة على التغير في توزيع اوضاع الالكترونات المحيطة بها، ولذلك تكون الطاقـة المنبعثة من ( التفاعلات النووية ) اعظم بكثير من التفاعلات العادية عند تركيب العناصر في الكيمياء وتبلغ مئات الالوف من المرات قدر الطاقة التي تنبعث من التفاعلات العادية بين الذرات والجزيئات الكاملة . ويصدر معظم هذه الطاقة من باطن الذرات على صورة إشعاع وطاقة حركية وتكون جزءً من الطاقة المختزنة فيها والتي تربط جسيماتها بعضها ببعض .

وقد قال (أينشتاين) : «إن في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والإفادة منها . وإن المادة صورة من صور الطاقة . وان الغرام الواحد من المادة يتحول

انى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة : ( ارگ : Erg )
أو الى ٢٥ مليون! كيلووات ساعة ، اي ما ثمنه نحو ٥٥٠ الف دينار » .

***

كانت امنية اهل القرون الوسطى تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة كالفضة والذهب بطريق كيماوي . لكنهم أخفقوا في ذلك ولم يوفقوا رغم ما بذلوا من مساع جمة . فاستحال عليهم تحقيق ما أرادوا . فنبذوا الفكرة في القرن الثامن عشر واستبدلوا بها بفكرة ثانية في القرن التاسع عشر وهي : عدم إمكان تحويل العناصر بعضها الى بعض .

ولكن قد حدث في عام ١٩١٩ تحطيم ذرات (النيتروجين) وتحويلها الى ذرات الاكسيجين والإيدروجين . وهكذا توالت بعد ذلك تجارب تفتيت الذرة باستخدام قذائف من جسيمات ( ألفا ) اي نوى الهليوم ومن جسيمات أخف ولكن أكبر اثرا منها . وهي ( البروتونات ) أي ( نوى الايدروجين ) بعد اعطائها سرعة عظيمة . فتمكنوا بذلك من تحطيم وتحويل ذرات عدد من العناصر بعضها الى بعض : مثل تحويل عنصر ( الايدروجين ) الى عنصر ( هليوم ) وتحويل ( الصوديوم ) الى ( مغنسيوم ) و ( الليثيوم والبورون ) الى ( هليوم ) . فتحقق فعلا أمر تحويل العناصر بعضها الى بعض .

ومما لاريب فيه أن البشر لايخلق شيئا ، فلا يتمكن من خلق ذرة جديدة غير موجودة في الطبيعة . اي غير مخلوقة بيد الله تعالى (وأعني بقدرته تعالى) . والبشر لايقوى على ايجاد بروتون أو نيوترون من العدم دون ان يستعير من عناصر بسيطة اخرى ( أي من ذراتها ) .

وإن أبسط الافكار ليعترف أن العناصر وما في ذراتها من ترتيب دقيق وتوزيع البروتونات والنيوترونات وحركة الالكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها ، ذلك لانه بنيان شامخ قد روعي فيه تمام الحكمة

وكمال التدبير [1] .

كما أن العلم ليعترف أن الحيوية في الكائنات الحية لم تكن نتيجة ترتيب مادي بين المواد وانما جاءتها من الخارج بأمر من الله تعالى .

فليس للبشر ان يخلق پروتونا او إلكترونا ، إلا انه يستعيرهما من بعض العناصر ويدخلهما في عنصر آخر لتحويل بعض العناصر الى عناصر أخرى موجودة قبلا في الطبيعة ( الكون ) . وهـذا ما يسمونه بتحويل العناصر : ( Transmutation )

وزيادة في التوضيح نقول اذا رمزنا بعدد من البروتونات في نواة ذرة الرصاص مثلا بـ ( پ ) ورمزنا بعدد من النيوترونات في تلك الذرة أي ذرة ذلك العنصر بحرف ( ن ) ، فسيكون دستور النواة :

پ + ن

فاذا أردنا ان نزيد في عدد البروتونات من ( پ ) الى ( پ + ١ ) ؛ شريطة ان يبقى عدد الالكترونات ثابتا ، لزم ان ندخل نواة الايدروجين في نواة الرصاص . ولتحقيق هذه الغاية يجب ان نوجه پروتونات سريعة السير جدا نحو نواة الرصاص كي يدخل پروتون واحد ( بطريق الصدفة ) في نواة الرصاص ، وعند ذلك يكون عدد پروتونات ذرة الرصاص ( پ + ١ ) . وبهذه الطريقة تتمكن من ان نصنع من الرصاص ذهبا . وان نصنع من الزئبق ذهبا . ذلك لان هذين العنصرين : ( الرصاص والزئبق ) قريبا من عنصر الذهب من حيث عدد البروتونات . ولكن يجب ان لا ننسى أن علينا أن نصرف ١٠٠٠ غرام من الذهب للحصول على غرام واحد من الذهب بطريقة تحويل العناصر . وهذا ما لا يجوزه الاقتصاد .

فعلم مما سبق أن الذرة ليست بجزء لايتجزأ على ما كان يعتقده البعض،

---

[1] قد علم أخيرا ان سرعة الالكترونات فى ذرة الهيدروجين قد بلغت الفي كيلو متر فى الثانية . وهذا فى ما يعرفه العلم والعلماء أقصى سرعة امكن او يمكن معرفتها على وجه الأرض .

لأنها تتحلل الى قسيمات اخرى فقوى وهي عالم برأسها لها قوانينها وخواصها، وهي ليست بمادة كما يزعم المادي • وبذلك قد فندت نظرية ( دالتون ) • وكم من نظريات مادية سخيفة فُندت بعد كشف بعض حقائق الذرة • إلا أن المادي ( الشيوعي ) مع الاسف يتحكم على العلم والعلماء بدكتاتوريته • فيقتل العلماء ويبيدهم إن لم يوافقوه في هذيانه في عصر حرية الافكار وفي عصر الإنطلاق الفكري •

وكذلك فُنّدت نظرية ( توسون : Thomson ) التي كانت تقول : إن الذرة مملوءة مصمتة وان الألكترونات موضوعة على البروتونات ملتصقة بها كذباب على ظهر فيل ، فعُلم أخيرا ان الذرة خالية فارغة وفيها فضاء واسع رحيب •

وعلم ان أصل الموجودات على وجه الارض شيء واحد • إنما هو البروتونات التي تشكل نواة الذرة • والبروتونات هذه هي عينها من حيث الخواص والماهية في ذرات جميع العناصر ، وليس هناك أي اختلاف بين بروتون ذرة عنصر وبروتون ذرة عنصر آخر • خلافا لما يتقوله الماديون من نظرية التبدل والتغير •

وإن عملية تبديل العناصر وتحويل بعضها الى بعض Transmutation تثبت لنا هذه الحقيقة • كما أنه لافرق بين الكترون ذرة راديوم والكترون ذرة الحديد منذ ملايين السنين ولم يحدث أي تغير واي تبدل خلافا لما يهذيه المادي الخيالي البعيد عن العلم الصحيح • وهل هناك وئام بين الديكتاتورية والعلم ؟ ! •

فلو كان هذا ( التغير ) الذي يقول به المادي صحيحا لوجب أن تتبدل ذرات الايدروجين كلها الى ( هليوم ) وأن تتبدل ذرات ( الهليوم ) الى ( ليثيوم ) وهكذا حتى تصل النوبة الى ( اليورانيوم ) ، فلا نرى في عالمنا اليوم عنصرا عدا عنصر ( اليورانيوم ) مثلا ! ولكنا نرى أن العناصر كلها

موجودة الى يومنا هذا . وهي من الانتظام والدقة والترتيب بحيث يتمكن العلم من ايجاد عناصر مجهولة إستنادا الى النظام الذي أودعه الله في سلسلة العناصر ، كما أن الاميبا ( الكائن الحي ذا الخلية الواحدة ) لايزال موجوداً على وجه الارض مع وجود حشرات وحيوانات وانسان لها من الاعضاء والتشكيلات الداخلية وقوانين دقيقة ومعادلات ما لم يصل اليه العلم الحديث إلا قليلا : « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .

قلنا إن النظام الذي اودعه الله في تسلسل ذرات العناصر المختلفة كان سببا لكشف عناصر مجهولة ، كما أن دستور ( نيوتن ) في الجاذبية بين الاجسام كان سببا لكشف كوكبين مجهولين ( نپتون ) و ( پلوتو ) . ذلك لأنا نتمكن من أن نحسب حسب هذا الدستور :

$$ق = ط \times \frac{ك ك'}{م^{٢}}$$

قوةَ الجذب بين الاجرام ومواضع هذه الاجرام ومداراتها ، ولا بأس بتوضيح هذا الدستور :

ك تشير الى مقدار كتلة نجمة في الفضاء ( غرام ــ كتلة ) .

ك' تشير الى مقدار كتلة نجمة أخرى في الفضاء ( غرام ــ كتلة )

م تشير الى المسافة بين النجمتين ( بالساتيمترات )

ط النسبة الثابتة وهي = $\frac{١}{١٥ \ldots \ldots \ldots}$ من ثقل الغرام

تقريبا إذن ، قوة الجذب بين نجمتين في الفضاء أو كتلتين ، تساوي حاصل ضرب كتلتيهما في النسبة الثابتة مقسوما على مربع المسافة بينهما .

واضح ان دقائق النواة في الذرة ( أي البروتونات ) التي شحنتها موجبة يجب أن تتباعد بعضها عن بعض لاتحاد نوع الكهربائية ، ذلك لان شحنتها موجبة ، مع ذلك ، فإن الله تعالى قد جهزها بطاقة فائقة تتغلب على الخاصية الكهربائية المودعة في الطبيعة بإذن الله : وهي ( تباعد كهربائيتين من نوع واحد بعضها عن بعض ) • وان هذه الطاقة التي جُهزت بها نواة الذرة لايمكن أن تعزى الى الطبيعة ، لان من شأن الطبيعة أن تُباعِد بين كهربائيتين من نوع واحد ، اي بين البروتونات لان شحنتها موجبة • فالله هو الذي قد أودع في النواة هذه الطاقة الهائلة لتقريب البروتونات وجعلها كتلة واحدة ، وهي اذا تحررت بوسائل شتى ( بتحطيم الذرة ) هدّمت ما حواليها فلا تبقى ولا تذر •

وقد وفق « آينشتاين » لحساب هذه الطاقة الهائلة في بُنية النواة في الذرة وعلم أنها تساوي : مربع سرعة الضوء مضروبا في كتلة المادة • فإذا فرضنا الطاقة = ط ، وكتلة اليورانيوم مثلا = ك ، وسرعة الضوء = س •

فالطاقة المتحررة أو المودعة في كتلة ك تساوي •

ط = ك × س$^{٢}$ •

إذن في نواة الذرة يدٌ غيبية تعاكس متطلبات الطبيعة وتفند ما يتخيله المادي الجاهل من نظرية ( التغير المستمر ) ، حيث ( على ما يعتقد ) لا نظامَ ولا ترتيب •

* * *

ومن جملة مالا يرى بالعين من ( مالا تبصرون ) المارد الذري الذي كان يرهب العلماء منذ ٢٥ سنة ، فقد أعلنت الجهات العلمية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٥٥ ، ان الدكتور ( ايرنست لورنس ) قد توصل الى اكتشاف المارد الذري ، هذا المارد الذي كانوا يحسون بوجوده ولا يرونه ، وهو جزيء ذري يسمى ( البروتون السالب ) • ويستطيع إفناء المادة من جميع أشكالها

افناءاً تاما • خلافا لما كان يقوله ( لاو وازيه ) : إن المادة لاتفنى ! وكم من نظريات كان يُنظر اليها كحقائق ثابتة لا تقبل النقاش ولا التبدل ، فذهبت أدراج الرياح • فهل بعد هذا يجوز ان يجعل العلم معبودا يُعبد ويستغنى الفرد في سيره التكاملي عن رسالة السماء ؟ •• ليست القضية قضية علم ونظريات • إنها قضية نفوس • فإن النفوس لو تردت وتسافلت ومرضت لاتذعن إلا بما تحقق شهواتها فتبرر موقفها متذرعة بالعلم ! هذا العلم الذي تفند معطياته من وقت الى وقت ويعوض عنها بمعطيات ونظريات أخرى وهكذا دواليك !

نعم ، لقد وقف العلم الحديث على افناء المادة افناءاً تاما بالپروتون السالب • وهو موجود في طبقات الجو العليا • وان عمره لقصير جدا ،

١

فلا يزيد على ـــــــــــ من الثانية [١] •

١ ... ... ...

فتسلط الپروتون السالب على الذرة يفني الپروتون الموجب وان هذه

٩٩٠

العملية ( عملية الإفناء ) تحرر ـــــ من الطاقة الموجودة في الذرة •

١٠٠٠

وقد علم أن ( الپروتون السالب ) • منطلق في الفضاء حول الكرة الارضية ، ومن شأنه افناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها • ومن الصعوبة السيطرة على هذا الپروتون السالب • فاذا تمكن العلم من ذلك ، فيكون إذ ذاك بالإمكان : توليد طاقة من رطل واحد من أية مادة ذرية باصطدامها بالپروتون السالب تساوي الطاقة المتولدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم • فيمكن إذ ذاك افناء العالم بقنبلة زنتها عشرة أرطال فقط •

(١) واحد من الف مليون جزء من الثانية .

فالله تبارك وتعالى حفظ الكرة الارضية من أن تصطدم بالمارد الذري ( البروتون السالب ) المنتشر فوقنا في الفضاء ، وذلك بجعله : « السماء سقفا محفوظا » بقدرته . وهو القائل : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » . «وكأيّن من آية في السموات والارض يمرّون عليهاوهم عنها معرضون » [١] .

* * *

إن ( البروتون السالب ) أو المارد الذري هو ( البروتون ) المضاد للبروتون الذي نعرفه في أرضنا هذه والتي تتكون منها الذرات ، فالعناصر ، فالاجسام . كما انه اكتشف اخيراً ( الالكترون الموجب ) وهو الالكترون المضاد للألكترون الذي نعرفه وقد تكلمنا عنه في بحث الذرة . ففي الوجود نوعان مختلفان من المادة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الاجسام . واذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر او تصادم معه تحدث عمليات افناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود ، بينما تنطلق طاقات هائلة منها : تلك التي استخدمت في الاصل في ربط جسيمات : نويات وذرات تلك المواد [٢] .

ولنرمز للنوع الاول من المادة ذات البروتونات الموجبة والالكترونات السالبة بالحرف ( م ) مثلا ، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى أي ذات البروتونات السالبة والالكترونات الموجبة بالحرف ( س ) . فعندما يتصادم ( بروتون موجب ) مع ( بروتون سالب ) ، أو عندما يتصادم ( الكترون سالب ) مع ( ألكترون موجب ) يعدم احدهما الآخر من عالم

(١) سورة الانبياء : ٣٢ وسورة يوسف آية ١٠٥ .

(٢) يؤدي تحطيم بعض الذرات الى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وان النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات اخرى. فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر .

الوجود ، بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي :

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعه الضوء .

وهكذا نرى أنه عندما تدخل ذرة من نوع المادة ( م ) الى عالم المادة ( س ) او بالعكس تفني الالكترونات اولا ، ثم تفني البروتونات .

ويظهر مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في اصغر موجود في هذا الكون وهو الذرة ، ففيها ألكترون (كهربائية سالبة) وبروتون ( كهربائية موجبة ) . حتى أن المادة نفسها على نوعين اي ان الزوجية متأصلة فيها : فالبعض منها الكترونها سالب وبروتونها موجب ، كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها : ( ١٠٢ ) ، تبدأ بالإيدروجين وتنتهي بـ ( نوبليوم ) . والبعض الآخر الكترونها موجب ، وبروتونها سالب .

ثم ان الزوجية متأصلة في النبات ، ( ففي الزهرة عضو التأنيث وعضو التذكير ) « وأرسلنا الرياح لواقح » [١] . وتشاهد الزوجية في الحيوان وفي الانسان ، حتى في النجوم ! فان بعضها تدور حول البعض الآخر بعلقة الجاذبية ، كأنجذاب الذكر للأنثى أو بالعكس . وهكذا نرى ان الآية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » [٢] تتجلى بعد ١٤ قرنا تقريبا ، وكذلك قوله تعالى : « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » [٣] .

وقوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [٤] .

حتى أنه تعالى جعل عدد تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية وعدد تردد صوت الرجل ( ١١٠ ) في الثانية ، ليكون صوت المرأة ارفع وأجمل من صوت

---

(١) سورة الحجر : ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات : ٤٩ .

(٣) سورة يس : (٤) سورة الروم : ٢١ . ٣٦٠ .

الرجل حصولا للانجذاب الزوجي ، وتحقيقا للزوجية في هذا الكون ، لتكون الوحدانية له تعالى الايشاركه فيها شيء من مخلوقاته حتى الجماد : « فاطر السماوات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام ازواجا يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (١) .

وها نحن نسأل المادي ، هل وُجد ( الألكترون ) قبلا ثم خلق لنفسه بروتونا أم بالعكس . وأين انعقد مؤتمر تنظيم العناصر والقانون الدوري والمعادلات التي تربط جسيمات الذرة بعضها ببعض وتتحكم فيها ؟

« فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢) .

* * *

ونُرى أن العالم ، مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادة والذرة والطاقة ومطابقة ذلك مع ما جاء في كلام الله المجيد قبل اربعة عشر قرنا ، يتقرب يوما بعد يوم من الإسلام . ويأتي قريبا ذلك اليوم الذي يسود فيه الاسلام في العالم كله كما تنبأ ( برناردشو ) قبل بضع سنين ، لو تخلى عن بغيه وطيشه ومجونه ،رغم جهودعناصر الغيوالضلال في الشرق والغرب لاسيما الصهيونية الكافرة ! . «الذين ضلّ سعيهم فيالحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا » (٣) . لذلك يقول : ( تشارلس ستانيمتز ) وهو من أعظم العلماء حين يُسأل عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدم في النهاية : انه يقول : « سيحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية . فسوف يأتي اليوم الذي يعلم فيه الناس أن الاشياء المادية لاتجلب السعادة وانها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين علىالابداع . وعندئذ سوف يحول علماءالدنيا معاملهم الى دراسة الله والصلاة . وعندما يأتي هذا اليوم يشاهد العالم في جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده في الاجيال الاربعة السابقة » .

انظروا ماذا يقول الكاتب ( هراس ليف ) عن الاسلام . إنه يقول :

---

(١) سورة الشورى : ١١ ( يذراكم ) : أي يكثركم .

(٢) سورة الحج : ٤٦ . (٣) سورة الكهف ١٠٥ .

« ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الاديان يدعو الى المساواة بين الناس ، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة • فقد زرت كثيرا من الكنائس والمعابد ، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها • وكان اعتقادي بالطبع أن الامر لابد كذلك داخل المساجد الاسلامية • ولكن ما كان اشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد ( ووكنج ) بلندن • وجدت أجناسا مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطا لك أن تسميه بحقٍ أخويا • ولم اكن شاهدت مثل ذلك • ترى في المسجد ( نوبيا ) من بلاد ( ممباسا ) يصافح عظيما من رجال الاعمال في مصر أو سياسيا من بلاد العرب ، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع • فلا يأنف احدهم مهما عظم قدره من ان يجاوره في الصلاة اقل الناس شأنا • وإنك لاتجد أقل محاولة لتخطي الصفوف الى مكان ممتاز بالمسجد • لانه ليس هناك أي مكان ممتاز • فالكل عند الله سواء • لافضلَ لأحد على سواه • وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الانبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لا أصدق اذني • وكان هذا جديدا استفدته عن الاسلام • لذلك لم اعد اشك في أن هذا الدين يصلح لان يكون دينا عالميا » •

فلابد للمسلمين من تضحية مخلصة ولابد للدعاة من التجهز بأسلحة القرن العشرين من أساليب الدعوة والارشاد ومن معطيات العلم الحديث والتزود بالتقوى الى أبعد حد • والتجرد عن كل نزعة عدا الاسلام • فان فاقد الشيء لايعطيه ، إنه تعالى يقول :

« وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقونِ يا أولى الألباب » [1] •

***

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .




احدث شكل لذرة الهليوم ، ألكترونان في الاطراف يدوران حول النواة وفيها بروتونان ونيوترونان .

شكل (٧)

قلنا إن من جملة مالايمكن إبصاره حتى بالآلات الدقيقة هو ( الذرة ) [١] . ومع ذلك كله ، فان العلم الحديث قد استخدم ما كان يعرفه من : قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفاتها وتركيبها وخواصها مع كونها غير منظورة . ولقد أيدت القنبلة الذرية الاولى ما كشف من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها .

إن العلم الحديث قد استدل على تلك الظواهر التي تتعلق بالذرة بآثارها وهي من « مالا تبصرون » معتمدا في ذلك على الاستدلال المنطقي الصرف وعلى ما كان معلوما من حقائق أولية بسيطة تتعلق بهذه الظواهر والاشياء .

فحري بالمادي الذي يعترف بالذرة ويستخدمها في حقول شتى ويستدل بالآثار على وجودها ووجود الالكترونات فيها وهو لم يرَ شيئا منها حتى بالآلات ، أن يتبع نفس الطريقة في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى وأن لايقول : الاسبيل الى الاعتقاد بغير المنظور ... مع العلم ان غير المنظور في هذا الكون المادي اشد تأثيرا وفعالية من المنظور : كالكهرباء والمغناطيسية وأمواج ( هرتز ) الى ما هنالك . فالعالم المادي كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية ، وكل اولئك من النوع غير المنظور .

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول : « فانها لاتعمى الابصار ولكن

---

(١) حجم الذرة بالنسبة الى تفاحة كحجم التفاحة بالنسبة الى الارض . وحجم كل من البروتون او النيوترون او الالكترون بالنسبة الى الذرة كلها كحجم حبة من العدس بالنسبة الى الهرم الكبير .

تعمى القلوب التي في الصدور » [٢] .

ويقول تعالى : وفي الارض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون .

فلا يستفيد من هذه الآيات التي أودعها الله ارضه وسماءه إلا من كان له شيء من الايمان . فان حب الله ومعرفة الله أعلى واسمى من ان يحل نفوسا مدلهمة ، ظلماء بذنوبها وآثامها ومجونها وبغيها .

وهكذا يقول جلَّ من قائل : « قل انظروا ماذا في السماوات والارض ، وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » [١] . فلابد من إيمان ( ولو كان هذا الايمان ضعيفا جدا ) كي يعتبر الفرد بما أودع الله من نظم وقوانين في أرضه وسمائه . ولكن المادي ، لظلمات في نفسه ، لا يؤمن إلا بما تمليه عليه نفسه المتسافلة المريضة ، ومهما سمي ذلك فلسفة ! أو نظرية علمية ديالكتيكية فهو مرض ولوث ورجس ، بعد تفنيد العلم الصحيح كل ذلك . « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » [٢] .

فلا دينَ على وجه الارض منذ خلق الله تعالى الاحياء عليها ، إلا الاسلام . بحكم العقل وبحكم العلم الصحيح وبنصوص من الكتاب . لا الظنون والاهواء ونظريات تجرح بعد زمن يسير . لذلك يقول تعالى :

« أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من في السماوات والارض طوعا وكرها واليه يُرجعون » . ومن معاني الاسلام هنا : ان ليس ما في السماوات والارض شيء غير محتاج في وجوده وبقائه وفنائه الى قدرة الله والى قول الله تعالى : ( كن ) والى مشيئة الله وارادة الله : « تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهنَّ ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » [٣] .

---

(١) سورة يونس : ١٠١ .
(٢) سورة الحج : ٤٦ .
(٣) سورة الاسراء : ٤٤ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٦ .

فما من شيء في الكون إلا وهو ينادي ، لما فيه من نظام وجمال وكمال، بعظمة الله تعالى ، يسبحه ويقدسه . أليست هذه القوة : قوة الجذب بين الكرات . هذه القوة التي يجهل حقيقتها العلم الحديث ، تدل على أن الكون يسير بإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته ؟ «إن الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن زالتا إن امسكهما [١] من احد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » [٢] .

وما اعظم ما جاء في دعاء علمه امير المؤمنين علي (ع) كميلا حين يقول : « اللهم اني اسألك برحمتك التي وسعت كل شيء ... ( الى ان يقول ) وبعظمتك التي ملأت كل شيء ، وبسلطانك الذي علا كل شيء ، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء ، وبأسمائك التي ملأت اركان كل شيء ، وبعلمك الذي احاط بكل شيء ، وبنور وجهك الذي اضاء له كل شيء ، يا نور ، يا قدوس ، يا اول الاولين ويا آخر الآخرين » .

حقاً : إن من يتتبع العلوم الحاضرة وما اكتشف من حقائق وعوالم ونظم ودساتير وخواص لا تعدّ ، يعلم ان ما جاء في الدعاء المتقدم يفسر تماما حالة الاجسام اعتبارا من الذرة الى السماوات العلى ، فكل شيء ( لو حلل تحليلا نهائيا) يضيء بنور الله ويقدس الله تعالى وينزهه من كل نقص، وينادي بصوت رفيع : ان لا إله إلا الله العلى القدير ، خالق الطاقات ومرتبها ترتيبا حكيما حتى كانت هذه الذرات وتلك العناصر بهذا النظام الخارق الدقيق : «وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» [٣]، وهكـذا السماوات ، فالمجرات ، فالارضون ، فالنباتات ، فالحيوانات ،

* * *

(١) ان امسكهما : اي ما امسكهما .
(٢) سورة فاطر : ٤١ .
(٣) سورة الرعد : ٩ .

فالانسان .. واما كيفية خلق الله تعالى الملائكة والانسان والسماء والارض، فذلك ما نجهله . إذ يبدو التطلع على ذلك مستحيلا على حد قوله تعالى : « ما اشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم » (١) .

تدبروا هذا الدعاء وهو دعاء لطلب العافية ، علمه النبي (ص) عليا (ع)، لتروا كيف ان كل ما في الكون يسبح الله وينزهه عن كل نقص :

« اللهم اني اسألك بأنك سبوح ، قدوس ، يسبحك سوادُ الليل وضوء النهار وشعاعُ الشمس ودويُّ الماء وحفيف الشجر ونجوم السماء وثرى الارض وامواج البحار وصخور الجبال ودوابُّ البحر .

اسألك يا ربِ ، يا احد يا فرد يا صمد . في السماء ميعادك وفي الارض قضاؤك وعلى العرش استواؤك ، وفي الجنة رحمتك وفي النار عذابك ، والملائكة جنودك، يسبحونك ويقدسونك ويهللونك الليلَ والنهارَ لايفترون. لا إله إلا أنت الملك الجبار الحنان المنان الديان الرحمان ، بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام .

أسألك بأسمائك الحسنى وأمثالك العليا وبرهانك العظيم وحجتك البالغة أن تصرف عني شر ما أجد من الداء وشر ما اخاف واحذر » .

***

بعد أن عرفنا شيئا عن تركيب الذرة ( Atome ) ، هذا التركيب الذي يحيِّر العقول وهو أساس لجميع مافي هذا الكون المادي من عناصر ومركبات، يجدر بنا أن نتساءل حامل الفكرة المادية الديالكتيكية (المادية العلمية النظرية!) كيف يوفق بين حقائق الذرة وبين نظريته الهوجاء .

يقول ( ستالين) ، وهو الذي لم يدرس شيئا عن علم الذرة وحقائقها وان ذكاءه المحدود كان أقل من أن يمكنه من ان يتخصص في الفيزياء الرياضية

---

(١) سورة الكهف : ٥٢ .

العالية أو الميكانيك الرياضى أو الميكانيك السماوي Mecanique Celeste إنه يقول [١] : « ان الديالكتيك معناه دراسة التضاد في ماهية الأشياء • وان النمو إنما هو نتيجة صراع بين الأضداد » ؟! •

ما هو هذا التضاد الذي نشاهده في الذرة وما هو هذا الصراع ؟• انما نحن نرى أن هناك إلتئاما وتآلفا وتوافقا و ( تفاهما ! ؟ ) بين الألتكرونات والپروتونات ، تحت نظام بديع وان الألكترونات تدور حول البروتونات بنظام وهي مجذوبة اليها كما في المنظومة الشمسية [٢] ، لا اختيار لها ولا ارادة • وان ارادة خارجية وهي ارادة الله ، جلت عظمته ، جعلت هـــذه الالكترونات تدور حول النواة وأن تتوزع على مدارات معينـــة بفواصل معينة ، تحت حكمة فائقة ، بحيث لو اختل النظام المودع فيها ، لما كانت في الوجود : ذرة ( هليوم ) أو ( ليثيوم ) أو حديد أو ( كالسيوم ) ••• الى ما هنالك •

حقاً إن ( لينين ) و ( ستالين ) لو كانا من حيث الدراسة في مستوى عال ( وكيف يكون السفاك محققاً وعالماً ؟ ) لما جاء بهذه النظريات التافهة الواهية رغبة في القضاء على من لم ينتم الى مذهبهم الرجعي ، المذهب الجنوني •هذا المذهب الذي لا يقرّه ولا يعترف به ( لو كان حراً ) من له أدنى الماّم بالمعلوم الحاضرة ، الا اذا كان ممن تلوثت نفسه بما كسبت يداه من جرائم وآثام •

لذلك يقول ( لورد كيلڤن ) وهو الفيزياوي البارع :«اذا فكرت تفكيراً عميقا ، فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله » [٣] •

---

(١) نقلا عن مذكرات لينين الفلسفية ! .

(٢) « ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت » .

(٣) وهو القائل « ان كل حادثة فيزيائية لا يمكن ان يعبر عنها بدستور رياضي ليست بحادثة معروفة فيزيائيا » . وهذا خير دليل على وجه الله تعالى وعظمته سبحانه .

فأنت لاترى في حركة الألكترونات حول البروتونات حركة عشواء أو سلوكا جنونيا ( كسلوك المادي ) دون قصد وغاية .

وقد وجد ( ماندليف ) [١] بلطف من الله تعالى منذ ١٠٠ سنة قانونا في ترتب العناصر ، وذلك أن العناصر الكيمياوية ( كالايدروجين والحديد والراديوم ... الخ) قدرتبها الله تعالى تبعالتزايد اوزانها الذرية ترتيبا دوريا. وان العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة . ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب ان يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد عُلم بها قبلا . حتى ان العلم قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماما للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه . وهل يمكن ان يسمى ما اكتشفه ( ماندليف ) بالمصادفة الدورية ؟ اويحق لنا ان نسميه بـ ( القانون الدوري). .

وكم من قوانين ومعادلات وما اجري عليها من اعمال رياضية قد انبأت عن حقائق جديدة وسببت مكتشفات حديثة ، يعلم ذلك من درس الفيزياء الرياضية العالية ، وما يستعمل هنالك من معادلات تفاضلية دقيقة . فهل للطبيعة العمياء ان تسنّ آلاف القوانين وان تنظمها تنظيما يحيّر الالباب ، حتى يكون هذا العالم الذي نشاهده ونراه .

« امّن خلق السماوات والارضَ وانزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم ان تُنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون [٢] . أمّن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها

---

(١) وقد أعلن سنة ١٩٥٥ م كشف العنصر ١٠١ ( اي الرقم الذري : ١٠١) وسمي تقديرا لـ ( ماندليف ) : واضع اسس التصنيف الدوري للعناصر : ماندالويوم ( Mendelvium Mv 101 ) اي أن في هذا العنصر ١٠١ بروتون و ١٥٥ نيوترونا فيكون الوزن الذري ١٠١ + ١٥٥ = ٢٥٦ .

(٢) يعدلون بالله غيره ، او يعدلون عن الحق .

رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لايعلمون »[١] .

اذا كان كما يقول : ( كارل ماركس ) : ان الاشياء انما وجدت نتيجة التكامل في الاضداد ! فليوضح لنا كيف أن الشيء أوجد ضده ، وكيف أن الرجل اوجد لنفسه انثى . لذلك يقول ( مونتني ) وهو أحد فلاسفة فرنسا : « مهما يكن من شيء ، فليس للرجل أن يخلق لنفسه امرأة لها عضو التناسل ابقاءً للجنس البشري . فالله تعالى هو الذي خلق المرأة كما خلق الرجل وهكذا بقية الحيوانات والحشرات والنباتات » .

« ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون »[٢] .

أنى للكهربائية السالبة : ( الألكترون ) أن توجد لنفسها كهربائية موجبة ، ثم تترتب ترتيبا بديعا لاتحيد عنه ولا تتغير ، منذ خلق الله الذرة ، خلافا لما يقوله المادي من ( نظرية التغير ) التي لايحققها العلم الحاضر . ان هي الا نظرية عشواء كواضعها . « ومن يعشُ عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون »[٣] . [ يعشو : يتعامى ] ، [ نقيّض : نهيئ ] .

نحن لانرى أي تضاد في الذرة ، فهل المرأة ضد الرجل ، بل نرى في الذرة وفي كل زوجين خلقهما الله تعالى تكاملا وتوافقا . فلا تتم الحياة ولا تستقر ولا تستمر إلا بذكر وانثى . ولا تتم الذرة ولا تتحقق إلا بالألكترون والپروتون . فهذه هي الزوجية التي أودعها الله تعالى في جميع ما خلق حتى في الجمادات لتبقى الوحدانية له تعالى . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم

---

(١) سورة النمل : ٦٠ — ٦١ .

(٢) سورة الروم : ٢١ .

(٣) سورة الزخرف : ٣٦ — ٣٧ .

تذكرون [١] » . ولذلك يقول الدكتور ( جورج ابرل دافيز ) رئيس البحوث الذرية : « إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله . وانها تدل على وجود الله حتى دون حاجة الى الاستدلال : بأن الاشياء المادية تعجز عن خلق نفسها » .

وقد علمنا أن ذرة ( الايدروجين ) مركبة من الكترون واحد يدور حول بروتون واحد . فكيف يفسر لنا المادي حدوث الهليوم : المشتمل على الكترونين يدوران حول ( بروتونين ) من ذرة الايدروجين حسب قانون التغير ! أو نظرية التضاد ! ؟ . فكان يجب اذن أن تتحول جميع ما في الكون من إيدروجين الى هليوم وأن لانرى في العالم في وقت من الاوقات إلا ( الهليوم ) . فلا يبقى على وجه الارض ( ايدروجين ) فتجف البحار وتيبس الاشجار . لأن جميعها مركبة من ايدروجين وعناصر أخرى . ثم اين التحول الذي يقول به المادي وهو : « ان التغيرات الكمية تتحول الى تغيرات كيفية ! » . وهل للمادة الصماء أن تغير نفسها حتى يحدث نتيجة لذلك عالم كله نظام وانتظام وقوانين ثابتة ومعادلات لايصل الى كنهها العقل البشري مهما أوتي من قوة وكمال .

ليس العلم بهذه الدرجة من الضعة حتى يتغير حسب أهواء الفلاسفة الماديين المتطفلين على العلم . وليس العلم مجرد مقترحات تكشف عن نفس متسافلة ، رائدها الهدم والتخريب !

ألا يفكر هذا المادي انه حسب نظريته المادية الديالكتيكية السخيفة يجب أن لايكون اليوم في الكون إلا عنصر واحد وهو ( أورانيوم ) مثلا ، ذلك لان حسب (هواه) قد تكاملت العناصر كلها وفق قانون الاضداد والتغير الذي يقول به وتحولت الى عناصر أخرى . فإذن يجب أن لايبقى إلا عنصر واحد وهو ( الاورانيوم ) !

---

(١) سورة الذاريات : ٤٩ .

وهكذا القول في الأحياء ، حسب هذه النظرية السخيفة ، يجب أن لايبقى في الكون إلا الانسان الذي قد تكامل من ( آميبا ) : وهو الكائن الحي ذو الخلية الواحدة . وأن لايكون في الوجود من الكائنات الحية غيره . .

ثم كيف يفسر لنا المادي نظرية التضاد في تركيب الماء ( $H_2O$ ) ، ما هو هذا التضاد الذي نشاهده بين الاوكسجين والايدروجين وما العداوة التي نشاهدها بين ( الكلور ) و ( السوديوم ) : $ClNa$ في ملح الطعام وبين الكلور والايدروجين في ( آسيد كلوريديك ) : $HCl$ . بل هناك تركيب علمي وتقارب وتوافق أودعها الله تعالى في جزيئات هذه الاجسام لحدوث هذا العالم .

***

ثم ان المادي الديالكتيكي لايرتضي للانسان هذا المنطق العظيم الذي وهبه الله اياه ، فكان السبب بإذنه تعالى لكل ما اكتشف من علوم تدل على عظمة الخالق ، هذا المنطق الذي بنيت عليه القضايا الهندسية والرياضيات العالية والفيزياء العالية وعلم الفلك العالي والكيمياء ومكتشفات الذرة ، فيسمى هذا المنطق مع الاسف : المنطق الشكلي ، ثم يأتي بمنطق في غاية السخافة ( منطق الهدم والردم ) . منطق المتناقضات ويسميه بالمنطق الديالكتيكي .

أسفا على ما بلغ اليه العلم في القرن العشرين ، علم يتحكم فيه جبابرة طغاة بنظريات سخيفة تبريرا لموقفهم التخريبي في العقائد والنفوس .

يقول هذا المنطق السخيف : المنطق الديالكتيكي ، إن الشيء يكون صحيحا وغلطا في نفس الوقت ، ويمثلون لذلك ( فرضية دالتون ) في تركيب العناصر . وان هذه النظرية فندت لثبوت ما فيها من اخطاء وقام مقامها نظرية ( روتفورد ) بشأن الذرة . فالمنطق الديالكتيكي !يقول إن فريضة (دالتون ) كانت صحيحة ومغلوطة في نفس الوقت . وهذا مما يضحك الثكلى ، فالدستور

لايكون صحيحا وخطأ في نفس الوقت ، ذلك لانه لو كان خطأ كانت النتائج التي تؤخذ بتطبيق ذلك الدستور خطأ لامحالة • ان المنطق الديالكتيكي يقول ان دستور نيوتون في الجذب العام بين الكرات والانجم :

$$ق = ى \times \frac{ك ك'}{م^{٢}}$$

كان صحيحا وخطأ في نفس الوقت • وفاتهم أن ( أينشتين ) رأى ان هذا الدستور لايعطي النتائج الصحيحة لو طبق في مسافات بعيدة ، فأدخل البعد الرابع وهو الزمان في دستور وضعه ، ذلك لانه رأى ان سرعة الاجسام دخيلة في حساب مقدار الكتلة ، والسرعة يدخل فيها مفهوم الزمان • فلذلك صحح دستورا وضعه ( نيوتون ) وجاء بدساتير أخرى دقيقة لا مجال الى ذكرها • فكيف إذن يكون الشيء صحيحا وغلطا في نفس الوقت ؟ ! •

إنما يعترف المادي بهذا المنطق الديالكتيكي السخيف ، كي يثير العمال والناس فيحرك عواطفهم ويخلق منهم أعداءاً يفتك بعضهم ببعض • ان رائده الفتك والبطش • انه يعترف بهذا المنطق الواهي : ان ما يوجد من دساتير وقوانين صحيحة وخاطئة في نفس الوقت ، كي يبرر موقفه في وضع قوانين اجتماعية مغلوطة تخالف ما طبع عليه الانسان ، تخالف ما ثبت في علم النفس من غرائز وخصال ، وحمل النـاس جبرا على تقبلها ، كـل ذلك تبريرا لديكتاتورية فئة قليلة تريد أن تحقق لنفسها شهوة الحكم والسيطرة باسم انقاذ العمال والفلاحين ! وهم ومع الاسف في أسوأ حال ، بعيدون عن الحكم كل البعد • فئـةٍ تريد سيطرة اليهود على العالم بعد سحق الفضائل والمقدسات والدين •

يقول المادي : إن النظام الرأسمالي صحيح وخطأ في نفس الوقت ، انه

يحفر قبره داخل كيانه حتى يزول فتأتي الشيوعية وهي التي تسود العالم في النهاية وتلك نهاية العالم ، فلا نظام بعد ذلك . فلماذا يتوقف هذا المنطق الفاسد : ( صحيح وخطأ في نفس الوقت ) عند هذا الحد ؟ فلماذا لاتحفر الشيوعية قبرها بيدها داخل كيانها ؟ فتزول ويسود في الارض ، بإذن الله ، نظام عادل ، لا رأسمالية ولا شيوعية ، نظام ارتضاه الله لعباده في أرضه : وهو نظام الإسلام .

* * *

نعم ، ان ما رتبه المادي من قوانين وان سماها ، لإغواء الناس ، علمية، نظرية ! ولكنها تخريبية ، صهيونية حقا ، يريد من ورائها سحق الفضائل والمقدسات والاخذ بهذا الانسان الى جاهلية جهلاء والى أسفل السافلين .

أجل ، لو تسافلت الانسانية في بعض بلدان العالم حتى جعل الاولاد والبنات بضاعة مادية يتصرف فيها الديكتاتوريون باسم المجتمع والپروليتاريا [1] كيفما شاؤوا وأخمدت الحريات باسم التقدم ! وأمسى الفرد آلة صماء لا حرمة له ولا ارادة ، وكان رائد المجتمع وبالاحرى رائد الديكتاتوريين مادياً بحتا لاينبض فيه شيء من المعنويات ، والمقدسات ، فعلى مثل هذا المجتمع السلام ! .

فلا نجاة لهذا العالم الا باتباع الاسلام وتطبيق تعاليمه الخالدة خلود الدهر .

* * *

وإن الروح من غير المنظور ، وكل منا يعترف بالروح ولا يقوى على مشاهدتها كما يشاهد الخشبة . إلا أن وجودها أثبت وأوضح من وجود

---

(١) الپروليتاريا : Proletariat : طبقة العمال .

الخشبة • لتعلقها بنا تعلقا لايقبل الانفكاك •

فالمخ والجهاز العصبي كآلات الراديو • فكما أن آلات الراديو ليست من حقيقة الصوت الانساني في شيء ، كذلك الاقسام المادية في المخ الانساني والجهاز العصبي ، فهي ليست من الروح المجردة في شيء • فالروح التي لاترى بعيوننا تقوم بما تقوم به من أعمال مستعينة بالمخ والمخيخ ••• الخ • كما يستعين الشخص بالراديو لإيصال صوته الى حيث يريد • فاذا أصيبت آلة الراديو بعطب لاتقوى على التقاط الصوت وكذلك المخ ، وليس المخ من الروح في شيء ، كما أن النفس غير المخ ، فان النفس لاتفنى بعطب يصيب بعض أجزاء المخ ، كالنسيان ( مثلا ) •

وقد قال الفلاسفة ، وكذلك الإلهيون : إن الروح جوهر مجرد عن المادة وعوارض المادة وان اتصال الروح بالبدن هي اتصال تدبير وتصرف ، أي ان الروح أو النفس تتصرف بالبدن وتقوم بتدبيره وعندما يموت الانسان ينقطع هذا الاتصال بين الروح والبدن •

وقالوا : إن نفس الانسان جوهر روحاني مجرد قائم بذاته ، ذلك لان نفس الانسان تعرف وتعرف أنها تعرف أيضا وهكذا ••• وان المعرفة ليست من خواص الجسم • فإذن وجب أن تكون النفس شيئا مجردا عن المادة • ثم قالوا : إن المادة لو انتقشت عليها صورة تبقى هذه الصورة منقوشة عليها الى أن تنقش عليها صورة أخرى • فيحصل اضطراب من انتقاش الصورتين فيكون شكلا غريبا ، حين أن النفس ليست كذلك • تنتقش فيها أنواع المعارف والمعلومات دون أن يؤدي الى شكل غريب أو ارتباك او يؤدي الى محو الصورة الاولى • فهي إذن ليست من نوع المادة ، ومعلوم أن الانسان يزداد فهما كلما ازداد علما •

وقد قال الماديون : إن المخ اذا اصيب بعطب تأثرت العقليات بل الاخلاق وغيرها . وجعلوا ذلك دليلا على أن المادة هي كل شيء ، ونفوا وجود الروح وهي من أوضح الواضحات . وقد فات هؤلاء أن المادة ضرورية لإظهار شيء خفي عنا . ومثلها مثل عدة ( التليفون ) . فإنها ضرورية لسماع صوت مَن يتكلم ، واذا أصيب التليفون بعطب اختل الكلام ووقف . ولكن التليفون وأعني الآلة أو ( المسرة ) ليس منشأ الكلام مطلقا .

ثم ألا يرى الانسان نفسه ، في حلمه ( في عالم الطيف ) ، في أماكن بعيدة أو في بلاد اخرى نائية ، وهو ملقى على فراشه ، نائم في غرفته . فمن هذا الذي سافر الى بلاد أخرى وهو مضطجع في فراشه ؟ هذه هي روحه التي بين جنبيه [1] ، روحه التي يُسأل عما قريب عن أفعالها وأعمالها ، عن كل صغيرة وكبيرة جاءت بها في « يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

إن الفسق والظلم يسدان على النفس الانسانية أبواب الرحمة وهذا بدوره يؤدي الى اتباع هوى النفس وما يُملي عليها شيطانها على حد قوله تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين » . وليس هناك جامع بين الفسق والإيمان : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » . ( سورة السجدة : ١٨ ) .

فلنفس المؤمن التقي رشحات . كما أن لنفس الفاجر المفسد رشحات أيضا . ان الله تعالى يقول : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، أم نجعل المتقين كالفجار » . ( سورة ص ، ٢٨ ) .

---

(١) « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ( سورة الزمر ٤٤ ) .

فرشحات نفس المؤمن : الإيمان بما غاب عنه عن تعليل صحيح ومنطق واضح جلي يتجلى لعقل الانسان الفطري غير الملوث بالآثام . ورشحات نفس الآثم الفاجر الفاسق : الركون الى المادة العمياء والإخلاد الى الارض « ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه » (١) والاعتقاد بالمحيط والبيئة وعوامل أخرى مادية وانكار ما وراء المادة او الطبيعة .

وليس المنطق والدليل في هذا المقام بعد ادلهمام النفس وظلماتها بالشيء الذي يزيح المادي عن غيه وطيشه . فهو مأنوس بما وصلت اليه نفسه البهيمية البعيدة عن رحمة ربها من انحراف وميول سلبية « كل حزبٍ بما لديهم فرحون » . ( سورة الروم : ٣٢ ) . فالضال الايعي ما هو عليه من ضلال : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » (٢) .

وهكذا يوضح الله تعالى حال اولئك الذين نسوا تذكير الله إياهم وفرحهم واغترارهم بالنعم التي تغدق عليهم أي بهذا الاستدراج الإلهي ( ونستجير بالله من ذلك ) وذلك بقوله : « فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا ، أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » ( اي متحيرون ، آيسون ) ( سورة الانعام : ٤٤ ) .

إنه تعالى يقول : « ولا تطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطا » (٣) . فان قلبا كهذا بعيد عن تلقي كل ما يهدي الى الصواب إلا اذا تاب وأناب وتخلى عن طيشه وغروره وأعقب أعماله السيئة بحسنات : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » (٤) .

---

(١) سورة الاعراف : ١٧٥ ـ أخلد الى الارض : اي مال اليها ودام فيها واتبع ميله الشهواني .

(٢) يعمهون : يتحيرون ، عمه : تحير وضل ـ سورة الحجر : ٧٢ .

(٣) فرطا : اسرافا ، خارجا عن طريق الحق .

(٤) سورة هود : ١٥ .

هذه هي فلسفة الهداية والضلال الحقة بشكل واضح لاتعقيد فيه • إنه تعالى يقول : « والله لايهدي القوم الفاسقين » • « والله لا يهدي القوم الظالمين » • « والله لا يهدي القوم الكافرين » • « وإن الله لا يهدي كيد الخائنين » • « إن الله لايهدي من هو كاذب كفار » • « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » • « فإن تولّوا ، فان الله أعلم بالمفسدين » •

وإن الله تعالى لايضره كفر الكافرين وجحد الجاحدين • ذلك لأنه تعالى يقول : « من كان يريد العاجلة [١] عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » [٢] • ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة [٣] لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج [٤] عليها يظهرون [٥] • ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون • وزخرفا [٦] ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا [٧] • والآخرة عند ربك للمتقين » [٨] •

إن دين الاسلام دين تطهير ودين تزكية النفوس • فما لم تأخذ هذه النفس في التدرج في مراحل التطهير ، لاتفتح لها أبواب الهداية • وكل ما جاء في الدين الاسلامي من أوامر ونواه ومستحبات ومكروهات : كلها ترمي الى تطهير هذه النفوس مما علق بها من أدران واوساخ معنوية • وبمقدار

---

(١) أي الحياة العاجلة وهي الدنيا .
(٢) مدحورا : مطرودا .
(٣) أي لولا أن يرغب الناس فى الكفر اذا راوا الكفار فى سعة .
(٤) معارج : مصاعد جمع معرج .
(٥) يظهرون : يعلون الى فوق .
(٦) زخرفا : زينة .
(٧) ولكن كل ذلك تمتع قليل فى الحياة الدنيا .
(٨) سورة الزخرف : ٣٣ .

طهارتها يحصل لها يقين بالمقدسات وبما غاب عنها من عوالم ، فيراها حقائق ناصعة لاغبار عليها . فتكون البراهين مؤيدة لما يترشح من نفسه الطاهرة .

انه تعالى يقول : « ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون » . « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبون ان يطهّروا ، والله يحب المطهرين » .

فدين الاسلام دين تطهير النفوس لو عمل به وطبق تطبيقا تاما .

وان أعداء الاسلام يعملون لأجل اشاعة الفواحش بأنواع الوسائل : بالصحف والمجلات بما فيها من تصاوير خلاعية وكتب غرامية وأفلام سينمائية وتمثيليات شهوانية ثم بتهيئة حانات الخمور وايجاد محلات الزنا والفجور ، كي تتلوث النفوس . فاذا تلوثت لم يكن في النفس عندئذ محل يحل فيه حب الله تعالى وذكره ، تحل فيه المقدسات والفضائل . ومن ثم يأتي دور الانكار والجحود ! فترسخ أقدام المادية في النفوس وتكون المادة معبودة لها ، كما كان فريق من الناس يعبدون الاصنام من ذي قبل ولحد اليوم .

***

وقد قرأت ما كتبه شاب في احدى المجلات وقد بلغ من العمر ١٩ سنة : « ان أكثرية الشباب الساحقة منصرفون الى أعمال منكرة ، اعمال تقشعر منها الجلود بإفراط لا مزيد عليه وبصورة غير مشروعة . ان هذا الانهماك في الفسوق لايدع مجالا للشاب كي يفكر في مصيره وتكميل نفسه والتوجه نحو المقدسات . فان اختلاط الجنسين في شتى المجالات وغيره من عوامل شتى قدفسحا مجالا واسعا للاشباع الجنسي بشكل فظيع . وهذا بدوره يجعل الشاب غير ميال بالقيم الاخلاقية والفضائل والمقدسات وبالدين بعد تلويث نفسه بيده . فلابد من معالجة جذرية تبعد الشاب عن هذه المزالق لو أريد

بالشاب الهداية والكمال الخلقي وتقديس المقدسات • فان النصيحة وحدها لاتكفي لردع الشاب عن غوايته !

ومن هنا يعلم قيمة ما وضعه الاسلام من قوانين صارمة تمنع اختلاط الجنسين وما يؤدي الى التفسخ الخلقي ومن ثم الى تلويث النفوس واستهزائها بالمقدسات ! • « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ( سورة الروم : ١٠ ) •

***

نعم ، قد أخذ الماديون في أوروبا ، هؤلاء الذين قد تحجرت عقولهم بعد أن تلوثت نفوسهم ، ينكرون كل مالايقع تحت ابصارهم أو حواسهم الخمس • مع العلم ان هذه الحواس ناقصة الى حد بعيد في قابلياتها وامكانياتها • وهي تعمل على قدر ما اودع الله فيها من كفاءات • لذلك يستعان بآلات أخرى تزييدا لقابلية بعض الحواس من إبصار وسماع ••• الى ما هنالك • وكلما زادت حساسية هذه الآلات كلما تعرف الانسان الى أشياء كان يعتقد أنها غير موجودة من ذي قبل • حتى استعمل ( ميكروسكوب الكترونيك ) حيث تكبر الجرثومة بواسطتها ( ••• ٧٠ ) مرة • ولعل الله تعالى يوفق في المستقبل بعض المتتبعين الى تكبير بعض الميكروبات الصغيرة جدا الى مليون مرة أو أكثر • وهكذا تتجلى للانسان بما يلهم الله تعالى بعض المشتغلين في الفيزياء وعلم الاحياء عوالم عجيبة كانت تعد الى زمن قريب من ( غير المنظور ) •

ويجب أن لايعزب عن البال أن الحواس الخمس إنما هي آلات يستعان بها ( على ضوء ما تعطي من معطيات ) على ربط الحوادث بعضها ببعض ، ثم الاستقراء فالاستنتاج ••• الخ • والمهم هو هذا العقل الانساني الفعال : هذا الذي يضع دساتير العلوم ويربط بين معطيات الحواس ( بقدر ما توصل اليه العلم المادي ) بالفطرة دون اللجوء الى تجربة سابقة • ولا ريب أن هذا العامل

المهم في الربط وأعني به العقل ، هو من ( غير المنظور ) . لذلك يقسم الله بغير المنظور بقوله : « فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون » . كما ان قوة الجاذبية من ( غير المنظور ) .

والنفس الانسانية هذه التي يعبر عنها بـ ( أنا ) من النوع غير المنظور . فـ ( أنا ) هو غير هذه العظام التي تؤلف الهيكل العظمي ( اسكلت ) والجهاز العصبي والدورة الدموية ... الخ . ذلك لانك عندما تقول ( أنا ) تغفل تماما عن كل ما في بدنك من دم وعظم وعصب . فـ ( أنا ) ليس من المادة في شيء ، وهو من غير المنظور .

***

وها نحن نذكر بعض ما حدث من الوقائع التي أيدت لعلماء الغرب وجود الروح . ولا يخفى أن هذا البحث لمن أهم المباحث لشبابنا المعاصر المحاط بظروف مادية حالكة ، وتشكيلات محرفة مضللة :

ذكرت دائرة معارف بريطانيا ان امرأة في لندن شاهدت ذات يوم عند الصباح زوجها الذي كان قد اشترك في حرب ( ترانسوال ) بباب الغرفة . فتعجبت ، وتقربت منه ، فلاحظت أن ليس له جسم كأجسام البشر . وهو لايتكلم بشيء . فأخبرت بعض الجهات المختصة وتمكنوا من تصويره ! واذا به ضابط قد قتل في تلك الساعة في حرب ( ترانسوال ) في جنوب أفريقيا وجاءت روحه تزور الزوجة : رفيقة الحياة .

يقول الدكتور الطبيب ( أوين فردريك باورز ) استاذ الامراض العصبية في جامعات أمريكا أنه قد امضى اكثر من عشرين سنة وهو يبحث ويدقق ويرى اللوحات السالبة لصور الارواح الفوتوغرافية !

وقد بلغ العلم الحديث مرتبة تمكنه من تصوير سيارة في المكان الذي كانت فيه بعد أن غادرته . ذلك لان الاهتزازات الخاصة بها ( بالسيارة )

لاتزال موجودة في المكان الذي كانت فيه ، إلا أنها غير مرئية . فباستخدام آلة خاصة للتصوير أمكن تصويرها !

وان القرآن الكريم يوضح لنا أرواح الملائكة التي ليست من المادة والجسم في شيء بقوله : « فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم » وذلك في ( سورة هود : ٧٠ ) وهو قوله تعالى :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى : قالوا سلاما . قال : سلام . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ : ( مشوي ) ، فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم واوجس [1] منهم خيفة ، قالوا : لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط » .

ويقول الله تعالى بالنسبة الى سرعة الملائكة التي ليست من الاجسام البشرية في شيء ، سرعة لاتقاس بسرعة ما يحصل عليه بأعمال مادية بواسطة الامواج الكهربائية ، بل هي سرعة فائقة لايعلم مداها إلا الله : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . ولاشك أن سرعة الملائكة أعظم من سرعة الضوء : أي ( ٣٠٠٠٠٠ كم / ثانية ) أضعافا مضاعفة لعدم تناهي الابعاد ! فما ابعدها من مسافات شاسعة تقطعها الملائكة في خمسين ألف سنة بتلك السرعة الهائلة !

***

تغلغلت المادية في أوروبا في القرن الماضي من جراء تلوث النفوس بأنواع المعاصي والآثام وضروب الفساد والظلم [2] . فصاروا يعزون كل شيء الى المادة وهم لايعلمون عن حقيقة المادة شيئا ، وجهلهم بالمادة أكثر من جهلهم بأنفسهم . حتى صار يعرّف بعضهم المادة : بضرب يده بقوة على المنضدة ،

---

(١) أوجس : أضمر منهم خوفا .

(٢) « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . ( سورة الجاثية : ٢٠ ) .

قائلا مع خيلاء تلازمه : «هذه هي المادة» . وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئا .

حقا ، إن هؤلاء المطفلين على العلم الحديث ذوي الادمغة المتحجرة والنفوس الضالة أصبحوا عالة على العلم والبشرية جمعاء فضلوا وأضلوا . حتى صاروا يضغطون على علماء الذرة والاحياء أن يعدلوا نظرياتهم التي تبرهن بجلاء على وجود الصانع جل جلاله ، وجعلها مؤيدة للمادة الهوجاء .

أني للنفس المتحجرة أن تذعن للدليل ودونها حجاب يصدها عن رؤية الحق والواقع ! « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين » . ( سورة الروم : ٢٩ ) .

إن ما أذكره من حوادث قد لطف الجو المادي المدلهم في أوروبا في القرن التاسع عشر وبعده . فصار يعتقد ثلة من العلماء الذين لم تتلوث نفوسهم بلوث المادية العمياء . أن وراء هذا العالم المادي : (والعالم المنظور )، عالما آخر غير منظور .

منها : أن قائدا لفرقة موسيقية في باريس قد سمع ذات يوم بصورة جلية واضحة ، وهو في بناية خاصة بالفرقة المذكورة ، أن شخصا غير منظور يقول له بوضوح : إن هذه البناية ستنهدم بكاملها يوم الاثنين المقبل في الساعة التاسعة صباحا . يبحث القائد عن صاحب هذا الصوت ، فلا يجد أحدا . يرجع الى مكانه . واذا بنفس الصوت يؤكد ما قال أولا . فلا يرى أحدا . فيبقى متحيرا ! من هذا الهاتف ، يا ترى ؟

حتى كان اليوم الموعود . يخرج القائد قبل الساعة التاسعة مع من كان في البناية على سبيل الاحتياط . واذا بها تنهدم عن بكرة أبيها .

* * *

يذكر لنا أحد علماء الغرب في بعض مؤلفاته : أن رجلين هاجرا وطنهما وذهبا الى ( استراليا ) بغية الاشتغال في رعي الغنم والمتاجرة بها . فأزدهرت

تجارتهما في مدة وجيزة واصبحا ثريين • إلا أن احدهما فقد شريكه فجأة بعد مدة • وصار يفتش ويبحث عنه بشتى الوسائل ، فلم يعثر على أثره •

وفي يوم بينما كان هذا الرجل يعود الى بيته جاعلا طريقه على ضفاف بركة عميقة في شارع ضيق ، شاهد شريكه المفقود جالسا على ضفة البركة جلسة القرفصاء يرمق بصره الماء •

همّ الرجل أن يبدي سروره وفرحه ، لانه قد ظفر بضالته بعد مدة مديدة وتعب شديد ، لكنه رأى ان كآبة تعلو وجه صديقه المفقود ، وهو يتضاءل كلما همّ أن يدنو منه حتى انمحى ولم يبق منه أثر •

يقول الرجل : فوقفت في محلي ولم أقترب واذا بصديقي المفقود يبدو من جديد مشيرا بيده الى محل في البركة ثم يغيب • فعلمت أن لابد في البركة من شيء يجب اخراجه • ففتشنا المحل الذي قد أشار اليه الصديق المفقود واذا بجثته ملقاة في قعر البركة ، مغطاة بأوراق الشجر وقد قتل بفأس وجدوها في قعر البركة أيضا • دفنوا الجثة وظفروا بالقاتل ، فأعدم بعد الإقرار • وهكذا استدلوا على بقاء الروح بعد الموت •

***

كان قد دعي پروفسور ( يواهم ) أستاذ الرياضيات الى طعام ليلاً في بلدة ( ماربوگ ) • فبينما هو جالس مع رفاقه يتجاذبون أطراف الحديث ، واذا به يرى نفسه تدفعه حثيثا ليذهب الى بيته ويعتريه من جراء ذلك قلق شديد لايدعه يستقر في مكانه • يذهب الاستاذ الى بيته ، يفحص زوايا البيت ، فلا يجد شيئا يقلقه ، ولكنه يرى شخصه ما زال قلقا حتى ينتهي الى غرفة المنام • يغير مكان نومه مستعينا بخادمه فيضع سريره في الجانب الآخر من الغرفة ويعود الى بيت صديقه لتناول طعام العشاء • وبعد تناول الطعام يرجع الاستاذ الى بيته وينام في غرفته • واذا به يرى بعد منتصف

الليل أن السقف ينهدم من ذلك الموضع الذي كان ينام تحته كل ليلة . فلو لم يكن قد لبى القلق النفسي أو الإلهام الغيبي (الهاتف) لاصيب بضرر بالغ ولعله كان يقضي عليه .

ومن هنا أستدلوا على أن وراء المادة عالما آخر ، وأن الله تبارك وتعالى يتصرف في العوالم كلها حسبما يشاء وكيفما يشاء ، فينجي من الهلكة من يشاء ، « كل يوم هو في شأن » .

* * *

يكتب لنا ( مسيو كومرا ) أحد الصيادلة المشهورين أن دخله اليومي ماكان ليتجاوز ( ٤٠ — ٤٥ ) فرنكا في صيدلية كان قد فتحها في ( تولوز ) .

ولكنه رأى ذات ليلة في ما يرى النائم : أنه مكتوب في نهاية الصفحة أن مجموع دخله اليومي ( ٧٦ ) فرنكا وثلاثين سانتيما . وقد انتقش المبلغ في ذهنه . حتى كان اليوم الثاني وذهب الى الصيدلية وقص قصته على معاونه . فقال له معاونه : لعل ما رأيته في منامك هو دخلنا ليومين .

يقول ( مسيو كومرا ) مضى النهار على العادة حتى جن الليل ففوجئنا بزبائن جدد أشتروا كميات من الادوية وعندما خرج آخر زبون من المحل كانت الساعة العاشرة والنصف . بادرنا بغلق المحل واذا بنا نجد الدخل اليومي ٧٦ فرنكا و ٣٠ سانتيما كما أخبرت في عالم النوم !

لا أعلم كيف يفسر المادي هذا الاخبار بالغيب ، أليس هناك عالم آخر قد يفيض على هـذا الانسان بأخبار عن عالم الغيب ليزداد ثقة بما وراء الطبيعة . « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » [1] . « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا انه بكل شيء محيط » ( مرية : شك ) .

* * *

---

(١) سورة السجدة : ٥٣ ، ٥٤ .

# الروح باقية بعد الموت

ذكرت احدى مجلات ايطاليا أنه كان يدور حديث ( بقاء الروح بعد الموت ) منذ زمن غير بعيد بين ( كنت گالاترى ) و ( موسيو ديرژيني ) : أحد الضباط في الجيش الطلياني • فتعاهد كل منهما مع الآخر أن يخبر صديقه بعد موته ان كانت روحه حية ، بأن يأتي الى صديقه الحي فيحك أسفل قدمه • وقد مضت على هذه المعاهدة خمس سنوات حتى أوفد ( ديرژيني ) في جيش الى أفريقيا ، فو دع ( ديرژيني ) صديقه وسافر • •

وبعد مضي ٨ أشهر على هذه الموادعة ، صارت تشعر ( زوجة گالاتري ) في الليل بحك شديد في رجلها وهي نائمة بجنب زوجها • فصارت تقول لزوجها ( گالاتري ) : ماذا المزاح ، ولمَ تؤذيني ؟

فأجابها زوجها : وهل أنت تحلمين ؟ اني لم اصنع شيئا من هذا القبيل•

ولكنها كانت تشعر أن هناك من يحك أسفل قدمها بصورة متكررة •

ثم أسرجا السراج ، وفتشا فلم يعثرا على شيء• عند ذلك قالت زوجته: « أما ترى هذا الضابط ، واقفاً تحت رجلي وهو يرتدي قبعة جميلة مع أوسمة • انه طويل القامة ، ها هو ينظر اليك مبتسما ، وقد أصيب في صدره بجرح خطير وكذلك في ركبته • انه يحييك تحية عسكرية ، ألا تراه • ولكنه الآن غاب عن بصري » •

فلم تمض الايام حتى أخبرت جرائد ايطاليا أن الضابط ( ديرژيني ) أصيب في حرب مع الاحباش في صدره وركبته ومات في اليوم الذي جاء انى صديقه : ( كنت گالاترى ) يخبره أنه حي بعد الموت وأن الروح لاتفنى بموت البدن وذلك وفاءاً بالوعد •

* * *

تقع كثير من هذه الحوادث عندنا في الشرق ولكنا قلّ ما ندون ، لاعتقادنا بما غاب عنا وبالإلهام الرباني وبما وراء الطبيعة .

منها : أن امرأة مات زوجها . فكانت تريد أن تتصدق عنه ، فصارت تصنع طعاما ليلة الجمعة وترسل به مع ولدها اليتيم الى فقير في أحد الاكواخ القريبة .

إن الولد كان يأخذ الطعام الذي هيأته أمه الى ذلك الكوخ وهو يشعر في الوقت نفسه بجوع شديد . يرجع الولد الى بيته جائعا ، فينام وهو جوعان !

وهكذا صنعت الأم مرة ثانية ( ليلة الجمعة ) طعاما وأرسلت به مع ولدها الى نفس ذلك الفقير . قدم الولد الطعام الى الفقير ورجع الى البيت وهو يكابد ألم الجوع ، نام وهو جوعان ! .

وفي المرة الثالثة صنعت الام ليلة الجمعة أيضا طعاما تقدمه صدقة عن زوجها المتوفى وأرسلت به مع ولدها الى نفس الفقير . أخذ الولد الطعام وصار يتقدم نحو الكوخ . إلا أن الجوع كان قد أضر به ضررا بالغا . فلم يستطع الصبر . فأكل ما كان في الإناء ورجع الى البيت ، نام وهو شبعان .

رأت الام زوجها في المنام ، يقول لها : « لم يصل اليّ الطعام إلا في هذه الليلة » .

انتبهت الام من نومها قبل طلوع الشمس ، متعجبة ، فأخذت تسأل ولدها : — ولدي ، الى من كنت تأخذ الطعام ليلة الجمعة الماضية وقبلها ؟ فقد رأيت والدك في المنام ، يقول لي : لم يصل اليه الطعام إلا في الليلة الماضية . — فقال الولد : قد قدمت الطعام الى الفقير مرتين مع ما كنت أشعر به من شدة الجوع . ونمت جائعا . إلا اني في الليلة الماضية لم أطق أن اتحمل ألم الجوع ، وكان قد أضر بي كثيرا . لذلك اكلت ما في الإناء

ونست وأنا شبعان .

فعلمت الام أن ولدها اليتيم كان أولى بأكل هذه الصدقة من ذلك الفقير في كوخه . فقد جاء في الحديث : « لاصدقة وذو رحم محتاج » .

وفي آية أخرى : « فلا اقتحم العقبة [١] . وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة [٢] أو إطعام في يوم ذي مسغبة [٣] ، يتيما ذا مقربة [٤] . او مسكينا ذا متربة » [٥] .

***

ولا بأس بذكر هذه الواقعة أيضا ، لتروا كيف أن الله تعالى يريد أن يقوي رابطة الانسان بما غاب عنه من عوالم ، ليزداد يقينا به تعالى وبعوالم غيبية ، فيخشع قلبه ، « ألم يأنِ [٦] للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » [٧] ثم لا يركبه الغرور ، فيقسو قلبه : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . ( سورة الحديد : ١٦ ) .

فقد جاء في الحديث : « ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من قسوة قلب » وفي حديث آخر : « شر العمى عمى القلب » وفي آخر : « أعمى العمى الضلالة بعد الهدى » وكم لهذا الحديث الاخير من مصاديق في يومنا هذا ، مع الاسف الشديد .

ثم ان الله تعالى يمدح الذين يؤمنون بالغيب ويخصهم بالهداية دون غيرهم

---

(١) الاقتحام : هو الدخول فى أمر شديد . العقبة : الطريق فى الجبل .

(٢) اي تحرير رقبة : رق ، او اسير . وبهذا وامثاله قضى الاسلام على الرق .

(٣) اي ذي مجاعة .

(٤) يتيما ذا قرابة .

(٥) ذا متربة : اي ذا فقر . يقال : ترب اي : افتقر .

(٦) ألم يحن .

(٧) سورة الحديد : ١٦ .

بقوله : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »[١] .

قد ذكر لي من أثق به : « أنه كان قد غادر مدينة طهران مستخدمان بالبريد يريدان زيارة الحسين عليه السلام . وبما أن حكومة الوقت كانت قد منعت السفر الى العتبات المقدسة ، لذلك سلكا طريقا غير معبد . فأصبحا في أرض قفراء سبخة وقد أضر بهما العطش ضررا بالغاً ، حتى هلك أحدهما في تلك الصحراء وتمكن الآخر بإذن الله بعد توسل وابتهال من أن يرجع الى أهله سالما تفضلا منه تعالى . وبعد مدة رأى صديقه في منامه وهو في بستان في وضع مريح ، فسأله عن حاله . فأجاب : إني بحمد الله في تمام الراحة ، إلا أن عقربا تأتيني كل يوم فتلسعني في إبهامي هذا ( وأشار الى رجله ) ، فأشعر اذ ذاك بألم تكاد تخرج روحي من جرائه [٢] . وقد أخبرت ان ذلك : لاني كنت قد سرقت سكينة جميلة صغيرة من بيت صديقي ( فلان ) ، في يوم كنا نأكل الخس معا في بيته ( وقد ذكر اسمه ) . واني قد أخفيت السكينة في بيتي في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى . فأرجوك أن تذهب الى بيتي وتقرأ زوجتي مني السلام وتقول لها : إن زوجك قد قال لي في عالم الرؤيا أن تعطني السكينة التي وضعتها في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى كي أرجعها الى صاحبها القصاب وأطلب منه أن يغفر لزوجك زلته ، لعل الله يمن عليه بالعفو والغفران . يقول هذا المستخدم . ففعلت كما أخبرت بالمنام ، فكان كما أخبرت .

---

(١) سورة البقرة : ٤ .

(٢) ان الله تعالى يقول : « ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، وفى آية اخرى : « انما تجزون ما كنتم تعملون » . وفى الحديث : « انما أعمالكم ترد عليكم » فاذا استغفر العبد وتاب وأناب وارجع الى الناس حقوقهم من زكاة وخمس وصلة رحم الى ما هنالك ، أمن من العذاب وذهب من هذه الدنيا ولا ذنب عليه ولا حساب يؤاخذ به . فطوبى لمن طهرت نفسه فى هذه الدنيا قبل أن يطهر بعد الموت بعذاب لايطاق .

يقول : ورأيت صديقي مرة أخرى في عالم المنام . واذا يشكرني وهو في تمام الدعة والطمأنينة .

وهكذا هناك من الاطياف ما لا يعد ، تنبىء عن مغيبات تدل بصراحة أن وراء هـــذا العالم المنظور غير منظورة لها من الخطورة والاهميـة ما لا يوصف .

* * *

ومما قيل في الإعتقاد ببقاء الروح بعد الموت ، تفنيد آراء شتى قيلت في سبب النوم وانتصار الرأي الاخير القائل : « إن هناك روحا آدمية في الإنسان قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم » . لذلك صار يعد العلماء : ( اعتبار النوم طرحا روحيا مؤقتا ) نصرا عظيما ، لانه بذلك أمكن تفسير الاحلام التي يراها الانسان في نومه والتي تتحقق بعد يقظته عاجلا أو آجلا . كما أمكن تعليل رؤية النائم لامكنة غريبة أو اشخاص غرباء لم يكن قد رآهم قبلا ثم مشاهدته في عالم الشهود واليقظة بعد سنين أو مدة يسيرة نفس الامكنة وعين الاشخاص دون أي اختلاف . وهذا تطابق بين حالة الرؤيا في النوم والمشاهدة في اليقظة .

وهكذا تؤيد مكتشفات العلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم قبل ١٤ قرنا ان النوم طرح روحي مؤقت . تعمقوا في معنى هذه الآية لتروا صحة ما أقول . انه تعالى يقول :

« الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [1] . ومعنى ذلك أن الله تعالى يقبض أرواح عباده اذا حان حينهم وجاء أجلهم وهكذا يقبض أرواح عباده الذين لم يموتوا في منامهم : يقبضها بقطع علاقة تلك الارواح بالابدان . فالعبد الذي جاء أجله وهو

(١) سورة الزمر : ٤٢ .

نائم أي ( من قضى عليها الموت ) لاترد روحه الى بدنه • بل يمسكها الله تعالى ويرسل روح العبد الذي لم يأت أجله الى بدنه ، وذلك الى أجل مسمى ( معين ) • لايعلمه إلا الله • حقا ، إن في ذلك لآيات على قدرته تعالى لكل من تفكر في هذا الوجود الانساني المؤلف من روح وبدن •

يقول الدكتور ( جورج لندسي جونسون ) ، انه أجرى عملية جراحية في عيني فتاة وهي في التاسعة عشر من عمرها • ولم تكن قد رأت شيئا قبل ذلك ، لأنها كانت لاتبصر شيئا • ولكنها صارت تتبين كل فرد في الغرفة وتميز بين الالوان المختلفة بعد العملية الجراحية وتماثلها للشفاء • وهذا ما يؤكد أن روح الفتاة كانت تنطلق في منامها فترى أشياء ما كانت تستطيع أن تراها بعينيها قبل العملية •

وأما الرياضي المعروف : ( پوانكاره ) ، فقد رأى في منامه معادلات رياضية أدت الى استكشافه قوانين رياضية هامة • وكان مؤمنا بالإلهام والحدس ووجود الروح •

وكم من أناس ضاعوا في الصحراء ولم يجدوا ملجأ الا الى الله تعالى ، فابتهلوا الى الله مخبتين ، فنجاهم الله بأن أراهم الطريق في منامهم أو ارسل الله لهم مَن ينقذهم من الهلاك • « وربك الغفور ذو الرحمة » • « وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ، ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لايشكرون » • فهو جل جلاله يرحم حتى غير الشاكرين من عباده لعلهم يهتدون ، وما أقلهم !

انه تعالى يراقب أعمالنا ويسمع نداءنا وتضرعنا في البحار والقفار ، فينقذنا من الهلكة اذا أنقطعنا اليه خاشعين • فلكل واحد منا شواهد من حياته على ما أنعم عليه حين التضرع من عظيم النعم وهو القائل : « وقليل من عبادى الشكور » •

انه تعالى يقول : «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (١) .

## حرمة احضار الارواح

ان الدين الاسلامي قد حرّم ( احضار الارواح ) و ( احضار الجن وعدّهما من الكبائر ، لما في ذلك من تدليس وتمويه وكذب وافتراء . وان بعض المسلمين صاروا يعتقدون بمايقام به في الغرب من احضار بعض الارواح! في الظلام باستعمال الخباء وأنواع الخداع والوسيط الكذاب وباستعمال كوب صغير او فنجان يتنقل بين حروف قد رسمت فوق منضدة ، فتكون أجابات الارواح المستحضرة من مجموع الحروف بحسب ترتيب تنقله بينها ! أو بمؤشر كمؤشر الساعة يدور حول محور وسط نضد دائري رسمت الحروف الابجدية على محيطه ، وباستعمال طريقة السلة ... الخ .

ومن النتائج الكاذبة في احدى الجلسات : « أن جبريل معنا » ومحاولة البعض من التقاط صورة لجبريل عليه السلام ، وأكاذيب على الرسل عليهم السلام وغيرهم الى ما هنالك ! ..

وقد علم أخيرا ان أيدٍ هدامة ( صهيونية ) تريد أن تجعل هذه الروحية الكاذبة ( Spiritualism ) ديناً جديدا يهدم أسس المجتمع وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية ، لتسود الصهونية بالاخير في العالم . وهذا لايختلف عما في ( بروتوكولات حكماء يهود ) وما قصده ( فرويد ) و ( كارل ماركس ) وغيرهما من اليهود .

ولا نريد أن نبرهن على فساد مايذهبون اليه من احضار الارواح وكيف

---

(١) سورة يونس : ٦٢ .

أن عوامل مختلفة تؤثر في الموضوع ، فيخيل الى حاضر الجلسة أن روحا حضرت وانها تتكلم الى آخر ما هنالك من خداع في الظلام وتحت الخباء ووسائل ووسائط للتمويه . ولا أشك ان لشياطين الجن دورا هاما في تلفيق الاكاذيب أو الإخبار بماغاب عن الانظار كما سنبين ذلك في البحث عن الجن.

ويكفي أن نقول انه قد جاء في دعاواهم العريضة أن أحد المشتغلين بالامراض العصبية في جامعة من جامعات أمريكا قد استطاع : ان يجسد روح أمه وان يقص خصلة من شعرها ، ثم يفحص بعدئذ الشعر فحصا هستولوجيا ميكرسكوبيا !

ومن جملة ذلك : ما هو مكذوب على لسان القس ( سنتون موزى ) ما تلقى عن عالم الارواح :

« نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا ، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم . فإلهنا هو إلههم ، الا أن إلهنا أظهر من الههم واقل صفات بشرية واكثر صفات الهية . لاتخضع لأية عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لاتستند الى العقل ، ولا تأخذ بلا تحفظ وحيا جاء لأحوال خاصة في عصر من العصور ! وليس هو بامتياز لأمة دون أمة ولا لشخص دون شخص ، والله يكشف نفسه للانسان شيئا فشيئا ! » .

ومن جملة كلمات المشتغلين بشعوذة احضار الارواح ( Spiritisme ) قولهم : « ان الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله » .

ومن أقوالهم : « ان لب الدين هو بذل الخير لخلق الله ، ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك . وان طقوس الاديان على اختلاف صورها ليست إلا أساليب لبلوغ هذه الغاية . وان الناس على اختلاف أديانهم بعد سواء :

مسلمهم ومسيحيهم ويهوديهم وبوذيهم ، كلهم يعيشون أخوانا فيما وراء الموت ، وان باب التوبة مفتوح أمام الكافر والفاسق والمخطىء بعد الموت . وان فرصة الترقي متاحة له دائما . وان الجنة والنار حالة عقلية أو حالة نفسية أو هما واقع يجسمه الفكر ويصنعه الخيال الذي يعكس باطن صاحبها وحالته النفسية » .

وهذا ما يسمع كل يوم في أوكارهم ومنظماتهم ومجلاتهم : يوهمون للناس ان الناطق بكل ذلك روح كبير [1] !

ومثل ذلك قولهم في وصف الانسان : « انه عامل ومساعد وشريك لرب انعلا وأقوى من الحكام الذين يحكمون بالعصا . أنت في الرب ومع الرب ولأجل الرب الامثل » !! ..

وهناك من المسلمين من استساغ هذه الاوهام والشرك الصريح وأراد تطبيقها على النصوص القرآنية مع الاسف الشديد ! .

وبالختام نرى أن مجلة روحية تمجد الشيوعية ، وهذا مما يدل أن هنالك ارتباطا وثيقا بين الروحية ( الكاذبة ) والشيوعية الهدامة ! وليدة الصهيونية . ولا مجال لأسرد كل ما جاء من كفر وإلحاد على لسان الروحيين ووسطائهم . ويكفي أن نقول : ان الصهيونية تبنت هذه الحركة وصارت تغذيها لأغراضها الهدامة .

ومن المعروف أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الاخير بل منذ الثورة الفرنسية . وهي التي تخترع هذه الاباطيل وتنسبها للأرواح هدما للأديان .

فحري بالمسلمين أن لاينخدعوا بأباطيل هؤلاء وأن يطبقوا أمر الشارع الاعظم في حرمة احضار الارواح .

---

(١) الروحية الحديثة ، حقيقتها وأهدافها : للدكتور محمد محمد حسين ، استاذ الادب العربي الحديث ، بجامعة الاسكندرية الطبعة الاولى : ١٣٨٠ هـ .

ومن جملة ما هو غير منظور هو « الجن » . فقد أنكر بعض المثقفين بثقافة العصر من رجال الغرب وجود الجن ، لعدم إمكان رؤيته بالباصرة أو لمسه باليد وذلك لتغلب مفهوم المادية على النفوس . وقد تأثر الشرق بمادية الغرب عن طريق الصحافة وغيرها ، حتى أن أحد علماء المسلمين صار يفسر الجن في القرآن الكريم ، بالميكروبات التي لا تُرى بالعين . ورأيت أن البعض منهم يرى الجن وجودا خياليا تخيّله البشر ، وليس شيئا إلا الخيال ولا وجود له في الخارج .

بيد أن اوساط أوروبا قد تأثرت في ابتداء القرن الحالي باحضار الارواح على ما فيه من التمويه والتنويم المغناطيسي ، فصارت تعترف بالجن وأنه كائن حي ، لايشبه الانسان في كيانه وقد دُوِّنت في الغرب كتب عدة في هـذا الموضوع .

وان القرآن ليصرّح بوجود الجن وأن منهم المؤمن ومنهم الكافر الجاحد . إنه تعالى يقول : « قل أوحي الى أنه استمع نفر [1] من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا [2] ، يهدي الى الرشد فآمنا به ولَن نشرك بربنا أحدا » . فالجن يستمعون القرآن ويؤمنون به كما نؤمن وليس الجن بجراثيم صغيرة تخفى على العين ، كما قال بعضهم .

ثم يقول الله تعالى عن لسان الجن : « وأنه تعالى جدُّ ربنا [3] ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » أي ان الجن يعترفون بوحدانية الله تعالى وأنه ما أتخذ لنفسه زوجة ولا ولدا .

ثم يقول الله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون [4] برجال

---

(١) نفر : جماعة من الجن . و ( نفر ) من الواحد الى العشرة .

(٢) عجبا : بديعا .

(٣) تعالى جد ربنا : اي تعالت عظمته .

(٤) يعوذون : يستجيرون .

من الجن فزادوهم رهقا » ... [1] الخ . ومعنى ذلك : أن رجالا من الانس كانوا يلجأون الى رجال من الجن طلبا لاستخدامهم في حاجاتهم فزادوهم ضلالاً وغيا . فيعبّر الله تعالى عن الجن برجال ، كما عبر عن الانس أيضا . فعلم أن الجن عالم قائم بنفسه كالإنس . إلا ان النظرية المادية : « كل ما لا يرى بالعين فهو غير موجود » قد أثرت في بعض النفوس التي ضعف ايمانها لتساهلها في تطبيق تعاليم الاسلام تطبيقا شاملاً ، فصارت تنكر الجن تأسيا بالماديين أو فرارا من وصمة الرجعية والخرافة او تشهيا للقب : ( العصري ) ، أو ( المثقف ) ! .. لئلا يعد متأخرا عن ركب المدنية الحاضرة بما فيها من علل وويلات ! .. أو صار يظن ان الجن ميكروبات او بهائم او حشرات دونما تحقيق ودون ارجاع الموضوع الى صريح الآيات القرآنية والاحاديث المستفيضة والمشهورة .

ثم قال تعالى عن لسان الجن : « وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا » [2] . فيقول الله : إن من الجن رجالاً صالحين أبرارا وان منهم مقتصدين أي اقل من أولئك رتبة وهم طرائق متفرقون . كما يقول جل من قائل في آية أخرى عن الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون[3]، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا [4] ، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطبا » . فمن الجن من هو كالإنس مسلم ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مبين ، ومأواه جهنم وبئس المصير . فلا فرق بين الجن والإنس من هذه الناحية فيحرق الظالم والكافر من الجن بالنار ، ان لم يتوبا ، كما أن الإنس كذلك يحرق الظالم والكافر منهم بالنار دون توبة وتطهير النفس من أوساخ الذنوب والمظالم والرذائل .

---

(١) ضلالا .
(٢) قددا : أي متفرقة ، مختلفة .
(٣) القاسطون : الظالمون .
(٤) تحروا رشدا : أي توخوا رشدا .

انه تعالى يقول : « وتمت كلمة ربك : لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون [١] » ، ومعنى ذلك : أن المشركين جعلوا بين الله وبين الجنة نسبا ( ويراد بالجنة هنا الملائكة ) . ولقد علمت الملائكة ان المشركين أو الكفرة لمحضرون أي مقودون الى العذاب المهين ، وفي تفسير آخر : أن المراد بالجنة هو الجن ، ذلك لان المشركين قالوا : إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة ، فالله تعالى يقول : إن الجن علموا أنهم لمحضرون للعذاب الا عباد الله المخلصين [٢] منهم ( أي من الجن ) .

ويقول تعالى في سورة السجدة : ١٣ : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

* * *

ثم ان الله تعالى يخبرنا في مكان آخر من كتابه الحكيم بقوله : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » [٣] .

وهؤلاء ، على ما جاء في التفسير ، هم جن ( نصيبين ) باليمن او جن ( نينوى ) وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ببطن نخلة ، يصلي بأصحابه

---

(١) سورة الصافات : ١٥٨ .

(٢) وذلك لقوله تعالى في الآية ١٦٠ : « الا عباد الله المخلصين » .

(٣) سورة الاحقاف : ٢٩ — ٣٢ .

الفجر ، فصاروا ينصتون الى القرآن حتى اذا فرغ من قراءته ، رجعوا الى قومهم ينذرونهم ويخوفونهم العذاب ان لم يؤمنوا وقد كان هؤلاء الجن يهودا فأسلموا .

فظهر مما سبق أن الجن على نوعين : مسلم مؤمن بنبوة محمد ( ص ) وكافر بها ، وان الإنس قد يعوذون بالجن لاغراض سيئة فيؤدي بهم الى خسران وسوء العاقبة .

ثم ان الله تعالى يقول في سورة ( الرحمان ) : « يامعشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا [1] من أقطار السماوات والارض ، فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » .

ويبيّن لنا سبحانه وتعالى مم خلق الجن بقوله : « وخلق الجان من مارج من نار » وهو لهبها الخالص من الدخان .

ثم ان الله تعالى يتحدى الجن كما يتحدى الانس بقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا [2] » .

وان الجن مدعوون الى عبادة الله تعالى كالإنس على حد قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدونِ . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » [3] .

***

ان الله تعالى يقول : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم » ولا نعلم شيئا عن حقيقة هذه النار . فانها طاقات . وقد علم أن الذرة في الاصل طاقات كهربائية تكدست بإذن الله بترتيب بديع تحت نظام رائع حتى كانت

---

(١) أن تنفذوا : أن تخرجوا .

(٢) سورة بني اسرائيل : ٩٠ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٨ .

هذه الذرة . ثم تشكلت بأشكال شتى ، حسب اختلاف عدد الالكترونات ( شحنة كهربائية سالبة ) والپروتونات ( شحنة كهربائية موجبه ) حتى كانت هذه العناصر المختلفة : الإيدروجين ، الكالسيوم ، الحديد ، الرصاص الخ..

فالعالم كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وطاقات أخرى تجهلها كجهلنا كثيرا من الاشياء ، أشياء لاتتناهى . وهكذا الجن مخلوق من نار السموم أو من ( مارج من نار ) والمارج : لهب النار الخالص من الدخان . فهذه طاقات خلق الله منها الجن لانعلم حقيقتها كما لانعم في الوقت الحاضر حقيقة أية طاقة من الطاقات . بل العلم الحديث انما يعمل في كشف الآثار والاستفادة منها في الحياة الاجتماعية .

فالجان ليس من هذه الاجسام المتعارفة التي نبصرها بأعيننا وانما هو من طاقة أخرى لاتتمكن من مشاهدتها لعدم وجود قابلية فينا لرؤيتها . يقول تعالى : « انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » فالانسان لم يعط ملكة يقوى بها على رؤية الجن ولكن الانبيان والاولياء ( ع ) قد يتمكنون من رؤية الجن بفضله تعالى ، لما أعطاهم من ملكة خاصة نجهلها .

وهكذا ليس في استطاعة الانسان أن يرى الملك بقابلياته الحاضرة وملكاته الطبيعية التي وهبها الله اياه ، لذلك يقول تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » [١] .

توضيح ذلك : يقول الله تعالى في الآية المتقدمة : إنا لو جعلنا الرسول ملكا لاضطررنا لقلبه رجلا ليتمكنوا من رؤيته .

وكان الجن يعملون بين يدي سليمان (ع) :فقد قال تعالى : «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ [٢] منهم عن أمرنا نذقه من عذاب

(١) سورة الانعام : ٨ — ٩ . (٢) يزغ : يعدل .

السعير » [١] . « يعملون له ما يشاء من محاريب [٢] وتماثيل [٣] وجفان [٤] كالجواب [٥] وقدور راسيات [٦] ، إعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته [٧] ، فلما خر [٨] تبينت [٩] الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين [١٠] » [١١] .

وقد سمعت أحدهم يقول : « إن الجن هي الحيوانات او الحشرات » وكان يقول : « إن نفيي للجن لايحتاج الى دليل ولكن على المثبت أن يأتي بالدليل » . فقلت له :على من يؤمن بالقرآن أن يعترف بالجن كمخلوق مكلف بتكاليف عبادية كالإنس ، حسب الآيات المتقدمة . ثم كيف توفق بين ما تعتقده وقوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات » . وقوله تعالى : « قال عفريت من الجن ، أنا

---

(١) سورة سبأ : ١٢ .

(٢) محارب : ابنية مرتفعة يصعد اليها بدرج .

(٣) جمع تمثال أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراما فى شريعته .

(٤) جفان : جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة .

(٥) الجوابي : جمع جابية وهي حوض كبير ، فكان يجتمع على الجفنة الواحدة الف رجل يأكلون منها .

(٦) قدور راسيات : القدور : جمع قدر ، وقدور راسيات أي قدور ثابتات لها قوائم لاتتحرك عن أماكنها .

(٧) منسأته : اي عصاه ، المنسأة : هي العصا .

(٨) خر : سقط ميتا .

(٩) تبينت الجن : انكشف لهم .

(١٠) فى العذاب المهين : العمل الشاق المهين لهم .

(١١) سورة سبأ : ١٣ — ١٤ .

آتيك به قبل ان تقوم من مقامك » . فهل للبهيمة او الحشرة أو الميكروب أن تقوم بهذا العمل الجبار ؟ ! .

***

قلنا إن الجن قد يشاهدون من قبل الانبياء (ع) والاوصياء (ع) . وهم يتطورون ويتشكلون في صور الإنس وغير الانس على ما أعطاهم الله من ملكات وامكانيات . كل ذلك في دائرة محدودة وبأمر من الله . وقد يتجسم الجن على شكل او صورة بني آدم . وفي امكان الجن أن يدخلوا الغرف والابواب مغلقة . وذلك من شقوق الابواب والمنافذ ، كأمواج الراديو .

وقد سمعت محاضرة لاحد علماء مصر ، كان ينكر وجود الجن ، ثم سافر الى المغرب واتصل ببعض من كان يحضر الجن وشاهد ما يصدر على أيدي الجن من أعمال شتى تحير العقول . وقد رفع قبلا كل ما من شأنه الخداع والتلبيس . فآمن بالجن بعد أن كان منكرا أشد الانكار .

وقد جاء في تفسير الآية الآتية : أن الشيطان أتى قريشا في صورة ( سراقة ابن مالك بن جشعم الكناني ) لما أرادوا الخروج الى بدر . قال الله تعالى : « واذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لاغالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم ، اني أرى مالا ترون ، اني أخاف الله والله شديد العقاب » . كما أنه روى ان الشيطان تشكل في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وآله : هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه كما قال الله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » [1] .

***

وقد رُوي أن امير المؤمنين عليا عليه السلام كان ذات يوم يخطب على

---

(١) سورة الانفال : ٣٠ .

منبر الكوفة ، اذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يرقى حتى دنا من أمير المؤمنين (ع) فأرتاع الناس لذلك وهموا بدفعه ، فأومأ اليهم بالكف عنه ، فلما صار على المرقاة التي عليها أمير المؤمنين ، انحنى امير المؤمنين الى الثعبان وتطاول الثعبان اليه حتى التقم أذنه ، وسكت الناس وتحيروا ، فنق نقيقا سمعه كثير منهم ، ثم زال عن مكانه وأمير المؤمنين يحرك شفتيه والثعبان كالمصغي اليه ، وانساب وكأن الارض ابتلعته ، وعاد أمير المؤمنين الى خطبته فأتمها ، فسألوه عنه . فقال : انه حاكم من حكام الجن التبست عليه قضية ، فصار اليّ يستفهمني عنها ، فأفهمته اياها ودعا لي بخير وانصرف .

وينبغي أن لا يتبعد وقوع ما ذكر لعليّ عليه السلام ، فقد جاء في القرآن الكريم : أن سليمان بن داود على نبينا وآله وعليهما السلام لما أرسل الى بلقيس قال لأصحابه : « يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أي من مجلسك الذي تجلس فيه كل يوم للقضاء ، وكان يجلس فيه الى الظهر . فالله تعالى قد أعطى العفريت من الجن قوة يستطيع بها أن يحضر عرش بلقيس من بلاد نائية . فالعفريت ليس بأعز على الله من علي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قام الاسلام بسيفه وتضحياته التي لا تعد ولا تحصى !

وقد جاء في الاخبار أن عليا عليه السلام حارب أعداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الجن وانتصر عليهم ، والقضية مشهورة في كتب الفريقين . لم ينكرها أحد .

ثم ان الجن يحشرون ويحاسبون يوم القيامة لقوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الانس : ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، قال

النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ، ان ربك حكيم عليم » . وفي آية أخرى :

« يا معشر الجن والإنس : ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

وفي أخرى : « قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا ادّاركوا فيها جميعا ، قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار . قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون » .

وفي أخرى : « قال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الاسفلين » .

# السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

ذكر لي أحدهم : أن هنالك طريقين في السلوك : سلوك رحماني وسلوك شيطاني • فالسلوك الرحماني هو سلوك حسب ما أمر الله تعالى به وما أملاه علينا الرسول ( ص ) والأئمة من بعده عليهم السلام • من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وانفاق وأعمال صالحات والقيام بحوائج الناس وأعمال عبادية مستحبة بصورة مستمرة وبكثرة دونما فتور من صلاة جوف الليل وأوراد وتضرع وتسبيح بين الطلوعين وقبل الغروب وتطهير المأكل والمشرب وذكر الله تعالى على كل حال وصمت إلا في ما يرضي الله • فعند ذلك تتجلى له كثير من الحقائق وتخدمه قسم من مؤمني الجن إن شاء الله تعالى •

وهذه الطريقة وأعني بها السلوك الرحماني من الصعوبة بمكان ، لايقوى عليها إلا الاوحدي •

وهناك سلوك شيطاني يتلخص في اطاعة الشيطان الغاوي أو بالاحرى اطاعة ابليس عليه اللعنة في كل ما يريد من ترك الصلاة والصوم والحج ، بل وعبادة الشيطان نفسه ومخالفة أمر الله تعالى حيث يقول : « ألم اعهد اليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين • وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم • ولقد أضل منكم جِبِلا [1] كثيرا أفلم تكونوا تعقلون »[2] والإهانة بالمقدسات بل وتلويثها •

وقد علم من أحد السالكين السلوك الشيطاني انه كتب الى صديق له ( درويش ) يقطن في شعب من شعاب جبال ( همدان ) بصورة سرية : « أنه

---

(١) جبلا : خلقا .

(٢) سورة يس : ٦٠ — ٦٣ .

قد بلغ به الامر حيث يلعن عليا عليه السلام ليلة الجمعة على تل في النجف الاشرف ( ١٠٠ ) مرة . فكانت نتيجة ذلك أن خدمته أبالسة الجن فائتمرت بأمره واطاعته في ما يريد . وقد قال تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » . ( سورة الزخرف : ٣٣ ) .

وقد سمعت ممن يوثق بكلامه : أن شابا كان قد صاحب درويشا سلك مسلكا شيطانيا وتعلق به تعلقا وثيقا ، لما كان يرى من خوارق ظاهرية تجري على يديه .

يقول هذا الشاب : خرجت مع هذا الدرويش ذات يوم قبيل الظهر من مدينة ( تبريز ) ، حتى اذا ابتعدنا عن البلدة مسافة يعتد بها ، قال لي الدرويش : ما أجمل المكان وما أطيبه ! لو كانت لنا هنا غرشة ( نارجيلة ) فقلت له : سيدي قد ابتعدنا كثيرا عن البلدة ، ولا يوجد بالقرب منا مقهى . . . فقال الدرويش مغضبا : أوَ ضعف ايمانك بي ؟ ! ونادى بصوت رفيع . غرشة ! واذا بغرشة جاهزة توضع بين يديه ، فصار يشرب . حتى إذا فرغ ، استأنفنا الطريق . فبعدنا عن البلدة مسافة لايستهان بها ، فبلغنا مكانا في غاية الجمال ... وقف الدرويش عن السير . وقال : ما أجمل هذه المناظر ! لو تناولنا غداءنا في هذا المكان .

فقلت له : ومن أين نجد طعاما في هذا المكان النائي ؟

فقال : وهل ضعف يقينك بي ؟ فنادى بصوت عالٍ : غداء ! واذا بمائدة جاهزة توضع بين يديه ، وفيها من الطعام ما لذ وطاب .

فصرت أنظر اليها وأنا متعجب ، حائر ، وألعن الشيطان ! .. واذا بالرجل ، يلطمني على وجهي بكل ما اوتي من قوة ...

فقلت : ولماذا ؟ ما الذي صنعت حتى أغاضك ؟ إنما ألعن الشيطان ،

لعنه الله ! فلطمني ثانيا ، قائلا : أتلعن من هو ولي نعمتي ، المتفضل عليّ بعظيم النعم ، إنه هو معبودي ومقصودي ولولاه لما كانت هذه المكرمات ، ومن جملتها هذه المائدة . فتقديسي لإبليس وعبادتي إياه واطاعتي له جعلتني موضع عنايته ، فيهيىء لي ما أريد وما اشتهي ، يقول الشاب : علمت اذ ذاك أن الدرويش كافر مشرك ، فتركته وسافرت الى العتبات المقدسة تائبا مما كان مني أثناء غفلتي ...

فشياطين الجن يقومون بتحقيق رغبات من يوافقهم في كفرهم وجحودهم ويخدمونهم حتى يوردوهم جهنم وبئس المصير . ان الله تعالى يقول :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (١) .

فمن الناس من يعبد الجن ويحقر المقدسات ويقوم بإهانتها ليتميز عن الآخرين بما سيهيىء له ابليس ما يدهش الالباب من أعمال يعجز عنها الانسان حسب ملكاته الخاصة به . انه تعالى يقول عندما يصف أحوال يوم القيامة : « ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » .

* * *

وقد نقل أحد كبار العلماء انه قد كان في أصفهان رجل تصدر منه الخوارق ويخبر عن اشياء خفية لايعلمها إلا أصحابها .

فاذا كان موسم الحج . سافر من أصفهان في ٧ ذي الحجة ، فيرى في مكة وهو يصافح الحجاج ويرجع قبلهم مع عدم وجود طائرة في ذلك الوقت. ان الرجل كان معززا مكرما حتى وافته منيته .

---

(١) سورة فاطر : ٦ .

وبعد مضي مدة على وفاته رأى ولده ذات يوم في موسم الحج أي في ٧ ذي الحجة وهو جالس في بيته : اذ دخل عليه رجل قائلا له : إني كنت آتي أباك كل سنة في مثل هذا اليوم ، لآخذه الى مكة ، وكان قد أحضر دابة ، فقال لي : اركب . فركبت ، وبعد مدة وجيزة جدا صرنا في البر ، فنزل ونزلت ، فقال : أنا الشيطان ! .. أسجد لي كما سجد لي أبوك من قبل ..

يقول الولد : فقلت له : لست بساجد لأحد غير الله تعالى ، انما أسجد لله وحده لاشريك له . فطفق يلح ويلحف ، حتى أعيى ، فلم ألب طلبه ، فتركني في الصحراء وانصرف . ثم اني صرت أدعو الله جل شأنه لينجيني مما ألمّ بي ويوصلني الى بلدتي . فمنّ الله عليّ بالنجاة وذلك بإلهامي الطريق المؤدي الى بلدتي .

فكان الولد بعد هذه الحادثة يلعن أباه ، لانه كان من عبّاد الشيطان.

***

وإنما نهى الشارع عن احضار الجن والارواح وعدّ ذلك كبيرة لما يؤدي ذلك الى اطاعة الشيطان وعبادته وسوء العاقبة ، أعاذنا الله منها .

وان مثل هذه الواقعة التي ذكرناها وقائع كثيرة ، فمن طاوع الشيطان في كفره والحاده وتوهينه المقدسات وسبه أولياء الله والولوج في شتى المعاصي وأطاعه ، كان الشيطان عونا له في الإخبار عما خفي عن الناس وتهيئة ما يريد من أشياء ووسائل .

وقد سمعت ممن اتصل بإمرأة كانت تحضر الجن ، أنه أراد ان يقوم باحضار الجن بطريق غير شيطاني . فعلمته الامرأة ( واسمها صغرى ) أن ينزل الى السرداب ويرسم دائرة ويجلس في وسطها ويقرأ الاوراد المعينة . يقول الرجل : « امتثلت ما قالت الامرأة وصرت أقرأ الاوراد ، فظهر امامي انواع الحيوانات المخيفة ، بأشكال شتى ، ثم ظهر أمامي بحر خضم فيه

تمساح كبير أراد ان يلتقمني • ففزعت وصحت : صغرى ، صغرى ، أدركيني فقالت اخرج الى سطح الدار ، يا ضعيف النفس !

فخرجت الى سطح الدار ولم أنجح في تطبيق ما أمرتني به » ••

قد يستغرب مما أقول من تطبع على التجارب الفيزيائية او الكيميائية ، ولكن لاينبغي لعالم مفكر دقيق أن ينكر ما لم يدرسه ولم يجربه ولم يتتبع فيه • بل المفكر الحقيقي هو ذلك الذي يجعل كل ما طرق سمعه في دائرة الاحتمال ، فيسأل ويتتبع ويعقب ويجرب ويطبق ليصل الى واقع الامر والحقيقة ، من وجود أو عدم وجود ما ينكره ، حتى يكون حكمه مبنيا على الاستقصاء والتتبع والمداقة •

وما أكثر أحكام المتطفلين على العلم الحديث وأوهنها واضعفها وابعدها عن الحقيقة • انها هوى النفس ، وكبرها وطيشها ومروقها • انها مظهر من مظاهر النفس البهيمية ورشحات من نزواتها ومجونها تلبست بلباس العلم ، والعلم منها براء •

* * *

إن ما يشاهد ويحدث من حوادث غريبة في الهند وغير الهند يجعل غير المعتقد بما وراء الطبيعة في حيرة من أمره ، لا يعلم كيف يجيب وكيف يحلل الموضوع •

أنقل لكم ما حدث أخيرا عن امرأة هندية ، تجيب على اصعب العمليات الحسابية بسرعة عجيبة : فقد سئلت عن جذر عدد كبير أصم ، ووضع السؤال أيضا في آلة معدة لحساب جذور الاعداد • فأجابت الامرأة ارتجالا أسرع من الآلة • فلم يطابق جوابها ما استخرج من الآلة من جواب • فأعادوا عليها السؤال فأجابت نفس الجواب ، فعلم أن الخطأ انما كان في ما استنتج من الآلة ، وهي محقة في جوبها •

فهناك في الهند مرتاضون يأتون بالاعاجيب وأظنهم لا يعلمون كيف تحدث على أيديهم هذه الاعاجيب والخوارق .

فقد ذكر لي أحد أرحامي وكان يتاجر في الهند ، أن رجلا هنديا كان يأتي بالغرائب ، فيلتقط من الفضاء موزا وكل ما يراد منه ، وذات يوم كان راكبا في قطار ، فطولب ببطاقة ، فقال : ليس لي بطاقة فأريد منه النزول ، فقال انزل ولكن القطار سوف لايتحرك . وكان كما قال : فلم يتحرك القطار حتى ركب ! .

وذكر لي أحدهم ، انه كان يريد حمل مقدار من الافيون دون مراجعة دائرة « الكمارك » الى خارج ايران .

وسمع أن في احدى قرى طهران رجلا يخبر عما سيقع . فذهب اليه لعله يعلم بما سيحدث من أمر الافيون حين نقله خارج الحدود . فما أن دخل عليه ، حتى رأى الرجل المرتاض ! يخاطبه قائلا : لاتحمل الافيون من الطريق الفلاني ، واحمله من طريق آخر ( وذكر الطريق ) ، فأنت تفوز بمرادك .

يقول الرجل ، أخذني العجب الشديد من هذا التنبأ ، فقلت في نفسي ، أبقى هذه الليلة في هذه القرية بالقرب من الرجل . لأراقب حاله وما عليه من رياضات .

يقول : « ذهبت اليه ما بين الطلوعين وصرت بالقرب منه ، وهو تحت شجرة ، فأومأ اليّ فدنوت منه ، فلم أجده ممن يصلي أو يقوم بذكر وأوراد بل الفيته وسخا ذا اظافر طويلة ، لاترتاح لرؤيته النفس .

فقلت له : كيف تخبر عما سيكون . فقال : أنا أيضا لا أعلم ، كيف يحدث ذلك . وانما تجري على لساني الفاظ ، فأرى الناس يرونها مطابقة لما يدور في خلدهم ويتحقق كل ما يثقال على لساني . ولست إلا آلة صماء ،

لا أعلم لماذا يتحرك لساني وماذا سيجري عليه .

يقول . ثم رأيته : أخرج قنينة صغيرة ، فقال هذا سم ، أتناول قليلا منه . ثم أخرج ثعبانا صار يلدغه ، حتى أغمي عليه ، ثم صحا ، وأخذ يشرب في اناء وسخ مقدارا كثيفا من الشاي مع السكر : ( النبات : على ما هو المصطلح ) . قال ، هذه رياضتي ، وهذا قوتي ، وبعملي هذا بلغت ما بلغت ولا أعلم كيفية ذلك .

فهل للعلم الحديث أن يحلل هذه القضية على ضوء ما توصل اليه العلم المادي . انهما من عالمين مختلفين ، عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة ، فلا يمكن أن تحلل قضايا غير مادية ، قضايا مما وراء الطبيعة على ضوء مكتشفات مادية طبيعية ، لانهما من واديين مختلفين .

إن الرجل الذي تقدم ذكره ، قد سلك طريقا شيطانيا غير مرضي عند الله تعالى ، وآذى نفسه ، فجوزي بأمر من الله في دنياه بهذه الميزة التي لا يعلم كيف تتجلى له على حد قوله تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون [1] » .

ولكن ، هناك سلوك رحماني وهو سلوك الانبياء (ع) والصالحين من عباد الله ، سلوك يطابق المنطق ويوافق العقل . فكم من آيات في القرآن تدل على إخبار بالغيب بإلهام من الله وعظيم لفظه . ومما قاله يوسف ( ع ) وهو في السجن : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي . اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون [2] » .

---

(١) سورة هود : ١٥ ، ١٦ .  (٢) سورة يوسف : ٣٧ ، ٣٨ .

وقال عيسى (ع) : « وانبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين [1] » .

وقد جاء في الاخبار أن رجلا مرتاضا هنديا أتى الصادق عليه السلام وأظهر انه يعلم كل ما يخفي الصادق سلام الله عليه في يده ، وكان كما ادعى . ثم سأله الصادق عليه السلام بعد أن أخفى في يده اشياء عدة : سأله ماذا في يدي ؟ . فقال : قد تناولت من أقصى الهند بيضة كانت قد باضتها حمامة في أعلى الشجرة الفلانية . وتعجب مما قام به الصادق عليه السلام .

فسأله الامام عليه السلام : بمَ وصلت الى ما وصلتَ اليه . فقال : بمخالفة النفس !.. ثم عرض عليه الصادق عليه السلام الاسلامَ . فأبى . فقال له الصادق عليه السلام : أنت أخذت على نفسك أن تخالفت هواك . فخالِف هواك كما عاهدت نفسك . فقبل الرجل وأسلم .

ثم إن الصادق سلام الله عليه أخفى في يده شيئا وأراد من الرجل أن يتنبأ فلم يستطع وقال : ضاع عني ما كنت عليه ولا ألهم بشيء .

فقال له الصادق عليه السلام ، ما مؤداه : انك كنت ضالا ومتبعا خطواتِ الشيطان ، فجازاك الله لمخالفتك هوى نفسك بهذا الالهام وميّزك عن غيرك بهذه الميزة في دنياك ، وكنت في الآخرة من أصحاب النار . ولكن الآن ، بعد أن تشرفت بالاسلام عاملا بنصوصه ، ذهب عنك ما توصلت اليه بطريق شيطاني مضل . وقد هيأ الله تعالى لك آخرةً سعيدة وحياة أبدية هنيئة .

وكم قرأنا في المجلات أن اناسا اعطوا من الإلهام بحيث يجيبون على عملية ضرب في الحساب : عشرة أرقام في عشرة ارقام بسرعة عجيبة ، دون أن يشعروا كيف يجري ذلك على لسانهم .

إن عوالم ما وراء الطبيعة عوالم عميقة تستدعي التحقيق والتفكير وهي

---

(١) سورة آل عمران : ٤٩ .

ليست من عوالم المادة ، ( سانتيمتر ، غرام ، ثانية ) في شيء ، فلا معنى لتحليل ما هو غير مادي بمقاييس مادية مقتضبة . وان الله تعالى ، وله الحجة البالغة ، يهيىء لهذا الانسان بين الفينة والفينة حوادث لتذكيره : أن وراء هذا العالم المادي عالما آخر لايشبه العالم المادي في شيء ، وليس هناك مقياس مشترك بينهما كما في الحوادث المادية ( الفيزيائية أو الكيميائية ) كي يزداد هذا الانسان ايمانا بربه وخالقه ، وقدرته التي لاتحد ، وعظمته التي لاتتناهى . مع العلم أن ليس للإنسان المحدود في جميع قابلياته آن يحيط بالله الذي لايحده شيء . وأنى للمحدود أن يدرك غير المحدود ادراكا تاما وأن يحيط به ، انما يؤمن ويوقن بوجوده وهيمنته بقدر ما في نفسه من طهارة وصفاء .

* * *

إن العلم الحديث ليعترف بالاشعة الكونية وهي لاترى ولها آثارها العجيبة ويعترف بالبث الألكتروني وبأمواج الراديو واللاسلكي والتلفزيون وكل أولئك قوى وطاقات لاترى بالعين وموجودة في الفضاء ولها آثارها . فلا يصعب على العلم الحديث وحاملي لوائه الاعتراف بموجود هو من نوع طاقات خاصة ، قد مَنَّ الله عليه بعقل وارادة وكلفه بتكاليف وهو مسؤول أمام الله تعالى ( وأعني بذلك الجن ) ، وهو القائل : « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدونِ » . ( سورة الذاريات : ٥٦ ) .

* * *

قلنا آنفا إن المادية قد تغلغلت في أوساط أوروبا وسرت الى أصقاع اخرى ، كل ذلك لتوفر وسائل الترف والفساد والإفساد وهتك الاعراض والحرمات وشيوع الربا والخمور وأنواع الظلم والفجور ، فأظلمت النفوس، وتحجرت العقول ، حتى صارت لاتبصر الحق والواقع ، فقد جاء في الحديث:

« اذا أذنب العبد كان نكتة سوداء على قلبه ، فإن هو تاب وأقلع واستغفر ، صفا قلبه منها ، وان هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب » .

ولو تتبعت نفوس هؤلاء الماديين المنحرفين ، لوجدتهم أبعد الناس عن العطف والحنان والاخلاق الفاضلة وأقرب الناس الى الشهوات والملذات والإفساد والبغي والظلم ، تشهد بذلك حياة ( كارل ماركس ) في صغره وشبابه ومع والديه وأخواته .فقد كان ينقطع عن الجامعة ويذهب الى السكر والدعارة ، يترك ( بون ) مقر الجامعة ويذهب الى ( كولون ) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر . سيق الى الشرطة لإفراطه في السكر والعربدة ! وقد استخدم الاسلحة النارية . كان فيه شهوة الهدم والتخريب ، كان أنانياً يختلق التهم ، حسودا ، مغرورا . كان يعامل من يخالفه معاملة ملؤها التحقير والازدراء . ويقول لكل من يخالفه في الرأي : ( بورجوازي ) . كان مغرورا بآرائه ويقول : آرائي وأفكاري ... ولا يقبل أي نقاش . كان مسلوب العاطفة . فلم يذهب الى بلده حين مات أبوه وبقى في برلين وهو رب الاسرة بعد والده . واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث ، فمال الى نصيب أمه واخوته . وكان قبلا قد أرهق اباه في طلب المال . وقد انتحرت بنتاه : (لورا وأختها) . عقد مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغا ولم يفِ بمنطوق العقد . وعقد اتفاقية مع ( ألكسي ) على كتابة نظرياته الاقتصادية ( هذه التي لم تنل نصيبا من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع الحياة ) ، وقبض ( ١٥٠٠ ) فرنك وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يفِ بكلتيهما !

نعم ، ان رجلا هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الاباطيل . بأن يقول : « ان الديانات والعقائد جميعا انما هي انعكاسات

الضرورات الاقتصادية » . إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والافساد ، وسحق المقدسات ! « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . ( سورة المائدة : ٤١ ) .

إنه تعالى يقول : « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » (١) . وفي آية أخرى : « وما يضل به إلا الفاسقين » (٢) . فقد أغلق الله تعالى على الفساق أبواب الهداية حتى يؤوبوا ويتوبوا . هذه هي سنة الله في أرضه وسمائه . « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (٣) .

حقا لو تعمقنا في ما سنه الله تعالى وأقرّه لألفينا في ذلك كل المنطق وتمام العدل . وذلك لانه بالتقوى والورع يعمر القلب وتتكامل النفس ، فتصبح قميئة للفيوضات الرحمانية والالطاف الربانية ، وبالفسق والفجور يتحجر القلب وتظلم النفس ، فلا تجد لمعرفة الله تعالى طريقا ولا لرفده سبيلا . « نسوا الله فنسيهم » والانسان الظالم لنفسه ، هو الذي قد سد على نفسه أبواب المراحم الإلهية والنفحات القدسية الصمدانية : « وما ظلمناهم ، ولكن كانوا هم الظالمين » (٤) . وفي آية أخرى : « سأريكم دار الفاسقين » (٥) .

***

إن أوروبا لا تزال منهمكة في فجورها وخمورها وما دامت كذلك ، فلا تجد لهداية الله سبيلا ، إلا أفرادا قلائل ممن لم تغرهم المادة الصماء ، فتابوا وأنابوا واستضاؤا بنور الاسلام : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا » (٦) .

---

(١) سورة البقرة : ٩٩ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦ .
(٣) سورة الفتح : ٢٣ .
(٤) سورة الزخرف : ٧٦ .
(٥) سورة الاعراف : ١٤٤ .
(٦) سورة الاحزاب : ٤٦ .

فقد ذكر لي أحد الاصدقاء أنه ذهب الى المانيا في الصيف الماضي ، وقد زار أخاه في احدى المدن وكان أخوه قد سافر قبلا لتكميل تحصيله وأخذ درجة الدكتوراه . فرأى اخاه على غير ما كان عليه من قدسية مرموقة ، وصلاة مع الجماعة ودعاء وابتهال ليالي الجمعة في الحرم الشريف . رآه قد انغمر في ما حرم الله وأخذ الايمان يتضاءل في نفسه ، والجحود يأخذ طريقه الى خلده . وكان يتحدث له أخوه : أن في الغرب ، يرحّب الأخ بمن يتصل بأخته بطريق غير مشروع ويراه أمرا طبيعيا لاغرابة فيه ! ..

فصار يصف لي عوالم الليل ، قائلا : إن أكثر مدن المانيا مليئة بالحدائق العامة الكبيرة وتكاد تكون بعض المدن مجموعة من الحدائق . فإذا جنّ الليل ، لاتجد في هذه الحدائق إلا بصيصا من الضوء ، بقدر ما يميز الشخص طريقه . والناس من رجال ونساء ، ينزو بعضهم على بعض حتى الصباح .

قارن . أيها القاريء الكريم ، بين هذه الحياة البهيمية وحياة قدسية أخرى في بعض المدن الاسلامية : ترى المؤمن يقوم قبيل الفجر بساعة او أكثر من فراشه قائلا : ( كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ) « الحمد لله الذي أحيانا بعدما اماتنا واليه النشور » . فيتوضأ متوجها بكله الى الحق المتعال . قائلا بخشوع : « بسم الله وبالله ، اللهم اجعلني من التوابين وأجعلني من المتطهرين » ، فيأخذ طريقه الى الحرم الشريف أو الى مسجد قريب : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد ... الحديث » ، فيستقبل القبلة ، متهجدا [1] ، بخضوع لامزيد عليه ، فيصلي لربه ركعات ، ثم يستغفر الله تعالى مائة مرة في قنوت ركعة الوتر [2] . فاذا انتهى من صلاته

---

(١) « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا » . « سورة بني اسرائيل : ٧٩ ) .

(٢) « قل اؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، وازواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ،=

بكى [١] نادما على ما اجترحت يداه من ذنوب ، وناجى ربه بخشوع ، محاسبا نفسه على كل صغيرة وكبيرة : فقد جاء في الحديث : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزِنوها قبل أن توزنوا » ، حتى اذا أعلن المؤذن دخول وقت صلاة الصبح ، قام فصلى ركعتي النافلة ، ثم يبدأ بصلاة الصبح مع الجماعة ان وُجدت ، وإلا فيصلي فرادى ، ثم ، يقوم بالتعقيبات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام . فيخرج من المسجد ، وهو مملوء فرحا وسرورا لهذا الإتصال المعنوي القدسي ، فهو تقرب الى الله جلت عظمته ، وان هذا التقرب المعنوي هو غاية الغايات في الحياة الدنيا [٢] . فالانسان يعد فائزا في دنياه بقدر ما ينال من هذا التقرب القدسي من نصيب . وبعد ذلك يستقبل الحياة متوكلا على الله تعالى بتقوى لا مزيد عليها ونفس زكية تتجنب الغش والخديعة ، بل جل غايتها خدمة الغير . وارضاء ربها . « من أصبح لايهتم بأمور المسلمين فليس منهم ... الحديث » .

فأي الفريقين أقرب الى الله ؟ وأيهما اولى بولوج الفكرة المادية في نفسه .

إنها الذنوب ومن ورائها الشيطان يزيّن لهذا الانسان الطائش فكرته المادية وما يقوم به من إفساد في الارض ، بل يجعله أن يقول بالتأكيد ان العقائد والشرائع كلها خرافات وأوهام ، وأفكار بورجوازية ! ( Bourgeoisie

---

= الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار » . ( سورة آل عمران ١٤ — ١٦ ) .

(١) روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام : « ما من قطرة أحب الى الله من قطرة دمع فى سواد الليل مخافة من الله ، لا يراد بها غيره » .

(٢) وقد جاء فى ما أوحى الله الى موسى بن عمران (ع) : « يابن عمران ، هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ، ثم ادعني فى ظلم الليالي تجدني قريبا مجيبا » .

فلا حقيقة في الكون إلا المادة . هذه المادة التي لايقوى المادي على تعريفها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها وقوانينها إلا اليسير منها جدا ، وهل للمادة أن تضع لنفسها قوانين فتطيعها ولا تتخلف عنها . لعل هذا المادي قد أحاط بالكون ، فسافر الى مسافات تبعد عنا ملايين ملايين ملايين ... ملايين من الاميال بسرعة تفوق سرعة الضوء بمقدار لايتناهى ووقف هناك على ما تقوم به : ( المادة ) من خوارق ومعاجز وما تنظمه من قوانين ومعادلات في تنظيم هذا الكون المادي ! بعقل جبار !

* * *

فطوبى لنفوس توجهت الى الحق بنفس لم تتلوث بآثامها ومظالمها ، فآمنت بكل ما أنزل الله من آيات بينات وبمن أرسل من رسل وأنبياء مبشرين ومنذرين وآمنت بوحي من نفسها وعقل لم يدنسه شيطانها ولم تزحه أجرامها بما غاب عنها : « الذين يؤمنون بالغيب » [١] وصارت تعمل على ضوء تعاليم محمد والأئمة من بعده عليهم الصلاة والسلام للسير في مدارج الكمال البشري حتى تكون قمينة للخلود في « جنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين » . وقد جاء في الحديث : « الدنيا ساعة ، فلا تجعلها إلا طاعة » .

حقا : ان الوعظ والإرشاد لايؤثران الا في نفوس تخشى الله في خلوتها ، نفوس تراقب الله في السر كما تراقبه في العلن ، تعمل وفق ما تمليه عليه الفطرة ! ( فطرة الله التي فطر الناس عليها ) . ان نفوساً كهذه قمينة بأن تسير في معارج الكمال فتقطع مراحل التزكية وما ألذها ! انه تعالى يقول : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ، والى الله المصير » [٢] .

ونختم هذا المقال بقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة : ٣ .

(٢) سورة فاطر : ١٨ .

« إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

« سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ( سورة الحديد : ٢٠ — ٢١ ) .

فالله تبارك وتعالى قد هيأ لصالحي عباده جنة عرضها كعرض أرضنا وما يتلوها من سماء أي من أنجم وكرات وما بينها من مسافات شاسعة وذلك في فضاء لايتناهى خارج هذا الفضاء الذي هو سماؤنا ، أو بشكل آخر . فعلم الفلك الحديث يخبرنا انه قد اكتشفت مجموعة من مجموعات الكواكب تبعد عن الارض $١٠^{٢١} \times ٦$ ميل . وان شعاعه لايصل الينا إلا بعد : ( الف مليون سنة ضوئية ) ومعلوم ان الضوء يقطع في الثانية ( ١٨٦٠٠٠ ) ميل . فيجب ان يسير الضوء أوالشعاع الصادر من تلك المجموعة بسرعة ١٨٦ ٠٠٠ ميل/ثانية خلال الف مليون سنة حتى يصل الى كرتنا الارضية .

فالله الذي قد عبأ في الشمس طاقة هائلة حتى كان الانفجار الذي قد حدث فيها قبل بضع سنين قد قدّرت طاقته ( الطاقة الناجمة نتيجة ذلك الانفجار ) بقدر طاقة مائة مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة ، قادر أن يخلق جنة : عرضها كعرض السماء والارض في ما لايتناهى من مسافات وأبعاد خلقها بقدرته ودبرها بتدبيره .

فليس لهذا الانسان المحدود في تفكيره وملكاته ومحاكماته أن يقيس العوالم اللانهائية بمقياسه المقتضب المحدود ، فمن درس أبحاث اللانهاية في الرياضيات العالية ، يعلم أن من الخطأ الفاحش قياس العوالم اللانهائية بمقياس

عالمنا المحدود بجميع ما فيه من مواضيع . وان فلسفة تبنى على مقاييسنا المحدودة ، فلسفة واهية ليس لها من الواقع نصيب .

* * *

وهكذا تجعلنا العلوم الحاضرة أن نعتقد بما غاب عنا مما لا يُدرك بالحواس الخمس أو لا يرى بالعين . وكلما تقدمت هذه العلوم مماشية طهارة النفس والتقوى تحقق لهذا البشر أن المادية ليست إلا نزعة شيطانية جاءت من جراء تلوث النفوس ولا حقيقة لها في عالم العلم والمكتشفات ، وان انسانية الانسان لاتتحقق إلا بالتجرد عن هذه المادية في العقيدة والسلوك والتمسك بالمقدسات والإيمان بالغيب واتباع سنة الرسول الامين وأهل بيته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين .

## بسم الله الرحمن الرحيم (١)

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لا ترجعون » .

هكذا يخاطبنا الله تعالى في محكم كتابه . فمن شاهد هذه القوانين المحكمة الرصينة في عالم الوجود : عالم الذرة ، وعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان ، في الفيزياء والكيمياء والفلك العالي ، وفي علم الاحياء والمستحاثات ( المتحجرات ) ، يقطع بأن الذي رتبها ونظمها لايلهو ولا يلعب . وهو القائل : « لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخاذناه من لدنا ان كنا فاعلين » (٢) . وفي آية أخرى : « وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون » (٣) .

فاذا تتبع الانسان حياته النفسية في هذه الدنيا وما عليه نفسه من مساوىء أخلاقية : حسد وبغضاء وحقد ، ونميمة وغيبة ، ظلم وبغي وبطش بغير حق ، ثم ما يراه من حيف وظلم وقسوة وجفاء وبهتان وغيرها من آخرين ، وما يرى من تشاجر وتطاحن لامور مادية سخيفة أو لجشع بين الامم ، وما يرى من ظلم واستعمار وغمط للحقوق بين الدول ، وما يشاهد من حروب لا تبقى ولا تذر ، يقطع بأن الله الذي خلق هذا العالم المادي من سماء وأرض ، وما خلق فيه من جماد وحيوان ، وما أودع فيه من كمال ، ما بعده

---

(١) نشر هذا البحث « فلسفة المعاد » فى رسالة مستقلة من قبل « مكتب منابع الثقافة الاسلامية » بكربلاء .

وقد رايت ، مع تقديري وشكري للمكتب المذكور ، أن اضيف شيئا الى البحث واجعله من مواضيع الجزء الثالث لكتاب : « التكامل فى الاسلام » .

(٢) سورة الانبياء : ١٧ .

(٣) سورة الدخان : ٣٩ ، ٤٠ .

كمال ، لايريد بهذا الانسان إلا ( الكمال ) ...

ذلك لأنه يقطع بأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لايصدر منه إلا الكمال ، ويقطع بأن البشر غير كامل في هذه الدنيا من النواحي النفسية والاخلاقية والاجتماعية . وهو في هذه الحالة — إلا من شذّ فصار يتكامل على مارسمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — أشبه بالحيوانات الضارية ، يضر بعضه البعض ، ان وجد الى ذلك سبيلا . يقطع بأن الله الذي أكمل كل شيء من مخلوقاته سوف يجعل لهذا الانسان عالما آخر كله اطمئنان وخلود وكله حبور وسرور ، عالما فيه « ماتشتهيه الانفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون » [١] ، عالما لا تطاحنَ فيه ولا تشاجر ولا تجاوز ولا اعتداء ، « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ ، تجري من تحتهم الانهار ، وقالوا الحمد لله الذي هدايا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة ، أورثتموها بما كنتم تعملون [٢] ، عالما يقول عنه تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ ، أخوانا على سرر متقابلين » [٣] .

عالما ليس فيه ما يلوث النفس الانسانية من ميسر (قمار) ولحم خنزير وفسق وفجور وخمرة تذهب بالعقل بل « يطاف عليهم بكأس من معين [٤] ، لا فيها غول [٥] ولا هم عنها ينزفون [٦] ، وعندهم قاصرات الطرف [٧]

---

(١) سورة الزخرف : ٧١ .

(٢) سورة الاعراف : ٤٣ .

(٣) سورة الحجر : ٤٦ .

(٤) أي من شراب معين او نهر معين اي ظاهر للعيون أو نابع من العيون .

(٥) فساد كما فى خمر الدنيا ، اي ليس فيها غائلة تغتال العقل ، واغتاله اي اخذه غيلة او خلسة وهو غافل .

(٦) يسكرون : من أنزف الشارب اي ذهب عقله .

(٧) اي قصرن نظرهن على أزواجهن ، فهن قاصرات العيون .

عين [١] ، كأنهن بَيض مكنون » [٢] .

عالما فيه حياة اجتماعية رفيعة ، لاتشبه ما نحن فيه من هذه الحياة الملوثة بالآثام والاجرام والإحن والبغضاء والتطاحن والتشاجر .

عالما يقول فيه الفائزون : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن ، إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لايمسنا فيها نصب [٣] ولا يمسنا فيها لغوب [٤] » [٥] .

فلا حزن ولا تعب ولا نصب ولا لغوب في ذلك العالم ، بل كله طمأنينة وصفاء وراحة لاتقاس بالراحة التي ينالها الفرد بصورة مؤقتة وغير كاملة في الحياة الدنيا . وهذه من صفات ذلك العالم القدسي ، المنزه من كل ما يشين النفس أو يزعجها أو ينغص راحتها : «تحيتهم فيهاسلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » [٦] .

هل ترى في هذه الدنيا فردا راضيا من حياته الدنيوية ؟ .. لامن حيث ما منَّ الله عليه من نعم ، فهي أعظم مما يستحقه هذا الانسان بمراتب لا تعد ودرجات لا تُحصى : « وان تعدوا نعمة الله لا تُحصوها ، ان الله لغفور رحيم » [٧] ، وهي بمقدار من الوفور والكثرة بحيث لا يقوى الانسان على أن يؤدي تجاهها ما يجب عليه من شكر مهما بلغ من مراتب الكمال . ولكن من حيث ما يشعر به من حياة ملؤها المشاكل : مشاكل

---

(١) عين : اي واسعات العيون .
(٢) سورة الصافات : ٤٥ — ٤٩ .
(٣) نصب : تعب .
(٤) لغوب : اعياء من التعب أو كلال .
(٥) سورة فاطر : ٣٥ .
(٦) سورة يونس : ١٠ .
(٧) سورة النحل : ١٨ .

اجتماعية ، مشاكل خلقية ، مشاكل عائلية ، مشاكل مرضية ، وما هنالك من نوائب وكوارث ... فهو يشكو طوال حياته مشاكل كثيرة . يود لو كانت هنالك حياة أخرى خالية عن هذه المشاكل وهذه النواقص وهذه النوائب وهذه التأثرات ! ..

نعم ، كان حتما في استطاعة الله تبارك وتعالى أن يجعل الحياة الدنيا ، هذه التي نعيشها ، حياة كاملة لا كدرَ فيها ولا أحزان . لاتطاحنَ فيها ولا نقصان . إلا أن الله تبارك وتعالى أراد بهذا الانسان أن يتكامل في هذه الدنيا نفسيا ، وان يميز الخبيث من الطيب ( مع علمه بهما قبلا ) اتماما للحجة: « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى مَن حَيَّ عن بينة » ، ليذهب هذا الانسان بعد هذه التصفية الحقيقية ، ( بجهود يبذلها وبجدارة واقعية ) الى عالم الخلود ، حيث الصفاء والسرور .

« فالناس مجزيون بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وان شرا فشر » ، « فريق في الجنة وفريق في السعير [1] » . انه تعالى يقول : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها مَن لا يؤمن بها واتبع هواه ، فتردى » [2] .

* * *

ثم إن المفكر في مخلوقات الله تعالى وما صدر عن الله من خوارق ، وأعني بها هذه القوانين الفيزيائية التي تبهر العقول ، يقطع بأن الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى جل أن يلهو : يخلق هذا الانسان ، بهذه الكثرة المتكاثرة ، ليفسد في الارض ويلوثها ويكتفي بهذا وليس وراء ذلك هدف ولا غاية . وهو القائل : « أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين

---

(١) سورة الشورى : ٥ .

(٢) سورة طه : ١٥ — ١٦ .

في الارض ، أم نجعل المتقين كالفجار » [١] . « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ، ان رحمة الله قريب من المحسنين » [٢] .

يقطع بأن هذا لهو ولعب وجل أن يلهو ربنا سبحانه مع قوله تعالى : « وذرِ الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا » .

يقطع من تفهم سنّة الكمال وشاهدها بصورة جلية واضحة في كل زاوية من زوايا هذا الكون : أن هذه الدنيا دار اختبار وامتحان : « الدنيا دار عمل ولا حساب ، والآخرة دار حساب ولا عمل » .

يقطع بأن الدنيا مدرسة يتكامل فيها حسب دساتير الانبياء والاوصياء من بعدهم ، عليهم السلام .

يقطع أن سنة الكمال توجب أن تكون هناك ، بعد هذه الحياة الملوثة ! حياةِ التهيؤ والتزود : « الدنيا مزرعة الآخرة » حياة خالدة ، لا كدر فيها ولا اختبار ولا ابتلاء . حياة فيها : « ما لا عين رأت او أذن سمعت أو خطر على قلب بشر ! » .

يقطع هذا الانسان الذي يرى كمال الله تعالى متجليا في كل ما خلق من مخلوقات : أن وراء هذه الحياة الدنيا المضطربة : حياة البغي والجور « جنة عرضها كعرض السماء والارض أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله » ، جنة يصفها علي عليه الصلاة والسلام ، بقوله :

« فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت [٣] نفسك من بدائع ما أخرج الى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها ، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار [٤] غيّبت عروقها في كثبان [٥] المسك على

(١) سورة ص : ٢٨ . (٢) سورة الانعام : ٦٩ .
(٣) عزفت : زهدت .
(٤) تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت .
(٥) جمع كثيب وهو التل .

سواحل أنهارها . وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها [١] ، وأفنانها [٢] ، وطلوع تلك الثمار مختلفة في أغلف أكمامها [٣] ، تجنى من غير تكلف ، فتأتي على مُنية مُجتنيها ، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالاعسال المصفقة [٤] والخمور المروقة [٥] ، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار وأمنوا نقلة الاسفار » .

« فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول الى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة [٦] لزهقت [٧] نفسك شوقا اليها ، ولتحملت من مجلسي هذا الى مجاورة أهل القبور استعجالا بها . جعلنا الله واياكم ممن سعى ( بقلبه ) الى منازل الابرار برحمته » .

ق

* * *

إن الله تعالى يقول : « لقد خلقنا الانسان في كبد » . والكبد معناه التعب والشدة ، اذ يكابد الانسان الشدائد منذ احتباسه في ضيق الرحم الى الموت وما بعده ، انلم يُطهر ولم يكمل في دنياه : عالَمِ التكامل والتزود بالتقوى فلابد لهذا الانسان أن يجهد نفسه وأن يتغلب على شهواته وأن يخالف هوى نفسه ، كي ينال السعادة الابدية : « في جنات ونَهر ، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر » [٨] .

ق

وهو القائل أيضا : « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا

---

(١) جمع عسلاج وعسلوج وهو ما اخضر ولان من قضبان الشجر .
(٢) جمع فنن وهو الغصن .
(٣) أكمام جمع كم ( بكسر الكاف ) وهو وعاء الطلع وغطاء النور .
(٤) المصفاة .
(٥) المروقة : المصفاة .
(٦) المونقة : المعجبة .
(٧) زهقت : خرجت .
(٨) سورة القمر : ٥٤ — ٥٥ .

فملاقيه » [١] . والكدح معناه بذل أقصى مراتب الجهد . فالدنيا دار جهد وعناء وعمل متواصل لنيل درجات رفيعة والبلوغ الى راحة أبدية سرمدية : « لا يَمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » [٢] .

هذه هي فلسفة الحياة الحقة على وجه العموم . فلا تبديل لسنة الله وما قنن وقرر : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » [٣] . وان ما قرره الله تعالى حق، تعلوه رحمته ، « وسعت رحمته كل شيء » يعترف بذلك العقلُ المتكامل والنفس غير الملوثة .

نعم ، لم يخلق هذا الانسان عبثا : « وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه مبارك ليدبَّروا آياته وليتذكر أولوا الالباب » . ( سورة ص : ٢٩ ) .

فعدم القيام بما أمر الله تعالى من واجبات الشكر : من انفاق وبذل واهتمام باطعام المساكين « ولا تحاضون على طعام المسكين » [٤] ، وبر الوالدين وصلةالارحام وتواضع للفقراءوالبؤساء والقيام بحوائجهم وحوائج سائر الناس ، وصلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر وارشاد الناس الى معالم الدين ، كل ذلك نتيجة الكفر والجحود. فاذا حل الكفر اضطربت المحاكمات المنطقية الصحيحة بشأن فلسفة الحياة وانسحب نتيجة لذلك العقل الذي يُعبد به الرحمان ويكتسب به الجنان . وصار يقول هذا الفرد المتردي : ليست هنالك غاية من خلق هذا الكون .

---

(١) سورة الانشقاق : ٦ .
(٢) سورة الحجر : ٤٨ .
(٣) سورة الفتح : ٢٣ .
(٤) سورة الفجر : ١٨ .

ويتهم من لا يوافقه في الرأي : بالرجعية ، أو تكون هذه الكلمة : ( الرجعية ) أقوى دليل ! لهرائه ، دون أن يجعل للمنطق مجالا للتحليل والتحقيق .

حتى إني سمعت ممن كوّنته المدنية المادية الحاضرة ، قبل حوالي ٣٢ عاماً وهو على فراش المرض ، سمعته يقول : ما هذا النضام الأهوج في هذا الكون؟ ماذا التبلبل ، وما هذا التسيب؟ وكان يصم العالم بالانحلال والتبعثر وعدم وجود حكمة تربط ما في الكون بعضه ببعض ، أو نظام تتنظم بموجبه أجزاء الكون بعضها مع بعض .

إنها رشحات نفسه الجاحدة لأنعم الله الكثيرة ، المارقة عما حدّد الله وسنه في جميع مجالات الحياة ...

انه لا يجرؤ باتهام نفسه البهيمة ولا يعتبر بما اصابه من مرض وأوجاع كي يرجع عن طيشه وغيه ، لكنه لذنوب كثيرة تلوثت بها نفسه أمسى جرثومة لا يفيد معها أي منبّه أو ارشاد أو اصلاح : « كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [١] . ونستجير بالله من هذه المرحلة التي مآلها النار ، لا محالة .

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » [٢] .

انه يسلي نفسه المتسافلة بقوله : « إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » . وبقوله : « ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ، ان هم لا يظنون » . حقاً، انهم

(١) سورة المطففين : ١٤ .

(٢) سورة الاحقاف : ٢٠ .

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . ( سورة الروم : ٧ .

وأظنك قد فكرت كثيرا : لماذا هذه الأمراض في هذه الدنيا ؟ ولِمَ هذا الفقر في بعض الأوساط أو لبعض الأشخاص بصورة موقتة أو دائمية ؟.. ولماذا هذه الابتلاءات والنوائب ؟ لماذا هذه الحروب التي لاتبقي ولا تذر ؟ لماذا هذه الحرارة في الجو الى درجة لا يستريح معها الفقير لعدم وجود وسائط لديه ، ولماذا هذه البرودة في الشتاء الى درجة يعجز عن مقاومتها البائس المسكين ؟ أليس الله بقادر أن يجعل هذه الارض فردوسا يتنعم فيه الانسان فيرتع فيه ويمرح بهناء ؟.

فإنك بأسئلتك هذه قد شعرت أنه لابد بعد هذه الدنيا الملوثة عالم آخر كله صفاء وكمال . ولعلك تصل الى هذه النتيجة أن ليس في هذه الحياة الدنيا من نقص من جانب الله تعالى ، وانما سخر لهذا الانسان كل شيء على حد قوله تعالى : « ألم ترَ أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » [١] . وما يراه هذا الانسان نقصا انما هي مواد امتحانية من صميم النفس يريد الله أن يختبر بها عباده في النوائب والكوارث يختبر صبرهم في النوائب [٢] فيطهرهم بها ، ويختبر كذلك درجة شكرهم تجاه النعم من انفاق وايثار كي ينال كل فرد في الآخرة درجة تتناسب وعلمه : « هم درجات عند الله والله بما تعملون بصير » . ( آل عمران : ١٦٣ ) . على أن هنـاك مسرات وأفراحا مشروعـة لا تعد ولا تحصى . لا يقوى

(١) سورة لقمان : ٢٠ .

(٢) ولا بأس بذكر هذا الحديث : « من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب فى ذلك الأجر ، اعطاه الله ثواب الشاكرين » .

الانسان على أن يقوم باداء شكر جزء ضئيل منهـا : « وقليل من عبادي الشكور » .

فاذا كنت انت مـع ما فيك من نقائص كثيرة ، ترى ضرورة حيـاة كاملة مستكملة للشرائط ، متوفرة فيها وسائل الراحة ، يكافأ بها المؤمن تجاه صبره وشكره واجتيازه المواد الإمتحانية بطاعـة واختيار ، فكيف بالله الذي : « خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك » . ( سورة الانفطار : ٧ ) .

ان الله قد جعل تلك الحياة السعيدة وأعني بها الحياة الآخرة المستكملة لشرائط الراحة جزاءا موفورا لصالحي عباده ، أولئك الذين نجحوا في امتحاناتهم الدنيوية وجاهدوا في تزكية نفوسهم وتطهيرها من الدنس وسعوا للتكفير عن ذنوبهم لتسير نفوسهم نحو أوج الكمال .

انه تعالى يقول : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » . فيعرفنا الله تبارك وتعالى أن الغاية من ايجادنا بعد أن لم نكن شيئا ومكثنا في الحياة الدنيا انما هي للامتحان والاختبار ومعرفته تعالى ولكي ينال كل منا بعد الموت درجة يستحقها نتيجة عمله . وهو القائل : « وتزودوا فان خيرالزاد التقوى ، واتقونِ يا أولي الالباب » وفي آية أخرى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض ، أعِدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

فقد جاء في الحديث : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . وفي حديث آخر : « لايزال الهم والغم بالمؤمن حتى لايدع له ذنبا » .

وفي حديث عن أبي عبدالله عليه السلام : « كلما ازداد العبد ايمانا ازداد ضيقا في معيشته » ، وكذلك عن أبي جعفر (ع) : « انما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه » . وكذلك عن أبي عبدالله عليه السلام : « المؤمن

لايمضي عليه أربعون ليلة الا وعرض له أمر يحزنه يذكر به » .

وفي حديث آخر : « ان المؤمن لو كان في جحر ضب لسلط الله عليه من يؤذيه » . وفي حديث آخر : « ان الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الطبيب المريض بالدواء » . وفي حديث آخر : « ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه » . كل ذلك ليطهر الله تعالى عبده الآثم مما علق به من دنس ورجس كي يذهب من هذه الدنيا طاهرا نقيا لا اثم عليه . ونذكر تأييدا لهذه الحقيقة هذين الحديثين :

فعن الصادق (ع) . قال : قال رسول الله (ص) : « ان الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي لا أخرج عبدا من الدنيا وأنا أريد ان ارحمه حتى استوفى منه كل خطيئة عملها : اما بسقم في جسده ، أو بضيق في رزقه واما بخوف في دنياه ، فان بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت ، حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة » .

وعن الصادق عليه السلام ايضا : قال النبي (ص) : قال الله تعالى : « وعزتي وجلالي لا أخرج عبدا من الدنيا وأنا أريد ان اعذبه حتى اوفيه كل حسنة عملها ، اما بسعة في رزقه او بصحة في جسمه واما بأمن في دنياه ، فان بقيت له بقية هونت عليه الموت حتى يأتي ولا حسنة له ، فأدخله النار » .

وهذا مصير من أتم الله عليه الحجة مرات ، وأغدق عليه من النعم مالا يحصى فلم يفده كل ذلك وتمادى في طيشه وغيه وظلمه وبغيه ، فأمسى جرثومة فساد لا تصلحه ولا تزكيه الا النار !

وفي حديث آخر : « اذا أراد الله بعبد خيرا ، فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة وذكره الاستغفار ، واذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا اتبعه بنقمة لينسيه الاستغفار » . وقد بينا سبب ذلك . يقول الله تعالى : « وذرني والمكذبين أولى النعمة وأمهلهم قليلا » . ( سورة المزمل : ١٠ ) .

وقد روى علي بن ابراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن

أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) يوما لاصحابه : « ملعون كل مال لا يزكى ، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوما مرة ، فقيل : يا رسول الله : أما زكاة المال فقد عرفناها ، فما زكاة الاجساد ؟ فقال لهم : أن تصاب بآفة » قال : فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه ، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم ، قال لهم : أتدرون ما عنيت بقولي ؟ قالوا لا ، يا رسول الله ؛ قال : بلى ، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويقد القدة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا ، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين » .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « في كتاب علي عليه السلام : ان أشد الناس بلاء النبيون ثم الوصيون ، ثم الامثل فالامثل ، وانما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صح دينه وحسن عمله أشتد بلاؤه ، وذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثوابا لمؤمن ولا عقوبة لكافر . ومن سخف دينه وضعف عمله قل بلاؤه ، وان البلاء أسرع الى المؤمن التقي من المطر الى قرار الارض » .

وفي حديث آخر : « من صفت له دنياه فاتهموه في دينه » . كل ذلك بدل أن لابد من ابتلاء ولابد من اجتياز مراحل هذا الاختبار الإلهي العام ، وهذا لايتم الا بنقص في العيش والصحة والهناء والأولاد والإنفس والثمرات الى ما هنالك . فانه تعالى يقول : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (سورة البقرة : ١٥٥ — ١٥٧ ) ولا يكون اكمال هذا النقص الامتحاني الا بآخرة سعيدة « وجنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين » .

وهكذا يعتبر القرآن الدنيا متاع الغرور بقوله : « وما الحياة الدنيا الا

متاع الغرور » . وبقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى» . وفي الحديث : « الدنيا والآخرة ضرتان » .

ولا بأس بذكر الاحاديث الآتية لنزداد ايمانا ويقينا بالآخرة : ففي حديث : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . وفي آخر : « مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، حلاوة الدنيا مرارة الآخره » . ويراد بهذه المرارة تلك التي تطهرك من ذنوبك وتكفر بها عن سيئاتك . ويراد بالحلاوة تلك التي تأتيك من مورد غير مشروع وبشكل غير شرعي . انه تعالى يقول : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » . ( سورة الاعراف : ٣١ ) .

فالدنيا دار التصفية ، ولا تصفية الا باختبار ولا اختبار لهذه النفس الانسانية الا بالابتلاء ،على حد قوله تعالى : «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . ( سورة محمد (ص) : ٣١ ) .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقص علينا ما كان من اختبار الماضين وامتحانهم من جانب الله تعالى : منها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . ( سورة المائدة ٩٧ — ٩٨ ) ومعنى ذلك ان الله يمتحن عباده بأن يهيىء لهم ما يتمكنون من اصطياده في وقت يحرم عليهم الصيد ، أي في حالة الاحرام . ذلك لان الصيد حرام مع الاحرام . فالله تعالى يريد أن يعلم ( وهو العالم بما سيكون ) ، بل يريد أن يعلم الانسان شخصه درجة نجاحه في هذا الاختبار الدنيوي أو الاختبار العالمي العام ، كي يوقن بدرجة فضل الله عليه عندما يغدق عليه من عميم نعمه وعظيم رفده فيوفقه الى توبة خالصة ، ليدخله بها الجنة برحمته ، فسبحانه من رحمان رحيم « غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير » . ( سورة المؤمن : ٣ ) .

وعن السجاد زين العابدين عليه السلام : ( بكل ذلك يصلح شأنهم ويبلو أخبارهم وينظر كيف هم في أوقات طاعته ومنازل فروضه ومواقع أحكامه . « ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » .

وقد يبلغ ضعف النفس في بعض الافراد مرتبة يهرب بسببها عن مواجهة مشاكله الحياتية بكأس من الخمرة ، ظنا منه أنه يستريح بذلك من مشاكل الحياة وما يكابده من عناء ، فتتسافل نفسه ويقع في مهالك لاتقاس بمشاكله من قبل ، ويمسي بهيمة من البهائم ، بعيدا عن رحمة ربه ، آثما ، ملوثا نفسه بلوث الطيش والغرور .

وقد فاته أن الاسلام يكره الهروب من الواقع . انه دين مواجهة وجلادة ، دين غلبة وجلد وجهاد . وأعظم الجهاد هو جهاد هذه النفس الامارة بالسوء . انه تعالى يقول : « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر . ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » . ويقول الرسول صلى الله عليه وآله : « اجتنبوا الخمر ، فهي أم الكبائر » . وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله : « والذي بعثني بالحق نبيا : ان شارب الخمر يموت عطشانا وينادي وا عطشاه ألف سنة فيؤتى بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب ، فينضح به وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الاناء » .

وقد يفر هذا الانسان من ضعف ايمانه بالله تعالى — وان رحمته وسعت كل شيء — فيعمد عند تراكم المصائب عليه الى الانتحار . والمؤمن لاينتحر ، معتقدا أن ما يصيبه من كوارث انما هو لتزكيته وتطهيره . انه يقول ، كلما أصيب بمصيبة : « انا لله وانا اليه راجعون » ، ويعلم أن مآله ومآل كل أمر الى الله تعالى . ولا يعبأ براحة هذه الدنيا الموقتة ان سلبت منه برهة من الزمن بغية الاختبار والتطهير . ولذلك يقع في كل سنة في أوساط الغرب ( من شرقية وغربية ) حوادث الانتحار . بعشرات الآلاف ، رغم ما يتشدق

به الغربي من تربية الارادة : ( Volonte ) ودراسات عميقة في التربيـة . تحدث في أمريكا في كل دقيقتين حادثة انتحار ويبتلى في كل ٣٠ ثانية شخص بمرض عقلي ، ولاتسل عن عدد الجرائم التي تحدث في كل ثانية . والمجرمون جلهم من حملة الشهادات !؟ كل ذلك ، لضعف الايمان بالله وعدم الاعتقاد بنعيم الآخرة بعد تحمل شدائد الدنيا . كل ذلك لاخفاق هذا التوجيه المادي في التربية . تربية لاتعمل لربط الفرد بعوالم الآخرة .

لقد خلقنا للاختبار والامتحان ، ولابد من اجتياز هـذه المراحـل الامتحانية بصبر وأناة ، وليس لاحد أن يفـر من هذا الامتحان الإلهي وهو القائل : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . ( سورة الملك : ٢٠ ) .

فالانسان لم يخلق سدى ، يفسد في الارض فلا حساب ولا كتـاب ، بل لابد له من أن يقطع مراحل التكامل النفسي ، كما تقطع بقية الموجودات مراحلها التكاملية ، كل بحسبه ، وعلى ما أقره الله تعالى تفضلا منه ورحمة. وهو القائل : « أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ؛ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » [١] .

يقول علي عليه السلام : « واعلموا انه ما من طاعة لله شيء الا ويأتي في كره ، وما من معصية لله شيء الا ويأتي في شهوة ، فرحم الله رجلا نزع شهوته ، وقمع هوى نفسه . لان هذه النفس أبعد شيء منزعا . لاتزال تنزع الى معصية في هوى ، واعلموا ان المؤمن لايمسي ولا يصبح الا ونفسه ظنون عنـده ، لا يزال زاويا عليهـا ومستريبا بها ، فكونوا كالسابقين أمامكم والماضين من قبلكم ، قوضوا الدنيا تقويض الراحل وطـووهـا طي المنازل » .

---

(١) سورة القيامة : ٣٦ — ٤٠ .

وهكذا يؤد بنا الامام الرابع علي بن الحسين عليهما السلام ، بقوله في دعاء له : « الهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد . ولا بأمرك مستخف ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولا بوعيدك متهاون ؛ ولكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي وغلبني هواي ، وأعانني عليها شقوتي . فالآن من عذابك من يستنقذني ، وبحبل من أتصل ان أنت قطعت حبلك عني . ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ومنعك اياي عن القنوط لقنطت ، فهب لي من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب . فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك . الى مَن يذهب العبد الا الى مولاه ، والى من يلتجىء المخلوق الا الى خالقه » .

* * *

أو ترى أن الله وهو ارحم الراحمين ، وهو الغفور الودود ، او ترى أن الله القائل : « ان الله بالناس لرؤوف رحيم » والقائل : « قل لمن ما في السموات والارض ، قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه » . لا يريد لهذا الانسان حياة سعيدة وادعة تجاه مجاهدته في الدنيا ؟ فان عظيم رحمته وكمال لطفه يوجبان أن يوجِد عالما آخر : عالما سرمدياً أبدياً في غاية الكمال . يخلد فيه هذا الانسان جزاء لصبره وشكره وأعماله الصالحات ، وعبادته لربه في هذه الدنيا ولو بعد عقوبة وتطهير . ويظهر من الآية المتقدمة : أن الله تعالى بقوله : « كتب على نفسه الرحمة » قد أوجب على نفسه ايجاد عالم آخر كله هناء ودعة وخلود ما بعده موت : « يا عبادِ ، لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وازواجكم تحبرون ، يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون » [1] .

---

(١) سورة الزخرف : ٧١ .

ان الانسان ليعتقد بصورة فطرية : « إن كان ممن لم يلوّث نفسه بالموبقات والمندسات ، أن وراء هذا العالم الدنيوي عالماً آخر ، يقتص الله تعالى فيه من الظالمين ، ويثيب الصالحين ، لذلك يقول سقراط لتلاميذه حين يقدم اليه السم : « اني ذاهب حيث يوجهني الله ، واني ذاهب الى عالم سرمدي آخر ، لاتحزنوا عليّ » . فيتناول السم بكل ارتياح لشدة يقينه . كيف لايكون كذلك ؟ وهو الذي كان يقول بوحدانية الله تعالى وعظيم لطفه . كان يقول : « ان الله أزلي أبدي غير متناه ، سميع ، رقيب ، بصير، مدبر حكيم » .

ولكن ان تلوثت هذه النفس الانسانية وأظلمت أمسى الفرد قليل الاعتقاد بالمعاد وما سيكون بعد الموت من سؤال وجواب وثواب وعقاب . فبمقدار ظلمات النفس يزول هذا الاعتقاد وقد ينعدم ، فيعزو هذا المتسافل الاعتقاد بالمعاد والايمان بالعوالم التي ستكون بعد الموت لا محالة ، الى ضعف النفس وعدم تمكنها من المكافحة والمقاومة ، وقد يصف ذلك بـ ( أفيون الشعوب ) ، ويعتبر ذلك تسلية للعاجز المسكين ، هذا ما يسوله له شيطانه ، حتى يجعله لايفكر في آخرته ، فيرتكب ما شاء كيفما شاء : « ومن يَعشُ عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » . ( سورة الزخرف : ٣٦ ) .

وقد تقوى هذه النظرية الخاطئة : أي عدم الاعتقاد بما بعد الموت ، عندالماديين العوام [1] الى درجة أنهم يسندوها الى العلم والعلم كله منه براء.

---

(١) انما قلت : الماديين العوام : ذلك لان المادي ( في عقيدته ! ) ان لم يكن قد درس الرياضيات العالية والفيزياء العالية ، ولم يربط عصارات العلوم الحاضرة بعضها ببعض ربطا فلسفيا فهو مادي عامي ، لا يستند في هذيانه الى ركن وثيق أو الى برهان عميق . ولكن ، لو تضلع هذا المادي ( في العقيدة ) في شتى العلوم

كيف ومتى تسكن العلم : هذا العلم المادي الذي يدرس في جامعات العالم ان يتوصل الى ما وراء الطبيعة وعوالم لا تبصر بالآلات والأدوات ولا تستقى بمعادلات وقوانين حتى يحق له أن يقول : بأزلية المادة ونفي الخالق جل وعلا ؟! .

فالانسان الذي قد انفتحت بصائره لصفاء نفسه ولاعمال صالحة قد قام بها وعلى رأسها : البر بالوالدين وصلة الرحم ، حتى من حملة شهادة الدكتوراه ، ليوقن : أن الله الذي أودع الكمال في جزء من أجزاء هذا العالم ، من الذرة الى الملائكة ، في عالم المادة وفي عالم القوى والارواح وقد ربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً متقنا بخواص ودساتير متقنة وقوانين رياضية رصينة : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . سوف يكمل هذه الحياة الدنيوية : الناقصة من جهات شتى : نقصان في الكمال النفسي نقصان في النواحي الاخلاقية ، ( من حيث التطبيق ) ، نقصان في النواحي الاقتصادية ، ( من حيث التطبيق أيضا ) ، نقصان في النواحي السياسية ( ذلك لان الاسلام دين ودولة ) ، نقصان في الروابط الدولية والانسانية : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » [٢] ، نقصان في النواحي الصحية ، نقصان في الطمأنينة والراحة الفكرية ، ( حتى بين بعض المتدينين ) ، نقصان في النواحي العلمية لجهل الانسان كثيراً من حقائق الكون ، وفوق كل ذلك قلق في نواح شتى ، سوف يكمل هذه الحياة الناقصة بحياة سعيدة أخرى ، كاملة من جميع الجهات ، ألا وهي الحياة الآخرة : حياة ملؤها رفاهية وسرور وحبور ، حياة كلها كمال : « وأمددناهم بفاكهة

---

ونبغ فيها وترك شيئا من خموره وفجوره فهو موحد لامحالة ، « ومن يدع مع الله الهاً آخر لابرهان له به ، فانما حسابه عند ربه ، انه لايفلح الكافرون » .

(٢) سورة البقرة : ٣٦ .

ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا ، لا لغو فيها ولا تأثيم » . وفي مكان آخر : « كلوا وأشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين » . ( سورة الطور : ٢٠ ) [١] . كمال في النفس وتكامل للتطلع والوقوف على حقائق وأسرار الأكوان والعوالم المتنوعة بصورة سرمدية ، كمال في الصحة ، كمال في الحياة الفردية ، كمال في الحياة الاجتماعية ، كمال في الحياة الاقتصادية ( ان قلنا بحياة اقتصادية هناك ) ، وفوق كل ذلك خلود ما بعده فناء ولا زوال . « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » [٢] . ( سورة هود : ١٠٩ ) .

« يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وأغفر لنا ، انك على كل شيء قدير» . ( سورة التحريم : ٨ ) .

فإتمام النور للمؤمنين ، هو الكمال الموعود ، ذلك الكمال الذي به تزول نواقص هذا العالم الفاني ، عالم العمل والاختبار . « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » [٣] .

فالكامل وهو الله تعالى حاشا أن يخلق شيئاً ناقصاً الا ويريد لهذا الناقص ( بسنن قد سنها ) الكمال . وقد سنّ طرق الكمال وسنن التكامل لهذا الانسان على لسان أنبيائه عليهم السلام ، فما أوحى الله تعالى الى أنبيائه كله سنن ودساتير تؤدي بصورة تدريجية الى تكميل النفس الانسانية ، كي تكون قمينة للانتقال الى عالم آخر كله كمال .

---

(١) لابد من زواج وازدواج حتى فى عوالم الآخرة ، تحقيقا الزوجية فى الكون ولتبقى الوحدانية خاصة بالله تعالى ، لايشاركه فيها أحد .

(٢) غير مجذوذ : غير مقطوع .

(٣) سورة النور : ٤٠ .

ولا مراءَ أن الله انما أرسل الأنبياء عليهم السلام لتكميل البشر ، نعلمه تعالى بما هنالك من نقائص شتى في هذا العالم الدنيوي وفي النفس الانسانية والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الى ما هنالك . ذلك لأن هذه الحياة حياة تهيؤ واستعداد ، وما فيها من نقائص هي ، في الحقيقة ، مواد امتحانية يجتازها الانسان لبلوغ الكمال والانتقال الى عالم آخر ، عالم سرمدي خالد كله كمال في كمال .فما نسميه في هذه الحياة الدنيا نقائص هي ليست ، في الحقيقة نقائص ، رغم تسميتنا اياها : نقائص وإنما هي : مراحل يتقدم فيها الانسان كما يتقدم الطالب في مدرسة ما من صف الى صف.

فالانسان مريض في هذه الدنيا بأمراض معنوية لنقائص كثيرة في نفسه ولذلك يقول علي ( ع ) : « أرسلَ اليكم رسولاً ليُزيل به علّتكم » .

وعن الرضا عليه السلام : خاطب رسول الله يوماً أصحابه ، قائلاً : « ألا اخبركم داءكم عن دوائكم ، قالوا بلا يا رسول الله ، قال : داؤكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار ! » .

فالأنبياء عليهم السلام هم معدّلو هذه النقائص بصورة تدريجية ، لو أطيعوا ، فطبّقت دساتيرهم واتبعت تعاليمهم .

وأما المواد الامتحانية التي تظهر للانسان أنها نواقص او نقائص فتبقى ثابتة تميز بين الفرد الصالح والفرد الطالح . ومن لم يتبع دساتير الانبياء (ع) ومن بعدهم الاوصياء ( ع ) يذهب من هذه الدنيا وهو متسافل النفس أعمى . . . « ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى واضل سبيلا » . ( سورة الاسراء : ٧٢ ) .

---

ولما كان الكامل على الاطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه الا الكمال، وجب أن يكون، بعد الموت، عالم آخر كله كمال، خاص بعباد الله الصالحين. « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين

آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة [١] يوم القيامة » .( سورة الاعراف : ٣١ ).

« والذين كفروا لهم نارُ جهنم ،، لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » .

وان الله يجازي الكافرين بعد أن أتم عليهم الحجة بعقل فطري : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » ، وبإرساله الرسل : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ، وذلك بقوله : « كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، أولم نعمل نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكّر وجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير » [٢] .

فطوبى لنفوس تطهّرت في هذه الفترة القصيرة الامتحانية وتكاملت في هذا العالم الدنيوي ، فذهبت الى رَوح وريحان بنفس مطمئنة ، «يأأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

فما علينا إلا أن نستجيب لربنا [٣] ونعمل ، كي لا نكون مصداق هذه الآية : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » . ( سورة الكهف : ١٠٦ ) . ولنتذكر هذه الآية دوما ، « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لامردّ له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير » .

---

(١) أي خالصة للمؤمنين يوم القيامة ، فلا يشاركهم فيها أحد . لا كما في الدنيا حيث يشارك المؤمنين غيرهم من غير المؤمنين .

(٢) سورة فاطر : ٣٧ .

(٣) يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون . ( الانفال : ٢٤ ) .

( سورة الشورى : ٤٧ ) .

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد سبيل » .

( سورة الشورة : ٤٤ ) .

* * *

فليجرب المجربون وليختبر المختـــرون ليروا صحة ما أقول. فكلما كان الانسان أقرب الى التقوى والاعمـــال الصالحات ، نقيَّ الثوب ، طاهر الضمير كان اعتقاده بما بعد الموت وبالمعاد أقوى وأمتن . حتى وان لم يكن قد بلغته دعوة الاسلام. وكلما تردّى وتسافل كان اعتقاده بالمعاد أوْهَى وأضعف . « ولا تُطع كل خلاف مهين همَّاز مشَّاءٍ بنميم ، منَّاع للخير مُعتد أثيم ، عُتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ؛ اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين » [1] . ( همَّاز أي كثير الطعن . عُتلّ : جافّ غليظ . زنيم : دَعيّ ، منسوب لغير قومه ــ أساطير : ما سطوره من خرافاتهم ) .

لذلك يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله ،بعد نزول سورة النصر ، فيقال له : يا رسول الله ، أوَ تبكي ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فيقول : « أين هولُ المطّلع وأين ضيقة القبر ، وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال » . وهو القائل : « معاشرَ الناس : انه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيرا أو يصرف عنه به شراً الا العمل . أيها الناس لا يدع مدع ولا يَتمن مُتمنٍّ ، والذي بعثني بالحق نبياً ، لا ينجي إلا عمل صالح مع رحمة ، ولو عصيتُ لهويتُ » .

فقضية ايمان الفرد بما بعد الموت من عوالم الآخرة والايمان بسؤال الملكين : ( منكر ونكير ) في القبر عن ربه وعن دينه ونبيه وإمامه وصلاته

---

(١) سورة القلم : ٨ ــ ١٦ .

و ... الخ . وكذلك الايمان بالصراط [١] والميزان [٢] وتكلم الجوارح [٣] وتطاير الكتب [٤] والحساب يوم البعث [٥] والجنة والنار والشفاعة والحوض [٦] وهكذا الايمان بكتابة الاعمال [٧] إنما هي قضية طهارة النفس

---

(١) الصراط : هو جسر جهنم ، يمر عليه جميع الخلائق ، فالمطيع يجوزه الى الجنة ، والعاصي يهوي به فى النار .

(٢) الميزان هو ما يقابل فيه بين الحسنات والسيئات ، وليس هو بميزان مجسم . قال الله تعالى : « والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » . ( سورة الاعراف : ٨ ) .

(٣) تكلم الجوارح : اي ان اعضاء الانسان تتكلم يوم القيامة بأمر الله واذنه، وتشهد على صاحبها بما فعله فى الدنيا من الذنوب ، وهو على كل شيء قدير » قال تعالى : « اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » . ( سورة يس : ٦٥ ) .

(٤) ومعنى تطاير الكتب : هو ان الله تعالى بعد ان يحاسب العباد يوم القيامة يخرج لكل واحد منهم كتابا يلقاه منشورا . فيطير كل كتاب الى صاحبه، فيجد فيه كل ما عمل فى دار الدنيا ، « لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها » . فيقال له : اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . ( سورة الاسراء : ١٤) ... « واما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى اهله مسرورا . وامامن اوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوثبورا ويصلي سعيرا». ( سورة الانشقاق : ١١ ) . والثبور معناه : الهلاك ، اي يدعو الله ان ينزل عليه الثبور) .

(٥) معناه : ان الله تعالى يحاسب العباد بعد بعثهم من قبورهم واحيائهم بعد موتهم على أعمالهم التي عملوها فى دار الدنيا . ثم يجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . ( سورة الزلزال : ٧ — ٨ ) .

(٦) هو حوض النبي (ص) يوم القيامة . عرضه ما بين ايلة ( بلد بين مصر والشام ) وصنعاء . فيه من الاباريق عدد نجوم السماء . والساقي عليه امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) من شرب منه شربة لايظمأ بعدها ابدا .

(٧) ومعنى ذلك : ان الله تعالى وكل بكل مكلف من عباده ملكين بالنهار وملكين بالليل ، احدهما على اليمين ، يكتب الحسنات ، والآخر على الشمال ،

وتزكيتها . فكلما كانت النفس طاهرة ، زكية صالحة ، زاد اعتقادها بالآخرة وعوالمها وتمنت الموت ، وكلما كانت النفس ظالمة خالكة مظلمة ، كانت جاحدة عوالم الآخرة ، فلا تتمنى الموت ، « ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » . ( سورة الجمعة ٧ ) ومنهم من ينسب جحوده هذا الى العلم الحديث تبريرا لموقفه ، والعلم قديمه وحديثه من كل ذلك براء . فما نعهم أن العلم الحديث أنه لا يتفق التقوى والايمان بالله ، وانما تلقى مواضيعه على الطلاب مع تنزعة الحادية مجردة عن الغزو ذلك الى قدرة الله تعالى وجليل صنعه . عدا ما هنالك من مجالات وجريات ، تفسد الشباب وتذهب بحيائه الطبيعي ، فاذا ذهب الحياء ذهب الايمان معه ، وقد جاء في الحديث : « لا ايمان لمن لا حياء له » .

* * *

أرأيت رجلا عليه سيماء الخشوع والخضوع ، ترتاح نفسك عند النظر اليه ، يلهمك التقوى ويجعلك تفكر في مصيرك وعاقبتك ، ويذكرك الله وتطمئن اليه نفسك . أرأيت كيف يأخذ بمجامع قلبك ، فلا يختلج في صدرك عند النظر اليه ما يفسد القلب ويلوث النفس !

أرأيت رجلا يخشع قلبه عند سماع ذكر الله تعالى وتدمع عيناه ، ارأيت رجلا غزير الدمعة جوف الليل من خوفه تعالى كيف يؤمن بالآخرة ويراها واضحة لاغبار عليها . انه أحد اولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله : « وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها

---

يكتب السيئات ، فيكتبان جميع اعمال العبد ، قال تعالى : « وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » . ومن هم بحسنة كتبت له حسنة ، فاذا فعلها كتبت له عشر حسنات . ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ، فان فعلها امهل سبع ساعات ، فان تاب منها لم تكتب عليه ، وان لم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة . قال الله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ، وهم لا يظلمون » . ( سورة الانعام : ١٦٠ ) .

فهم فيها معذّبون » . لذلك ورد في دعاء يقرأ بعد نافلة المغرب : « اللهم اني أعوذ بك من نفس لاتقنع وبطن لاتشبع وعين لاتدمع وقلب لايخشع وصلاة لا تُرفع وعمل لاينفع ودعاء لايُسمع ... » .

كان يأتي بعض الاعراب محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيّاه : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » . ولقد جربت ذلك في بعض من مَنّ الله عليهم بتوفيق الهداية . فبعد أن كان وجه أحدهم مكفهرا ذا تقاطيع خاصة لاترتاح اليها النفوس اصبح بعد التوبة والإنابة وضاءً يستلهم الناظر منه الخير والطمأنينة .

ولكن نفسا يتطاير منها الشر والشرر والطيش والجور والبغي ، نفسا متكبرة متحجرة ، تشمئز منها نفسك ، إن كانت قد بلغت مرتبة من التقوى . فلو نظرت الى وجه هذا الشخص لألفيته وجها مكفهرا ، حالكا لا ترتاح النفوس عند النظر اليه . إن نفسا كهذه لاتؤمن بالآخرة ولا تصدق بالبعث، بل ديدنها الاستهزاء بالمقدسات وشعارها التكذيب بآيات الله تعالى .

« إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم ان الله يعـــلم ما يسرون وما يعلنون انه لايحب المستكبرين » . ( سورة النحل : ٢٢ ، ٢٣ ) . .

وهكذا لاتؤمن بالآخرة نفوسٌ دَيدَنها الخديعة والمكر والغدر . نفوس تنتهز الفرص لإيقاع الآخرين في المهالك . إن نفوسا كهذه لتفرح عندما تنجح في مكرها وخداعها وتظن أنها قد فتحت جبهة من الجبهات أو جاءت بأمر خطير . وقد فاتها أنها خانت نفسها وأبعدتها عن ساحة القدس . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منا من ماكر مسلما » . وقال امير المؤمنين علي عليه السلام : « لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس » .

أو تَرى نفسا هـــذا دَيدنها تؤمن بالحساب والجزاء وتوقن باليوم

الأخر . « كلا ، بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون » . « قتل الخراصون[١] الذين هم في غمرة [٢] ساهون . يسألون أيانَ يوم الدين ؟ يوم هم على النار يُفتنون [٣] ذوقوا فتنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » . ( سورة الذرايات : ١٠ — ١٤ ) .

فقضية التصديق بالبعث ليست قضية عقل ومنطق فحسب ، وإنما العقل يحجب بالذنوب ، فتنكر النفس الملوثة كل ما كان التصديق به أمرا طبيعيا فطريا . « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » [٤] .

ومنطق هذا الانسان ان كان قد لوث نفسه بالذنوب قد يصدق بالله واليوم الآخر ويعترف بالمقدسات برهة ضئيلة من الزمن عندما تُملى عليه البراهين . إلا أنه سرعان ما يغلب على النفس المتسافلة شيطانها فيأتي دور الإنكار والجحود بقوة وشدة لامزيد عليها : «ثم نكسوا على رؤوسهم »[٥] . « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » [١] .

فقضية التصديق بالبعث هي قضية تقوى ونفس زكية قبل كل شيء على حد قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدىً للمتقين : الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وقد أخذ بعض علماء النفس المحدثين يعترف للنفس الانسانية ببعد رابع : وهو الاعتقاد بالله واليوم الآخر بصورة فطرية . وهذا يشبه (الزمان)

---

(١) الكذابون .
(٢) غمرة : جهل يغمرهم .
(٣) يفتنون : يعذبون .
(٤) سورة الروم : ١٠ .
(٥) سورة الانبياء : ٦٥ .
(١) سورة النمل : ١٤ .

الذي جعله ( آينشتاين ) بعدا رابعا لقياس المسافات الشاسعة ومقدار الكتلة والحجوم في تلك المسافات النائية ، عدا الأبعاد الثلاثة في واقع العلم الحديث أخذ يقترب مما أملاه الانبياء عليهم السلام على البشر وما أخبرونا به عما وراء الطبيعة . ( ٣١ — ٥١ : ت ا ا ا ا )

واني لأتذكر جيدا ، أني قرأت ذات يوم خطاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا عشيرته الاقربين : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو : إني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان إحسانا وبالسوء سوءاً ، وانها للجنة أبداً أو النار أبدا » . على مدرس في إحدى الثانويات ، فوضع اصبعه على هذا الخط : ( ولتبعثن كما تستيقظون ) قائلا : « إن في قلبي شيئا من صحة هذا الكلام » ! وأظهر أنه غير موقن بالمعاد . فسألت عن عمله ، فعلمت أنه اندمج اخيرا في زمرة مَن بعّدهم الله عن رحمته ، ولكن الله تعالى شاء له ان يموت على الايمان . فضاقت أموره وتردّت صحته ، فرجع شيئا فشيئا عن غيّه وطيشه ، فصار يؤمن بالبعث « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (١) .

وكم في النكبات من فوائد وعبر ورجوع الى اصلاح النفس ومعالجتها وأوبها الى التوبة والانابة . فعن الرسول صلى الله عليه وآله : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل همٍّ فرجا ويرزقه من حيث لايحتسب » .

وفي حديث آخر : « من تاب قبل أن يغرغر (٢) تاب الله عليه » .

---

(١) سورة الاعراف : ١٦٧ .

(٢) غرغر : جاد بنفسه عند الموت .

وهذا خير دليل على عظيم لطفه تعالى وفتحه باب التوبة الى آخر لحظة من حياة العبد ، إلا أن العبد سوف لا يوفق الى التوبة إن رانت الذنوب على قلبه وغلبت وطبعت عليه . « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (٩ / ٨٨) والران أو الدنس الذي استولى على القلب فلا يدع مجالا لرؤية الحق والواقع ومعالجة النقص المتأصل في النفس ، فيرى الفرد إذ ذاك الحقائق أساطير وخرافات على حد قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣ / ١٤) .

وقال تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الاولون ، قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الاولين قل لمن الارض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون » (٣) .

فبالتقوى يعمر القلب ويزول عنه الصدأ ويرتفع حجاب الظلمات ، فلا يعتبر بآيات الله وما أنزل على رسله إلا المتقون ، « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم » (سورة يس : ١١ ـ ١٢) .

ولا بأس بذكر هذا الحديث لأهميته ، يستفيد منه من أمن الله عليه بتوفيق الطاعة ، فأدرك فلسفة الدين ، فلسفة قد لا تتفق في جوهرها مع ما عليه كثير من الناس اليوم من معاني الدين ، ولكنها تفسير لما ذكر الله تعالى في كتابه المنزل :

---

(١) قال أبو عبد الله عليه السلام : « كان فيما وعظ به لقمان ابنه : يا بني ، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم ، فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من

(٣) سورة المؤمنون ٢٣ : ٨٢ ـ ٨٨ .

جمعوا له . وإنما أنت عبد مستأجر . قد أمرت بعمل ووُعدت عليه أجرا . فأوفِ عملك واستوفِ أجلك . ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر ، فأكلت حتى سمنت ، فكان حتفها [١] عند سمنها . ولكن أجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جُزتَ عليها وتركتها ولم ترجع اليها آخر الدهر . إخربها ولا تعمرها ، فانك لم تؤمر بعمارتها ، واعلم أنك ستسأل غدا اذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك في مَ (فيمَ) أبليته [٢] وعمرك فيمَ أفنيته ، ومالك مِمَّ اكتسبته وفيمَ أنفقته ، فتأهب لذلك واعدّ له جوابا . ولا تأس على ما فاتك من الدنيا ، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤها . وكثيرها لايؤمن بلاؤها ، فخذ حذرك وجدّ في أمرك ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرض لمعروف ربك ، وجدد التوبة في قلبك ، واكمش [٣] في فراغك ، قبل أن يقصد قصدك [٤] ويُقضى قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريده » .

ولقد عرفت شخصا ذرّف على الستين ، كان في ريب من وجود الإمام الثاني عشر : الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه ، وانه حي يُرزق ، وسيظهر حين يأمره تعالى ، فيملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا . وكان يخالجه شك عندما يفكر في كيفية المعاد . وعندما رجعت الى ما أعلمه من معاملاته السابقة ، علمت أن ضعف عقيدته ناتج عما قام به من أعمال غير مرضية عند الله تعالى . إلا أنه ، والحمد لله ، قام باصلاح نفسه أخيرا للتكفير عما اجترحت يداه من ذنوب بعزم رصين . ويوشك ان يرجع الى ما كان عليه في صغره من عقيدة راسخة بحياة الحجة عجل الله تعالى فرجه

---

(١) حتفها : هلاكها .

(٢) الثوب البالي هو الذي استعمل حتى اشرف على الاندراس . ابلى الثوب : صيره باليا .

(٣) الكمش : السعي ، اي أسرع وعجل .

(٤) قصدك : نحوك ، كناية عن توجه ملك الموت ليقبض روحه أو توجه أمراض وبلايا من الله اليه .

وبالمعاد . وذلك بعد تطهير نفسه وجعلها غير مشوبة بالذنوب ، فقد جاء في الحديث : « التائب عن الذنب كمن لا ذنبَ له » .

* * *

يرى هذا الانسان من الكمال الذي أودعه الله تعالى في خلقه : أن جعل تردُّد [١] صوت الرجل (١١٠) في الثانية وتردد صوت المرأة : ( ٢٢٠ ) في الثانية ، ليكون صوت المرأة أجمل وألطف من صوت الرجل . فينجذب الرجل اليها وتكون بينهما مودة ورحمة ، فيسكن اليها وتسكن اليه [٢] . فلا يتصدى الرجل الى ما حرم الله ودنَّسه من فسوق وفجور وشذوذ جنسي يدل على ضعة النفس وتدنسها وتلوثها وبُعدها عن الكمال كل البعد فيتسافل الى أسفل سافلين وبئس المصير . فكل ما حرم الله تعالى انما هو في ذاته ملوِّث ، دنس يضاد الكمال وطهارة النفس ، فقد جاء في الحديث : « من قبَّل غلاما بشهوة ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » . ولذلك يقول الله تعالى لردع الناس عن الشذوذ ومنعهم عما يضاد طهارة النفس ويؤدي انى التسافل والى شذوذ جنسي :

« وأتوهنَّ من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» . فمنع الله تعالى بكلمة ( المتطهرين ) عن كل شذوذ وكل ما يخالف الذوق السليم الطاهر ويخالف سنة الكمال الذي يريده الله لعباده ولجميع ما خلق . وأيد ذلك تحقيقا للكمال الانساني وتوضيحا لقوله : « من حيث أمركم الله» بقوله : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شئتم وقدموا لأنفسكم ، واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين » . فنهى الله بقوله : « نساؤكم حرث لكم » عن كل شذوذ يخالف تحقيق مفهوم ( الحرث ) ، وحذر الازواج عن

---

(١) التردد فى الثانية : هو عدد اهتزازات الجسم الصائت أو ( المهتز ) ، أو عدد ذبذباته الكاملة فى ثانية واحدة . كما نشاهد ذلك فى الشوكة الرنانة .

(٢) « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . (سورة الروم : ٢٠) .

هذا الشذوذ للقيت الجزم مع نسائهم بقوله تعالى : « واعلموا أنكم ملاقوه » . وبقوله : « وقدموا لأنفسكم » كي لا يتساهل هذا الانسان بتدنيس نفسه وتلويث فراشه ، فيتعدى حدود التكامل الذي أراده الله لعباده في هذه الدنيا . وكذا الحال في كل ما نهى الله تعالى عنه في محكم كتابه الكريم .

فروح الاسلام هي التكامل والكمال في (جميع) مرافق الحياة : من اجتماعية وفردية وغيرهما . هذا ما نلاحظه في كتابنا المقدس ، القرآن العظيم الذي « فيه تبيان لكل شيء » وهو القائل : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (١) (سورة الأنعام : ٣٨) .

* * *

إن التكامل غاية الغايات في هذا الكون (٢) . فمن أيقن به علم انه لابد وأن تكون وراء هذه الحياة القلقة (المضطربة) حياة طمأنينة ودعة وهدوء وسرور ، وأن وراء هذه الحياة الناقصة حياة كاملة ، بكل ما في الكمال من معنى . ليس لهذا الانسان أن يتصور مداه ما دام في هذه الدنيا .

لذلك يخبرنا الله تعالى عن حتمية يوم البعث في هذه الآية التي تدل على ما أودع الله من تكامل تدريجي عجيب في كل جزء من أجزاء هذا الكون ، لاسيما تشكلات الجنين الذي هو معجزة الله في أرضه من معاجز لا تتناهى . الله تعالى يقول : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة (٣) وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

---

(١) ( ) ما فرطنا في الكتاب من شيء : ما تركنا من شيء .

(٢) قال رسول الله (ص) مخاطبا عليا (ع) : يا علي ، أربع من يكن فيه فقد كمل إسلامه : الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق .

(٣) مصورة تامة الخلق .

وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق ، وانه يُحيي الموتى وانه على كل شيء قدير • وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث مَن في القبور » [٢] •

فطوبى لنفوس تُدرك الكمالَ المودع في هذا الكون وكيف ان الله أحاط الجنين بظلمات ثلاث ، أي بثلاثة أغشية صماء لاينفذ منها الماء والضوء والحرارة [٣] وذلك بقوله : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » [٤] • ان نفوسا كهذه تنزه الله تعالى عن كل نقص وتسبِّحه ليلَ نهار ، لاسيما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب :

« وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب • ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » [٥] • « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » [٦] •

وذلك لان التسبيح يوحي ان الله تعالى منزه عن كل نقص وعن كل عيب وانه في غاية الكمال وما يصدر عنه أيضا في غاية الكمال ، فمعنى ( سبحان الله ) أي ان الله منزه عن كل نقص وعيب وهو في غاية الكمال ، وما يصدر عنه كامل لانقص فيه • فتكامل هذه الحياة الدنيوية بالحياة الأخروية الدائمة السعيدة • ولذلك كانت التسبيحات الاربعة : ( سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ) في الركعتين الآخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء أفضل من تلاوة سورة الفاتحة •

* * *

ثم إن البعض يستبعدون امكان البعث ، بعد أن تبلى الاجساد من

(٢) سورة الحج : ٤ •

(٣) وهذا ما توصل اليه اخيرا العلم الحديث ، وتسمى الاغشية المذكورة باسم : المنبارية والامنيونية والخوربونية •

(٤) سورة الزمر : ٦ • ق

(٥) سورة ق : ٣٩ •

(٦) سورة طه : ١٣١ •

الناحية المادية • حين أن الله تعالى قد خلق في هذا الكون مقادير هائلة من الايدروجين والأوكسيجين والكاربون والكلس والحديد الى ما هنالك من عناصر لتكوين القسم المـادي من البدن الانساني وخلق طاقات بمقادير لاتحد • فباستطاعة الله تعالى أن يُرجع لكل انسان بدنه المكون من نفس العناصر فلا فرق بين عنصر وعنصر وبين ايدروجين وايدروجين آخر • وبين حديد وحديد آخر • فيكوّن الله تعالى مما خلق أو ما يريد خلقه بمقدار لايتناهى من حديد وايدروجين وعناصر أخرى الاجسامَ أو الابدان التي كانت الارواح تحل فيها وتسيطر عليها لمحاسبتها يوم البعث • ولا يُحاسب إلا الروح • أما البدن فيعذّب ان كانت الروح التي تحل فيه عاصية لله • فتشعر الروح بهذا العذاب • ومما لا مراء فيه أن عمليات الهدم والبناء في الكيان العضوي لاتدع مجالا لبقاء عضو محافظا على نفس الخلايا والانسجة، ذلك لان الخلايا والانسجة تتجدد وتتبدل من حين الى آخر فلا يبقى البدن الانساني على ما هو عليـه من حيث العناصـر أو الخلايا والانسجة • أي ان الخلايا والانسجة بما فيها من عناصر تتبدل من حين الى آخر •

يقول الله تعالى في ( سورة المؤمنون : ١٢ ) : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » • أي من خلاصة سُلّت من بين الكدر ومن خلاصة أخذت من الطين • ومعنى ذلك ان الانسان انما خلق من مجموعة عناصر شتى : ( كاربون ، أوكسجين ، ايدروجين ؛ فوسفور ؛ كبريت ؛ آزوت ؛ كالسيوم ؛ پوتاسيوم ، صوديوم ؛ كلور ؛ مغنيسيوم ؛ حديد ؛ مانغانيز ( منگانز ) ، نحاس ، يود ( ايود ) ؛ فلورين ؛ كوبالت ؛ التوتيا : ( Zinc ) سلكون ، ألمنيوم • وان هذه العناصر هي العناصر المكوّنة للتراب •

ويقول تعالى في آية أخرى : « خلق الانسان من صَلصال كالفخار » • والصلصال هو الطين اليابس • والطين هو التراب الذي أضيف اليه الماء وفي آية أخرى : « من صلصال من حماء مسنون » •

ولا شك أن اتحاد الحيوان المنوي ، الذي يفرزه الذكر ، بالبويضة ؛ التي تفرزه الأنثى ، هو الذي يكوّن نطفة الانسان . أي ان نُطفة الانسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي ( من الذكر ) بالبويضة ( من الانثى ) . والحيوان المنوي والبويضة كلاهما يتولدان من الدم ، والدم يتولد من الغذاء الذي يتناوله الانسان ، وهذا الغذاء اما نبات أو حيوان أو ماء . وكلها متكونة من عناصر التراب . أي من ( ايدروجين ، فوسفور ، كبريت ، سلكون ... الخ ) . إذن قد خُلق الانسان من تراب . ذلك لان ما في بدن الانسان من عناصر شتى ( تلك التي ذكرناها ) كلها موجودة في التراب . وهكذا أثبت العلم الحديث ان الانسان مخلوق من تراب على ما جاء في كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . وهذه احدى معجزات القرآن الكريم .

وهو القائل : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » [1] . وفي آية أخرى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن ، فيكون » . وليس للعلم الحديث أن يتوصل الى أن قول الله تعالى ( كن ) كيف يؤدي الى وجود موجودات شتى وكيف قوله : ( كُن ) أوجد التراب بعد مراحل شتى ، أرادها الله تعالى عند قوله : ( كن ) : اي اراد الله تعالى أن تتحقق كل هذه المراحل فيتكون إذ ذاك هذا التراب . ثم كيف قول الله تعالى للتراب أو للطين : ( كُن ) ، أوجد هذا الانسان بروحه وعقله الجبار : « ما أشهدتهم خلقَ السماوات والارض ولا خلق انفسهم » [2] . ( سورة الكهف : ٥٠ ) .

---

(١) سورة الروم : ١٩ .

(٢) يرى العلم الحديث ان الكون بدأ من سديم : بدأ من ضباب رقيق ، من غاز وتراب وعفر . وتجاذبت جزيئاته وتجاذبت حباته بحكم قانون الجاذبية العام ، فتقاربت وهي من بعد تقارب تكتلت والتكتل انضغاط والانضغاط حرارة. وحسب رأي العالم الفلكي السويدي : ( هانس ) أن المجالات المغناطيسية لعبت

ذلك لان العلم الحديث : لايتجاوز حدود المحسوسات ، وأنى له أن يتعرف الى ما وراء الطبيعة والى حقيقة الروح وكيفية خلقها من جانب الله تعالى وكذلك العقل ، وما معنى التحليل العلمي في أمور تتعلق بما وراء المادة والطبيعة ، ذلك لان العلم الذي يُستند اليه في التحليلات العلمية أنما هو علم مادي ناقص ، فلا يمكن تحليل القضايا غير المادية على ضوء العلم المادي الناقص ! كما أن ما وصل اليه العلم الحديث في بعض الامور النفسية إنما هو مظاهر وآثار لا ربط لها بحقيقة النفس وعوالم الارواح وما وراء الطبيعة ، وهو مع ذلك في آخر درجة من النقص ! فلا معنى اذن لاستعمال كلمة : ( التحليل العلمي ) بالنسبة الى ما هو مما وراء الطبيعة ، إن كان يراد بهذا العلم : العلم المادي ، أو العلم بظواهر المادة وظواهر الحوادث المادية من فيزيائية وكيميائية .

وزيادة في التوضيح نقول : إن العلم الحديث لايزال عاجزا عن التعرف الى حقيقة الجاذبية وهي ظاهرة يعترف بها وبقوانينها ودساتيرها : ( دستور اسحاق نيوتن ، دساتير آينشتاين المعدلة لدستور نيوتون ... الخ ) . وهكذا نرى ليس للعلم الحديث أن يمد يداً الى ما وراء الطبيعة ويعطي رأياً صحيحا عنه ، وهو يعترف بالعجز عن التعرف الى ما هو غير مادي وحتى الى

---

دورا هاما في تكتل السدم . وقد تباينت العناصر في هذه السدم وتحركت في المجالات المغناطيسية ، فنجم عنها الحركة الميكانيكية التي هي اساس التكتل والتشكل وصياغة المجاميع الشمسية . وقد انتهى في تحقيقه وبحثه أن تكون الكواكب لأغلب الشموس هو الحال السوي الطبيعي لها . وقال : « ان الحساب يشير الى أن نجما بحجم شمسنا يكون له كواكب ، ثالثها يكون بمثل حجم الارض ، ومكونا من مثل عناصرها ، وعلى حال كحالها » . ومعلوم أن الارض ثالث كواكب الشمس . « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . ( سورة الملك : ٣ ) والكواكب كلها تدور حول نفسها وكذا الشمس ، وكلها تدور حول نفسها في اتجاه واحد من الغرب الى الشرق .

حقيقة المادة أو حقيقة العناصر : كالآزوت والايدروجين . . .

فالحديد مثلا مؤلف من ذرات وكل ذرة مكوّنة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات ، والعلم الحديث يعترف بعجزه عن بيان حقيقة الالكترون وماهيته وكذا عن حقيقة البروتون وحقيقة النيوترون وكلها قوى وليست من المادة في شيء .

فإذن : العلم الحديث عاجز من أن يُبدي رأيا صحيحا عن حقيقة المادة!؟

فالماديون يتمسكون بشيء هم عاجزون عن التعرف اليه وتفهم حقيقته : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . ( سورة النجم : ٢١ ) .

* * *

ثم ان الله تعالى يُنطق يومَ القيامة هذه الاعضاء من : لسان ويد ورجل ! وهي هي دونما فرق . لان الكاربون الذي يشكل البدن هو نفس الكاربون الذي كان يشكل بدن هذا الانسان وهو في عالم الدنيا . وهكذا بالنسبة الى بقية العناصر التي كان يتكون منها البدن الانساني : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما يعملون » . ( سورة النور : ٢٥ ) .

« ويوم يُحشر اعداءُ الله الى النار فهم يوزعون ، حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون » . ( سورة فصلت : ١٩ — ٢١ ) .

والدليل على عدم بقاء نفس هذه العناصر المؤلفة للبدن الانساني قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ، ليذوقوا العذاب ، ان الله كان عزيزا حكيما » . ( سورة النساء : ٦٠ ) .

ويقول الله تعالى ردّاً على أولئك الفلاسفة ! الجهلاء الذين كانوا يرون اعادة الابدان مستحيلا يومَ البعث بعد البلى والاندثار : « أفعيينا بالخلق

الاول [١] بل هم في لَبس من خلق جديد » [٢] . ( سورة ق : ١٥ ) .

* * *

وأرى من المناسب أن اذكر هنا فضيلة صلاة علّمها رسول الله ( ص ) جعفرا الطيار (رض) . فهي صلاة لها تأثيراتها العجيبة في النفوس من حيث الاعتقاد بالمعاد وبكل ما يؤدي الى تكامل هذا الانسان . وأوصي كل من يشك في عوالم الآخرة : من سؤال منكر ونكير والبعث وتطاير الكتب والميزان والصراط ... الخ أن يواظب عليها ، لاسيما يومَ الجمعة قبل الزوال . فإنها العلاج الوحيد لقمع الشكوك والاوهام أو بالاحرى نطرد الشيطان ووساوسه وشَركه وحبائله ، ولحصول اليقين بيوم الجزاء وبكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فليجرب من شاء . فإن التجربة سند العلوم الحديثة والاساس الذي تبتني عليه المكتشفات . فليجرب من شاء وليُعلن نتيجة تجربته كي يقتفي به الآخرون ، فيكونوا من الناجين [٣] ، « يومَ لاينفع مال ولا بنون إلا

(١) اي : عجزنا من أن نخلق الاشياء من العدم ، ذلك لان المخلوقات كلها انما خلقت من جانب الله تعالى لا من شيء سابق بل من العدم وبقوله تعالى : كن . وقد قال علي (ع) عندوصفه كيفية خلق اللهالخلق « الذي ابتدع الخلقعلى غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه » . وقال ايضا : « انشأ الخلق انشاء وابتدأه ابتداء بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها » . وقال عليه السلام فى صفة خلق آدم عليه السلام : « ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت ... الخ » .

(٢) اي بل هم فى شك من أن نخلق من جديد ما بلى واندثر وهذا دليل على أن البدن يخلق عند البعث من جديد .

(٣) فى ما أوصى النبي ( ص ) عليا ( ع ) : يا علي ، ثلاث موبقات ، وثلاث منجيات . فأما الموبقات : فهوى متبع وشح مطاع واعجاب المرء بنفسه . واما المنجيات : فالعدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وخوف الله فى السر والعلانية كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . ( القصد : نقيض

من أتى الله بقلب سليم » . يومَ « تشخص [٢] فيه الابصار . مهطعين [٣] مقنعي [٤] رؤوسهم لايرتد اليهم طرفهم [٥] وأفئدتهم هواء » [٦] .

تسمى صلاة جعفر الطيار رضي الله عنه بصلاة التسبيح . وهي من المستحبات المؤكدة . فعن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام : أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : ألا أمنحك ، ألا اعطيك ، الا احبوك . فقال جعفر : بلى ، يا رسول الله . قال : فظن الناس أنه يعطيه ذهبا وفضة . فتشوق الناس لذلك . فقال له : « اني أعطيك شيئا ان أنت صنعته كل يوم كان خيرا لك من الدنيا وما فيها . فإن صنعته بين يومين غفر لك ما بينهما أو كل جمعة أو كل شهر أو كل ستة اشهر غفر لك ما بينهما » .

وهي اربع ركعاتٍ بتسليمتين . أي كأنه يصلي صلاة الصبح مرتين : كل ركعتين بسلام .

ينوي قائلاً في خلده : أصلي ركعتين قربة الى الله تعالى . يقرء في الركعة الاولى سورة الفاتحة : ( الحمد ) وسورة أخرى والافضل أن يقرأ في الركعة الاولى بعد الحمد ، سورة ( اذا زلزلت الارض زلزالها ) ، وبعد الإنتهاء من السورة يقول : ١٥ مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

ثم يركع ويقول هذه التسبيحات : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » عشر مرات .

---

الافراط : أي الاعتدال ) .

(٢) لهول ما ترى . يقال : شخص بصر فلان ، أي فتحه فلم يغمضه .

(٣) مهطعين : مسرعين .

(٤) مقنعي : أي رافعي .

(٥) طرفهم : بصرهم .

(٦) سورة الحجر : ٤٥ .

ثم يرفع رأسه من الركوع ويقول نفس التسبيحات وهو واقف : ١٠ مرات .

ثم يسجد السجدة الاولى ويقولها ١٠ مرات .

ثم يجلس بين السجدتين ويقول التسبيحات نفسها : ١٠ مرات .

ثم يسجد للسجدة الثانية ويقولها ١٠ مرات .

ثم يرفع رأسه من السجدة الثانية ويقولها وهو جالس : ١٠ مرات .

فيكون مجموع التسبيحات في الركعة الاولى : ٧٥ مرة وهكذا في الركعة الثانية ، وهكذا في الركعة الاولى من الصلاة الثانية ، وهكذا في الركعة الثانية من الصلاة الثانية . فيكون مجموع التسبيحات في الركعات الاربع : ٤ × ٧٥ = ٣٠٠ تسبيحة .

ويفضل أن يقرأ في الركعة الثانية ( من الصلاة الاولى ) بعد الحمد سورة : ( العاديات ) .

وبعد الانتهاء من الصلاة الاولى يقوم وينوي كما نوى أولاً للصلاة الثانية : ( اصلي ركعتين قربة الى الله تعالى ) . ويعمل كما عمل في الصلاة الاولى . إلا أن هاهنا يفضل أن يقرأ في الركعة الاولى ، بعد الحمد ، سورة النصر : ( اذا جاء نصر الله والفتح ) . وفي الركعة الثانية ، بعد الحمد سورة الاخلاص : ( قل هو الله أحد ) .

ويستحب أن يقول في السجدة الاخيرة ( أي في السجدة الثانية من الركعة الاخيرة ( أي الركعة الرابعة ) :

« سبحان مَن لبس العزّ والوقار ، سبحان من تعطّف بالمجد وتكرّم به ، سبحان من لاينبغي التسبيحُ إلا له ، سبحان مَن أحصى كل شيء علمه . سبحان ذي المنّ والنعم ، سبحان ذي القدرة والكرم . اللهم اني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الاعظم

وكلماتك التامة التي تمت صدقا وعدلا أن تصلي على محمد وأهل بيته وأن تفعل بي كذا وكذا ... ويذكر حاجاته » . فاذا انتهى من صلاته يستحب أن يقرأ هذا الدعاء :

« اللهم اني أسألك توفيقَ اهل الهدى ، وأعمال أهل التقى ، ومناصحة اهل التوبة ، وعزمَ اهل الصبر ، وحذرَ أهل الخشية ، وطلبَ أهل الرغبة وعرفانَ أهل العلم ، وفقه أهل الورع ، حتى أخافك اللهمَّ مخافةً تحجزني عن معاصيك ، وحتى اعمل بطاعتك عملا استحق به كرامتك ، وحتى أناصحك في التوبة خوفا منك ، وحتى أخلص لك في النصيحة حبا لك ، وحتى اتوكل عليك في الامور كلها بحسن ظني بك .

سبحان خالق النور . سبحان الله وبحمده .

اللهم صلِّ على محمد وأهله وتفضل عليَّ في أموري كلها بما لايملكه غيرك ولا يقف عليه سواك . واسمع ندائي وأجب دعائي واجعله من شأنك . فانه عليك يسير وهو عندي عظيم ، يا أرحم الراحمين » .

وروى لنا مفضل بن عمر أنه رأى ذات يوم الامام الصادق عليه السلام يصلي هذه الصلاة ، فبعد أن اتم صلاته رفع يديه فقال :( يارب ، يا رب ) حتى انقطع نفسه . ثم قال : ( يا رباه ، يلرباه ) حتى انقطع نفسه . وهكذا : ( ربِّ ، ربِّ ) ، ( يا الله ، يا الله ) ؛ ( ياحيُّ ؛ يا حي ) ( يارحيم ؛ يارحيم ) حتى انقطع نفسه ، ثم قال : ( يارحمان ) سبع مرات ، ثم قال ( يا أرحم الراحمين ) سبع مرات . ثم قال : « اللهم اني أفتتح القول بحمدك ، وانطق بالثناء عليك وأمجدك ولا غاية لمدحك . وأثني عليك ، ومَن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجدك ، وانى لخليقتك كنه معرفة مجدك ، وأي زمن لم تكن ممدوحا بفضلك ، موصوفا بمجدك ، عوادا على المذنبين بحلمك . تخلّف سكان أرضك عن طاعتك ، فكنت عليهم عطوفا بجودك ، جوادا بفضلك ، عوّادا

بكرمك ، يا لا إله الا أنت المنان ، ذو الجلال والاكرام » .

يروي لنا المفضل : أن الصادق عليه السلام بعد أن انتهى من الدعاء ، قال لي يا مفضل ، إن كانت لك حاجة ، صلِّ صلاة جعفر وادعُ الله بهذا الدعاء وسَل منه قضاء حاجتك ، فانها تقضى ان شاء الله .

ويجوز الفصل بين الصلاتين اذا أعسرته حاجة ، فانه يصلي ركعتين ويقضي حاجته ، ثم يصلي ركعتين أخريين .

ويجوز تأخير التسبيحات الى ما بعد الصلاة مع الاستعجال . أي يصلي الاربع ركعات ثم يسبِّح .

ولو سهَا عن بعض التسبيحات أو كلها ولم يأت بها في محلها أتى بها في محل آخر مضافا الى وظيفته ، وان ذكر بعد الصلاة قضاها بعدها .

* * *

إن الانبياء عليهم السلام كلهم أخبرونا عن الله تعالى : ان هناك عالما آخر بعد الموت . وان الناس يحشرون جميعا يوم القيامة ، فيؤخذ بالمحسن الى الجنة وبالمسيء الى النار . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ذلك . منها : « وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا » (١) . ومنها : « أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم » (٢) . ومنها : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم » (٣) .

فاذا ثبتت نبوة الانبياء بمعاجزهم وصحة دساتيرهم وتعاليمهم ومطابقتها مع العقل السليم . ثبتت صحة ما أخبرونا به ومنه المعاد .

* * *

وفي الآيات ما يدل دلالة واضحة على وقوع المعاد الجسماني ، أي ان

---

(١) سورة الكهف : ٤٦ .
(٢) سورة يس : ٨١ .
(٣) سورة الروم : ٢٧ .

الناس يحشرون بأجسادهم وبأرواحهم . منها قوله تعالى : « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى ، قادرين على أن نسوّي بنانه » . وانما خص البنان دون سائر الاعضاء لدقةٍ هناك ولاختلاف ما على البنان من خطوط ونقوش على عدد الناس : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

ومنها قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لِم شهدتم علينا » . ومنها : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » .

وأما ما قاله بعض القدماء من الفلاسفة من أن المعاد لايقع جسمانيا وانما هو روحاني بحت ، فذلك لمحدودية ما كان لديهم من معلومات عن الكون المادي والقوى المسيطرة باذن الله على هذا الكون ، وقياس الامور على ما كانوا يرونه في حياتهم من ممكنات . ولو كانوا أحياءً في مثل هذا العصر، عصر الذرّة والمعادلات التفاضلية ، عصر النظرية النسبية والنظائر المشعة ، لعلموا أن آفاق العلم لاتحد وما يراه الانسان في عالم الممكنات مستحيلا في وقت ، يراه ممكنا بعد تقدم البشر في التعرف الى بعض مظاهر الكون وما أودع الله فيه من نظم وخواص وقوانين تبهر العقول .

« وإن تعجب فعجب قولهم ، أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم واولئك الاغلال في أعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » [1] .

* * *

ثم ان الانسان ليرى أن هناك ثلة من الناس بالغوا في الظلم والطغيان حتى أنهم أنكروا وجود الله جل جلاله ، وان الله لم ينتقم منهم في دنياهم ولم يقتصّ للمظلوم من الظالم ، فيحكم ، لعلمه بعدالة الله تعالى : أن هناك عالماً آخر يكافأ فيه المحسن ويعاقب فيه الظالم .

---

(١) سورة الرعد : ٥ .

إن للكبر أثرا عجيبا في ردع الانسان عن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر • إن الله تعالى يقول : « إلهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، انه لايحب المستكبرين • واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين• ليحملوا اوزارهم [٢] كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » [٣] •

فالنفس المتحجرة المتكبرة لاتخشع ولا تخاف عقاب الله تعالى ، فتعصى الله تبارك وتعالى في أرضه • فيقسو القلب نتيجة ذلك الانكار والاستهزاء بما أنزل الله من آيات فتتصورها اسطورة وخرافة : «قالوا أساطير الاولين»• وإن هؤلاء بفعالياتهم السلبية يضلون كثيرا من الناس دون سند علمي : « بغير علم » فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم •

لذلك يسأل ابو عبد الله عليه السلام عن ادنى الالحاد ؟ فيجيب (ع) : « إن الكبر أدناه » •

وعنه سلام الله عليه : «إن المتكبرين يجعلون في صور الذر ، يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب » •

إن المتكبر يعزو جميع المواهب والقابليات الى نفسه ، وهكذا كل ما يتفضل الله عليه من نعم لا تعد ولا تحصى • وهذا جحود وكفر • والكافر مطرود عن ساحة القدس • مبعّد الى حيث يستحق من الدرك الاسفل من النار •

إن الظلم وما يتبعه من كبرياء يسدّان على البشر أبواب الهداية على حد قوله تعالى : « فآمن واستكبرتم ، ان الله لايهدي القوم الظالمين » [٤]•

---

(٢) الوزر : الاثم ، الحمل الثقيل . يزرون : يحملون .

(٣) سورة النحل : ٢٥ .

(٤) سورة الاحقاف : ١٠ .

وهكذا أثر الغش في ابعاد البشر عن الايمان بيوم المعاد . « ويومَ يُعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » . ( سورة الاحقاف : ٢٠ ) .

إن هؤلاء المتكبرين [١] يصمون معطيات العقل السليم بالخرافة . والمنطق بالقدم . ويزعمون أن المنطق البشري قابل للتغيير : فالشيء يكون صحيحا وخطأ في وقت واحد ، ويجتمع الضدان في وقت واحد وفي صقع واحد الى ما هنالك من خرافات بل جنون ما أنزل الله بها من سلطان . ويعدون هذا منطقا جديدا ! وأما المنطق الفطري : هذا المنطق الذي كان هو الاساس في ما اكتشفه البشر من مكتشفات منذ تدوينه علوما شتى ، أي منذ ٢٥٠٠ سنة حتى اليوم ، فهو في نظرهم منطق شكلي ! يالها من مغالطة خادعة ! تخدع السذج والقلوب المريضة وذوي العاهات . انهم يخدعون السذج بكلمة : جديد ! ... تقدم ! .. وكلمة : قديم ! . بالٍ ، خرافة ، رجعية ! .. تأخر ..

ولولا ما دوّنه اليونانيون ومن بعدهم المسلمون من رياضيات وطبيعيات وطب وعلوم أخرى ، استنادا على المنطق الطبيعي . ( هذا المنطق الذي يموّه فيه الشيوعي الواقع والحق فيسميه منطقا شكليا ) ، لما وجد هذا الصاروخ الذي يتشدق به خطيب من خطبائهم حُرم موهبة التفكير الرياضي والتحقيق العلمي ، لما في نفسه من كبر وغرور .

« وقال موسى : « اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » . ( سورة المؤمن : ٢٩ ) . وفي آية أخرى : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . ( سورة المؤمن ٢٨ ) .

أسفاً لنفوس تلوّثت بشتى الجرائم . فوجدت الشيوعية وكرا تستتر تحتها مما حل بها من نقص وضعة في النفس . أسفا لنفوسٍ أمست محجوبة

---

١) وأعني بهم الشيوعيين .

عن رؤية الحق والواقع ومطرودة عن مقامات القدس لما اجترحت من موبقات ومنكرات ، فصارت تتشدق مستكبرة ، مترنمة بكلمة : تقدم ، ثقافة . كأن من لوازم الثقافة والتقدم : الانحلال الخلقي ، والتسافل ، والتفكك عن كل مقياس وانكار الفضائل وبالتالي : انكار المعاد !

لم تفد هؤلاء ما مَنَّ الله عليهم من سمع وبصر وقلب ، لانها أمست لجرائم لا تعدُّ محجوبة عن التطلع الى ما وراء المادة الصماء . فهم ومع الاسف مصداق هذه الآية المباركة : « ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما اغنى سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (١) .

إن الله تعالى جلَّ أن يظلم أحدا . وانما يصل الفرد الى نتيجة عمله : إن خيرا فخير وان شرا فشر . وفي الحديث : « انما أعمالكم تَرِدُ عليكم » . وقد قال الله تعالى : « فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (١) .

وقد جاء في الحديث أيضا : « من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من قفاه وآخر من قدامه يلتهبان نارا » . وفي حديث آخر : « من خاف الناسُ لسانه فهو من أهل النار » . وفي آخر أيضا : « إن في الجنة غرفا يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وافشى السلام » .

إذن ، فطريق الجنة : العمل الصالح مع عبادة مقبولة . وطريق النار هو الفسق والكذب والنميمة والغيبة وترك العبادة وما الى ذلك .

* * *

إن العوالم القدسية ثابتة منذ الازل ، ولا تتبدل حسب الاهواء :

---

(١) سورة الاحقاف : ٢٦ .

(١) سورة الاحقاف : ٣٥ .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والارض » . « وان تطع أكثر مَن في الارض يضلوك عن سبيل الله » . « الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين » . نعم جل ما عند هؤلاء : كلمات فارغة لايستطيعون تحديدها تحديدا علميا ، لا شائبة فيه : الرجعية ، أساطير ، خرافة ، قديم ، بالٍ ، أفيون الشعوب ، الى ما هنالك من كلمات مسلّية !

فالصديق عند هؤلاء أسطورة . والفضيلة خرافة والاعتقاد بما وراء الطبيعة رجعية ، والصلاة تناقض المادية ! الى ما هنالك مما يخالف المنطق السليم الذي نجده في قلب سليم . نجده في نفس فيها شيء من الحياء والتواضع والاذعان للحق وفيها شيء من الفضيلة ومرتبة من السمو . انه تعالى يقول : « يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » .

ولقد تتبعت هؤلاء المهوّسين ، الذين لايركنون في أهوائهم الى ركن ركين ، تتبّعتهم فألفيتهم منفلتين عن الفضائل ، منغمرين في أنواع الرذائل ، فأمسوا لايرون ما هم عليه من كثرة النقائص والمفاسد ، فهم حقا من ذوي العاهات ! « نسو الله فأنساهم أنفسهم ، اولئك هم الفاسقون » [1] .

إنهم عما قريب مصداق هذه الآية الكريمة : « قد مكر الذين من قبلهم، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون » .

فلكل نفس رشحات تتناسب مع درجة كمالها ، ومرتبة تسافلها ، فتكون فلسفتها في الحياة وفيما بعد الممات تابعة لهذه الدرجات وتلك المرتبة : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى واضل سبيلا » . هذه حقيقة الحقائق، حقيقة ما بعدها حقيقة ، تنكرها النفس المتسافلة وتسلّم بها النفس المتكاملة.

فالذي كان دأبه الإفك والاثم وسوء الخلق وجرح الخواطر وايذاء

---

(١) سورة الحشر : ١٩ .

الناس والكذب ، تكون عاقبة أمره : انكار آيات الله تعالى والاستهزاء بما أمر الله ، على حد قوله تعالى : « ويل لكل أفاك اثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصرُّ مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم ، واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم » [٢] . ( أفّاك = كذاب ) .

* * *

إن الشيطان ليعقب أولئك الذين لم يطهروا أنفسهم تطهيرا كاملا قبل نفاد عمرهم الى آخر ساعة من حياتهم فهو لهم بالمرصاد . فقد قال أبو عبدالله عليه السلام : « ما من أحد يحضره الموت الا وكل به ابليسُ من شياطينه مَن يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه . فمن كان مؤمنا لايقدر عليه . فاذا حضرتم موتاكم فلقنوهم : شهادة أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، حتى يموتوا » .

ومما يؤثر كثيرا في أن يوفق الشخص للأقرار بالشهادتين : المواظبة على الصلوات الخمس باخلاص عند مواقيتها كما جاء في مفاد حديث . ف « الناس هَلكى الا العالمين ، والعالمون هلكى الا العاملين ، والعاملون هلكى الا المخلصين ، والمخلصون على خطر عظيم ... الحديث » .

قد ذكر لي أحدهم : أنه كان عند صديق له عندما حضرته الوفاة ، وكان صديقه هذا ممن يصلي ويصوم ويؤدي ما في ماله من حقوق ، ويتقي الله في أموره ، وكان عنده ساعة موته أصدقاؤه الآخرين . فيُلقن شهادة : ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله وأن عليا ولي الله ؛ فلم ينطق بها وأبى ، وأخذ يبصق . ولكن الله تعالى لم يشأ أن يموت الرجل على هذه الحالة ،

---

(٢) سورة الجاثية : ٧ — ١٠ .

فعادت ، بإذن الله ، اليه روحه ، فصحتّه . وسئل بعد ذلك عن عدم اقراره بالشهادة ، فأجاب : « اني كنت أسمع ما ألقنّ به من شهادة . . . ولكني امسيتُ في تلك الآونة عطشانا الى حدٍّ لا يُطاق . فقرّب الى شخص قدحا مملوءاً ماءً ، وأخذ يقول لي : لا تقرّ بالشهادة ، كي أرويك من هذا الماء . فصرت ابصق في القدح كي لا استسيغه . وأشكر الله على انجائه اياي من ذلك الموقف الحرج » .

وهكذا حدث لرجل آخر حينما حضرته الوفاة . فأبى الاقرار بالشهادتين وصار يرمق ببصره الى رف في غرفته فيه اناء مرصع . ثم رُدّت بإذن الله اليه روحه ، وسئل عن عدم اقراره بالشهادتين ، فقال : « اني كنت شديد العلاقة بالإناء المرصّع ، ورأيت شخصا [1] رافعا الاناء وهو يقول لي : إياك أن تقر بالشهادتين . فإني سأرمي به على الارض إن أنت اقررت بهما . ولذلك ترددت في الاقرار رغبة في ذلك الإناء المرصع ، وأشكر الله على إنقاذه إياي » .

وفي الحديث : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » . فطوبى لنفوس تهيأت ليوم : « يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا » [2] ، فلم يقوَ الشيطان على اغوائها حين خروج الروح .

وقد جاء في أخبار آل محمد عليهم السلام : « كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين : عين غضّت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله » . وفي خبر آخر ، في ما أوصى به النبي صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام : يا علي ، كل عين باكية يوم

---

(١) انه الشيطان ، يرافق الانسان الى آخر لحظة من حياته .

(٢) سورة المزمل : ١٧ ، ( يوم يجعل الولدان شيبا : أي كيف تدفعون شر يوم تشيب لهوله الولدان ، تنشق فيه السماء ، ويتحقق وعد الله ) .

القيامة ، إلا ثلاث أعين : عين سهرت في سبيل الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين فاضت من خشية الله » .

وفي الكافي : « اذا قبضت الروح فهي مظلّة على الجسد » .

* * *

ولا بأس بذكر هذه الحادثة ، فهي مفاد الحديث المتقدم . يقال : ان أحد العظماء صاحب المؤلفات العظيمة والخدمات المشكورة تعاهد مع أحد اصدقائه : ان يأتي كل من مات قبلا الى حلم ( طيف ) صديقه ، ليخبره عما شاهده حين موته وبعد الموت . وقد مات هذا العالم الكبير قبلاً ، فلم يَرَه صديقه في منامه حتى مضت سنة كاملة . عند ذلك رآه في حلمه . فعاتبه على تأخره هذه المدة . فأجاب قائلاً : « علامَ تعاتبني يا أخي ، كنت مشغولاً بالحساب ، أحاسب حسابا دقيقا عسيرا » . فأجابه صديقه : « أوَ تحاسب أنت ، مع ما لك خدمات جمة » . فأجاب قائلاً : « كلها لم تفدني » .

ثم قال : « عندما حضرتني الوفاة ، جاءني ملك الموت ، فمسح على رجليَّ فذهب ما بهما من وجع ، وهكذا بقية أعضاء بدني ، فخرجت روحي وصارت تشرف وتطل على البدن . وأهلي يبكون . فصرت أقول لهم : ما لكم تبكون ، وقد ذهب عني ما كان بي من الم . ثم أمرت بتعقيب البدن ، فصرت اتبع بدني حتى واروني في رمسي . فبدأ السؤال ، وصار الملكان يستنطقانني . فأجبت بلطفه تعالى عما سألا . ثم بدأ الحساب ، وأيّ حساب !

فصرت اشرح ما قمت به من أعمال ، قلت : ألفت كتابا ضخما ، وموسوعة اسلامية . فقيل لي : إنك فرحت وسررت عندما مدحوك لأجل ذلك المؤلّف الضخم ومؤلفاتك الاخرى ، فذاك جزاؤك ... الى ما هنالك .

فأوشكت أن اقنط . فقيل لي ، قد ادخرنا لك عملين كانا لوجه الله تعالى لا شائبة فيهما :

إنك عندما ذهبت لمقابلة الملك ، استقبلك رجال الملك ، وأخذت الشرطة تنحي الناس بعنف ، فقلت : إذ ذاك ، ان كان هذا لي ، فاني لا أرضى بذلك ، ورفضت الاستقبال .

ثم ان الملك قدم لك تفاحة في غير موسمها . خرجت من عند الملك ، فبينما أنت سائر في طريقك واذا بولد يتيم صار ينظر الى تلك التفاحة ، فدفعتها اليه لوجه الله [1] . فهذان عملان لك ، لم تقم بهما إلا لوجه الله ، قد أدخرناهما لك ، تدخل بهما الجنة » .

* * *

يقول عدد من الفيزياويين المحدثين : « إن هنالك عالما آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء ، ان العالم الآخر وحدة روحية أو عقلية وما المادة سوى مظهر من مظاهرها ، ان العقل وحده هو الشيء الحقيقي ، وان المادة هي من مخلوقات العقل ! ؟ » . وصاروا يعلنون هذا الرأي بنفس القوة التي أعلن فيها اسلافهم الماديون قبل ٥٠ سنة ، وذلك : أن المادة وحدها هي الشيء الحقيقي ، وان العقل ما هو الا انبعاث طفيف من انبعاثات المادة !! . » .

ويظهر بعد هذا الاعتراف من علماء الفيزياء مع ما فيه من جوانب ضعيفة وخاطئة ، أنهم سوف يؤمنون يوما ما بالبعث والمعاد ، كما اعترف الكثير منهم بخلود الروح وأنها لاتفنى بعد تفسخ المادة . ولقد أصبحت دراسة الروح والنفس موضوعا هاما مرموقا في جامعات العالم . وأخذ العالم يلفظ رويدا رويدا الفكرة المادية الخاطئة معترفا بالروح وخلودها ، وأن

---

(١) « وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » . ( سورة الليل : ٢٠ — ٢٢ ) .

المادة مسخرة من قبل النفس والنفس تستخدمها لأغراضها .

لقد ثبت في الفيزياء ان المادة تتحول الى قوى وطاقات بنتيجة الاشعاع . أي ان المادة تشع فتتحول الى طاقات . كما أن الطاقات ( القوى ) تتكدس بإذن الله تعالى فتكون مادة ( عنصرا من العناصر ) أو جسما من الاجسام . وهكذا النفس الانسانية هي من أجل مظاهر الطاقة . طاقة تختلف عن الطاقات الناشئة عن اشعاع المادة وتحولها الى قوى . فإن النفس تبقى خالدة الى ما شاء الله ، ولا تتلاشى بتلاشي الجسد . لانها ليست مادة حتى تتحول الى طاقات بالإشعاع ، ولانها هي التي تدير الجسد وتؤثر فيه .

ولا تناسبَ بين الروح والجسد تناسبا يؤدي الى اختلاف كما النفس باختلاف الجسد من حيث قوة العضلات وجسامة الاعضاء . والنفس في غنىً عن الجسد في حالات شتى تبرهن ذلك الاحلام ( الاطياف ) وحوادث جمة .

* * *

وقد ذكر لي صديق لي وهو ممن يوثق بكلامه : أنه كان لأحد أرحامه خادمة من اسرة فقيرة عمرها ١١ سنة ، اسمها : أنور ، كانت تصدر منها الاعاجيب : كانت تأخذ من الفضاء ما يطلب منها من فواكه نادرة في غير موسمها ، وتأخذ من الفضاء دراهم كثيرة بصورة سريعة دون أن يكون مما تأخذ من الفضاء أثر في البيت . وهكذا تلبي طلب من يطلب اليها احضار شيء من الخارج بصورة سريعة جدا الى حد يدهش الالباب .

وفي يوم من الايام حبسها سيدها في الغرفة كي لاتقوم بما تقوم به من العجب العجاب ، واذا بها ترى وسط البيت ، فتسأل عن كيفية خروجها من الغرفة والباب مغلق ، فتجيب قائلة : انها قد خرجت من بين شقوق الباب!

كان يصدر من ( أنور ) أنواع الاعاجيب والخوارق ، حتى اذا تزوجت

واصبحت امرأة كغيرها من النساء ذهبت عنها هذه الميزة والملكة الموهوبة وتلك الخوارق العجيبة .

هل للعلم الحديث أن يفسر لنا ما كانت عليه هذه الخادمة من ملكات محيرة للعقول وما كانت تأتي به من أعمال خارقة . وكم من حوادث كهذه الحادثة وأعجب منها تحدث من نساء ورجال في الهند وفي غير الهند وليس للعلم الحديث أن يتكلم فيها بكلمة واحدة .

نحن نعيش في أودية من المجاهيل لاسيما في عوالم النفس ومما يتعلق بما وراء الطبيعة ، ولكن الغرور لايدع مجالا لهؤلاء الماديين للاعتراف بالله خالق الأشياء ومرتبها ومنظمها الى أقصى حد من التنظيم ، تنظيما ، يحيّر الالباب ، وللاعتراف بالآخرة وعوالم ما بعد الموت . . .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، اوَلم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » [1] .

* * *

إن العلم الحديث يوضح لنا بقدرما اطلع على العالم المادي ( وهو ضئيل وضئيل جدا بالنسبة الى ما أودع الله من حقائق ودساتير لاتتناهى في هذا الكون ) [2] ما سيقع قبل يوم المعاد ، ويفسر لنا الى حدٍ ما قوله تعالى « اذا الشمس كوِّرت » .

ذلك ، لان الذرة على ما هو معروف مؤلفة من نواة في الوسط ( وهي مجموعة نيوترونات وبروتونات ) وألكترونات في المحيط أو الاطراف ، تدور حول النواة .

---

(١) سورة السجدة : ٥٣ .

(٢) « ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » .

معدل قطر الذرة = $\frac{١}{١٠ \cdots \cdots}$ من الميليمتر ، أي = $\frac{١}{١٠^{٧}}$ مم

ومعنى ذلك : لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض ( شريطة أن تكون كرويّة كلها ) كان طول هذه الذرات الموضوعة بهذا الشكل ميليمترا واحـداً .

وان قطر نواة الـذرة : ( أي مجموعة البروتونات والنيوترونات )

= $\frac{١}{١٠٠ \cdots}$ من قطر الذرة . ومعنى ذلك أن .

قطر النواة = $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ مم ( من الميليمتر ) .

ولايمكن أن ترى الذرة وهذه النواة مع أقوى الميكروسكوبات الحديثة.

وقد عبّأ الله تعالى قوة هائلة في جوف النواة ، تعرف بالطاقة النووية. فاذا حُرِّرت هذه الطاقة بوسيلة ما ، هدمت ما حواليها ، فلا تبقي ولا تذر.

إن ذرة الـ ( أورانيوم ) مثلا تنشق ، فتتفرق أجزاؤها ، فتنتج مع هذا الإنشقاق الحرارة والطاقة الهائلة ، أما الاجزاء التي أنقسمت اليها الذرة فهي عناصر دون الاورانيوم وزنا ، وإذا فرضنا أننا جمعنا هذه الاجزاء ووزناها لكانت أقل مما استخدم من الـ ( أورانيوم ) وزنا . فأين ذهب الشيء الناقص ؟ انه تحول الى ( طاقة ) ، الى ( حرارة ) والى ( نور ) الى ( إشعاعات أخرى ) . أي ان المادة تحولت الى طاقة وقوى . إن الغرام الواحد من المادة يتحول الى طاقة ، فينتج منها ما يعادل ٢٢ مليون مليون

سعرة [١] من السعرات الحرارية .

فذرة ( الاورانيوم ) تعطي من مادتها ، فتنتج الطاقة بالتقسيم والتجزؤ والتفرق . وذرة ( الإيدروجين ) تعطي من مادتها لا بالتشقق والتفرق ، ولكن بالتجمع ، وهكذا تتحول بعض المادة أو كلها ( مع تقدم العلم الحديث) الى طاقات هائلة جدا .

وقد ثبت أن المادة انما وجدت من تكدس طاقات هائلة أوجدها الله تعالى بقوله : ( كن ) . فترتبت بأمره عناصر تحت نظام بديع وقانون ثابت، وان هذه العناصر تختلف بعضها عن بعض من حيث عدد البروتونات والالكترونات . أي تختلف من حيث بنية النواة وما يدور حولها من ألكترونات . فكانت ، باذن الله وامره ، هذه العناصر المختلفة كالإيدروجين والاكسجين والحديد والراديوم والاورانيوم الى ما هنالك ، فقد عبأ الله تعالى في ملعقة واحدة من الزئبق : طاقة تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الارضية سبع مرات .

وقد جعل الله فضاءً واسعا بين النواة والالكترونات التي تدور حولها . ومعنى ذلك أن الالكترونات في الذرة تبعد عن النواة مسافة شاسعة ( مع حفظ النسبة بين صغر الالكترون والنواة والمسافة التي بينهما وقطر الذرة ). وهذه المسافة ( مع مراعاة النسبة ) بين النواة والالكترونات هي كالمسافة بين الشمس وبين أبعد كوكب سيار يدور حولها .

فاذا انفصلت الالكترونات في يوم من الايام عن الذرات في الكرة الارضية ، وذلك بأمر الله تعالى ، واندمجت البروتونات بعضها ببعض ، ستصبح أرضنا هذه كبرتقالة ثقيلة جدا ، وزنها بقدر وزن أرضنا هذه التي

---

(١) السعرة : مقدار الحرارة اللازم لرفع درجة حرارة ( غرام واحد من الماء ) درجة واحدة مئوية ، أي من درجة ١٤ مئوية ـ مثلا ـ الى درجة ١٥ مئوية.

نعيش عليها ولكن حجمها بحجم البرتقالة .

وان علماء الفلك المحدثين يخبروننا أن الشمس سيكون مصيرها التلاشي وذلك باندماج نواة ذراتها بعضها ببعض . فيتحقق قوله تعالى : « واذا الشمس كورت [١]، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت » [٢] . وذلك من مقدمات يوم المعاد . « يومَ تبدَّل الارض غير الارض والمسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار » . ( سورة ابراهيم ١٥ : ٤٨ ) .

وان قوانين ( ديناميكا الحرارية ) ، أو علم الحرارة الحركية من أبحاث الفيزياء تدل على ان مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ! ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة . وهكذا تدل الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة على أن لها بداية .. وقد أثبت العلم فوق ذلك أن لهذا الكون بداية وأنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة .

* * *

وهكذا سيكون مصير ( القمر ) ، على ما استنبط ذلك بعض علماء العصر الحاضر . فانهم يقولون : يأتي يوم فيتجزأ القمر بالتأكيد ، فيصبح قمرين فأكثر . ثم تنفجر هذه الاجزاء انفجارا هائلا وتستحيل الى ألف شظية أو اكثر ، فاذا قربت هذه الشظايا من الارض تستحيل الى آلاف من الشهب الصغيرة . وقد قال تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . فتبدأ في الارض سلسلة من الزلازل ويشتد نشاط البراكين وتقذف ما فيها الى الخارج وتعمل الهزات في القشرة الارضية عملها ، فتسوى أعالي الجبال وقممها

---

(١) سورة التكوير : ١ . ومعنى كورت هنا أي رفعت .

(٢) انكدرت : اظلمت . سيرت : أي ذهبت .

الى سوية قاع البحار . « ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعيَ لا عوج له ، وخشعت الاصوات للرحمان ، فلا تسمع الا همسا ، يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمان ورضى له قولا » .

* * *

ولقد توصل ثمانية من العلماء ، من رجال الفلك بمرصد : ( مولارد ) نتيجة بحث استغرق ٨ سنوات : أن هذه الارض انما هي شظية من احدى الشظايا التي تطايرت نتيجة لانفجار هائل حدث قبل عشرة آلاف مليون سنة على حد قوله تعالى في ( سورة الانبياء : ٣٠ ) ، أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ( أي كانتا مرتوقتين : مضمومتين ملتحمتين، أي ان السماوات والارض كانتا جميعا كتلة واحدة ) فَفَتَقناهما ( أي ففصلنا بعضها عن بعض وجعلناها شموسا وكواكب ونجوما وأقمارا « توابع للنجوم » ومجرات الى ما هنالك ) .

وقد استعمل هؤلاء في استكشاف الفضاء عدة أجهزة جبارة من بينها تلسكوب ( مِرقب ) وجهاز التقاط للاشارات ، وحكموا أن الكون سوف ينتهي في يوم من الايام . « يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات » . ( سورة ابراهيم عليه السلام : ٤٩ ) .

واعترفوا أن في الكون مسافات هائلة يعجز الذهن عن تخيلها : « والسماء بنيناها بأيدٍ وانا لموسعون » [1] .

كما أثبتوا ان هناك اجساما شمسية ميتة فوق حافة الكون ، وهذا ما يؤكد أن الكون يقترب من نهايته . وهذا هو عين ما درسته عندما كنت طالبا في الجامعة في فرع ( الفيزياء الرياضية العالية ) : من أن الشمس آخذة

---

(١) سورة الذرايات : ٤٧ .

بالافول والتضاؤل والاندثار .

« إن الله عنده علم الساعة ! وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، ان الله عليم خبير » . ( سورة لقمان : ٣٤ ) .

وان هؤلاء العلماء الثمانية توصلوا أيضا الى أن كل الاجسام الموجودة في الكون من كواكب ونجوم وشموس وغير ذلك تنطلق في الفضاء بسرعة خيالية تاركة ثغرة في الوسط .

وانه قد كانت لهذا الكون بداية قطعا ، كما جاء في القرآن الكريم : « أولم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير . قل سيروا في الارض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة، ان الله على كل شيء قدير » (٢) . وان الكون لن يدوم الى الابد وانه يتغير مع الزمن حتى تقترب النهاية ، لشروع عالم آخر تتحقق فيه عوالمه يوم القيامة .

وهكذا ذهب هؤلاء العلماء يعتقدون أن الانفجار الهائل الذي وقع منذ الوف الملايين من السنين في عدة كتل من المادة أسفر عن انتشار شظايا مادية في مختلف الاتجاهات ، ثم تطورت هذه الشظايا الى الكواكب والنجوم التي نراها اليوم .

فنرى أن العلم الحديث يقترب من الاعتراف بما جاء في القرآن الكريم عن البداية والنهاية كلما أتيح له من آلات دقيقة ومعلومات رياضية عميقة . وان معطيات العلم لم تكن لتخالف ما جاء في كتاب الله المجيد الا لضآلة ما وصل اليه العلم وعجز الآلات المكتشفة عن الاستقصاء .

* * *

---

(٢) سورة العنكبوت : ١٨ ، ١٩ .

يعترف العلم الحديث : أن الذرات قد استحدثت منذ زمان لايتجاوز جملة قليلة من بلايين السنين ، وأن عمر أكثر النجوم ٣ بلايين من السنين ، كما أن عمر المحيطات عدد قليل من بلايين السنين وأن النظام النجمي كان موجودا قبل زمن يتراوح بين بليونين وخمسة ملايين من السنين وأن عمر الصخور المختلفة — ونعني بذلك الزمان الذي انقضى منذ أن تصلّبت بعد أن كانت مائعة — ( ١٩٨٠ ) مليون سنة . وقد قدر ذلك بكل دقة بواسطة « الطريقة الزمنية للنشاط الاشعاعي » ( Radioactve - Clock method )

كما عُلم بنفس الطريقة أن عمر قشرة الارض لايقل عن بليونين من السنين . ومن هنا نرى أن البحث عن عمر أية ناحية من نواحي الكون ينتهي الى جواب تقريبي واحد : هو بضعة بلايين من السنين قدما .

وقد رفض العلم الحديث « فرضية الكون الثابت غير المتغير » ، ويعتقد اليوم جازما أن الكون لم يكن فكان ، وأخذ يتطور تحت نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منـــذ بضعة بلايين من السنين ، وأن الكون كان في الماضي السحيق أقل تعقدا مما هو الآن . كما يعترف العلم أن صورة مجموع الفضاء الكوني وما يأهل به من بلايين ( المجرات ) هو في حالة انتشار سريع وأن كل أعضائه يبتعد بعضها عن بعض بسرعة مرهقة . « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » (٢) .

كما أن العلم الحديث يقدر أنه : عند بلوغ سنة ... ... ... ٤٧ بعد الميلاد سوف تتلقى شمسنا وثيقة إعدامها .

ومن الامور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك أن مادة الكون الصلدة آخذة في الانحلال والتلاشي أثناء تحولها الى اشعاع . وأن وزن الشمس يقل كل يوم ٣٦٠ ألف مليون طن . اي ان هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي

---

(١) سورة الذرايات : ٤٧ .

تشع كل ما تشعه يوميا . وهذه الاشعة التي تنطلق منها تسير في الكون ، وستظل سائرة فيه الى نهاية الدنيا . وتحول المادة الى أشعاع عمل جارٍ الآن في كل النجوم . وان الارض تخسر من وزنها يوميا بالاشعاع تسعين رطلا !

والله تعالى يقول : « أولم يَروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لامعقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب » . (سورة الرعد : ٤٢). وفي آية أخرى : « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها ، افهم الغالبون ؟ » . ( سورة الانبياء : ٤٦ ) . فتشير الآيتان الكريمتان أن الارض منذ أن خلقها الله تتناقص من أطرافها وهي ظاهرة كونية لم يلتفت اليها العلماء الا في السنوات الاخيرة اذ أثبتت الابحاث العلمية عن شكل الارض : أن قطرها الواصل بين القطبين يتناقص بكمية ضئيلة جدا ، الا أن عملية التناقص هذه مستمرة مذ أن خلق الله الارض ، حتى أن شكلها تطور بمرور الزمن من الشكل الكروي الى الشكل البيضاوي تطورا مستمرا لا انقطاع فيه .

وقد علم أنه ليس لهذا التحول الذي ذكرناه ما يقابله من تحول الاشعاع الى مادة حسب قواعد الفيزياء . أي ليس ما تفقده الارض والشمس والنجوم في ناحيـــة من نواحي الكون يعوض في ناحيـــة أخرى : بتحول الإشعاع ( الطاقة ) الى مادة . أي ليست القضية كتحول المياه الى بخار ثم تحول البخار الى مياه وهكذا دواليك . ذلك لان المادة حين الاشعاع تتحول من قوة ذات موجة قصيرة الى قوة أخرى ذات موجة أطول منها . ويتعذر تحول قوة ذات موجة أطول الى قوة ذات موجة قصيرة حسب قواعد الفيزياء . وان هذا الإنحطاط ــ أو التحول ــ في القوة لا يمكن أن يمضي كذلك الى الابد ، اذ لابد أن يجيء وقت تتحول فيه آخر وحدة من القوة الصالحة للعمل الى قوة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون ! ويخبرنا الله

تعالى عن ذلك بقوله : « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت » [١] . وبقوله : «اذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت» [٢] .

ويعترف العلم الحديث ان الطاقات ( الإشعاعات ) التي حدثت نتيجة تحول المادة ( كل ما في الكون ) الى طاقات لا يمكن أن ترجع الى مادة من جديد الا بقوة خارجة عن الكون . ذلك لان الكون ، حسب قواعد علم الفيزياء ، خاسر يوما ما كل القوة الصالحة للاستعمال التي كانت فيه والكون الذي لاتوجد فيه قوة صالحة للاستعمال ، كون ميت . فنهاية الكون تحين متى انحل كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء اشعاعا قويا قصير الامواج . ولابدّ من قوة خارجية هي : ارادة الله تعالى لارجاع هذه الطاقات الى عوالم أخرى من جنّات عدن « عرضها السماوات والارض » وغيرها من عوالم لايعلمها الا الله «يوم تبدلّ الارض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » . ( سورة ابراهيم ( ع ) : ٤٨ ) . ويقول الله تعالى في سورة التكوير « واذا السماء كشطت » : أي أزيلت .

فكل شيء آئل الى زوال وفناء ، حتى يبدأ بعد ذلك باذن الله وإرادته عالم من جديد : «كل مَن عليهافانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» .

* * *

إن الله تعالى يقول : « فارتقب يومَ تأتي السماء بدخان مبين » [٣] ، وفي هذه الآية اشارة الى يوم القيامة ،وتخبرنا بعلامة من علاماتها . فالمعروف علميا أن كل نجم أو شمس كشمسنا لابد وان تطرأ عليه حالة يتمدد فيها سطحه قبل ان يصل الى حالة الاستقرار . وشمسنا بالذات لم تمرّ بعد بهذا الدور وهي لاتزال في مقتبل عمرها . وعندما تتمدد يصل لهبها وغازات جوها

---

(١) سورة الانفطار : ١ — ٣ .

(٢) سورة الانشقا : ١ — ٢ .

(١) سورة الدخان : ١٠ .

المستعرة الى الارض حسب قوله تعالى : « وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟ ، كلا لا وزرَ ، الى ربك يومئذ المستقر » [٢] . « فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير » [٣] .

إن الله يصف حالة هؤلاء الكافرين بعد أن ادخلوا نار جهنم ، يصفهم بقوله : « وهم يصطرخون فيها : ربّنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل » [٤] ، فيجيبهم الله تعالى بقوله : « أوَلم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكّر وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير » . نستجير بالله من سوء العاقبة ! من « لظي ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » [٥] : جمع الاموال ، فلم ينفقها في سبيل الله .

* * *

إن الله يصف حالة الارض بعد أن يبلغ أهلها ذروة الطيش والغرور وكيف أنها تكون هباءً منثورا في طرفة عين بقوله جل من قائل : « حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ؛ اتاها امرنا ليلاً أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون ! » [٦] .

العلم الحديث يخبرنا بالمارد الذري السابح في الفضاء وهو ( البروتون: P roten ) السالب الذي اذا اصطدم بشيء من الاشياء أرجعه في طرفة عين

---

(٢) سورة القيامة : ٩ — ١١ .
(٣) سورة المدثر : ٩ — ١٠ .
(٤) سورة فاطر : ٣٧ .
(٥) سورة المعارج .
(٦) سورة يونس : ٢ .

الى اشعاعات وطاقات ! بل جعله نسيا منسيا . وقالوا : إن هذا المارد يفنى ما يصطدم به من مادة ، فيتحقق « افناء المادة » (٢) بهذا الاصطدام ، فلا يبقي شيء .

ثم ان الله تعالى بقوله في الآية المتقدمة : « أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا » . يشير الى حركة الارض حول نفسها ، وذلك : لان الليل والنهار يكونان على الكرة الارضية في وقت واحد . والله تعالى لايتردد في علمه ولا يتردد في وقت يريد فيه إفناء الارض : هل يكون ذلك ليلا أم نهارا ؟ وهو خالق كل شيء والعالم بما سيكون . فيشير قوله تعالى : « ليلا أو نهارا » الى أن قسما من الارض يتلقى أمر الإفناء من جانب الله تعالى ، ليلا ، والقسم الآخر في نفس اللحظة ، يتلقى هذا الامر : نهارا . وهذا لايتم الا بحركة الأرض حول نفسها وحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران ! . .

* * *

إن الله تعالى يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » . ( سورة الحج : ٣ ) .

وقال تعالى : « واذا البحار سجّرت » ، وقد ثبت أنه عندما تنطلق ذرة الإيدروجين المتحدة مع الاوكسجين نتيجة للانفجار الذري يجعل كافة البحار نارا في أقل من لمح البصر .

واذا انضمت ذرتان من ذرات الايدروجين تنتج عنهما ( الهليوم ) وتنتج عن ذلك أتون مشتعل يشمل الكون وما فيه ، فتصبح السماء نارا : « فاذا انشقّت السماء ، فكانت وردة كالدهان » (١) .

---

(2) Annihilatan dela Matiere .

(١) سورة الرحمان : ٣٧ . أي ان السماء صارت حمراء مذابة كالدهن .

يقول الله تبارك وتعالى : «وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » . وقد اخبرنا الفلكيون أن نجمة ( سيريوس ) التي تشاهد كل ليلة باستخدام التلسكوب قد استحالت في طرفة عين أو أقل الى نجمة صغيرة جدا ، مظلمة ، وان نواة ذراتها قد اندكّت بعضها ببعض .

وهكذا سيكون مصير منظومتنا الشمسية ويتحقق كل ما أخبرنا الله تعالى في كتابه الذي « لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٢) . يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » (٣) .

* * *

وهكذا يخبرنا الله تعالى في سورة الزمر : ٦٧ ) :

« وما قدروا الله حق قدره ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » . ومعنى ذلك : أنه اذا كان يوم القيامة تكون الارض جميعا مقبوض عليها في يده تعالى (أي تكون تحت قدرته وطوع إرادته ) . ذلك : لان الله ليس بجسم حتى تكون له يد ، وتكون السماوات على أبعادها غير المتناهية مطويات بيمينه ، فسبحانه أي فتنزيها له عما يشركون . وهذا يدل أن هناك تبديلا هائلا في الكون عند حلول يوم القيامة ، يخبر عنه ربُّنا جلّ جلاله في آيات عدة ، كي تتزوّد بالتقوى ، وتتهيأ في دنيانا هذه لـ « جنة عرضها السماوات والارض اعدّت للمتقين » .

إن الله تبارك وتعالى يبيّن لنا أيضا بوضوح ما سيقع في الارض أولا ثم ما سيقع ثانيا حين تتبدل هذه الارض بأرض أخرى وكذا السماء بسماء

---

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

(٣) سورة الانبياء : ١٠٤ .

أخرى أيضا وذلك بقوله تعالى في ( سورة زمر : ٦٨ ) • « ونفخ في الصور ، فصعق مَن في السماوات ومَن في الارض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فاذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ، ووُفّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » [١] • ومعنى ذلك : أن ( إسرافيل ) ينفخ في بوق يوم القيامة ، فيموت كل حيّ ، ثم ينفخ مرة أخرى ، فيقومون للبعث • وان النفخ في البوق لايشبه ما نفهمه نحن اليوم من كلمتي النفخ والبوق ، وانما علم ذلك عند الله • وهذا إيذان بمجيء يوم القيامة ثم إيذان بالبعث • ( ومعنى صعق : أي خرّ ميتا او مغشيا عليه ) •

* * *

فلا سبيل لهذا الانسان اذا أراد تصحيح معتقداته إلا التمسك بالعمل الصالح [٢] وبر الوالدين [٣] وصلة الرحم [٤] وصدقات، وإحسان وقضاء حوائج الناس [٥]

---

(١) سورة الزمر : ٦٨ — ٧٠ .

(٢) قال رسول الله ( ص ) : « أن على كل مسلم في كل يوم صدقة ، قالوا ومن يطيق هذا ؟ قال ( ص ) : اماطتك الاذى عن الطريق صدقة ، وارشادك الطريق صدقة ، وعيادتك المريض صدقة ، واتباعك الجنازة صدقة ، وامرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وردك السلام صدقة » . ( الاذى في الطريق كالشوك والحجارة ) .

(٣) وعن النبي (ص) : « وأبويك فبرهما واطعمهما حيين وميتين ، فان امراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل ، فان ذلك من الايمان » .

(٤) في الحديث : « صلة الارحام تطيل الاعمار وتعمر الديار وان كانوا كفارا » . وفي خبر : « اتقوا الحالقة ، فانها تميت الرجال ، قيل وما الحالقة يا ابن رسول الله ؟ قال : قطيعة الرحم » . وفي حديث آخر : « لاصدقة وذو رحم محتاج » . وفي حديث آخر : « ان الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها ولا يجد ريحها عاق أو قاطع رحم » .

(٥) عن أبي عبد الله عليه السلام : « لقضاء حاجة امريء مؤمن احب الى

والتفاني ( إن أمكن ) في هذا المضمار . وتطهير المأكل والمشرب مما حرم الله ، وارجاع حقوق الناس اليهم ، وتجنب الحسد والبخل والكبر وهي أصول الكفر كما جاء في الحديث . وتجنب الغيبة (٤) والنميمة والخداع والكذب وكل ما يلوث هذه النفس من خمر وميسر ( قمار ) وفسق وفجور وغمط حقوق الناس واعتباره مكسبا . والقيام بصلاة (٥) فيها خشوع وخضوع ، « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » (٦) . وصوم لوجه الله ( لا ارضاء للوالدين أو حياءاً من الناس ) وحج أداءً للواجب الديني (٧) وأداء خمس الارباح (٨) وأداء الزكاة الواجبة (٩) والزكاة الباطنة « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (١٠) ، والقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١١) ، الى ما هنالك من واجبات ومستحبات أخرى ، كي يرى كيف تذهب عنه الشكوك رويدا رويدا وتنقشع عن نفسه الشبهات

---

الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة الف » .

(٤) قال رسول الله (ص) : اجتنبوا الغيبة ، فانها ادام كلاب النهار . وقد سئل النبي (ص) : ماكفارة الاغتياب ؟ فقال : «تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته» .

(٥) عن النبي (ص) : «من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ملة الاسلام» .

(٦) سورة المؤمنون : ١ — ٢ .

(٧) عن النبي ( ص ) : من وجد الى الحج سبيلا ، فلم يحج ، فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا .

(٨) عن النبي (ص) : ان مانع الخمس يحشر مع الظالمين لال محمد حقهم .

(٩) عن النبي ( ص ) : من ضيع قيراطا من الزكاة فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا .

(١٠) سورة الذاريات : ١٩ .

(١١) قال رسول الله (ص) : ان الله ليبغض المؤمن الضعيف ، قيل يارسول الله ، من المؤمن الضعيف ؟ . قال : الذي لايأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر . وفي حديث آخر : « ويل لقوم لايدينون بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

شيئا فشيئا ، بل يدخل في عوالم القدس ، حيث اليقين والطمأنينة ، « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » [٣] ، فيكون اذ ذاك مصداق هذه الآية المباركة : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي [٤] .

وهذا غاية التكامل لهذا الانسان .

* * *

ولكن اذا تمادى الشخص في طيشه واجرامه ومكره وظلمه [٥] ونكرانه ما عليه من حقوق الناس وواجب الشكر تجاه خالقه ، وارتدى رداء الكبرياء وثابر على فسوقه وفجوره ، كان من المبطلين الذين خسروا أنفسهم على حد قوله تعالى : حيث يقول : « يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية [٦] ، كل أمة تدعى الى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز المبين ، واما الذين كفروا ، أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ، واستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ، واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ، قلتم ما ندري ما الساعة ، إن نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار

(٣) سورة الرعد : ٢٨ .

(٤) سورة الفجر : ٢٨ — ٣٠ .

(٥) قال رسول الله (ص) : « اجتنبوا دعوة المظلوم ولو كان كافرا . فانه ليس دونها حجاب » وفي حديث آخر : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم ، فقد خرج من الاسلام » وفي حديث آخر أيضا « من اعان ظالما ليدحض بباطله حقا فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله » . وفي حديث آخر : « من ارضى سلطانا بما اسخط الله خرج من دين الاسلام » .

(٦) سورة الجاثية : ٢٦ — ٣٣ : ( جاثية : باركة على ركبها ) .

وما لكم من ناصرين » [1] .

* * *

نسأل الله تعالى تطهير نفوسنا وتكفير ذنوبنا ، لنخرج من الظلمات الى النور باذنه ، فتتذكر يوم المعاد : « يومَ يقوم الناس لرب العالمين » عند كل عمل نقوم به ، فلا يصدر منا الا ما يُرضي الله تعالى ، كي نذهب من هذه الدنيا ، طاهرين ، مطهَّرين ، زكيين ، نقيين ؛ الى رَوح وريَحان وخلود في جنان ؛ دونما قلق واضطراب وذلك هو الفوز المبين .

« استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير [2] » [3] .

---

(١) لابأس بذكر هذين الحديثين عن رسول الله (ص) : لاهميتهما ، لاسيما فى مثل هذه الظروف . فان عاقبةالانسان منوطة بعمله ودرجة تطهير نفسه . قال رسول الله (ص) : «منزوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم الف لعنة ولا يصعد له عمل الى السماء ولا يستجاب له دعاء ولا يقبل منه صرف ولا عدل » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اي امراة رضيت بتزويج فاسق فهي منافقة وجلست فى النار . واذا ماتت فتح فى قبرها سبعون بابا من العذاب . وان قالت : لا اله الا الله ، لعنها كل ملك بين السماء والارض وغضب الله عليها فى الدنيا والآخرة وكتب الله عليها فى كل يوم وليلة سبعين خطيئة » .

(٢) نكير : اي ما تستطيعون من انكار لما اقترفتموه من الذنوب .

(٣) سورة الشورى : ٤٧ .

# من آثار الايمان باليوم الآخر

للايمان باليوم الآخر آثار ثمينة جدا • منها :

(١) أن الانسان يراقب نفسه في كل عمل يقوم به خوفا من العقاب الأخروي ، فلا يتصدى الى ما حرم الله من ظلم وفسق وإجحاف بحقوق الآخرين • وان أغواه الشيطان يوما ، فهو يتوب حالا ويعالج بصورة فعلية وعملية ما كان منه من اجحاف بحقوق الغير أو جرح الخواطر الى ما هنالك •

(٢) إنه يرى أن الحياة ليست بالشيء الذي ينقطع مع الموت ، بل هي خالدة مستمرة الى مابعد الموت بصورة دائمة ، وأن « الدنيا مزرعة الآخرة» ، كما جاء في الحديث ، فيقوم في هذه الدنيا بأعمال صالحات وما يقربه الى الله من عبادات كي يجني ثمرها الجني في الحياة الآخرة ، ان هذه العقيدة نفسها خير مؤدّب للفرد وعامل قوي لايجاد حياة اجتماعية سعيدة يعلوها الهدوء والاطمئنان • فمن تجرد عن عقيدة المعاد لا يردعه شيء عن ارتكاب ما تهواه نفسه الطائشة إلا هذه القوانين الوضعية • وان هذه القوانين البشرية ! لا أثر لها في تعديل الاخلاق الشخصية الفردية والاخلاق العائلية والاجتماعية ، لأنها أبعد من أن تستوعب كل ذلك • فالعقيدة بالمعاد خير حافز لإصلاح النفس الانسانية وقطعها مراحل الكمال الانساني •

(٣) إن المعتقد بالمعاد يقوم بما أوجب عليه الاسلام بالنسبة الى الوالدين والارحام والاصدقاء وبقية المؤمنين من برّ واحسان وخدمات اجتماعية « من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » وهذا مما يؤدي الى تساند اجتماعي وتكوين مجتمع متكافل هو مصداق هذا الحديث : « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو واحد

تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى » .

* * *

وقد قال بعضهم : إن الاعتقاد بالآخرة يعوق الفرد عن السير في أمور الدنيا قدما بجدّ ونشاط . ولكنا نرى أن المسلمين الاوائل قد قاموا بأعمال جبارة في حقول شتى من تجارية وصناعية وزراعية وعمرانية وان أكثر من ربع المعمورة كانت للمسلمين ، وما كان ليُعيقهم الاعتقاد بالآخرة للعمل في عمارة الدنيا بشكل لا يؤدي الى فساد في الارض وتسافل النفوس ونسيان الآخرة . فقد قال رسول الله لأصحابه : « إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان : اتباع الهوى وطول الامل . فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق واما طول الامل فيُنسي الآخرة » ..

على أن الانسان بطبيعته ميال الى الدنيا ، يحرص على عمرانها والتزود منها كلما وجد الى ذلك سبيلا . لذلك يحث الدين الاسلامي الانسان على التفكير في حياة أخروية خالدة والتهيؤ لها كي لا تميل النفس الى المادة فحسب ، فتتسافل . وفي الخبر : « تذكروا هادمَ اللذات » .

وان للاعتقاد بالمعاد أثرا بالغا في تهدئة النفوس اذا ما حُرموا ( لحكمةٍ ما ) من بعض زخارف الدنيا أو أصيبوا ببعض النكبات . فالله تبارك وتعالى سوف يعوّضهم عن ذلك جزاءً موفورا في نعيم خالد لا يُقاس بنعيم الدنيا بحال . يقدر ذلك علماء النفس .

وصفوةُ القول : إن الاعتقاد بالمعاد خير رقيب لهذا الانسان يصده عما يؤدي الى فساد أو إفساد . ويحثه على ما هو خير وصلاح . فتكون الحياة الإجتماعية قد بلغت شأوا قاصيا من تحابب وتوادٍ وتراحم ... « انما المؤمنون أخوة » .

فما على المسلمين في أرجاء البسيطة إلا أن يقوموا بتطبيق تعاليم الاسلام

لتحقيق حياة اجتماعية سعيدة على وجه الارض وجعل الاسلام دينا عالميا خالدا كما تنبأ بذلك كثير من العلماء .

* * *

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد » [1] .

* * *

« إنتهى الجزء الثالث ، والحمد لله ، وسيليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى » .

---

(١) سورة آل عمران : ٨ . « الزيغ : العدول عن الحق » .

# جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

مع العلم أن كل ما عرفناه من مواد يتكون من واحد أو أكثر من العناصر الآتية :

| العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط | العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط |
|---|---|---|---|---|---|
| أيدروجين | ١ | ١ر٠٠٨ | زرنيخ | ٣٣ | ٧٤ر٩٦ |
| ليثيوم | ٣ | ٦ر٩٤٠ | هيليوم | ٢ | ٤ر٠٠ |
| بورون | ٥ | ١٠ر٨٢ | بيريليوم | ٤ | ٩ر٠٢ |
| نيتروجين | ٧ | ١٤ر٠٠٨ | كربون | ٦ | ١٢ر٠١ |
| فلور | ٩ | ١٩ر٠٠ | أوكسجين | ٨ | ١٦ر٠٠٠ |
| صوديوم | ١١ | ٢٢ر٩٩٧ | نيون | ١٠ | ٢٠ر١٨ |
| ألومنيوم | ١٣ | ٢٦ر٩٧ | ماغنيسيوم | ١٢ | ٣٤ر٣٢ |
| فوسفور | ١٥ | ٣٠ر٩٨ | سليكون | ١٤ | ٢٨ر٠٦ |
| كلور | ١٧ | ٣٥ر٤٥٧ | كبريت | ١٦ | ٣٢ر٠٦٤ |
| پوتاسيوم | ١٠ | ٣٩ر٠٩٦ | أرجون | ١٨ | ٣٩ر٩١ |
| سكانديوم | ٢١ | ٤٥ر١٠ | كالسيوم | ٢٠ | ٤٠ر٠٧ |
| فاناديوم | ٣٢ | ٥٠ر٩٦ | تيتانيوم | ٢٢ | ٤٧ر٩٠ |
| منجنيز | ٢٥ | ٥٤ر٠٣ | كروم | ٢٤ | ٥٢ر٠١ |
| كوبلت | ٢٧ | ٥٨ر٩٤ | حديد | ٢٦ | ٥٥ر٨٤ |
| نحاس | ٢٩ | ٣٦ر٥٧ | نيكل | ٢٨ | ٦٨ر٦٩ |
| جاليوم | ٣١ | ٦٩ر٧٢ | خارصين | ٣٠ | ٦٥ر٣٨ |

| العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط | العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط |
|---|---|---|---|---|---|
| جرمانيوم | ٣٢ | ٧٢٫٦٠ | لوتيسيوم | ٧١ | ١٧٥٫٠ |
| سيلينيوم | ٣٤ | ٧٨٫٩٦ | تانتالوم | ٧٣ | ١٨٠٫٨٨ |
| بروم | ٣٥ | ٧٩٫٩١٦ | رينيوم | ٧٥ | ١٨٦٫٣١ |
| روبيديوم | ٣٧ | ٨٥٫٤٤ | كربيتون | ٣٦ | ٨٣٫٨ |
| بتريوم | ٣٩ | ٨٨٫٩٢ | سترنشيوم | ٣٨ | ٨٧٫٦٣ |
| نيوبيوم | ٤١ | ٩٢٫٩١ | زركونيوم | ٤٠ | ٩١٫٢٢٠ |
| تكنيتيوم | ٤٣ | ٩٩٫٠٠ | مولبدنوم | ٤٢ | ٩٥٫٩٥ |
| روديوم | ٤٥ | ١٠١٫٩١ | روتينيوم | ٤٤ | ١٠١٫٧ |
| فضة | ٤٧ | ١٠٧٫٨٨٠ | بلاديوم | ٤٦ | ١٠٦٫٧ |
| إنديوم | ٤٩ | ١١٤٫٨ | كدميوم | ٤٨ | ١١٢٫٤١ |
| أنتيمون | ٥١ | ١٢١٫٧٧ | قصدير | ٥٠ | ١١٨٫٧٠ |
| يود | ٥٣ | ١٢٦٫٩٣ | تلوريوم | ٥٢ | ١٢٧٫٥٩ |
| سيزيوم | ٥٥ | ١٣٢٫٩١ | زينون | ٥٤ | ١٣١٫٣ |
| لانتانوم | ٥٧ | ١٣٨٫٩٠ | باريوم | ٥٦ | ١٣٧٫٣٧ |
| براسيوديميوم | ٥٩ | ١٤٠٫٩٢ | سيريوم | ٥٨ | ١٤٠٫٢٥ |
| أليزيوم | ٦١ | ١٤٦٫٠ | نيوديميوم | ٦٠ | ١٤٤٫٢٧ |
| أوربيوم | ٦٣ | ١٥٢٫٠ | سماريوم | ٦٢ | ١٥٠٫٤٣ |
| تيربيوم | ٦٥ | ١٥٩٫٢ | جادولينيوم | ٦٤ | ١٥٧٫٢٦ |
| هولميوم | ٦٧ | ١٦٤٫٩٤ | ديسبروزيوم | ٦٦ | ١٦٢٫٥٢ |
| ثوليوم | ٦٩ | ١٦٩٫٤ | أربيوم | ٦٨ | ١٦٧٫٧ |

| العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط | العنصر | العدد الذري | الوزن الذري المتوسط |
|---|---|---|---|---|---|
| يتربيوم | ٧٠ | ١٧٣٫٦ | أينشتيوم | ٩٩ | ٢٥٣٫٠٠ |
| هفنيوم | ٧٢ | ١٧٨٫٦ | مندلفيوم | ١٠١ | ٢٥٦٫٠٠ |
| تنجستون | ٧٤ | ١٨٣٫٩٢ | بلاتين | ٧٨ | ١٩٥٫٢٣ |
| أوزميوم | ٧٦ | ١٩٠٫٢ | زئبق | ٨٠ | ٢٠٠٫٦١ |
| إيريديوم | ٧٧ | ١٩٣٫١ | رصاص | ٨٢ | ٢٠٧٫٢١ |
| ذهب | ٧٩ | ١٩٧٫٢ | بولونيوم | ٨٤ | ٢١٠٫٠٠ |
| ثاليوم | ٨١ | ٢٠٤٫٣٩ | رادون | ٨٦ | ٢٢٢٫٠٠ |
| بزموت | ٨٣ | ٢٠٩٫٠٠ | راديوم | ٨٨ | ٢٢٦٫٠٥ |
| استاتين | ٨٥ | ٢١٨٫٠٠ | ثوريوم | ٩٠ | ٢٢٣٫١٢ |
| فرانسيوم | ٨٧ | ٢٢٣٫٠٠ | يورانيوم | ٩٢ | ٢٣٨٫٠٧ |
| اكتينيوم | ٨٩ | ٢٢٧٫٠٠ | بلوتونيوم | ٩٤ | ٢٣٩٫٠٠ |
| بروتاكتينيوم | ٩١ | ٢٣١٫٠٠ | كيوريوم | ٩٦ | ٢٤٢٫٠٠ |
| نيبتونيوم | ٩٣ | ٢٣٧٫٠٠ | كالفرنيوم | ٩٨ | ٢٤٤٫٠٠ |
| أمرسيوم | ٩٥ | ٢٤١٫٠٠ | فرميوم | ١٠٠ | ٢٥٤٫٠٠ |
| بركليوم | ٩٧ | ٢٤٣٫٠٠ | نوبليوم | ١٠٢ | ٢٥٧٫٠٠ |

| الصفحة | الموضوع |
| --- | --- |
| ٣ | المقدمة |
| ١٠ | العلم والإيمان |
| ٦٥ | والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون |
| ٧٤ | فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون : ١ |
| ٧٨ | فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون : ٢ |
| ١١٣ | الروح |
| ١٣٠ | حرمة إحضار الارواح |
| ١٣٣ | ومن جملة ما لا تبصرون : الجن |
| ١٤٢ | السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني |
| ١٥٨ | فلسفة المعاد |
| ٢٢٥ | من آثار الإيمان باليوم الآخر |
| ٢٢٨ | جدول بأسماء العناصر المكتشفة لحد الآن |




تمت الطبعة الثالثة للجزء الثالث في سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م

Library of




Princeton University.

Princeton University Library
32101 073838375